دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية

وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة

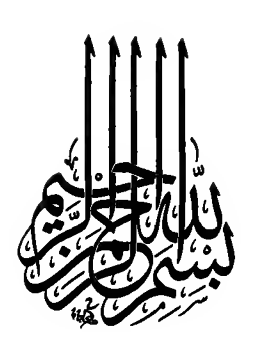
وموقف الخصوم منها

تأليف
صلاح الدين مقبول أحمد

طبعة مزيدة ومنقحة

الجزء الأول

دار ابن الأثير
الكويت



دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية

وأثرها على

الحركات الإسلامية المعاصرة

وموقف الخصوم منها

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
مجمع البحوث العلمية الإسلامية - نيودلهي - الهند
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الطبعة الثانية
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
مزيدة ومنقحة

دار ابن الأثير الكويت: الجهراء - قطعة ١ - شارع عمرو بن كلثوم
قرب مدرسة المعتصم - ص.ب: ٩٠٧ - هاتف وفاكس: ٤٥٧١٣١٢

الإهـــداء

* إلى الباحثين عن صوت الحق، في صراخ النعرات والهتافات.

* إلى الشباب المسلم الواعي الذي يرى في الالتزام بالكتاب والسنّة علاجاً للداء الذي نخر جسم الأمة، وهدّ كيانها.

* إلى قادة الحركات، وسادة الجماعات، وروّاد الفكر الإسلامي..

نقدّم هذه الدراسة رجاء أن يجدوا فيها ما يحدوهم على مزيد من التفكير في حال الأمة، ثمّ استبدالها بما هو أفضل لها في ضوء الكتاب والسنّة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: ١١]



المقـدمـات

* بين يدي الكتاب .
* التقديم بقلم العلاّمة
الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد .
* المقدمة ، بقلم الشيخ
عبد الحميد بن عبد الجبار الرحماني .
* التمهيد ، للمؤلف .



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـد:

فقد كان عقد «الندوة العالمية عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية وأعماله الخالدة» في رحاب الجامعة السلفية ببنارس عام (١٤٠٨هـ= ١٩٨٧م) فكرةً مباركة لإبراز معالم الدعوة إلى الله على منهج السلف الصالح، ودعوةً صريحة إلى المشاركين فيها للبحث عن المنحى السليم في تقييم الحركات الإسلامية التي تعمل في الساحة، وتبثّ أفكارها بين المسلمين في أنحاء العالم، وتدَّعي شحنها من تيّار دعوة شيخ الإسلام.

* * *

كنت آنذاك في الكويت، ووجّهت الدعوة إليّ أيضاً ــ ولا أظن أني كنت على مستواها ــ للمشاركة في هذه الندوة. فأعددت كلمة كانت قصيرة جداً، نظراً إلى الموضوع. ورغم وجودي في الهند، قدّر الله تعالى أني تأخرت عن الحضور فيها، لأجل حدوث الاضطرابات الطائفية في المنطقة فتألمت كثيراً.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١٦].

* * *

وكان الشعور بمرارة الغياب عن الندوة والاستفادة من برامجها ينتابني حيناً لآخر. وما ذلك في نظري إلا لأمرين:

أولاً: من حيث المكان، لأن الندوة انعقدت في رحاب «الجامعة السلفية» التي عشت سبع سنوات في فصولها طالباً، وقضيت بعد التخرج فيها أكثر من سنةٍ في مكتبتها مستفيداً، وفي مجلّتها كاتباً، حتى رحلت في طلب العلم إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة الطيبة (عام ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م).

ثانياً: من حيث الموضوع، لأن الندوة كانت في التعريف بشيخ الإسلام وأعماله الخالدة، وهو أحبّ الشخصيات إليّ، فيما بعد القرن السابع، في مجال الدعوة والتجديد، والتعليم والتربية، والإفتاء والإفادة، والتصنيف والتأليف، والبطولة والمغامرة، والجهاد والكفاح، والتفاني في سبيل الله تعالى.

فانطلاقاً من هذه المشاعر، لما رجعت إلى الكويت، عزمت ــ متوكّلاً على الله ــ أن أسدّد ما كان عليّ من الدين: دَين الموضوع ودَين المكان. فأعدتُ النظر في تلك الكلمة مثابراً متأنياً، حتى وجدتُها قد خرجت من طبيعة المقالة إلى حيّز الإطالة، وصارتْ نواةَ خيرٍ لهذا الكتاب الذي هو بين أيديكم الآن فالحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

* * *

وقبل أن تفكّرتُ في طبع هذا الكتاب ــ وكذلك كتبي كلها ــ أحببتُ أن يطّلع عليه من العلماء من أثق بدينهم وعلمهم وأمانتهم، لأستفيد من ملاحظاتهم الأمينة ونصائحهم الثمينة. فعرضتُه على من هو مِن أعزِّ شيوخِنَا عندي ــ وهو في طَيْبَة الطيّبة ــ فراجعه مع زحمة أعماله وكثرة أشغاله. فجزاه الله خير ما يجازي به عباده الصالحين.

* * *

وعندما اطمأننت إلى محتويات الكتاب، حاول بعض الإخوة طبعه في الكويت أو خارجها، ولكني استخرتُ الله تعالى فأجّلتُ طبعه بحثاً عن الوقت المناسب، لظروف خاصةٍ، حتى يحدث الله بعد ذلك أمراً. واشتغلتُ بأعمالٍ علمية أخرى ــ عسى الله أن يوفقني لإكمالها وطبعها ــ ، ونسيتُ هذا الكتاب.

* * *

وفي هذه الفترة من الزمن ــ (ليلة الخميس ١١ محرم ١٤١١هـ= ٢ أغسطس ١٩٩٠م) ــ غزا الوحش البعثي العراقي دولة الكويت المسلمة المسالمة في ظلام الليل الحالك على حين غفلة من أهلها، غزواً يندى له جبين الإنسانية، ويتقاصر دونه غزو التتار الوحشي لبغداد. فاضطررت أن أخرج منها، مع إخوة لي في الله، إلى المملكة العربية السعودية في طريقي إلى الهند.

في هذا الوقت العصيب تركت هناك كل شيء إلا الأعمال العلمية التي أنجزتُها في الكويت، فأخذتُها معي، لأنها كانت أعزّ عندي من نفسي ومالي ومكتبتي، ومنها هذا الكتاب الذي كان نسياً منسياً في حقيبة المسوّدات.

* * *

وبعدما قضيت ما يقارب شهرين في مختلف مدن المملكة، في زيارة إخواننا الطيّبين من أهل الكويت، كنت على أهبة السفر إلى الهند، حتى لقيتُ بمكة المكرمة فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن عبد الجبار الرحماني (الرئيس العام لمركز «أبو الكلام آزاد» للتوعية الإسلامية بنيو دلهي). وبعد اطلاع فضيلته على هذا الكتاب وافق على طبعه ـ مشكوراً ـ كما طبع لي كتابين من قبل. فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

* * *

يشتمل هذا الكتاب على مقدمة، وخمسة أبواب وخاتمة، على النحو التالي:

* **المقدمة** : في بيان المد والجزر في تأريخ الدعوة والتجديد.
* **الباب الأول** : خطوط عريضة لحياة شيخ الإسلام ودعوته المباركة.
* **الباب الثاني** : الحركات المؤيدة لدعوة شيخ الإسلام.
* **الباب الثالث** : الحركات المتراوحة بين التأييد والمعارضة.
* **الباب الرابع** : الاتجاهات المناهضة لدعوة شيخ الإسلام.
* **الباب الخامس**: شيخ الإسلام في نظر كبار العلماء قديماً وحديثاً.
* **خاتمة** : في بيان عقيدة أهل السنّة والجماعة.

كانت نيّتي من هذا التأليف توضيح معالم الكتاب والسنّة في مجالات مختلفة من الحياة الإنسانية، وتنوير الرأي الإسلامي العام الذي تخبط في

دياجير النعرات والشعارات والهتافات، وتقييم الحركات الإسلامية والجماعات الدينية التي تدعي استقاء أفكارها من دعوة شيخ الإسلام، التي تعتبر أقصر طريقٍ للوصول إلى منهج السلف الصالح في العقيدة والعمل، والسيرة والسلوك ــ ليعلم كم بين القول والتطبيق والواقع والخيال؟

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة هود: ٨٨].

* * *

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أشكر الله تعالى على ما أنعم به علينا من نعم كثيرة لا تعدّ ولا تحصى. ثم أشكر إخوتنا الطيّبين من أهل الكويت الذين وفّروا لي كل التسهيلات في كل المناسبات جزيل الشكر، ذاكراً لهم كريم الفضل أبداً.

ومما يجعلني أتألم، ولا يهنأ لي نوم ولا يهدأ لي بال، أن نخبة طيّبةً من الشباب، اجتمعت على الخير في رحاب الكويت، ثم تفرّقت في البلاد إثر العدوان العراقي عليها. وأن عديداً من زملائي من أهل الكويت لا أعلم مصيرهم حتى كتابة هذه السطور. ولا أقدر إلاّ أن أبثّ دعائي لهم من هذا المكان البعيد، وأسأل الله العلي العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يحفظهم ويرعاهم ويكلأهم ويتولاّهم، ويجمعنا على الحق في الدنيا، وبرحمته ومنّه وكرمه وفضله في جنات النعيم في الآخرة. وهو على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

وأخيراً ــ لا آخراً ــ أدعو الله العلي القدير أن يوفقني لاتباع الحق،

واجتناب الباطل، والدفاع عن منهج الكتاب والسنّة، والردّ على من يشوّه جماله متستّراً بالإسلام. وهو وليّ التوفيق.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

صلاح الدين مقبول أحمد

نيودلهي ٢٨/ ١٠/ ١٤١١هـ ـ ١٤/ ٥/ ١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـْـدِيم

بقلم: العلاّمة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد

الحمد لله ولي الصالحين، والصلاة والسلام على النبيّ الأمين عبده ورسوله محمد بن عبد الله المطلبي الهاشمي، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـا بـعـد:

فإن أبا العباس شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية النميري المولود سنة ٦٦١هـ والمتوفى سنة ٧٢٨هـ عن عمر يناهز ٦٧ عاماً ــ رحمه الله تعالى ــ شعّ على يديه نور الوحيين كعمود الصبح، يبدد الظّلْم ويشق الظّلَم، وينشر مقاصد الإسلام من استقامة الاعتقاد، وإصلاح الأخلاق، وتطهير العقول من الأوهام، وينكر على أهل الأهواء خروجهم على مقاصده بمزاعمهم الباطلة، فانكفأت ضده القوى الحاكمة الولائية، القضائية، والإدارية يستعديهم عليه نوابت أهل الأهواء، من أفراخ المتكلمة، ومرتزقة الطرق، والمتفقرة، ومتعصبة المذاهب المقلّدة، فأظهره الله عليهم، وحطم أهواءهم، واستقرّ في التأريخ من وراء ذلك ظواهر عجيبة:

الأولى: أن هذا العبد المستضعف المسكين، عاش في قلوب الأمة بَعْدُ، تتغذّى منه قلوب المؤمنين، وترتجف منه قلوب المخالفين، فقلّ أن

تطلع شمس يوم إلا وهو مذكور على لسانين: لسان صدق بالدعاء والثناء، ولسان بِدعيّ بالمخالفة والحط عليه، فينشر الله ذكره في طبقتهم على أيديهم. وهو على كلا الحالين مأجور ـ إن شاء الله ـ .

لكن لو سألتَ أعظم محبّيه، أو أغلظ مناوئيه في عصرنا عن أسماء الأعلام من الحكام والقضاة، والجلاوزة، أصحاب الصولة والدولة في عصره، لما عرف اسم واحد منهم إلا بعد استخراجه من بطون الدفاتر، وكتب التراجم.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، وإلا فإن الحال كما قال رئيس المجمع العلمي بدمشق الأستاذ/ محمد كرد علي في ترجمته لابن تيمية في كتابه «من كنوز الأجداد» من أنه لو سلمت دعوة الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ وتجديده من هذه المعارضات الآثمة لطبّق الإسلام الصحيح بنوره وصفائه وجهَ الأرض.

الثانية: أن جملة من آرائه التي كان يستتاب من أجلها وتصدر المحاضر بتكفيره بها، تبنّتها جُلّ محاكم الأحوال الشخصية في العالم الإسلامي، فالحق ينتصر ـ بإذن الله تعالى ـ ولو بعد حين.

الثالثة: يقول الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في «البدر الطالع» (١/ ٦٤): «أنا لا أعلم بعد ابن حزم مثله، وما أظنه سمح الزمان بين عصر الرجلين بمن شابههما أو يقاربهما».

وفيه (١/ ٦٨) أيضاً قال:

«واتفق أن قاضي الحنفية بدمشق، وهو شمس الدين ابن الجزري، انتصر لابن تيمية وكتب في حقه محضراً بالثناء عليه بالعلم والفهم، وكتب فيه

بخطه ثلاثة عشر سطراً من جملتها (أنه منذ ثلاثمائة سنة ما رأى الناس مثله) انتهى.

وأقول ــ على سبيل الجزم ــ : وأنه من بعد ابن تيمية حتى عصرنا هذا لم يأت من يَعْشُرُه، فضلاً عن أن يكون مثله في تفنن العلوم، والجهاد، والتجديد، وإنما هم أعلام بارزون، نفع الله بهم الإسلام والمسلمين، كل حسب اختصاصه، هذا مفسّر وذاك محدث، وآخر فقيه، وهكذا ــ رحمهم الله ورضي عنهم بمنّه وكرمه آمين ــ.

الرابعة: لم يحظ عالم في الإسلام بهذه الفترة بالترجمة والدراسة لآرائه، وتجديداته مثلما حظي هذا العالم الجِهْبِذ الفَذّ، فقد وقفتُ على ما يزيد عن مائتي عنوان حزت منها نحو خمسين ــ ولله الحمد ــ ، وما زالت الأبحاث، والدراسات، تترى من وقت لآخر من سائر أصقاع الدنيا.

وبين أيدينا اليوم هذا السفر النفيس:

«دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة وموقف الخصوم منها».

تأليف العالم الفاضل الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد، من علماء الهند، جرى فيه على عادته فيما يكتب ويعلّق، من التحقيق والتدقيق، والجامعية، والدفاع عن الإسلام والسنّة وأنصارها، وعنوانه دليل على موضوعه في أبوابه الخمسة، ومقدمته الفائقة، وخاتمته الحسنة. وقد رأيته فاق من تقدّمه بأمرين:

الأول منهما: إزاحة الستار عن مواقف الفرق الإسلامية المعاصرة المتناثرة من هذه الدعوة: دعوة السنّة والأثر، والعودة بالأمة إلى دينها (الإسلام) على منهاج النبوة لا غير.

وأبان ـ أثابه الله ـ عن الذين يتمسّحون بشيخ الإسلام ابن تيمية، ويجرون موازنة بينه وبين بعض من ينتمون إليه، وما وراء ذلك من تضليل على جادة السلف.

فيقف المسلم على حقيقة هذه الفرق (الجماعات) من هذا الكتاب بأمانة وإنصاف ليعرف الأمور على حقيقتها فيأخذ بالطريق الأقوم، بما كان عليه سلف الأمة وصدرها الأول ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة يوسف : ٧٩].

الثاني: التنبيه على مواطن الغلط على الأئمة وإن وقع فيه الكبار، فقد جلّى ـ بارك الله فيه وفي علمه ـ عن بيان وجه الحق في مسائل طالما غلط فيها جمعٌ من المتقدمين والمتأخرين، منها: مسألة خلود الجنة والنار، ونسبة القول بفناء النار إلى ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. فقد نفى المؤلف عزو هذه الدعوة المنسوبة إليهما بالتدليل من كلامهما بخلود النار. فجزاه الله خيراً.

وأزيد هنا إلى أنه طبع كتاب مستقل في إبطال هذه النسبة باسم: «كشف الأستار لإبطال ادعاء فناء النار، المنسوب لابن تيمية وابن القيم» تأليف الشيخ علي بن علي بن جابر اليماني.

حقق فيه مؤلفه ـ جزاه الله خيراً ـ أنه لا يوجد نص واحد عن شيخ الإسلام ابن تيمية يفيد اختيار القول ـ بفناء النار ـ بل كلامه صريح بأبديتها، ونقل عنه خمسة عشر نقلاً من كتبه مؤيدة ذلك.

وبه تبقى نسبة القول إلى ابن تيمية بفناء النار غلطاً عليه، كما صار الغلط عليه وعلى غيره من أهل العلم في عدد غير قليل من مسائل العلم. وقد تتبّعت ما تيّسر لي الوقوف عليه في رسالة باسم «كشف الأجلة عن الغلط على الأئمة».

الخامسة: وإذا كان من نعم الله تعالى أن الإسلام طبق عامة أنحاء الأرض، ومنها: «شبه القارة الهندية»، فإنه لما اعترى بعض الداخلين فيه ما اعتراهم من الأوهام، والأهواء ترى دعوة الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ تشق طريقها نحو «شبه القارة الهندية» على أيدي رجال ما سَاروا مسيراً إلا كانوا مع السنّة، يؤمنون بها، ويعملون بها، ويدعون إليها. وتكونت لهم جامعات، ومدارس، ومعاهد، ومنتديات، ومن أهم معاقل دعوة التوحيد، وقفو السنّة والأثر، ذلكم المركز العملاق القائم على صعيد العاصمة «نيودلهي» باسم: (مركز «أبو الكلام آزاد» للتوعية الإسلامية) بإدارة مديره الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن عبد الجبار الرحماني ـ رئيس مجمع البحوث العلمية الإسلامية ـ.

وكان من ثماره تبني طبع هذا الكتاب.

فهنيئاً لهم بهذه الجهود المباركة.

وهنيئاً لهم بانتساب فضيلة أخي الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد إلى هذا المجمع.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

الرياض ٢٢/ ٢/ ١٤١٢هـ

بكر أبو زيد

وكيل وزارة العدل

ورئيس مجمع الفقه الإسلامي بجدة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقـــدّمَة

بقلم: الشيخ عبد الحميد عبد الجبار الرحماني

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبـي بعده.. **وبعد:**

فقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية حجة من حجج الله، وآية من آياته، لم تشهد الأمة الإسلامية من بعده مثله.

وليـــس علـــى الله بمستنكــــر   أن يجمـع العـالـم فـي واحـد

ولكن أكثر أهل زمانه ومن جاء بعدهم لم يقدّروه حق قدره، ولم يعتنوا بدعوته حق العناية شأن معظم الدعاة والمجددين، إلا أن الظروف تتغيَّر والعقـول تتنـوَّر والأبعـاد تنطـوي فيتحصحـص الحـق وتتهيَّـأ الفـرص لنمـوّ دعوتهم ـ هكذا سجله التاريخ في دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً حيث نهضت الحركات الدعوية الإصلاحية قديماً وحديثاً، واستقت منها في مجال العقيدة والمنهج خاصة، وفي المجالات الأخرى عامّة فأحسنت بناها وسدَّدت خطاها. وكلّما ازداد أنصارها قوّة وشوكة ازداد مخالفوها هماً واضطراباً. وقد تأثرت بها خلال القرون الستّة الماضية الحركات الإسلامية في جل البلاد، وأصبحت شخصيته لأجل تمسُّكه بالكتاب والسنَّة في جميع المجالات عياراً توزن عليه أفكار العلماء الآخرين طوال هذه القرون.

* قال الإمام الشوكاني: «... حتى ذكره المترجمون لهم في

تراجمهم فيقولون: وكان من المائلين إلى ابن تيمية أو المائلين عنه»[1].

* * *

كان وما زال الصراع قائماً بين مؤيديه ومخالفيه، ويجد الباحث بين يديه من عهده إلى يومنا هذا في قارات العالم كلها كتباً ومؤلفات وبحوثاً ودراسات من كلا الجانبين ولا يخفى ذلك على من له إلمام بتأريخ هذا الإمام المصلح العبقري المجدّد.

والكتاب الذي نقدّمه إلى القراء اليوم تأريخ لدعوة هذا الإمام الجليل، ومحاولة جادة في الدفاع عنها، كما أنه دراسة واعية للحركات الإسلامية المعاصرة في ضوء منهجه مع إعطاء كل ذي حق حقّه بدون ظلم أو جور.

تناول الأخ المؤلف أهمية هذه الدعوة وأبعادها ومدى فعالياتها في الأوساط الإسلامية، واستفادة الحركات الإصلاحية منها، كما كشف عن زيف الاتجاهات المناهضة لها عبر العصور.

والكتاب جدير بالعناية حيث ارتفع مؤلفه في المناقشة مع الحركات المعاصرة والمتقادمة عن الحمية الجاهلية والعصبية المذهبية.

ومن هنا أملنا كبير في أن يؤدي هذا الكتاب واجباً كانت أحماله تثقل كواهل المنتسبين إلى الدعوة السلفية في العالم.

* * *

إني لا أرى أن ألاحظ على المؤلف شيئاً ولكني نزولاً إلى طلبه وإلحاحه أقدم بعض النكات الضرورية إيضاحاً لما أودعه في كتابه من أثر دعوة الإسلام في شبه القارة الهندية.

---

(١) طلب العلم للشوكاني ص ١٤.

والحقيقة أن تأريخ هذا الإمام لم يدرس من حيث تأثر مسلمي الهند بحركته الإصلاحية ودعوته التجديدية، والذين تناولوا هذا الجانب مروا عليه مرور الكرام، وإني جد شاكر للمؤلف على اهتمامه بهذه الناحية، وأضيف هنا بعض الأمور المهمة التي فاتته ولا يستغني عنها دارس التأريخ الإسلامي والباحث في الحركات الإصلاحية في العالم.

* * *

من الغرائب أن صفي الدين الهندي (المولود في سنة ٦٤٤هـ في مدينة دهلي) غادر الهند في عنفوان شبابه سنة ٦٧٧هـ إلى دمشق مروراً بالبلاد الإسلامية المختلفة، وتوطن هناك سنة ٦٨٥هـ[١].

وحظي هذا الهندي بالقبول لدى الجهمية والصوفية والمخرفين من أهل الأهواء. وكان رئيس المناظرين في مجلس المناظرة الذي انعقد في ١٢ رجب ٧٠٥هـ في دمشق في موضوع العقيدة مع شيخ الإسلام ابن تيمية، وانبهر أمام أنوار الوحي من الكتاب والسنّة التي كانت تشع من تقريرات شيخ الإسلام وانهزم لأن صدره كان مليئاً بعلم الكلام المذموم وعلم المنطق اللذين استأصلهما شيخ الإسلام من شأفتيهما. حتى اعترف الهندي بنفسه بذلك عند بعض السائلين عن شيخ الإسلام وقال ما معناه: «لا تتكلموا في هذا الرجل لأنه لا يرى تأويل الصفات وأنتم ترونه، ونقل عن الإمام الأشعري كلا القولين ولكني أرجّح ترك التأويل»[٢].

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (ترجمة الصفي).

(٢) حياة ابن تيمية للأستاذ محمد يوسف كوكن ص ٢١٧.

هذا الذي كان من الهند ورحل إلى دمشق فقام في صف أعداء شيخ الإسلام ودعوته الحقة.

* * *

وعلى العكس من هذا، ورد عديد من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إلى الهند وزاروا مليكها القوي الشجاع محمد تغلق وأقنعوه بالقضاء على خزعبلات المتصوفة وعبادة القبور، وحثوه على الاهتمام بإقامة الصلوات الخمس وإحياء ما اندرس من معالم الإسلام، ورغبوه في اختيار منهج شيخ الإسلام في العقائد والعبادات والآداب والمعاملات.

وقد أجمع المؤرخون على اختلاف آرائهم حول شيخ الإسلام على قدوم بعض تلامذته من الشام ومصر إلى الهند وتأثيرهم في الملك محمد تغلق وإسهامهم في القضاء على العادات والتقاليد والبدع والخرافات. وعلى رأس هؤلاء التلامذة:

* **العلامة عبد العزيز الأرد بيلي**: قد صرّح بوروده إلى الهند وتأثيره في الملك محمد تغلق المذكور عدد من المؤرخين، منهم: أكبر شاه النجيب آبادي في «مرآة الحقائق» (آئينة حقيقت نما)، والشيخ محمد إكرام في «ماء الكوثر» (آب كوثر)، والأستاذ مسعود الندوي في «تأريخ الدعوة الإسلامية في الهند». والدكتور محمد إسماعيل الندوي في «تأريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية» وغيرهم في مؤلفاتهم.

* **والشيخ عليم الدين** (حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني): ذكره الشيخ محمد إكرام والنجيب آبادي وصرّح بأنه: «من تلامذة ابن تيمية، وكان

من أبرز من دعا محمد تغلق إلى إزالة البدع والمنكرات وشجّعه على استيصال الأوهام والخرافات»[1].

* **والعلامة شمس الدين ابن الحريري**: قال النجيب آبادي: كان حنفي المذهب، وكان قاضياً في مصر إلا أنه قد عزل عن القضاء لأجل تأييده الإمام ابن تيمية، وجاء إلى الهند سنة ٧٠٨هـ في عهد السلطان علاء الدين الخلجي، وجاء معه بأربعمائة كتاب في الحديث، ولعل هذه الخزانة الحديثية التي وصلت إلى الهند أجدر بالذكر والتنويه من غيرها»[2].

وكان الشيخ شمس الدين يقول: «إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟ وقال بعض أصحابه: أتحبّ الشيخ تقي الدين؟ قال: نعم! والله لقد أحببت شيئاً مليحاً»[3].

* * *

لقد أشاد هؤلاء المؤرخون وغيرهم من كبار العلماء مع بعض تعصباتهم وتصوفهم أمثال السيد سليمان الندوي، والأستاذ خليق أحمد النظامي بجهود تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عصر الملك محمد تغلق وتأثر الملك بهم في حكم العباد وسياسة البلاد.

وإن تعجب فعجب من الشيخ أبي الحسن علي الندوي الكاتب المعروف الذي لا يذكر شيئاً من هذه الحقائق حتى في كتبه التي تختص

---

(١) مرآة الحقائق ص ٤٣٣.

(٢) المصدر السابق ص ٤٣٣.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ١٤٢، والدرر الكامنة: ٥/ ٣٢٠.

بتأريخ المسلمين في الهند، وبسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً، ولا يمكن تلمس العذر له في هذا الشأن بعدم الاطلاع على هذه الحقيقة التأريخية النيّرة لأنه مجبول على الكتابة في التأريخ الإسلامي، وإن وجد ذكر الملك محمد تغلق في بعض المواضع من مؤلفاته فبروايات أعدائه من المتصوفة الضالين الذين قضى عليهم وعلى خزعبلاتهم وانحرافاتهم في عصره الزاهر تأثراً بتلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ .

ولعل الشيخ الندوي ـ حفظه الله ـ لأجل نزعته الصوفية وولائه العميق للمتصوفة لم يجد دافعاً لذكرهم بل وصل الأمر عنده إلى حد التغاضي عنهم. والله أعلم بالصواب.

ولا أرى أي مؤلف مؤهلاً لكتابة التأريخ إلا أن يمتاز بالتجرد والموضوعية لأن التأريخ يحتاج إلى باحث منصف يعطي كل ذي حق حقه. ولا يكون ديدنه أنه إذا وجد رجلاً حسنياً وحسينياً من أسرته، أو صوفياً من المتصوفة نسب إليه كل ما يحلو له من أعمال الإصلاح والتجديد، والبحث والتحقيق، والإمامة والسيادة، ولا يبالي في هذا الباب بالواقع الذي يخالفه.

ومن جهة أخرى يتغافل عن ذكر أعمال غيرهم وإن بلغت عنان السماء، خاصة إذا كانت هذه المآثر والمفاخر تتبع الدعوة السلفية في العصور المتأخرة وبالأخص في القارة الهندية فإن القائمين عليها لا يستحقون أي ثناء أو تبجيل لأنهم لم يرضوا بما رضي به الشيخ الندوي من الولاء للتصوف وأهله. والغريب أنه حاول في كتابه «الإمام الحافظ ابن تيمية» (الطبعة الأردية) أن يبرز في حياة شيخ الإسلام أيضاً ناحية التصوف بتكلّف لا يقبل. وسيأتي التفصيل عنه قريباً بإذن الله.

هذا هو ذنب السلفيين الذي لا يغتفر وبالتالي لا يستحقون أن يذكروا في كتبه إلا لمماً.

ولست أنا الوحيد الذي يلاحظ عليه هذه الأمور بل العلماء الكبار حتى أصدقاؤه المخلصون السائرون على منهجه أمثال الشيخ عبد الباري الندوي، والأستاذ مسعود الندوي، والأستاذ مجيب الله الندوي وغيرهم يشاركونني في هذا الانتقاد كلياً أو جزئياً، وصرّحوا بذلك في كتاباتهم ومؤلفاتهم.

ووفقني الله تعالى فناقشت الشيخ أبا الحسن الندوي ـ حفظه الله ـ في مثل هذا الإهمال في كتابه التأريخ والتغاضي عن الحقائق الواضحة، وناقشه قبلي في الموضوع نفسه العلامة محمد داود الغزنوي ـ رحمه الله ـ فوعد في أثناء هذا النقاش بالاستدراك على ما فات. وقد رأيت الطبعة الجديدة من كتابه «المسلمون في الهند» أنه ذكر فيه بعض مدارس أهل الحديث في الهند، وكأنهم لا يستأهلون أن يذكروا إلا ببعض مدارسهم فقط، لا بأعمالهم الجبارة التي أنجزوها في مجال العقيدة والدين، والسياسة والحكم، وقمع الشرك والإلحاد، والقضاء على العادات والتقاليد والبدع والخرافات. فإلى الله المشتكى!!.

* * *

أرى بهذه المناسبة أن أذكر بعض الإصلاحات المهمة التي قام بها الملك محمد تغلق وخليفته فيروز شاه تغلق حتى يتمكن الباحث من دراسة أثر دعوة شيخ الإسلام عبر القارات والأزمنة.

* ذكر السيد عبد الحي الحسني في ترجمة «محمد تغلق» ناقلاً عن الرحالة المعروف ابن بطوطة:

«ومما يحكى في اشتداده في إقامة الشرع ورفع المغارم والمظالم أنه كان شديداً في إقامة الصلاة آمراً بملازمتها بالجماعات، يعاقب على تركها أشد العقاب. ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنياً، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب حتى انتهى إلى عقاب مربي الخيول إذا ضيّعوا الصلاة وأمر أن يطالب الناس بتعليم فرائض الوضوء والصلاة والإسلام فكانوا يسألون عن ذلك، فمن لم يحسنه عوقب. وصار الناس يتدارسون كذلك ويكتبونه.

ومما قيل في ذلك أنه أمر أخاه أن يكون قعوده مع قاضي القضاة في قبّة مرتفعة مفروشة بالبسط فمن كان له حق على أحد من كبار الأمراء وامتنع من أدائه لصاحبه يحضره رجال أخيه عند القاضي لينصفه.

ومما فعل من ذلك أنه أمر برفع المكوس عن بلاده، وأن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة. وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم في كل يوم اثنين وخميس... ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من المثول بين يديه... وعيّن أربعة من الأمراء الكبار يجلسون على أبواب أربعة لأخذ القصص من المشتكين... وإن لم يأخذوه مضى إلى قاضي المماليك فإن أخذ منه وإلا شكا إلى السلطان فإن صح عنده أنه مضى إلى أحد منهم فلم يأخذه منه أدّبه. وكل ما كان يجتمع من القصص في سائر الأيام يطالعه بعد العشاء الآخرة»[1].

* وذكر الشيخ محمد إكرام وهو من المحبين للمتصوفة: إن المتصوفة الكبار وأصحاب التراجم ألصقوا بالملك محمد تغلق تهماً كثيرة، وذكروا عنه

---

(١) نزهة الخواطر: ٢/ ١٢٩.

قصصاً تشكك في عقائده، ولكن الأمر الذي يدعو إلى التفكير فيه هو أن محمد تغلق آذى المتصوفة فقط. وأما العلماء فلم يلاقوا منه إلا احتراماً وتبجيلاً. وكان يؤكد على إقامة الصلوات الخمس بكل قوة وشدة، وكان يحافظ على الصلوات الخمس بالجماعة.

وكان محمد تغلق ــ رحمه الله ــ حافظاً للقرآن كله، محافظاً على الصلوات الخمس في أوقاتها بكل عناية»[١].

* قال مؤرخ الهند تاراشند (وكان هندوكياً وثنياً):

«كان محمد تغلق ملتزماً التزاماً كاملاً بمقتضيات دينه، وكانت حياته العائلية نزيهة ولم يكن عصبياً. وحاول إصلاح حياة الهنادك والقضاء على تقاليد الديانة الهندوكية في شأن النساء المتوفى عنهن أزواجهن فقد كن يحرقن أنفسهن مع أزواجهن، وكان يسمى هذا العمل «ستي»[٢].

* قال الأستاذ مسعود الندوي بعدما ذكر محمد تغلق وما له وما عليه:

ومهما يكن من حقيقة الأمر فإنه أحب لدينا ممن تقدّمه من ملوك الهند الجبابرة لأنه قام بشيء من واجبه في سبيل إحياء مآثر الإسلام وتجديد ما اندرس من آثاره ومعالمه في هذه البلاد. والناس فيما يعشقون مذاهب...»[٣].

وأما ما ذكر ابن بطوطة من «تجاسره على إراقة الدماء» فقال الدكتور مهدي حسن في كتابه عن حياة محمد تغلق رداً على ابن بطوطة أنه لم يكن

---

(١) ماء الكوثر ص ١٠٤ ــ آب كوثر.

(٢) مختصر تاريخ الهند بالإنجليزية: ١٧٢ ــ ١٧٣.

(٣) تأريخ الدعوة الإسلامية في الهند: ٢٤ ــ ٢٥.

منصفاً في حقه، وأتى على ذلك بأدلة وشواهد. والله عنده علم الصواب.

* * *

وأما فيروزشاه تغلق (٧٥٣ ـ ٧٩٠هـ) فقد تولى الأمر بعد وفاة ابن عمه محمد تغلق فرأت البلاد منه ملكاً صالحاً يعطف على الرعية ويعنى بأمور صلاحهم... لم تظهر منه بادرة تزري بسيرته في رعيته وسياسته في مملكته، وأنه قد أتى في سبيل إعلاء كلمة الله ورفع لوائها من الأعمال الجليلة بما لم يأت به، بل وبما يضاهيه أحد ممن تقدّمه من ملوك المسلمين.

وذكر بنفسه كل الإصلاحات التي قام بها في تأريخه «فتوحات فيروز شاهي». ولخّصه الأستاذ مسعود الندوي في كتابه «تأريخ الدعوة الإسلامية في الهند»، وفيه كل ما يحتاج إليه العباد والبلاد من الإصلاحات في العقيدة والدين، والمعيشة، والاقتصاد، والسياسة والحكم، اللهم إلا بعض التصرفات والنقائض وسبحان من تنزّه عنها وله الكمال المطلق.

وفي ضوء هذه الإصلاحات في مجالات الحياة الإنسانية المختلفة نستطيع أن نقول: إن أول دولة تمخضت عنها دعوة شيخ الإسلام هي الحكومة التغلقية التي قام بها محمد تغلق وفيروز شاه تغلق. وإن كانت فيها بعض العيوب إلا أن الغاية الحقيقية لدعوة شيخ الإسلام تحققت بجهودهما إلى حد كبير.

هذه هي أحوال الهند ومدى استقاء أهلها من معين دعوة شيخ الإسلام وأعماله التجديدية إلى أواخر القرن الثامن الهجري.

* * *

وغرقت الهند بعد عصر آل تغلق في بحر من الظلمات والجهل والصراع السياسي، واختفت دعوة شيخ الإسلام بمؤامرة المتصوفة الضلّال وعلماء السوء من أهل الهوى. ومن يريد التفصيل عن هذه الفترة من التأريخ فليراجع الكتب التي ألّفت لتأريخ هذا العصر خاصة، وفيها الشيء الكثير من الاتهامات التي ألصقت بالحكومة التغلقية التي كانت تقوم على أساس دعوة شيخ الإسلام.

ولكن الحق يعلو ولا يعلى عليه. وقدّر الله سبحانه وتعالى للشاه أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (١١١٤ ــ ١١٧٦هـ) أن يسافر إلى زيارة بيت الله الحرام، وأقام في مدينة النبيّ ﷺ ودرس هناك على الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي، وتخرج على يده في الحديث، وكان الشيخ إبراهيم (والد محمد) محدثاً جليلاً يحب ابن تيمية وجلائل آثاره، كما يذكر الإمام الآلوسي قائلاً: إن الإمام كان سلفيّ العقيدة ذاباً عن شيخ الإسلام»[١].

* وقال إمام الهند أبو الكلام آزاد: «حظي الشاه ولي الله الدهلوي بقراءة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية في المدينة لسعة صدر الشيخ إبراهيم الكوراني (ــ ١١٠١هـ) والد الشيخ أبي طاهر الكردي شيخ الشاه ولي الله الدهلوي»[٢].

ولقد وجد أثر هذه الدراسة في مؤلفات الشاه ولي الله الدهلوي،

---

(١) جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين للآلوسي ص ٧٦، وتأريخ الدعوة الإسلامية للأستاذ مسعود الندوي ص ١٣٩.

(٢) التذكرة لأبي الكلام آزاد، وجلاء العينين ص ٢٦، وغاية الأماني: ٢/ ٤٣ ــ ٤٤.

وخاصة في «حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء» و«قرّة العينين» وغيرهما من كتبه.

ويمكن معرفة موقفه من شيخ الإسلام ودعوته من الخطاب الذي أرسله إلى تلميذه الشيخ محمد معين الدين السندي الحنفي رداً على بعض أسئلة عنه حيث قال:

«إنا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية، حافظ لسنّة رسول الله ﷺ وآثار السلف، عارف بمعانيهما اللغوية والشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرّر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله، فائق في الذكاء، ذو لسان وبلاغة في الذبّ عن عقيدة أهل السنّة، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة، اللهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها، وليس شيء منها إلا ومعه دليل من الكتاب والسنّة وآثار السلف. فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره؟ والذين ضيّقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله، وإن كان تضييقه ناشئاً عن الاجتهاد»(١).

وكذلك استفاد من مؤلفات شيخ الإسلام عدد غير قليل من علماء الهند، منهم من اعترف بذلك ومنهم من لم يعترف ومن هؤلاء المستفيدين: السيد الشاه عبد القادر مهربان الفخري المدراسي (ـ ١٢٠٤هـ)، والشيخ باقر آكاه المدراسي (ـ ١٢٢٠هـ) فإنهما أشادا في مؤلفاتهما بذكر شيخ الإسلام ودعوته وقد نوّه الشيخ باقر آكاه بمنهاج السنّة النبوية لابن تيمية، وصرّح بأنه لا يمكن أن يؤلف كتاب أحسن منه في الرد على الروافض(٢).

---

(١) ابن تيمية، لأبي زهرة ص ٦ ــ الطبعة الأردية.

(٢) حياة ابن تيمية للأستاذ محمد يوسف كوكن العمري: ٣ ــ ٤.

تبيّن مما تقدم أن العهد التغلقي اختص بتنفيذ تعليمات شيخ الإسلام وإصلاحاته عملياً تحت إشراف الملكين (محمد تغلق وفيروز تغلق) وسلطتهما.

وامتاز عصر الشاه ولي الله الدهلوي بتأثير معارف ابن تيمية في تغيير الفكر والمنهج والتمحيص العقلي، واعترف بذلك الدهلوي وتلميذه معين الدين السندي.

ولما قام العلاّمة الشاه إسماعيل بن عبد الغني (ـ ١٢٤٦هـ) حفيد ولي الله الدهلوي بالتنفيذ العملي لأفكار جده، ظهر أثر معارف ابن تيمية وأعماله التجديدية في الأوساط المسلمة في الهند، وبدأت تعمل عملها ولا ريب أن «تقوية الإيمان» و«ردّ الإشراك» و«تنوير العينين» من مؤلفات العلامة إسماعيل الدهلوي ثمرات ناضجة لمعارف شيخ الإسلام ابن تيمية التي ورثها عن جده.

وأما أخطاء الشاه ولي الله الدهلوي في باب التصوف ووحدة الوجود ووحدة الشهود فهي رواسب بقيت آثارها في «عبقات» و«صراط مستقيم» من كتب الشاه إسماعيل الدهلوي، ولم يتخلّص الفكر السلفي منها في الهند إلا بعد جهود السيد صديق بن حسن البوفالي ورفقائه، وجهاد السيد محمد نذير حسين المحدث الدهلوي وتلامذته الذين ملأوا الدنيا بعلوم الكتاب والسنّة ومعارف السلف الصالح شرقاً وغرباً.

ونقول في الشاه ولي الله الدهلوي كما نقل الأستاذ مسعود الندوي عن قائل فيه قوله: «نحن نعرف (ولي الله) المحدث الفقيه صاحب (حجة الله

البالغة) و(إزالة الخفاء) ونُجِلُّه. أما (ولي الله) المتصوف الفلسفي فلا صلة لنا به»[1].

* * *

كان السيد صديق بن حسن (ــ ١٣٠٧هـ) سلفياً منذ نعومة أظفاره، وارتضع حب السلفية مع لبان الأم ولما سافر للحج سنة ١٢٧٦هـ اغتنم فرصة وقوف باخرته في اليمن، فأقام هناك أسبوعين عند المحدث اليماني الشيخ حسين بن محسن الحديدي (ــ ١٣٢٧هـ)، واشترى عدة كتب، منها «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وبعدما فرغ من أداء مناسك العمرة أول عمل قام به في مكة المكرمة هو نسخ كتاب «السياسة الشرعية» لابن تيمية بيده.

وكأنه كان يعدّ نفسه لتنفيذ ما في «اقتضاء الصراط المستقيم» في العقيدة والمنهج، وتنفيذ ما في «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» في سياسة البلاد التي حكمها فيما بعد.

ولما تزوج بملكة (بوفال) شاهجهان بيكم (ــ ١٣١٩هـ) وأخذ مقاليد الأمور بيده في سنة ١٢٨٨هـ قام بنشر أفكار شيخ الإسلام ومعارفه بمؤلفاته ومطبوعاته ومدارسه ومساجده في بلاده وخارجها.

وكتب ترجمة شيخ الإسلام في كتبه بالفارسية مثل «إتحاف النبلاء المتقين لإحياء مآثر الفقهاء والمحدثين» و«تقصار جيود الأحرار من تذكار جنود الأبرار» ــ وفي كتبه بالعربية مثل: «التاج المكلّل من جواهر مآثر الطراز

---

(١) تأريخ الدعوة الإسلامية في الهند.

الآخر والأول» و«أبجد العلوم» ولم يكتف بتحرير ترجمته وترجمة بعض تلامذته في هذه الكتب فقط بل كلما وجد مناسبة لذكر شيخ الإسلام ذكره وذكر معارفه ودعوته في مؤلفاته الأخرى التي تبلغ أكثر من مئتين وخمسة وعشرين كتاباً في اللغات العربية والفارسية والأردية. وحجم بعض هذه الكتب يزيد عن خمسة آلاف صفحة.

ولقد نوّه بشيخ الإسلام وعدّه مجدّد قرنه في عدة كتب له، مثل «حجج الكرامة» (١٣٦ ــ ١٣٧) و«تقصار جيود الأحرار» (ص ٧٦) و«هداية السائل إلى أدلة المسائل» (١١٥ ــ ١١٦، ٢٨٢) وغيرها من مؤلفاته وهي مملوءة بمثل هذه التصريحات.

* * *

وقد قام العلامة صديق بن حسن البوفالي بجلائل الأعمال في الدفاع عن شيخ الإسلام، وطبع كتابين من أهم الكتب في هذا الموضوع.

(أحدهما): «الرد الوافر على من زعم أن من سمّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» للعلامة ابن ناصر الدين الدمشقي (ــ ٨٤٢هـ).

(والثاني): «جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين» للشيخ خير الدين أبي البركات نعمان بن محمود الآلوسي (ــ ١٣١٧هـ). وفيه مقارنة بين آراء أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، وأحمد بن حجر الهيتمي (ــ ٩٧٤هـ) ودافع فيه عن شيخ الإسلام وبيّن وهاء آراء ابن حجر الهيتمي.

وكذلك نشر مختصرات عدة رسائل لشيخ الإسلام وفتاواه في اللغة الفارسية الرائجة في الهند آنذاك. ووقف مطابعه ومدارسه لنشر معارفه ومعارف الأئمة السلفيين الآخرين.

وأما ما قام به من الأعمال الجليلة لنشر السنّة والدفاع عن السلفية فيتلخص في الأمور التالية:

* شكّل مجلساً علمياً جمع فيه نخبة من العلماء البارزين الذين ملأوا القارة الهندية نوراً وعلماً.

* وعيَّن علماء سلفيين محققين على نفقته للدفاع عن عقيدة السلف الصالح وعن السنّة الصحيحة، والرد على البدع والمنكرات.

* وعيّن مكافآت شهرية وجوائز تشجيعية لمن يحفظ الأحاديث وشجعت هذه الخطة المباركة عدة علماء على حفظ دواوين السنّة.

* قام بإحياء علوم الكتاب والسنّة تصنيفاً وتأليفاً ونشراً وتوزيعاً.

وكان له مندوبون في مصر وتركيا واليمن يبحثون له عن مخطوطات نادرة لينشر تراث السلف الصالح ويكون في متناول أيدي العلماء وطلبة العلم.

وجدير بالذكر هنا أن هؤلاء العلماء الذين نفذوا خططه كانوا كلهم إلا البعض، من تلامذة السيد محمد نذير حسين المحدث الدهلوي (١٢٢٠ ــ ١٣٢٠هـ) رحمه الله تعالى.

فالعلامة السيد نذير حسين المحدث الدهلوي بعلمه الجم وتربيته الفذة وحبه للسنّة، والسيد صديق بن حسن بماله وجاهه وعلمه بذلا قصارى جهودهما لإحياء منهج السلف الصالح في الهند على غرار دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية، وحركته الإصلاحية السلفية.

وقد أوذي هذان الإمامان في سبيل الحق، ونشر الدعوة، والدفاع عن منهج السلف في العقيدة والعمل كثيراً.

وإلى فرصة أخرى إن شاء الله لدراسة تأريخهما الزاهر، وجهودهما المشكورة، وأعمالهما الخالدة.

* * *

وبدأ تيار العمل بالكتاب والسنّة يسري في صفوف العلماء الذين تأثروا بالسيد صديق بن حسن البوفالي والسيد نذير حسين المحدث الدهلوي حتى وصل السهول والجبال في شبه القارة الهندية.

وأخص بالذكر هنا أسرة علمية تتلمذت على السيد نذير حسين الدهلوي وغيّرت مجرى التأريخ في محيطها، ألا وهي أسرة غزنوية وعلى رأسها الإمام عبد الله بن محمد الغزنوي ــ رحمه الله ــ الذي اعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية اعتناء بالغاً.

قال ابنه عبد الجبار بن عبد الله الغزنوي (١٢٦٨ ــ ١٣٣١هـ):

«كان والدي الإمام عبد الله الغزنوي ــ رحمه الله ــ راغباً جداً في مؤلفات المحدثين المحققين، وخاصة في مصنفات شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، ودائماً كان يبحث في كتبهما... وكان يفضلهما على أكثر الأئمة والعلماء، وكان يصغّر الشاه ولي الله الدهلوي في مقابلهما...»[1].

* * *

وكان الشيخ عبد الله الغزنوي (تلميذ السيد نذير حسين الدهلوي) عاكفاً على العبادة والإفادة وانتهى إليه الورع وحسن السمت والتواضع والاشتغال

---

(١) سيرة الإمام عبد الله الغزنوي: ص ٢٤.

بخاصة النفس، واتفق الناس على الثناء عليه والمدح بشمائله وصار المشار إليه في هذا الباب[1].

وكان له ـ رحمه الله ـ اثنا عشر ابناً كلهم دعاة إلى الله على منهج السلف الصالح. وكان من بينهم العلامة عبد الرحيم الغزنوي والعلامة عبد الواحد الغزنوي يشتغلان بالتجارة ليستعينا بها على الطاعة والعبادة والدعوة. وكانا يجوبان الأقطار في هذا الشأن حتى وصلا إلى بعض البلدان العربية، وقدّر الله أن حصل لهما اجتماع أثناء سفرهما إلى الكويت بالأمير عبد الرحمن بن الفيصل آل سعود (١٢٦٨ ـ ١٣٤٦هـ) وابنه المغامر عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود (١٢٩٧ ـ ١٣٧٣هـ) وتأثر الأميران بهما جداً ودرسا عليهما بعض العلوم، وقامت بينهم علاقة ودية خالصة على أساس وحدة العقيدة والمنهج.

ولما استولى الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود على «الرياض» عاصمة نجد، وجه إليهما الدعوة للإقامة في الرياض فجاءا وبقيا خمس سنوات في نجد، واستفاد منهما في هذه المدة بعض الأشخاص من آل سعود وغيرهم من أهل نجد.

وهذه الإقامة في نجد فتحت لهما الطريق للحصول على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية التي كانا مجبولين على حبها من عهد والدهما عبد الله الغزنوي. ورجع هذان العالمان إلى الهند مع النسخ الخطية لبعض مؤلفات شيخ الإسلام فقاموا بطبعها وتلخيصها ونقلها إلى الأردية وتوزيعها في شبه القارة الهندية.

---

(١) نزهة الخواطر: ٦/ ٣١١.

ومن أهم هذه المؤلفات:

١ ــ تفسير سورة النور.

٢ ــ فوائد تفسيرية مختلفة.

٣ ــ فوائد شريفية.

٤ ــ فتوى في مسألة كلام الله تعالى.

٥ ــ رسالة في علوم القرآن.

٦ ــ قاعدة في العلوم.

٧ ــ رسالة الحقيقة والمجاز.

٨ ــ شرح حديث النزول.

٩ ــ التحفة العراقية في الأعمال القلبية.

١٠ــ الحموية.

وبالإضافة إلى ذلك طبعوا عدة مؤلفات للإمام ابن قيم الجوزية، وكتبا في الدفاع عن الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي ودعوته ومؤلفات أئمة الدعوة السلفية الآخرين، كما أن السيد محمد داود الغزنوي ــ رحمه الله ــ كتب في مجلته العلمية الأسبوعية (توحيد) مقالات ضافية عن شيخ الإسلام ابن تيمية في اللغة الأردية[1].

* * *

بدأت دعوة شيخ الإسلام تشق طريقها إلى الأوساط المسلمة في الهند بجهود العلماء الغزنويين وغيرهم من تلامذة السيد نذير حسين المحدث

---

(١) تأريخ فقهاء الهند وباكستان في القرن الثالث عشر: ٢٠٣ ــ ٢١٣، وحياة محمد داود الغزنوي لابنه أبي بكر الغزنوي، وابن تيمية لأبي زهرة (الطبعة الأردية)، وسيرة الشيخ عبد الله الغزنوي، لبدر الزمان النيبالي.

الدهلوي ورفقاء السيد صديق بن حسن خان البوفالي. وتأثر بعض الكبار من كل الطوائف والفرق حتى الأدباء والمؤرخون بدعوته فقد كتب العلاّمة المؤرخ شبلي بن حبيب الله النعماني (١٢٧٤ ـ ١٣٣٢هـ) ـ وكان حنفياً ماتريدياً، وأديباً بارعاً من أذكياء الهند ـ مقالاً حول المجددين في الإسلام في مجلة «الندوة» الأردية في سنة ١٩٠٨م، وفيه:

«قد وجد عبر التأريخ الإسلامي مئات وآلاف بل ومئات الآلاف من العلماء والفضلاء والمجتهدين وأئمة العلوم والفنون، وأصحاب العقل والفكر إلا أن المجددين لم يظهروا إلا قليلاً جداً. ولا يكون الرجل مجدداً إلا إذا توفرت فيه الشروط الثلاثة التالية:

١ ـ أن ينشىء انقلاباً مفيداً في المذهب أو العلم أو السياسة.

٢ ـ وأن الرأي الذي تبنّاه لا يكون تقليداً منه لغيره، بل يكون مبنياً على الاجتهاد قد وصل إليه هو بنفسه.

٣ ـ أن يكون قد أوذي في جسده، وتحمّل مشاق في دينه، ولم يعبأ بنفسه ومات في سبيل الحق.

وإن لم يتحتّم الشرط الثالث والأخير لكون الرجل مجدداً دخل فيه الإمام أبو حنيفة، والغزالي، والرازي، والشاه ولي الله الدهلوي، ولكن الذي يستحق أن يكون مجدداً حقاً هو العلامة ابن تيمية، والصفات الحقيقية للمجدد قدر ما توجد في شخص العلامة قلما توجد في غيره»[1].

هناك أدباء ومؤرخون آخرون نوهوا بدور شيخ الإسلام وأثنوا على

---

(١) الجزء الخامس من مقالات شبلي.

جهوده وجهاده، منهم: المؤرخ أكبر شاه النجيب آبادي، والأستاذ خليق أحمد النظامي، والشيخ محمد إكرام، والأستاذ الشاعر شورش الكاشميري وغيرهم.

* * *

وركّزت بعض المكتبات التجارية جل اهتمامها على نشر تراث شيخ الإسلام ابن تيمية وترجمة كتبه إلى الأردية. وفيما يلي أسماء أهم هذه المكتبات:

* مكتبة **الهلال** التجارية بلاهور: قامت هذه المكتبة بنشر رسائل أبي الكلام آزاد، وكتاب الأستاذ غلام رسول مهر في سيرة شيخ الإسلام كما أنها طبعت ترجمة معاني عدة رسائل وأبحاث من كتب شيخ الإسلام إلى الأردية، وأهمها: «العروة الوثقى» و«التوسل والوسيلة»، و«أصحاب الصفّة» و«تفسير سورة الكوثر» و«اتباع الرسول» و«تفسير الآية:

﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

و«الواسطة بين الحق والخلق» و«مناسك الحج» و«اختلاف الأمة» وغيرها.

* مكتبة **محمد شريف** عبد الغني التجارية بلاهور: طبعت ترجمة معاني «تفسير سورة الإخلاص» و«تفسير المعوذتين»، و«زيارة القبور»، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، و«درجات اليقين»، و«الوصية الكبرى» و«الوصية الصغرى» وغيرها.

* مكتبة **الهند** التجارية بكلكتّه: نشرت ترجمة معاني «المجذوب» و«حسين ويزيد» و«صدق الرسول» و«مناظرة ابن تيمية» وغيرها.

* **المطبعة القيمة** ببمبائي: قامت بطبع مجموعة تفاسير شيخ الإسلام، والرد على المنطقيين بتشجيع من أبي الكلام آزاد.

* **المكتبة السلفية** بلاهور: نشرت «أصول التفسير» وترجمة كتاب «ابن تيمية» لأبي زهرة إلى الأردية مع التحقيقات والتعليقات النفيسة، والانتقادات المهمة.

* **دائرة المعارف** بحيدرآباد: قامت بنشر «الصارم المسلول على شاتم الرسول» بإشارة من أبي الكلام آزاد.

* **المكتبة العتيقية** بمديرية لائلفور (باكستان): طبعت مجموعة الرسائل.

وهناك مكتبات أخرى في لاهور، ودهلي، وأمرتسر قامت بنشر رسائل وكتب أخرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ.

* * *

واهتمت بعض المجلات والصحف بنشر معارف شيخ الإسلام وقدمت دراسات متنوعة عن شخصيته ودعوته وأهمها:

* **مجلة إشاعة السنّة**: للشيخ محمد حسين البتالوي.

* **جريدة «الهلال»**: الأسبوعية لأبي الكلام آزاد.

* **مجلة «توحيد»**: للسيد محمد داود الغزنوي.

* **صحيفة «أهل الحديث»**: للشيخ ثناء الله الأمرتسري.

* **مجلة «شتان»** (الصخرة) للأستاذ شورش الكاشميري ــ وغيرها من

الجرائد والمجلات والصحف التي كانت تتناول دراسات عن أفكار شيخ الإسلام وآرائه في أبواب مختلفة من العقيدة، والفقه، والمنهج.

* * *

وقد قام عديد من العلماء بنقل مؤلفات شيخ الإسلام إلى الأردية وعلى رأسهم:

ــ الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي، تلميذ كل من السيد محمد رشيد رضا في مدرسة «دار الدعوة والإرشاد»، وإمام الهند أبي الكلام آزاد. وكان المليح آبادي رفيقاً ملازماً لأبي الكلام مسترشداً به طول حياته.

ــ والشيخ عبد المجيد الهزاروي.

ــ والشيخ غلام علي القصوري.

ــ والشيخ أصغر علي الرومي.

ــ والشيخ أبو البشر مراد علي السوهدري.

ــ والشيخ عبد الله القصوري.

ــ والشيخ محمد الدهلوي.

ــ والشيخ محمد شريف أشرف

.. وغيرهم ــ رحمهم الله جميعاً ــ.

* * *

أما العبقري العظيم الذي ملأ أرض الهند بذكريات شيخ الإسلام ابن تيمية ووضع شخصيته أمام العلماء والمفكرين، والدعاة والمثقفين بأدب رائع رفيع، وأسلوب شائق جذاب، وطريقة معجزة مبتكرة فهو إمام الهند أبو الكلام محيي الدين أحمد الملقب بآزاد (أي الحر) (١٣٠٥ ــ

١٣٧٧هـ). وهو من سلالة علمية من آل البيت وكان أبوه خير الدين من كبار المتصوفة، ولكن الله عزّ وجلّ أراد لابنه خيراً فانقلب على أبيه، ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنّة، ودافع عن عقيدة السلف، وعرف بإمامته في العلوم والمعارف، وذكائه المفرط، وعبقريته الفذة في فهم الدين والواقع، ونظرته الثاقبة في السياسة الحاضرة، وفراسته النافذة في أحداث المستقبل. ولا ريب أنه كان من أذكياء العصر.

قال الأستاذ الأديب المؤرخ أبو سلمان الشاهجهانفوري: «... إذا كان يشبه أبو الكلام آزاد أحداً في هذه الأمور فهو يشبه جامع المحاسن والفضائل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

ولذا قرّر الأديب الصحافي الخطيب شورش الكاشميري أن أبا الكلام آزاد نظير شيخ الإسلام، وهو ابن تيمية الهند»[١].

* * *

كان أبو الكلام آزاد مع علمه الجم بالكتاب والسنّة سياسياً محنكاً ورائداً من رواد تحرير الهند من براثن الاستعمار البريطاني. وكان الاستعمار يتوجس من كتاباته الرصينة الهادفة، ومحاضراته البليغة الآخذة خيفة لما كان فيها من الإثارة والتحميس للشعب، والمؤاخذة على حكم الإنجليز وسياسة الاستعمار.

ولأجل هذا وذاك اعتقله الاستعمار الإنجليزي مرات. ولما اعتقله في (٣٠ مارس ١٩١٦م) بمدينة «رانشي» بقي هناك في المعتقل ثلاث سنوات ونصف السنة، واشتغل طوال هذه المدة بالعبادة والذكر، وبترجمة معاني

---

(١) حياة ابن تيمية لأبي سلمان: ص ٦ ـ ٧.

القرآن الكريم وتفسيره، وبتأليف كتابه القيم المعروف بـ «التذكرة»، وذكر فيه تأريخ الأئمة المجددين والمصلحين البارزين، ونوّه فيه بصفة خاصة بسيرة إمام السنّة أحمد بن محمد بن حنبل، وشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية وركّز على سيرة شيخ الإسلام فكتب ما يقارب مائة صفحة كتابة في غاية الروعة، لا يوجد لها نظير ــ في نظري ــ في سيرته في أي لغة حتى في العربية.

وقال الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ غلام رسول مهر ــ رحمه الله ــ: إن جريدة أبي الكلام آزاد المسماة «الهلال» الأسبوعية(الصادرة سنة ١٣٣٠هـ) لم تكن إلا انعكاساً لمعارف ابن تيمية. ولا ريب أن كتاباته وخطبه وجهوده، وكذلك صحفه ومجلاته (الهلال، والبلاغ، وإقدام، والجامعة، وبيغام (الرسالة) جلها كانت شرحاً وتفصيلاً لمعارف شيخ الإسلام وآرائه، وجاء كتابه «التذكرة» ملخّصاً لكل هذه النفائس والدرر في صفحاته القلائل».

* * *

أرى من المناسب تعريب مقتطفات من كتابه «التذكرة» مع أن نقل أسلوبه الرصين، وعباراته البليغة إلى أي لغة أخرى من أصعب الأمور، لأنه كان أمير البيان وسلطان القلم، ولا يستطيع أن يوفي بحق تعريب كتاباته إلا رجل عبقري مثله.

وللإفادة إليكم الآن بعض المقتطفات المعربة عن شيخ الإسلام من «التذكرة»:

* قال: «. . . فإن الفتن التي ظهرت عبر التأريخ الإسلامي في شأن العقيدة الإسلامية متفرقة في عصور مختلفة عادت مجتمعة في هذا العصر.

فنظراً إلى هذا لا يشفي غليل هذا العصر إلا معارف ابن تيمية إلا أنها

تحتاج إلى شرح زائد، وتفصيل لما أجمله، وتوضيح لما أشار إليه، وضبط وتصنيف لما فرّقه ونشره»[1].

*وقال: «. . . وحينما ظهرت الروح الموافقة للدعوة العامة للأمة ولتجديد الشريعة وإحياء السنّة بعد موتها، وإخماد البدعة بعد شيوعها وارتفاعها، وتجسدت في شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رضي الله عنه ــ الذي هو آية من آيات الله وحجة قائمة من حجج الله، وشيخ المصلحين، وملاذ المجددين، وسند الكاملين، وإمام العارفين، ووارث الأنبياء، وقدوة الأولياء، وسلمت إلى هذا المجدد العظيم رئاسة جميع مسالك الدعوة وسيادتها، والتجديد في العصر الأخير، وصار قطباً لرحاها، ونقطة مركزية لدائرتها. فهل كان لا يوجد في هذا العصر عالم من علماء الحق سوى شيخ الإسلام؟.

. . . بل كان من بينهم كبار الحفاظ، وكبار الأئمة والمحققين والباحثين، وعباقرة المجتهدين والمفكرين الذين لن تلد الأمهات بعدهم مثلهم في العالم الإسلامي. . .

. . . فماذا تعتقدون في هؤلاء؟ هل يسع لأحد أن ينكر فضل هؤلاء النجباء الكرام وورعهم وتقواهم واتباعهم للحق. . .

. . . مع وجود هؤلاء الأئمة الأعلام وعباقرة الفنون في هذا العصر لم يحظ أي واحد منهم بالمكانة التي حظي بها شيخ الإسلام ابن تيمية في القيام بواجبات الدعوة والجهاد بكل شجاعة وعزم وصبر وتحمل للمشاق التي تقشعر الجلود من تصوّرها. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قد خص به دون

---

(١) التذكرة: ١٧٩ ــ ١٨٠.

غيره، وهي حقيقة ظاهرة لامعة مثل الشمس، واضحة لكل صاحب عين مبصرة.

ولا شك أن هؤلاء الأعلام قاموا بأعمال جليلة في نواح معينة، ولكن شيخ الإسلام قد أتى بما كانوا يشتغلون به أحسن مما أتوا، وسبقهم فتركهم وراءه على مسافات بعيدة في عزم الدعوة، وتجديد معالم الدين، ورفع أعلام السنّة، وإخماد الشرور والبدع، وإبراز المعاني الخفية من الكتاب والسنّة، وكشف غوامض المعارف وأسرار الحكم النبوية وتفجير ينابيع الحكمة من اللسان والجنان، والجهاد في سبيل الله بالسيف والقلم واللسان، ووقف وحيداً على قمة العلوم الموهوبة، والأعمال الموفقة حيث تعي وتحسر أفكار أقرانه وأخيلة معاصريه في التفكر فيه، فاعترفوا جميعاً بلفظ واحد:

«ما رأينا مثله وإنه ما رأى مثل نفسه».

وقال الحافظ الذهبي في معجم شيوخه بعد ما أعياه تحرير محاسن نادرة الأرض وأعجوبة الدهر هذا، ولم يصل إلى نهاية مدائحه فأمسك عنها وقال:

«وهو أكبر من أن ينبّه على سيرته مثلي. والله لو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت بعيني مثله وأنه ما رأى مثل نفسه لما حنثت.

وكفاك بالذهبي شاهداً:

تقي الدين أضحى بحر علم ... يجيب السائلين بلا قنوط

أحاط بكل علم فيه نفع ... فقل ما شئت في البحر المحيط[1]

(١) من التذكرة ملخصاً.

ووقف أبو الكلام آزاد مع الدعوة السلفية التي جدد معالمها شيخ الإسلام، وبذل في سبيلها كل غال ونفيس، ودعم هذه الحركة العظيمة بكتبه ومقالاته وصحفه ومجلاته وتلامذته ومسترشديه.

ولما احتل أبو الكلام آزاد منصب نائب رئيس الوزراء في الحكومة الهندية، وصار أول وزير للمعارف فيها بعد استقلال الهند من حكم الاستعمار لم يغفل عن إحياء معارف ابن تيمية ونشر علومه وأفكاره.

ومن مآثره في هذه الفترة من الزمن مع زحمة الأشغال الرسمية أنه بذل جهده لطبع كتابين مهمين لشيخ الإسلام.

(أحدهما): «الرد على المنطقيين»: قام بنشره الشيخ عبد الصمد شرف الدين في المطبعة القيمة في بمبائي سنة ١٣٦٨هـ بتعاون من أبي الكلام آزاد.

(والثاني): «الصارم المسلول على شاتم الرسول». طبعته «دائرة المعارف العثمانية» بحيدر آباد.

كما أنه ــ رحمه الله ــ هنأ العالم السلفي الغيور الشيخ محمد بن إبراهيم الجوناكري ــ رحمه الله ــ على قيامه بترجمة «إعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية (تلميذ شيخ الإسلام) إلى الأردية، وشجّعه على ذلك تشجيعاً بالغاً.

ومن الجهود العظيمة التي لا تنسى وقوفه مع أهل الحديث والسنّة والجماعة: السلفيين في أنحاء العالم الإسلامي للدفاع عن الأعمال التي أنجزتها حكومة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في الحجاز لتطهير مكة المكرمة والمدينة الطيبة، والطائف من آثار الشرك.

وبهذه المناسبة أصدر أبو الكلام آزاد مجلة «الجامعة» بالعربية للدفاع عن الموحدين في هذه القضية. وكتب مقالات علمية مدلّلة بالكتاب والسنّة لتعزيز موقفهم، ودحض آراء مخالفيهم، وأهمها مقالان:

(الأول): الأمير ابن سعود والحرمان الشريفان ومسألة هدم القباب (يحتوي على ٢٣ صفحة).

(والثاني): حكم المباني على المقابر، والفرق بين اتباع السنّة وعاطفة التشبه بعادات النبيّ ﷺ (يحتوي على ٧٦ صفحة).

وهذان المقالان ردّ مقنع لمن يحترم العلم والبرهان، وردّ مفحم للمكابر الذي ليس لديه حجة إلا التعصب والهوى. وما رأيت في قوة الاستدلال وبراعة الأسلوب نظيراً لهذين المقالين في موضوعهما.

* * *

واختار أبو الكلام آزاد موقفاً واضحاً من دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وإحياء علومه ومعارفه. وتأثر بصراحته في هذا الأمر كثير من الأدباء والمفكرين والكتاب والمثقفين وعلى رأسهم:

* الكاتب الإسلامي والمؤرخ الكبير غلام رسول مهر ـ رحمه الله ـ وقد ألّف رسالته «سيرة ابن تيمية» (طبعت **١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م** في **٦٦** صفحة) وهي تحتوي على مقدمة وسبعة أبواب مختصرة جامعة.

واعترف المؤلف بأن هذه الرسالة انعكاس لكتابات إمام الهند أبي الكلام أزاد في هذا الباب.

وكذلك كتب المؤلف المذكور مقدمة جامعة على كتاب «الإمام ابن

تيمية» للدكتور غلام جيلاني برق الذي أعدّه لنيل شهادة «الدكتوراه» من جامعة «فنجاب». وزادت هذه المقدمة قيمة الكتاب في نطر القراء.

ولما عزم الشيخ محمد عطاء الله حنيف الفوجياني ــ رحمه الله ــ على إعداد الطبعة الأردية لكتاب «ابن تيمية: حياته وعصره وآراؤه وفقهه» لأبي زهرة، مع تعليقاته النفيسة وانتقاداته القوية، وقع نظره لتقديم هذه الطبعة الأردية على الأستاذ غلام رسول مهر ــ رحمه الله ــ وذلك لكفاءته البالغة في أداء حق المقدمة على كتاب يتعلق بشيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ.

وقد كان أثار أبو زهرة في كتابه شبهات كثيرة حول دعوة شيخ الإسلام، وحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب وحكومة آل سعود. فأتاها الأستاذ غلام رسول مهر في هذه المقدمة من قواعدها، فدافع عن شيخ الإسلام بالأدلة والبراهين، وأعاد الحق إلى نصابه، وذكر حقائق تاريخية كذبت آراء أبي زهرة في دعوة ابن عبد الوهاب وحكومة آل سعود. وأعطى كلاً من الدولة العثمانية والدولة الشريفية والدولة السعودية حقها من الإنصاف. ولا يتسع المقام لذكر تحليلاته بهذا الشأن، ولي عودة إلى ذلك في فرصة أخرى إن شاء الله، ولكني أقول: إن الأستاذ غلام رسول مهر ــ رحمه الله ــ كان موفّقاً في هذا البحث الذي لم يسبق إليه.

* والدكتور غلام جيلاني برق: أعدّ رسالته «الإمام ابن تيمية» في الإنجليزية لنيل شهادة «الدكتوراه» من جامعة فنجاب كما تقدم. والنص الإنجليزي للرسالة محفوظ في الجامعة المذكورة ولم يطبع حتى الآن. ونقل المؤلف رسالته إلى الأردية وهي مطبوعة وتحتوي على مقدمة وخمسة أبواب.

وقام بمناقشة الرسالة مستشرقان: أحدهما كان أستاذاً في جامعة ليدن، والثاني كان أستاذاً في جامعة هارفرد.

والعجيب أن المؤلف كان رجلاً عقلانياً، وله كتابات تشكك في السنّة وتنحرف عن الخط المستقيم. ولكنه اختار هذا الموضوع بإشارة من الدكتور محمد شفيع الذي كان رئيس القسم في جامعة فنجاب.

وقد بذل المؤلف جهداً طيّباً في الدراسة وحاول أن يعطي الموضوع حقه فنجح أيما نجاح.

* * *

وتوجد ثلاثة كتب ضخمة حول سيرة شيخ الإسلام في اللغة الأردية وهاكم فكرة موجزة عنها:

١ ــ **شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية**: هو الجزء الثاني من سلسلة تأريخ الدعوة والعزيمة للأستاذ أبي الحسن علي الندوي ــ حفظه الله ــ وألّفه الأستاذ الندوي في الأردية ثم نُقِلَ إلى الإنجليزية، وقام الشيخ سعيد الرحمن الأعظمي الندوي (الأستاذ بدار العلوم لندوة العلماء، ومحرر مجلة «البعث الإسلامي» بطلب من المؤلف بنقله إلى العربية، والطبعة العربية تختلف عن الطبعة الأردية. قال المؤلف ــ حفظه الله ــ :

«قرأه المؤلف حرفياً وتناوله بالتنقيح والتهذيب والحذف والزيادة، وعلّق عليه بعض تعليقات جديدة مفيدة، فجاء أكمل وأجمل وأوفق بالذوق العربي السليم».

هذا هو ديدن الأستاذ الندوي فإنه في كتبه يلاقي العربي بوجه يوافق «ذوقه السني السليم»، ويلاقي العجمي بآخر يوافق ذوقه الصوفي السقيم،

ويشاركه في هذا الأسلوب كبار جماعة التبليغ وجماعة الأستاذ المودودي أيضاً.

وعقد الأستاذ الندوي في هذا الكتاب (الطبعة الأردية) باباً بعنوان: «شيخ الإسلام ابن تيمية كعارف بالله ومحقق» وتحت هذا الباب فصل بعنوان: «اكتشاف جديد في شخصية ابن تيمية».

ويعني بهذا الاكتشاف أن شيخ الإسلام كان يعرف بأنه عالم متكلّم وفقيه جدلي ومحدث كبير... لا يتخيّله الدارسون أكثر من ذلك، ولا يرون فيه شيئاً أكثر من أنه متبحّر في علوم الظاهر سوى ابن القيم فإنه الوحيد الذي بحث في ناحية أستاذه الروحية والباطنية في كتابه «مدارج السالكين».

وأثبت الأستاذ الندوي بأن شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم كانا يحتلان مكاناً عالياً في المعرفة والروحانية والذوق الباطني. واكتشف الندوي في هذا العصر (مثل اكتشاف الأمريكان كرة القمر، ومثل اكتشاف كولومبس لأمريكا) أن شيخ الإسلام يستحق كل الاستحقاق أن يعد من العارفين ورجال الله في هذه الأمة (كأنه يريد أن يرفعه إلى «المقام الرفيع» الذي يحتله ممدوحوه من الكبار من المتصوفة النقشبندية والمجددية والسهروردية والقادرية والششتية أمثال ابن الرومي، والشيخ معين الدين الششتي، والشيخ نظام الدين أولياء، والشيخ شرف الدين يحيى المنيري الذين خص بهم الأستاذ الندوي المجلد الثالث من هذه السلسلة. وهو بنفسه مبايع على أكثر هذه السلاسل ويأخذ البيعة على بعضها).

وهناك ينشرح كل صدر للاعتراف بأنه كان يتبوأ تلك المكانة، ويتمتع بجميع تلك الغايات التي لا تتيسّر ـ بوجه عام ـ إلا برياضات شاقة

ومجاهدات طويلة وتربية أئمة الفن ودوام الذكر والمراقبة. وذلك ما يعبّر عنه الصوفية المتأخرون بالنسبة مع الله»[1].

* * *

ولا أدري ماذا يريد الأستاذ الندوي بالذكر والمراقبة والنسبة والروحانية والباطنية؟ أما يكفيه «الإحسان» الذي عبر به النبيّ ﷺ عن كمال الإيمان وأعلى درجاته؟

وهل يحتاج المؤمن زيادة إلى أسوة الرسول ﷺ إلى رياضات شاقة وتربية صوفية؟

وهل كان أصحاب الرسول وتابعوهم بإحسان لم يبلغوا تلك الدرجة التي بلغها ابن الرومي والسهروردي والسمناني، والبدوي، والتيجاني وغيرهم؟.

وهل الرجل لا يتمكن من بلوغ درجات الكمال التي يريدها الأستاذ الندوي إلا بالمراقبة عند القبور التي يقوم بها أمثاله في التكايا والزوايا. وصدق الرسول ﷺ حيث قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء».

وإذا تغاضينا عن هذا الجانب نجد في كتاب الأستاذ الندوي فوائد جمة وإفادات كثيرة وهي ثمرة لجهود ثلاثة جوانب:

(الأول): الأستاذ أبو الحسن علي الندوي المرتب.

(والثاني): مكتبة الشاه حليم عطاء ــ رحمه الله ــ وكتاب أبي زهرة كمصدر ومأخذ.

---

(١) الإمام الحافظ ابن تيمية، ص ١٢٩.

(**والثالث**): الشاه حليم عطا (المدرس في دار العلوم لندوة العلماء) وإسهامه الكبير في تأليفه وترتيبه. كما اعترف بذلك المؤلف في مقدمة كتابه في الأردية، وأبان بأنه لا تكفي الكلمات مهما تضخمت للتعبير عن الاعتراف بإسهامه الكبير والشكر له.

وكان الشيخ حليم عطا ـ رحمه الله ـ من سلالة صوفية ولكنه ترك طريق آبائه واهتدى إلى منهج السلف الصالح، وكان من المولعين بمؤلفات شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، وعرف باطلاعه الواسع على معارف ابن تيمية وعلومه.

* * *

٢ ـ كتاب «الإمام ابن تيمية» للأستاذ محمد يوسف كوكن العمري:

تمّ تأليف هذا الكتاب في سنة **١٩٣٧م** وطبع سنة **١٩٥٩م**، وتبلغ صفحاته على القطع الكبير ستمائة واثنتين وسبعين صفحة. وهو أضخم ما ألّف في الأردية.

وبذل المؤلف جهوداً مضنية في جمع المعلومات والترتيب والتنظيم، والبحث والتحقيق ودارسة عصر شيخ الإسلام، وخلفيات حياته، وجهاده في شتى الميادين وجهوده في كافة المجالات.

وإن المؤلف جانب الصواب في المقارنة بين شيخ الإسلام وأبي حيان النحوي، وكذا في نسبة الحدة والشدة إلى شيخ الإسلام. ولكن كتابه مع هذا وذاك يستحق أن يعد أجمع كتاب ألف في لغة أردو في الموضوع.

* * *

٣ ـ كتاب «الإمام ابن تيمية» لأبي زهرة (الطبعة الأردية):

قام بنقله إلى الأردية الأستاذ رئيس أحمد الجعفري بطلب من العلامة محمد عطاء الله حنيف الفوجياني ـ رحمه الله ـ (صاحب «دار الدعوة السلفية» ومؤلف «التعليقات السلفية على سنن النسائي) وقدم لهذه الطبعة الأستاذ الكبير غلام رسول مهر ـ رحمه الله ـ.

وانتدب العلامة الفوجياني بنفسه للمقارنة بين الأصل والترجمة فردّ الزائد وأكمل الناقص، وعلّق عليه تعليقات علمية دقيقة، وانتقد الأستاذ أبا زهرة على ما جانب فيه الصواب من المواضيع. وكلما تقاعس أبو زهرة عن ذكر أدلة أئمة السنّة في الرد على الأشاعرة لكونه أشعرياً، أبانه الفوجياني ـ رحمه الله ـ وقدم أدلة واضحة في الرد عليه وعلى منهجه في البحث والتحقيق.

وكذلك رد على ابن بطوطة في نسبته إلى شيخ الإسلام في مسألة نزول الرب تعالى إلى السماء الدنيا قولاً لم يقله، وردّ على القول المنسوب إلى الإمام الذهبي في تجريح شيخ الإسلام كذباً وزوراً.

وكذلك أتى الفوجياني ـ رحمه الله ـ تلك الأراجيف والأخطاء الشائعة في الأوساط المسلمة الجاهلة من قواعدها، التي تبناها الأستاذ أبو زهرة للنيل من الإمام ابن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ ودعوته المباركة.

ومن أكبر مزايا هذه الطبعة الأردية أن العلامة الفوجياني أعد فهرساً كاملاً لمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتراجمها بالأردية وبيّن سنة طبعها وأمكنة وجودها في المجموعات المطبوعة، ومحل وجودها في المؤلفات المخطوطة. وهو عمل ـ في نظري ـ لم يسبق إليه بهذه الصفة.

وأما الفهرس الذي يوجد في كتاب «غاية الأماني في الرد على النبهاني» (٣١٥ ـ ٣٥١) فهو نافع أيضاً، ولكن عمل الفوجياني ـ رحمه الله ـ يفوق ذلك.

وهناك كتب ورسائل أخرى في سيرة شيخ الإسلام ودعوته وعلومه ومعارفه، منها:

١ ـ **حياة شيخ الإسلام وشرح مكانته في الدعوة والعزيمة**: هو تلخيص لما كتبه أبو الكلام آزاد في «التذكرة» قام به رجل من المحبين لهما.

٢ ـ **«ابن تيمية»**: مقال كتبه الأستاذ محمد بن شنب، وراجعه الأستاذ عبد المنان عمر، مطبوع في المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية (الأردية) في حوالي عشر صفحات على القطع الكبير.

٣ ـ **«الإمام ابن تيمية»**: ألّفه الأستاذ الدكتور أبو سلمان الشاهجهانفوري للأطفال وغيرهم الذين لا يستطيعون فهم الكتب العلمية، ودراستهم مزجاة.

٤ ـ **شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية (حياة وسيرة)**: للأستاذ أبي سلمان المذكور وطبع هذا الكتاب أولاً في مجلة «شتان» (الصخرة) للأستاذ شورش الكاشميري في عدة حلقات، ثم طبع في صورة كتاب من كراتشي. وهو يمتاز بأسلوبه السلس العذب، وسهولة الفهم والأخذ، ويستفيد منه طلبة العلم الذين بضاعتهم في العلم قليلة.

٥ ـ **عقليات ابن تيمية**: ألّفه الأستاذ محمد حنيف الندوي ـ رحمه الله ـ وكان معروفاً بذكائه وفهمه وعلمه بالمنطق والفلسفة القديمة منها والجديدة، وله دراسات وافية حول ابن خلدون والغزالي وابن تيمية. وكان

فيه رواسب من العقلانية من عهد ندوة العلماء ولكن مرافقته السلفيين وأئمة أهل الحديث أمثال الشيخ محمد داود الغزنوي، والشيخ محمد إسماعيل السلفي، والشيخ محمد عطاء الله حنيف الفوجياني وغيرهم أثرت فيه كثيراً فاختار منهج السلف.

ومن هذا المنطلق ألّف هذا الكتاب، ودرس فيه النواحي العقلية من سيرة شيخ الإسلام، وقارن بين أفكاره الصائبة في هذا المجال وبين الأفكار الزائغة للفلاسفة القدماء، وأثبت عبقرية شيخ الإسلام وإصابة فكره ونفوذ بصيرته في الموضوع.

ويزيد حجم هذا الكتاب عن خمسمائة صفحة، وهو نسيج وحده في بابه فإنه لم يؤلف في هذا الموضوع كتاب بهذا التفصيل يساويه في الدقة والتنظيم.

وقد ألّف في هذا الموضوع ـ في نظري ـ ثلاثة كتب أخرى:

(الأول): «مناهج البحث عند مفكري الإسلام» للدكتور علي سامي النشار وهو كتاب عام، لا يختص بشيخ الإسلام فقط.

(والثاني): «مقارنة بين الغزالي وابن تيمية» للدكتور محمد رشاد سالم وهو مختص بدراستهما دراسة مقارنة ولكنه مختصر جداً.

وكان مؤلف هذا الكتاب صاحب مكتبة ابن تيمية الذي قام بنشر معارفه تحقيقاً وتنقيحاً وترتيباً وتنظيماً، ولم يتمكن من إكمال هذه المكتبة القيّمة، وهذا العمل الجليل، وحالت المنية دون ذلك. والكمال لله وحده.

(والثالث): «منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري» للدكتور محمد حسني الزين.

* * *

وفي نهاية المطاف أنقل رأي الأستاذ المحقق والكاتب المدقق أبي سلمان الشاهجهانفوري الذي ذكره في كتابه حول شيخ الإسلام (بالأردية) فقال ما معناه:

«إذا كانت هناك جماعة قامت بنشر إفادات الإمام ابن تيمية ودعم حركته البنّاءة لإصلاح الأمة الإسلامية وجهوده العظيمة في سبيل تجديد معالم الإسلام، والتمسك بالكتاب والسنّة فهي جماعة أهل الحديث فقط. وكل من ذكرناه من مؤلفي الكتب عن شيخ الإسلام، وناقلي كتبه إلى الأردية هم سلفيون. وكل ما ذكرناه عن المؤسسات التي اهتمت بمؤلفاته سلفية. فجزاهم الله خيراً»[١].

* * *

وأخيراً، إن هذا الكتاب (دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة للأخ صلاح الدين مقبول أحمد) عبارة عن عرض تأريخ ونقد، وأخذ ورد، وتأييد ومعارضة لهذه الدعوة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

إذ يقدّم «مجمع البحوث العلمية الإسلامية» التابع لمركز «أبو الكلام آزاد» للتوعية الإسلامية هذا الكتاب إلى القراء الكرام يشكر الله العلي القدير على فضله وتوفيقه لطبعه، ثم يشكر مؤلفه على جهده الطيب، ويشكر العلامة الفاضل الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، (وكيل وزارة العدل، ورئيس مجمع الفقه الإسلامي بجدة) على قبوله التماس كاتب هذه السطور، فتكرم بقراءة مسودة هذا الكتاب. وأبدى بعض الملاحظات القيمة وحرر مقدمة علمية جامعة.

---

(١) مقدمة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية للشاهجهانفوري.

وكذلك يشكر «المجمع» فضيلة العلامة الدكتور ربيع بن هادي عمير المدخلي على أنه راجع الكتاب بطلب من المؤلف فأجاد وأفاد[1].

فجزى الله المؤلف والمقدم والمراجع أحسن ما يجازي به عباده الصالحين.

والحمد لله أولاً وآخراً. وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

نيودلهي: ٩/ ٩/ ١٤١٢هـ **عبد الحميد بن عبد الجبار الرحماني**

الرئيس العام

لمركز «أبو الكلام آزاد» للتوعية الإسلامية

● ● ●

(١) من الأمانة أن أبيّن أن هؤلاء المشايخ الثلاثة: (بكر أبو زيد، والمدخلي، والرحماني، حفظهم الله تعالى) راجعوا الطبعة الأولى من هذا الكتاب. أما هذه الطبعة الثانية المزيدة فلم يراجعوها. (المؤلف).



تمهيد المؤلِّف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التمهيد

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [سورة النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد:

فقد امتنّ الله عز وجل على الإنسانية الحائرة في التيه المعمى من الجهالات والضلالات، ببعثة المبشّرين والمنذرين من الأنبياء والرسل على

مدار التأريخ، ليخرجوها من غياهب الكفر والشرك إلى محجة الإيمان والتوحيد، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥ ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

قامت هذه النخبة المختارة من البشر بأداء رسالة الله إلى عباده بالتلاوة والتعليم والتزكية. وآخرها هو الرسول الخاتم ﷺ: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٤].

أتمّ الله تعالى نعمته على البشرية، وأكرمها بالإسلام: الدين الخالد القويم، والميزان الراجح السليم، والصراط السوي المستقيم.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

أرادت حكمة الله تعالى أن يكون الإسلام آخر الرسالات السماوية إلى أهل الأرض، ويكون رسوله آخر حلقة من سلسلة الأنبياء والمرسلين.

وقد أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله تحقيقاً لختم الرسالة، قوله:

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [سورة المائدة: ٣].

﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ ﴾ [سورة آل عمران: ٨٥].

إن معالم هذا الدين الحنيف واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار،

وأسسه محكمة لا تعرف الضعف والانهيار، وأصوله ثابتة لا تتبدل، وسننه دائمة لا تتغير ولا تتحول.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٧٧].

يبقى هذا الدين الخالد معززاً ومُكَرَّماً ما دامت السماوات والأرض، لأنه دين عالم الغيب والشهادة ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [سورة آل عمران: ١٩].

ولأنه دين رَضِيه رب العالمين للمسلمين منذ فجر التأريخ الإنساني ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

* * *

إن الكتاب والسنّة هما المصدران الأساسيان للإسلام، ولا تستغني الأمة عنهما في معرفة العقائد والأحكام، والعبادات والمعاملات، وغيرها من أمور المعاش والمعاد.

* أما الكتاب فأوحاه الله تعالى إلى عبده ورسوله محمد بن عبد الله النبيّ الأمي ﷺ وجعله دستور الحق والهداية، وبرّأه من الباطل.

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة فصلت: ٤١ ــ ٤٢].

إنه كتاب الله المجيد، خلا من العوج والأمت والتناقض والاختلاف.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة النساء: ٨٢].

* وأما السنّة فهي مُبيِّنَةٌ للقرآن، ومُفَصّلَةٌ لمجمله ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [سورة النحل: ٤٤].

إن السنّة أيضاً وحي[1] من الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [سورة النجم: ٣ ـ ٤].

إن اتباع الكتاب والسنّة يضمن كون الإنسان على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، وعلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم، والطريق القويم الذي يهدي إليه القرآن.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [سورة الإسراء: ٩].

قال ابن سيرين: «كانوا يرون أنه على الطريق ما كان على الأثر»[2].

فمن اتبع الكتاب والسنّة في السرّاء والضرّاء فقد آمن بالله واليوم الآخر واهتدى، ومن أعرض عنهما فقد ضلّ طريق الحق والصواب وغوى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [سورة النساء: ٥٩].

* * *

لما اعتزّت الأمة بنعمة الإسلام، واعتصمت بالكتاب والسنّة، وأقامت

---

(١) أخرج الدارمي في سننه (١/ ١٤٥) بإسناد صحيح عن حسان بن عطية قال: «كان جبريل ينزل على النبيّ ﷺ بالسنّة، كما ينزل عليه بالقرآن».

(٢) الدارمي (١/ ٥٤) بإسناد صحيح.

حكم الله في الأرض، وقامت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ــ عاشت أزهر عصرٍ من التأريخ البشري، وكانت رائدة مثالية في مجال العقيدة والعمل، والمنهج والسلوك، والسياسة والحكم، والاقتصاد والاجتماع، والتعاون والتكافل، والمساواة والمواساة:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩].

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المنافقون: ٨].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الصافات: ١٧١ ــ ١٧٣].

ولما ابتعدت الأمة عن منهل الإسلام الصافي من أكدار الكفر والشرك والإلحاد والزندقة، وتخاذلت عن القيام بهذا الدين العظيم، وتقاعست عن أداء رسالته ــ تدلّت إلى حضيض الذل والهوان، وتقاذفت بها البدع والأهواء، وأصيبت بداء الأمم، وتطرقت إليها رواسب الملل الأخرى.

هكذا تلوّثت عقيدتُها بفلسفات الهند والروم واليونان، وتسرّبت إليها البدع والخرافات باسم الدين والإيمان، التي شوهت جمال الإسلام. واختلط الحابل بالنابل والحق بالباطل حتى عند كبار قضاة الدولة وفقهائها، فضلاً عن العوام الذين هم كالأنعام!!.

* * *

وفي هذه الفترة الدقيقة من الزمن بلغ الأمر بالناس إلى أن رضوا بما رضي به القضاة والفقهاء. وضعفت همم العلماء الآخرين، وتخلّوا عن مؤهلاتهم الاجتهادية، واستكانوا ـ أحياناً ـ عن القيام بواجب الدعوة والإرشاد أمام علماء البلاط الرسمي، خوفاً من الوشاية بهم إلى الدولة، وتفادياً من قهرها وبطشها.

زاد الطين بلّة والقلب علّة نشوء الفُرقة بين الأمة، فوقعت كل فرقة منها ـ لأجل ضعفها في التمسك بالإسلام، وانحرافها عن هدى الكتاب والسنّة ـ فريسةً لأهوائها، فجَرَّت المتاعب والويلات إلى الأمة، وجَلَّلت الحقائق ببدعها، وحَرَّفت الكلم عن مواضعه، وغيّرت مفاهيم هذا الدين الخالد نحو كثير من أمور العقائد والأحكام.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود: ١١٨ ـ ١١٩].

في خضم هذه الفتن والمحن، يُفْتَح باب محزن من تأريخ هذه الأمة، بنشأة بدع الحرورية، والخوارج، والمعتزلة، والجهمية، والمرجئة، والوعيدية، والقدرية، والجبرية، والرافضة، والشيعة، والصوفية، والمقلّدة، والفلاسفة والمتكلمين وغيرهم من أهل البدع والأهواء.

وصدق فيهم قول النبيّ ﷺ:

«إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة»[١].

---

(١) أحمد (٤/١٠٢) واللفظ له، وأبو داود (رقم ٤٥٩٧) عن معاوية بن أبي سفيان =

كم يشعر بالمرارة والألم من في جنبه قلب مؤمن بالله، نابض بالغيرة على الإسلام، حين يشاهد في كتب التأريخ نعي هذه الأمة:

أمة الإيمان بالله.

أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمة التأريخ الحافل بالأمجاد، والبطولات، التي استطاعت بعقيدتها القوية، وجرأتها الإيمانية، أن تقطع شوطاً بعيداً في تعزيز قواتها في وجه الباطل، وفرض هيمنتها على البلاد، وأن تغيّر مجرى الحياة الإنسانية، وتقيم دولة مثالية يبقى عصرها غرَّة على جبين التأريخ الإنساني كله.

هذه الأمة تهوي إلى حضيض الذل والهوان، وتعود لتبتعد عن مصادر القوة في دينها وتحيد عن الكتاب والسنّة في هديها، وتتخلى عن شريعة السماء في حياتها، وتفسح مجالاً للهرطقة والشعوذة في عقيدتها، وتغالي للدنيا في حُبِّها، وتترك الجهاد في تقرير مصيرها.

هكذا غُلِبَت هذه الأمة، وذَلَّت أمام أعدائها بعد أن كانت عزيزة غالبة. وصارت أضيع من الأيتام على مائدة اللئام، مع كثرتها. وحق فيهم قول النبي ﷺ:

«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: أمن قِلَّةٍ نحن يومئذ؟.

قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن.

= ـ رضي الله عنه ـ راجع التفصيل عن هذا الحديث في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للشيخ الألباني (رقم ٢٠٤).

فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟!.

قال: حب الدنيا وكراهية الموت»(١).

* * *

إن الناظر في تأريخ هذه الأمة المتلاطم بالوقائع والأحداث، يرى مداً وجزراً بين الفينة والأخرى.

ومن طبيعة هذه الأمة على مدار تأريخها الطويل أنها تنمو وترقى وتزدهر تارة، وتنحطّ وتتدلى وتخمد تارة أخرى، حتى يخشى أن دورها قد انقرض، وأمرها قد انتهى.

ولكن الأمر ليس كذلك، بل يستبشر في مثل هذه الظروف الصعبة بضمان الله عزّ وجلّ حفظ دينه بحفظ كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحجر: ٩].

ويستبشر بأن الطائفة المنصورة التي بشّر بها النبيّ ﷺ من أمته كانت ولا تزال حتى تقوم الساعة:

«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس»(٢).

---

(١) أبو داود (رقم ٤٢٩٣)، وأحمد (١/ ٢٧٨) بإسناد صحيح عن ثوبان ــ رضي الله عنه ــ.

(٢) البخاري (٦/ ٦٣٢)، ومسلم (رقم ١٠٣٧) واللفظ له عن معاوية وغيره من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ.

وفق الله تعالى أفراد هذه الطائفة الظاهرة في كل فترة دقيقة من تأريخ هذه الأمة ليقوموا بإحياء ما اندرس من معالم هذا الدين الحنيف، وإصلاح ما فسد من الأمور، وإزالة ما شوّه جمال الإسلام، دون أن يخافوا في الحق لومة لائم، وذلك بالدعوة إلى التمسك بهدي الكتاب والسنّة، وبالقضاء على الأفكار الدخيلة في عقائد الأمة، والعودة بها إلى نقاوة الإسلام.

لقد أدى الصحابة ــ رضي الله عنهم أجمعين ــ هذا الواجب العظيم، وتولاه من بعدهم من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣]، وبشر النبيّ ﷺ أن الله تعالى يقيض لهذه الأمة رجالاً في كل قرن يجددون لها أمر دينها، فقال ﷺ:

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها»[١].

• • •

(١) أبو داود (رقم ٤٢٩١)، والحاكم في المستدرك (٤/٥٢٢) وسكت عليه ووافقه الذهبي وإسناده صحيح راجع «الصحيحة» للألباني (رقم ٥٩٩).



الباب الأول

الخطوط العريضة لحياة شيخ الإسلام ابن تيمية ودعوته المباركة

الباب الأول
الخطوط العريضة لحياة
شيخ الإسلام ابن تيمية ودعوته المباركة

لم يخل التاريخ الإسلامي على مداره الطويل من أئمة الهدى، ورجالات التجديد والإصلاح، وأعلام الدعوة إلى الله تعالى، الذين اقتدوا بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، في العقيدة والعمل، والتوجيه والإرشاد، والهمة والإرادة، والبطولة والشجاعة، والمخاطرة والمغامرة، والجهاد والكفاح، والاستهانة بالحياة الدنيا والتفاني في سبيل الله تعالى.

ومن هؤلاء الأعلام البارزين في ساحة الدعوة، الذين تتجمل صفحات التاريخ الإسلامي بأعمالهم الخالدة، ومآثرهم الجليلة: العلامة المجاهد، الإمام الربّاني شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (٦٦١ ــ ٧٢٨هـ) رحمه الله تعالى[١].

---

(١) من أهم مصادر ترجمته:

* تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/٢٧٨ ــ ٢٧٩).
* البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ١٣٢ ــ ١٤١). =

عصره ونشأته:

نشأ شيخ الإسلام في عصر كان يموج بالاضطراب الديني والسياسي، وتعرضت فيه البلاد الإسلامية لغزوها من الداخل والخارج، ومني الإسلام فيه بأخطار عظيمة، ومنها:

* غزو الصليبيين بلاد المسلمين.

* وخيانة الفاطميين بانحيازهم إلى الصليبيين ضد المسلمين.

* وغزو التتار للبلاد الإسلامية.

= * العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادي.
* الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي ـ ط زهير الشاويش ١٩٨٠ ـ ١٤٠٠هـ المكتب الإسلامي.
* الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية ـ لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي.
* جلاء العينين بمحاكمة الأحمدين للآلوسي.
* ابن تيمية السلفي لمحمد خليل هراس.
* ابن تيمية: حياته وعصره لمحمد أبو زهرة.
* شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد بهجة البيطار.
* ابن تيمية بطل الإصلاح الديني لمحمود مهدي الاستامبولي.
* الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية لأبي الحسن الندوي.
* ابن تيمية وفكره السياسي للأستاذ قمر الدين خان.
* الفكر التربوي عند ابن تيمية لماجد الكيلاني.
* شيخ الإسلام ابن تيمية وسيرته وأخباره عند المؤرخين لصلاح الدين المنجد.
وغيرها من كتب التراجم المهمة التي تتناول عصره ـ رحمه الله ـ.

* والانقسام الداخلي في دول المسلمين.

* وفساد الملوك والأمراء، وبُعْدُهم عن الإسلام.

* وشيوع التقليد الجامد، بحيث بدأ كل مذهب فقهي يعتبر ديناً مستقلاً بذاته.

* وانتشار الشعوذة والهرطقة والإلحاد والزندقة، في أوساط المسلمين، بتأثير من أصحاب البدع والأهواء من الشيعة والرافضة، والصوفية والباطنية.

لقد أعدّ الله عزّ وجلّ ابن تيمية منذ نعومة أظفاره، إعداداً ربانياً لمقاومة هذه الأخطار التي كانت تهدد بلاد الإسلام من الداخل والخارج، فأكبّ على طلب العلم «ومهر في الفضائل، وأهّل للفتوى والتدريس، وله دون العشرين، وأمده الله بكثرة الكتب، وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتى قال غير واحد: «إنه لم يكن يحفظ فينسى»[1].

عوامل مكونة لشخصيته النادرة:

وقد ساعدت عدة عوامل على تكوين شخصيته النادرة، ومنها:

* قوة ذاكرته التي يقلّ نظيرها باعتراف كبار معاصريه.

* قوة حجته عند مناقشة المسائل.

* استحضاره نصوص الكتاب والسنّة في استنباط الأحكام.

* استقلاله من رواسب التعصب المذهبي، وترجيحه المسائل في ضوء الأدلة.

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦/ ٨١).

* إخلاصه في تنقية العقائد من شوائب الشرك والوثنية، وتفانيه في إنقاذ المسلمين، من غياهب البدع والخرافات.

* شجاعته النادرة في تبيان الحق، وصراحته في القول بدون خوف لومة لائم.

* شخصيته المحببة لدى العامة من الناس لأجل قيامه بالنصح لهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بينهم.

وإذا توفرت هذه المواهب الإلهية في عالم من علماء الإسلام لا ريب أنه يفعل الأفاعيل، ويأتي بالأعاجيب، ويقوم بما يتقاصر دونه كبار الدعاة، ويكون حقاً «أشبه رجل بنبيٍّ في دنيا الرجال»[1].

مـهـمـاتـه:

لقد قام شيخ الإسلام ابن تيمية، بكل قوة وهمة، وثقة واعتماد، لمواجهة الأخطار التي داهمت البلاد الإسلامية من الداخل والخارج، فشن حملة شعواء على أهل الأهواء والبدع من الزنادقة والملاحدة، والروافض والشيعة، والصوفية والمشعوذين، وحارب العقائد الشركية والمعتقدات الوثنية، ونقد المسيحية واليهودية نقداً علمياً، وفند المغالطات العلمية، والألغاز المنتشرة في الطوائف الدينية، ورد على التقليد الجامد، والتعصب الأعمى للمذاهب، ونقّى العقائد الإسلامية من الشوائب، ودعا إلى الدين الخالص.

---

(١) من كلام الشيخ أبي بكر جابر الجزائري في مجلة الجامعة الإسلامية (ص ١٦٩)، راجع «لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق (ص ٥١) طبعة (جمعية إحياء التراث الإسلامي ـ الكويت).

وأفتى بالجهاد ضد التتار، وحرّض العامة من الناس على قتالهم فضلاً عن الجنود والأمراء، وخرج بنفسه مع الجيش لملاقاتهم.

تـلامـذتـه:

وربّى شيخ الإسلام جيلاً عالماً مجاهداً، شارك معه في السراء والضراء، في القتال ضد التتار، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقوة، وفي السجون والمعتقلات، كما شارك معه في الدعوة والإرشاد، والتدريس والإفادة، والإفتاء والكتابة، والتصنيف والتأليف.

وما نراه الآن من كثير من الكتب المعتمد عليها لدى طلبة العلم في مختلف العلوم الإسلامية فهي من تأليف تلاميذه وتلاميذهم، الذين ملأوا الدنيا علماً وفضلاً، ولا يمكن لطلبة العلم والتحقيق أن يستغنوا عنها أبداً.

ومن تلاميذه الأعلام:

* علم الدين البرزالي (ـ ٧٣٩هـ) صاحب التاريخ، والمعجم، والمؤلفات الكثيرة.

* وجمال الدين المزي (ـ ٧٤٢هـ) صاحب تهذيب الكمال في الرجال.

* ومحمد بن أحمد بن عبد الهادي (ـ ٧٤٤هـ) صاحب الصارم المنكي، والأجزاء المفيدة في الحديث وغيره.

* وشمس الدين الذهبي (ـ ٧٤٨هـ) صاحب تذكرة الحفاظ، وميزان الاعتدال، وغيرهما من الكتب النافعة.

* وابن قيم الجوزية (ـ ٧٥١هـ) صاحب زاد المعاد، وإعلام الموقعين، وغيرهما من الكتب القيمة.

وأبو الفداء ابن كثير الدمشقي (ـ ٧٧٣هـ) صاحب التفسير، والبداية والنهاية، وغيرهما من التآليف المفيدة.

وغيرهم من كبار علماء ذلك العصر ـ رحمهم الله تعالى ـ .

قال الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ـ ٨٥٢هـ) صاحب «فتح الباري»:

«لو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية ـ صاحب التصانيف النافعة السائرة، التي انتفع بها الموافق والمخالف ـ لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته.

فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم، والتميز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره من الشافعية وغيرهم، فضلاً عن الحنابلة[1].

وكذا تلميذه الإمام الذهبي له فضل على الأمة لا ينسى في تأليف كتب التراجم والرجال.

وذكر السخاوي وقيعة[2] التاج السبكي في الذهبي ثم قال:

---

(١) الرد الوافر (ص ٢٣١).

(٢) وقع التاج السبكي في شيخه الإمام الذهبي في كتابه «قاعدة في الجرح والتعديل» (٣٢ ـ ٤٠) أيّما وقيعة، ونسبه إلى أنه يقع في أهل السنّة الأشعرية» قال السخاوي: «... وهو على تقدير تسليمه إنما هو في أفراد مما وقع التاج في أقبح منه» حيث قال فيما قرأته بخطه تجاه ترجمة سلامة الصيّاد المنبجي الزاهد ما نصه:
«يا مسلم استحي من الله كم تجازف، وكم تضع من أهل السنّة الذين هم الأشعرية، ومتى كانت الحنابلة، وهل ارتفع للحنابلة قطّ رأس».
وهذا من أعجب العجاب، وأصحب للتعصب، بل أبلغ في خطأ الخطاب، ولذا =

«. . . ويكفينا في جلالته شرب شيخنا (أي الحافظ ابن حجر) ماء زمزم لنيل مرتبته كما سبق، وهل انتفع الناس في هذا الفن بعده، وإلى الآن بغير تصانيفه، والسعيد من عدّت غلطاته[1].

نوعية تأليفاته وكتاباته:

أما كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية في المجالات المختلفة، فتعتبر نادرة من نوادر تاريخ التأليف.

تمتاز كتاباته بقوة الحجة في بيان العقائد، وشرح الأصول، وبقدرته العجيبة على إلزام الخصوم، وباطلاعه المدهش على الخلافيات، وسعَة أُفْقِهِ في العلوم والفنون، وبالقول الفصل في القضايا المختلف فيها بين العلماء، وبسرد الأدلة من الكتاب والسنّة وأقوال السلف الصالح بحيث تنشرح لها الصدور، وتطمئن إليها القلوب.

وكم احتوت كتب ابن سينا، والغزالي، والرازي، وابن رشد، وغيرهم من الفلاسفة على المقالات السخيفة، والآراء الضعيفة حتى في أصول العقائد، ففتشها شيخ الإسلام على السنة المحضة، وأزال الأباطيل والترهات والشكوك والمخالفات المنتشرة في ثناياها.

= كتب تحت خطه بعد مدة، قاضي عصرنا شيخ المذهب العزّ الكناني ما نصه:
«وكذا والله ما ارتفع للمعطلة رأس».
ثمّ وصف التاج بقوله: «هو رجل قليل الأدب، عديم الإنصاف، جاهل بأهل السنّة ورتبهم، يدلّك على ذلك كلامه» (الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ» للسخاوي (ص ١٠١) تحقيق روزنثال. طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

(١) الإعلان بالتوبيخ (١٣٥، ١٠٤).

وكذلك كان كذب الرافضة، وحلول ابن عربي، ودجل الرفاعية والحشاشين ينطلي على كثير من العامة، فكشف عن نواياهم، وفضحهم على رؤوس الأشهاد، وحذر المسلمين من مؤامراتهم ضد الإسلام.

وقد اعترف الموافقون والمخالفون بإبداعه في التأليف والتصنيف، وكمال تضلّعه في العلوم، وتبحره في اقتناص اللآلىء والدرر من نصوص الكتاب والسنّة.

* وقال القاضي أبو المعالي محمد بن علي الزملكاني (ـ ٧٢٧هـ) الذي تولّى مناظرة شيخ الإسلام غير ما مرة معترفاً بإمامته، وفضله وبره:

«كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله.

وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها ـ إلا فاق فيه أهله، والمنسوبين إليه.

كانت له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب، والتقسيم والتبيين»[1].

* وقال محمد راغب باشا (ـ ١١٧٦هـ) وهو أحد مخالفي شيخ الإسلام:

«ولكن يظهر للناظر فيه [أي في درء تعارض العقل والنقل] أن الرجل

---

(١) الرد الوافر (١٠٣ ـ ١٠٥).

على علّاته كيف كان شجرة في العلوم، واقتداره على إلزام الخصوم، مع ما يستفيد منه فوائد لا يستغنى عن اقتنائها الطالب، ولا ينثني عن اصطيادها من هو في اقتناص الشوارد راغب»[1].

هذا من ثناء بعض خصومه على كتاباته وتأليفاته.

والفضل ما شهدت به الأعداء.

وقد نشر الله عز وجل علمه بكتاباته النافعة القيمة التي تبلغ خمسمائة مجلدة[2] وبتلاميذه الأوفياء البررة الذين أنشأ فيهم حب منهج السلف الصالح، والاعتصام بالكتاب والسنّة، ونشر العقيدة الصحيحة، وكذا حب الجهاد في سبيل الله، واستعذاب المحن والشدائد في السجون والمعتقلات، ولم يكن خيره محصوراً على تلاميذه، بل لم يحصل لأهل عصره ما حصل له من الحب والإكرام من قبل الخاصة والعامة من الناس، وذلك لأجل قيامه بإفادتهم في جميع الأوقات.

قال ابن رجب:

«كانت العلماء والصلحاء، والجنود والأمراء، والتجار وسائر العامة تحبه لأنه ينتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه وعلمه»[3].

منهجه في الدعوة والتجديد:

كان منهج شيخ الإسلام في الدعوة والتجديد، والتوجيه والإرشاد، هو

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٤ ـ ٢٥) من سماعات النسخة (طبعة جامعة الإمام ١٣٩٩= ١٩٧٩م).

(٢) العقود الدرية (ص ٢٥).

(٣) شذرات الذهب (٦/ ٤٨).

منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من أعلام هذه الأمة.

ومن مميزات هذا المنهج أنه يخلو من سوابق الأنانية وحب الذات[1]، ورواسب التعصب والتحيّز، ومفاسد الجمود والركود، وعقد المنطق والفلسفة وأوحال الحلول والاتحاد، وينبني على اتباع الأدلة من الكتاب والسنّة، اللذين يضمنان حياة سعيدة مستقيمة، لا شقاء فيها ولا عناء، ولا انحراف فيها ولا ضلال ويتمثلها حديث: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنّة نبيّه»[2].

وحديث: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[3].

وبيّن الأستاذ محمد عبد الهادي المصري سبب اختيار كتابات شيخ الإسلام لتوضيح معالم الانطلاقة الكبرى عند أهل السنّة فقال:

«ولعل شخصاً يسأل: ولماذا كتابات شيخ الإسلام بالذات؟ ولقد أجبنا

---

(١) راجع «أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام» للشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني (ص ٢٧).

(٢) الموطأ للإمام مالك (٢/ ٨٩٩ ــ ط فؤاد عبد الباقي)، والحديث من بلاغيات الإمام مالك، ومال العلامة الألباني إلى تصحيحه من حيث عدّ حديث «...كتاب الله وعترتي أهل بيتي» شاهداً قوياً لحديث الموطأ هذا، بعدما ذكر «وعترتي أهل بيتي» في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٧٦١) لأنه يوافق لفظ «وسنّة رسوله».

(٣) جزء من حديث العرباض بن سارية، رواه أحمد (٤/ ١٢٦) وابن ماجه في المقدمة رقم (٤٣) بإسناد صحيح.

عن جانب من هذا السؤال، وهو أننا لم نجد ــ في حدود علمنا وبحثنا ــ من تناول هذا الموضوع بالعمق والشمول والتفصيل الذي تناوله به شيخ الإسلام.

والجانب الآخر هو أن الإمام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ واحد من الأئمة الأعلام الذين لا خلاف بين المسلمين المنتسبين للسنّة على اختلاف مذاهبهم وتياراتهم، على أنه يمثل أحد المرتكزات الشامخة علماً وعملاً على مدار تاريخ أهل السنّة كلها.

فقد اطّلع ــ رحمه الله ــ على علم وفضل الأئمة السابقين فحفظه وتمثله بوعي وفهم دقيقين، واجتهد في تفسيره وشرحه وتفصيله، حتى بلغ في ذلك مبلغاً عظيماً.

ولعلنا لا نغالي أو نبالغ إذا قررنا أن أغلب ما قرأناه من تراث الأئمة اللاحقين عليه ــ في هذا المجال ــ كان عالة عليه ونقولاً عنه أو إعادة عرض لشروحه وتفسيراته، وأيضاً فإن الحياة العريضة التي عاشها هذا الإمام، والفتن والملاحم التي خاضها فكراً وسلوكاً وعلماً وعملاً، والمحن التي عاشها أهل السنّة في عصره، صبغت اجتهاداته وفتاواه، وقد أعطت لها عمقاً خاصاً لنا نحن أبناء هذا العصر...»[1].

مجالات الدعوة والتجديد:

اختار شيخ الإسلام هذا المنهج النبويّ في الدعوة والتجديد، الذي يشمل جميع مجالات الحياة الإنسانية، وأدى خدمة جليلة لا تنسى في

---

(١) أهل السنّة والجماعة ــ معالم الانطلاقة الكبرى (١٢ ــ ١٣) دار طيبة بالرياض ١٤٠٨هـ.

إصلاح الأحوال الدينية، والسياسية، والاجتماعية، وإليكم الخطوط العريضة لمجالات[1] الدعوة والإرشاد التي خاضها شيخ الإسلام بكل جدارة بفضل الله تعالى ومنّه:

(أ): الدعوة للإصلاح السياسي:

ركّز ابن تيمية في هذا المجال على أمور ثلاثة:

(الأول): بناء تصور سليم للحكم الإسلامي:

خلاصة هذا أنه لا يكفي أن تكون الدولة الإسلامية والإدارة فيها قوية فحسب، وإنما يجب أن تكون منسجمة أيضاً مع الأصول الواردة في القرآن والسنّة، وكما طبقها السلف الصالح.

وقد وضح شيخ الإسلام كثيراً من آرائه في الإصلاح السياسي في كتابيه: «السياسة الشرعية» و«الحسبة في الإسلام»[2].

(الثاني): إقامة حكومة قوية:

سعى شيخ الإسلام لتحقيق هذا الجانب، إلى إقامة العلاقات بأمراء المماليك وإقناعهم بمنهج الكتاب والسنّة في الحكم، حتى قيل في عدد من هؤلاء أنهم من تلاميذه وأتباعه، أمثال:

* زين الدين كاتوبغا المنصوري (ـ ٧٠٢هـ) الذي كان حاكم حماة[3].

---

(١) راجع بعض التفاصيل عن ميادين الإصلاح التي تناولها شيخ الإسلام، في كتاب «الفكر التربوي عند ابن تيمية».

(٢) الفكر التربوي (٥٣ ــ ٥٤).

(٣) شذرات الذهب (٦/ ٥).

* وأرغون شاه الناصري (ــ ٧٠٥هـ) الذي تولى منصب نائب السلطان في مصر وحلب ودمشق[١].

* والأمير سلار، نائب الملك ناصر بن قلاوون (ــ ٧٠٩هـ)[٢].

* والأمير حسام الدين مهنا بن عيسى الطائي (ــ ٧٣٥هـ) ملك العرب، الذي أخرج شيخ الإسلام من السجن سنة ٧٠٧هـ معظّماً له ومكرّماً[٣].

* السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ــ ٧٤١هـ) الذي عاد للسلطنة سنة ٧٠٩هـ، بعدما قَتَلَ الجاشنكير الجركسي. وكان أول عمل له إطلاق سراح ابن تيمية من منفاه في الإسكندرية[٤].

(الثالث): بعث روح الجهاد والمقاومة لمواجهة الأخطار الخارجية:

ومن إنجازات شيخ الإسلام في هذا الميدان:

* نجاحه في إقناع قازان الثاني أن لا ينهب دمشق خلال الغزو المغولي عام ٦٩٩هـ. وتكلّم مع قازان كلاماً أثار دهشة الحاضرين. حتى قازان نفسه تعجّب من جرأته وشجاعته في الحق[٥].

---

(١) المصدر المذكور (٦/ ٢٧٧).

(٢) المصدر المذكور (٦/ ١٩).

(٣) المصدر المذكور (٦/ ١١٢).

(٤) المصدر المذكور (٦/ ١٣٤).

(٥) البداية والنهاية (١٤/ ٨٩).

* لما جاوز قازان المغولي بجيشه الفرات عام ٧٠٠هـ، وقصد حلب وأخذ الناس يتركون البلاد طلباً للنجاة من شراسة المغول. قام شيخ الإسلام يحث الناس على الجهاد، واجتمع بالأمراء، وذهب إلى القاهرة يسأل السلطان محمد بن قلاوون الدفاع عن الشام[١].

* وفي عام ٧٠٢هـ حين لاح خطر المغول مرة ثالثة، كان شيخ الإسلام في الصف الأول من المعركة. وأصدر فتوى بالإفطار للمقاتلين، وكان لوجوده الأثر الكبير في الانتصار في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ[٢].

* وفي عام ٦٩٩هـ، وكذلك في عام ٧٠٤هـ شارك شيخ الإسلام في الحملة ضد الإسماعيلية، في جبل كسروان، الذين كانوا يتعاونون مع الصليبيين والمغول[٣]، فاستتابوا خلقاً منهم، وألزموهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيداً ومنصوراً[٤].

(ب) الدعوة للعدالة الاجتماعية:

اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الواجبات الدينية جزء مكمل للحياة الاجتماعية وأن أركان الإسلام الخمسة تتجسّد في العدل الاجتماعي.

ولتجسيد النظام الاجتماعي في واقع الحياة، وتسهيل تصوّره عمل شيخ الإسلام على إشاعة نظام التربية على منهج أهل السنّة، ضد النظم

---

(١) المصدر المذكور (١٤/ ١٥ ــ ١٦)؛ وشذرات الذهب (٥/ ٤٥٥).

(٢) شذرات الذهب (٦/ ٤).

(٣) الفكر التربوي (ص ٥٥).

(٤) البداية والنهاية (١٤/ ١٢، ٣٥).

التربويـة الأخـرى الـتي فتّتت المجتمـع إلى مذاهب متناحرة، وطرق متنافرة.

ويقدّم كتاب «الحسبة في الإسلام» إطاراً مفصّلاً لهذا النظام الذي يغطّي كل مظاهر الحياة الدينية والدنيوية، والمعاملات التجارية، والحرف المهنيّة والخدمات العامة[1].

(ج) الدعوة للقضاء على انحرافات الفرق الضالّة:

بذل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ جهوداً جبارة في تصحيح عقائد المسلمين، لأنه هو الهدف الأول الشريف لبعثة الأنبياء والرسل. فمن تكون دعوته على منهج الأنبياء يقدّم جانب تحقيق توحيد الله في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته، على الجوانب الأخرى من الإصلاحات في الحياة الإنسانية.

ومعلوم أن شيخ الإسلام نشأ في إطار المذهب الحنبلي، ولكنه فضّل التمسك بالكتاب والسنّة في العقائد والأحكام، من دون أن يتقيّد بمذهب معين. وصرّح بهذا الأمر قائلاً:

«مع أني في عمري إلى ساعتي هذه، لم أدعُ أحداً قطّ في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها.

وقد قلت لهم غير مَرَّةٍ: أنا أمهل من يخالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلتُه فأنا أقرّ بذلك.

---

(١) الفكر التربوي (ص ٥٥).

وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بألفاظهم، وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف[1].

انطلاقاً من هذا الموقف العادل المستقيم قام شيخ الإسلام بنقد مدارس الفكر المعاصرة في ضوء الكتاب والسنّة وأقوال السلف الصالح. وشمل نقده مدرسة الفلاسفة والمتكلمين، ومدرسة الصوفية والروافض وغيرها من المدارس المنحرفة عن الخط المستقيم الذي حدّدَه الكتاب والسنّة[2].

● ● ●

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٢٢٩).

(٢) راجع الفكر التربوي (١٧٢ ـ ١٩٣).

ابتلاءات شيـخ الإسلام

ابتلاءات شيـخ الإسلام

إن الابتلاء في سبيل الله تعالى سنّة الأنبياء والرسل عليهم السلام، قال ﷺ:

«أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه. فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»[1].

بيّن شيخ الإسلام أن الذي يجمع بين الصبر والإيمان عند الشدائد والمحن ينتقم الله عز وجل له من حزب الشيطان فقال:

«والله محقق ذلك ومنجز وعده في السر والإعلان، ومنتقم من حزب الشيطان لعباد الرحمن.

لكن بما اقتضته حكمته، ومضت به سننه من الابتلاء والامتحان، الذي

---

(١) الترمذي (رقم ٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (رقم ٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٢) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ فقال: الأنبياء، ثم...».

يخلص الله به أهل الصدق والإيمان من أهل النفاق والبهتان. إذ قد دلّ كتابه على أنه لا بد من الفتنة لكل من الداعي إلى الإيمان، والعقوبة لذوي السيئات والطغيان. قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [سورة العنكبوت: ١ ــ ٤].

فأنكر سبحانه على من يظن أن أهل السيئات يفوتون الطالب وأن مدعي الإيمان يتركون بلا فتنة تميّز بين الصادق والكاذب»[(١)].

كم تعب العلماء في أداء أمانة العلم عبر التاريخ الإسلامي الطويل؟

وكم أوذوا لأجل صمودهم على الحق رغم أنوف خصومهم من أهل البدع والأهواء؟

وكم خاضوا أفضل جهاد بقولهم الحق عند سلطان جائر؟

من هؤلاء العلماء الأبطال الذين أوذوا في سبيل الله: شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ.

قال تلميذه الإمام الذهبي:

«ولقد نصر السنّة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدّعوه وناظروه، وكابروه، وهو ثابت لا يداهن

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ٢١٢).

ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أدّاه إليه اجتهاده، وحدّة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر منه من الورع، وكمال الفكرة، وسرعة الإدراك والخوف من الله العظيم.

فجرى بينه وبينهم من حملات حربية، ووقعات شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجّيه الله تعالى، فإنه دائم الابتهال كثير الاستغاثة، قويّ التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية»[1].

لما كانت جهود شيخ الإسلام ابن تيمية متعددة الجوانب، مترامية الأطراف ولم يتغاض عما كان يجري حوله في البلاد الإسلامية من فتن داخلية وخارجية، وبعد عن الإسلام، وانغماس في الشرك والشعوذة، وانشغال بالمنطق والفلسفة.

لما حصل ذلك كله وقف حياته النابضة بالحركة والعمل، والغيرة على الدين لبعث الروح الإسلامية الأصيلة في الناس، وقام بطمس مظاهر الشرك والوثنية، والبدعة والهرطقة، وكَشَفَ النقاب عن أفكار الفلاسفة والمتكلمين، وحمى البلاد عن أعداء الإسلام.

أسباب حقيقية لابتلاءاته:

لما كانت مهماته مركّزة على الأعداء، ومقلقةً لهم جداً، كان ولا بد أن تصل إليه شظايا هذه المعارك المتعددة الجهات، ويمكن تلخيص أسباب محنه وابتلاءاته في النقاط التالية:[2]

---

(١) العقود الدرية (١١٧ ــ ١١٨)، والرد الوافر (٧٠ ــ ٧١).

(٢) الفكر التربوي (ص ٥٩).

١ ـ **حسد الأقران** من القضاة والفقهاء وعلماء الدولة الذين لم يبلغوا إلى ما بلغ إليه من العلم والفضل والمنزلة عند العامة والخاصة[1]:

حسدوا الفتى إن لم ينالوا علمه ... فالقوم أعداء له وخصوم

٢ ـ **مؤامرة المتآمرين على دولة المماليك**، في القضاء على عناصر القوة ورجال الدعوة والإصلاح.

كتب شيخ الإسلام رسالة من السجن سنة ٧٠٦هـ، فذكر فيها ما خاطب به أمين الرسول الطيبرسي من مؤامرات الأعداء فقال:

«هذه القضية ليس الحق فيها لي، بل لله ولرسوله وللمؤمنين من شرق الأرض إلى مغربها... فإن الذين أثاروها من أعداء الإسلام الذين يبغضونه، ويبغضون أولياءه، والمجاهدين عنه، ويختارون انتصار أعدائه من التتار ونحوهم.

هم دبّروا عليكم حيلةً يفسدون بها ملتكم، ودولتكم، وقد ذهب بعضهم إلى بلدان التتار، وبعضهم مقيم بالشام وغيره. ولهذه القضية أسرار لا يمكنني أن أذكرها، ولا أسمّي من دخل في ذلك حتى تشاوروا نائب السلطان فإن أذن في ذلك ذكرت لك ذلك...

ولكن تعرفون من حيث الجملة أنهم قصدوا فساد دينكم ودنياكم...»[2].

---

(١) سيأتي توضيحه في مبحث «حياته في السجون والمعتقلات» وكذلك في «الباب الرابع» من هذا الكتاب إن شاء الله.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ٢١٤ ـ ٢١٥).

٣ ـ **طبيعة العلاقات** التي ربطت ابن تيمية بأمراء المماليك وسلاطينهم. فإنهم كانوا يتزلّفون إليه لأجل شعبيته الكبيرة. وكانوا يحاولون أن يجعلوه أداة طيعة في أيديهم، ولكن شيخ الإسلام كان أرفع من أن يقع في شباكهم. بل كان يعاملهم معاملة التلاميذ، ويأمرهم وينهاهم، ويحرجهم كثيراً. فما كان لهم إلا أن يستغلوا فتاوى الفقهاء ضده، ويحكم القضاة على حبسه، ليتخلّصوا من صموده.

وأقرب مثال لهذا هو الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي رجع إلى الحكم سنة٧٠٩هـ مرة ثانية. فكان أول عمل قام به هو إطلاق سراح شيخ الإسلام ولكن لما وضع ابن تيمية كتابه «السياسة الشرعية» انقلب عليه، وسجن في عصره وتوفّي في السجن، لأن دعوته لا تعرف في الحق أي مجاملة[١].

هذه هي الأسباب الحقيقية لاضطهاد ابن تيمية، ولكن أعداءه كانوا يتستّرون باتهامهم إياه بأمور باطلة، ذريعةً لتحقيق أهدافهم.

ومن هذه الافتراءات[٢] أنهم رموه:

* بالتجسيم، لأنه أثبت من الصفات ما وصف الله تعالى به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

* وبمنع زيارة قبر النبيّ ﷺ وغيره من الأنبياء. وهذا افتراء على شيخ الإسلام، وقد بيّن في عديد من كتبه بأنهم حرّفوا كلامه. والذي

---

(١) راجع «البداية والنهاية» (١٤/ ٥٤).

(٢) راجع حقيقة هذه الافتراءات في «الباب الرابع» من هذا الكتاب.

يراه هو أنه لا يجوز شدّ الرحال إلى القبر، لما ورد في حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...»[1].

هناك فرق بين زيارة القبر وشدّ الرحال إليه. فالأول مأمور به شرعاً، والثاني منهي عنه.

* وبإهانة الأنبياء والصالحين: لأنه لا يرى التوسل بذواتهم وأشخاصهم وبجاههم ومرتبتهم.
* وبالخروج على الإجماع: لأنه ينتقد المذاهب في ضوء الأدلة، ويذهب إلى ما يؤدي إليه اجتهاده، بدون أن يتقيّد بمذهب معين.

تناول شيخ الإسلام في كتبه هذه القضايا بالرد والمناقشة في ضوء الأدلة من الكتاب والسنّة، بحيث لا يستغني عنها أي باحث عن الحق. وهي في غاية الوضوح والبيان. وعلى الرغم من ذلك افترى عليه أعداؤه ــ ولا يزالون ــ أموراً لم تصدر منه أبداً، بل هو نفسه يردّ عليها في كتاباته رداً شديداً. ولكن أعماهم التقليد، وأصمّهم عن سماع القول المفيد.

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا شراً أذيع وإن لم يعلموا كذبوا

حياته في السجون والمعتقلات:

كان شيخ الإسلام ابن تيمية في جميع ابتلاءاته صابراً شاكراً محتسباً الأجر والثواب من الله تعالى. وتخلى عن حظوظ نفسه مع الأعداء، بحيث أنه لم ينتقم منهم بعدما قدر عليهم[2].

(١) البخاري (٣/ ٦٣)، ومسلم (رقم ١٣٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سيأتي قول القاضي ابن مخلوف المالكي تحت عنوان «عبرة لأولي الأبصار» قريباً بهذا الصدد.

وقال شيخ الإسلام في حقه وهو يخاطب الطيبرسي:

«... فأنا على أي شيء أخاف؟

إن قُتِلْتُ كنتُ من أفضل الشهداء! وكان عليّ الرحمة والرضوان إلى يوم القيامة! وكان على من قتلني اللعنة الدائمة في الدنيا والعذاب في الآخرة! ليعلم كل من يؤمن بالله ورسوله أني إن قتلت لأجل دين الله، وإن حبستُ فالحبس في حقي من أعظم نعم الله علي. ووالله ما أطيق أن أشكر نعمة الله عليّ في هذا الحبس، وليس لي ما أخاف الناس عليه! لا إقطاعي!، ولا مدرستي! ولامالي، ولا رياستي وجاهي.

وإنما الخوف عليكم إذا ذهب ما أنتم فيه من الرياسة والمال، وفسد دينكم الذي تنالون به سعادة الدنيا والآخرة.

وهذا كان مقصود العدوّ الذي أثار هذه الفتنة»[1].

ولقد أدخل شيخ الإسلام إلى السجن في الفترة ما بين (**٦٩٣ ــ ٧٢٨هـ**) عدة مرات ولحق بالرفيق الأعلى سنة ٧٢٨هـ، وهو في السجن.

فيما يلي الخطوط العريضة لحياته في السجون والمعتقلات مع بيان الأسباب التي سجن لأجلها:

١ ــ سنة ٦٩٣هـ: اعتقله نائب السلطان أول مرة لمدة قليلة، بسبب قيامه على عساف النصراني الذي شتم النبيّ ﷺ ثم أطلقه مكرماً ومعزّزاً.

أعداء شيخ الإسلام تسببوا لسجنه، حينما نسبوا إليه أنه استغل هذا الحادث لإثارة العامة من الناس.

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ٢١٥ ــ ٢١٦).

وعلى إثر ذلك كتب كتابه «الصارم المسلول على شاتم الرسول»[١].

٢ ـ سنة ٧٠٥هـ: سعى قوم من الجهمية، والاتحادية، والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد الموالين للتتار سراً إلى السلطان، فورد كتاب منه من الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد: أن يسأل ابن تيمية عن أمر الاعتقاد فناقشوه في ثلاثة مجالس.

اشترك في هذه المجالس الثلاثة المعقودة لمناظرته في «العقيدة الواسطية»[٢]، كبار قضاة الدولة وفقهائها، أمثال:

* صفي الدين الهندي الذي كان شيخ الموجودين كلهم.

* وكمال الدين الزملكاني الشافعي.

* وصدر الدين بن الوكيل، وغيرهم[٣].

قال الذهبي:

«ثم وقع الاتفاق على أن هذا معتقد سلفي جيد»[٤].

وقال ابن رجب:

«. . . ووقع الاتفاق على أن هذه عقيدة سنية سلفية.

فمنهم من قال ذلك طوعاً، ومنهم من قاله كرهاً.

---

(١) راجع «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٣٥).

(٢) سيأتي تلخيص هذه الرسالة في العقيدة، في خاتمة هذا الكتاب.

(٣) راجع تقريراً مفصلاً عن هذه المجالس الثلاثة في «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١٦٠ ـ ٢٠١).

(٤) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ٢٠١).

وورد بعد ذلك كتاب من السلطان فيه: إنما قصدنا براءة ساحة الشيخ وتبيّن لنا أنه على عقيدة السلف»[1].

ولكن أعداء عقيدة السلف من المصريين ـ وعلى رأسهم الجاشنكير الذي تسلطن ثم خذل وقتل سنة ٧٠٩هـ، وشيخه نصر المنبجي الحلولي الذي كان الجاشنكير يغالي في حبه، وابن مخلوف قاضي المالكية ـ تأججوا حنقاً على شيخ الإسلام لما رأوا من براءة ساحته في نظر السلطان.

ولما عرفوا أن البحث مع ابن تيمية لا يؤدي إلا إلى كشف عوارهم أمام السلطان، وكذلك أمام العامة والخاصة من الناس أيضاً. وهذا يؤثر على مناصبهم في الدولة، التي احتلوها بدون حق ـ دبّروا ضد شيخ الإسلام حيلةً، وهي: أن يُعْقَد مجلس، ويدّعى عليه، وتقام عليه الشهادة، ثم يسجن بدون البحث والمناقشة في القضية.

هكذا تآمروا عليه، فألحوا على السلطان بإحضاره إلى القاهرة، فحضر هناك، وعقد له مجلس، وادّعي عليه عند ابن مخلوف بالتجسيم. فحاول أن يدافع عن نفسه، فلم يمكّنوه.

فقال: من الحاكم فيَّ؟ فأشاروا: القاضي هو الحاكم.

فقال لابن مخلوف: أنت خصمي كيف تحكم فيّ؟

فغضب ابن مخلوف، وأمر بحبسه في برج من أبراج القلعة. وكان معه أخواه أيضاً، فدعا أحدهما عليهم، فمنعه شيخ الإسلام، وقال له، بل: «اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق».

---

(١) راجع «الذيل على طبقات الحنابلة» (٣٩٦ ـ ٤٠٣).

وكان ذلك في يوم الجمعة ٢٦ من رمضان سنة ٧٠٥هـ.

كانت مرتبة الشيخ في قلوب محبّيه أرفع بكثير من أن تحط من زجّه في السجن ظلماً وعدواناً، فتردد إليه بعد حبسه جماعة من الأمراء، فضلاً عن العامة من الناس، فاغتاظ به ابن مخلوف جداً، واجتمع بالأمراء، وقال ـ وهو يشفي غيظه من شيخ الإسلام ـ :

«يجب عليه التضييق إذا لم يقتل، وإلا فقد وجب قتله، وثبت كفره». بقي في السجن إلى ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ، حتى أخرجه الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى أمير العرب بنفسه، معظماً له ومكرّماً»[١].

عبرة لأولي الأبصار:

سجّل التاريخ في صفحاته هذا الموقف الحاقد المتعري عن أبسط قواعد الأخلاق والآداب، من شيخ الإسلام.

دار الزمان دورته ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠]، ورجع الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الحكم سنة ٧٠٩هـ، فَقَتَل الجاشنكير الذي تسلطن بعد الناصر شرّ قتلة. وحُمِلَ شيخُه نصر المنبجي الحلولي وهلك في زاويته وقُتِلَ كثير من رؤوس الشر والفساد.

وأراد الملك الناصر أن يقضي على القضاة والفقهاء الذين كانوا يوالون الجاشنكير، وهم الذين تكرر منهم الإفتاء بقتل شيخ الإسلام حيناً وبحبسه حيناً آخر، استغل الملك الناصر هذه الفرصة واستفتى شيخ الإسلام في قتل بعضهم. فتفطّن الشيخ ما في قلبه ويقول:

---

(١) المصدر المذكور (٣٩٦ ـ ٤٠٣).

«. . . ففهمتُ مقصوده أن عنده حنقاً شديداً عليهم لما خلعوه، وبايعوا الجاشنكير. فشرعتُ في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم. وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك.

أما أنا فهم في حِلٍّ من حقي وجهتي، وسكّنْتُ ما عنده عليهم. قال: فكان القاضي زين الدين ابن مخلوف، قاضي المالكية يقول بعد ذلك: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نُبْقِ ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا»[1].

٣ ـ سنة ٧٠٧هـ: شكى الصوفية من شيخ الإسلام أموراً إلى الدولة، لم يثبت عليه شيء منها. وفوّضت الدولة أمره إلى الفقهاء والقضاة.

فبعض الفقهاء قال: ليس على ابن تيمية شيء فيما قال في ابن عربي ورأى ابن جماعة أن ذلك فيه سوء أدب.

ثم خيرته الدولة بين أمور: إما أن يسير إلى الإسكندرية، أو إلى دمشق بشروط، إما إن يودع في السجن. ففضّل حياة السجن على البقاء خارجه مكمم الأفواه.

ولكن بإلحاح بعض أحبائه رضي أن يسير إلى دمشق، فلما كان في الطريق ردّوه إلى مصر ثانية، فحضر عند ابن جماعة، وعنده جمع من الفقهاء، فقال بعضهم: إن الدولة لا ترضى إلا بحبس ابن تيمية.

طلب ابن جماعة من القاضي المالكي أن يحكم عليه بالسجن، فامتنع القاضي وقال: كيف أحكم عليه بالسجن ولم يثبت ضده شيء.

---

(١) العقود الدرية (٢٨٢ ـ ٢٨٣)، البداية والنهاية (١٤/ ٥٤).

فطلب من القاضي نور الدين الزواوي المالكي، فتوقف أيضاً، ولما رأى شيخ الإسلام هذه المهزلة تقدم بنفسه إلى السجن قائلاً:

«أنا أمضي إلى السجن بنفسي، وأتبع ما فيه المصلحة».

فقال القاضي: يجب أن يكون الشيخ في مكان يصلح لمثله. فقيل له: إن الدولة لا ترضى إلا بمسمى الحبس.

وكان كل ذلك بإشارة من نصر بن المنبجي الحلولي وبحكم تلميذه الجاشنكير الجركسي»[1].

٤ ــ سنة ٧٠٨هـ: بقي الشيخ في الإسكندرية وحيداً بدون أن يرافقه أحد فخيف على حياته، ولكن تأثر كثير من الناس بدعوته هناك. وحاول الصوفية اغتياله بإشارة من الجاشنكير، فنجا من مؤامرتهم، ولكنهم نجحوا في إيداعه السجن في الإسكندرية، وأوذي كثيراً.

ولما تولى الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة **٧٠٩هـ** مرة ثانية، أفرج عن شيخ الإسلام[2]، وقتل الجاشنكير شر قتلة، وحمل شيخه المنبجي ومات في زاويته[3].

٥ ــ سنة ٧١٨هـ: ورد مرسوم من السلطان بمنعه من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق بالتكفير، ثم عقد له مجلس بدار السعادة، ومنع من ذلك. ثم عقد له مجلس في سنة **٧١٩هـ** تأكيداً للمنع، ولكنه لم ينته عما رآه

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٥٣ ــ ٥٤).

(٢) العقود الدرية (ص ٢٩٦).

(٣) كما تقدم الآن تحت عنوان «عبرة لأولي الأبصار» بشيء من التفصيل.

حقاً، حتى عقد له مجلس ثالث بسبب ذلك، وحكم عليه بالسجن، وحبس بالقلعة[1].

٦ ـ سنة ٧٢٠هـ: حبس لأجل إفتائه في مسألة الطلاق مرة أخرى، ومنع بسببه من الفتيا مطلقاً، فأقام مدة يفتي بلسانه، ويقول: «لا يسعني كتم العلم»[2].

وحكم عليه بالسجن في هذه المرة القاضي نجم الدين بن صَصُرَّى. فقال له: حكمك باطل، لأنك عدو لي. فلم يقبل منه، وزُجَّ في السجن، وكانت مدة حبسه خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً. وأخرج يوم الإثنين في عاشوراء من سنة ٧٢١هـ[3].

٧ ـ سنة ٧٢٢هـ: ورد مرسوم باعتقال شيخ الإسلام في مسألة شدّ الرحال إلى الأضرحة والقبور، بعدما وشي به إلى السلطان أهل البدع والأهواء ـ ورأي شيخ الإسلام في هذه القضية مبني على الأدلة الواضحة من الكتاب والسنّة، لا يحتاج إلى مزيد إيضاح وبيان[4].

٨ ـ سنة ٧٢٦هـ: هذا آخر ما وقع لشيخ الإسلام من الحكم بالسجن، وسببه في هذه المرة أيضاً هو مسألة شد الرحال إلى الأضرحة والقبور.

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٨٧، ٩٣، ٩٧).

(٢) وقد ورد في كتم العلم وعيد شديد، كما رواه أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» (صحيح ـ أبو داود وغيره من أصحاب السنن).

(٣) المصدر المذكور (١٤/ ٩٧).

(٤) راجع كتابه «الرد على الإخنائي» وفيه كفاية لمن له دراية.

دبّر أعداءه الحيلة في فتواه التي أفتى بها قبل سبع عشرة سنة، وحرّفوا كلمه، وغيّروا ألفاظه، وشنّعوا عليه بما لم يقل به. فأفتى بحبسه طائفة من أهل الأهواء، وعلى رأسهم: القاضي الإخنائي المالكي[1].

ولعل السبب الحقيقي في سجن شيخ الإسلام في هذه المرة هو معاملته مع الملك الناصر محمد بن قلاوون كالتلميذ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فكان يتحرج منه كثيراً، فدبّر خصومه لتتخلص الدولة من شيخ الإسلام الذي لم ينافق، ولم يركن إلى وسيلة الرياء والمداهنة طلباً للنجاة[2].

معلوم أن شيخ الإسلام لم يمنع من زيارة قبر النبيّ ﷺ، ولم يقل به وفتاواه في ذلك موجودة لمن أراد الحق. وإنما الذي منعه هو شدّ الرحال إلى غير المساجد الثلاثة. وهناك فرق بين الأمرين[3].

وقد فصّل هذا الأمر في كتابه «الجواب الباهر لمن سأل من أولياء الأمور عما أفتي به في زيارة المقابر».

وفي هذا الكتاب وغيره من كتبه من الأدلة ما يكفي لمن يريد الحق. ومن يريد أن يعيش في الظلام مثل خصومه الذين زجّوه في السجن تقرباً إلى السلطان من جهة، وإرضاء للعاكفين على القبور من جهة أخرى فلهم ذلك. أما جزاء بطر الحق، وغمط الناس في الدنيا فهو الخلاف والشقاق. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [سورة ق: ٥].

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ١٣٣). وقد ردّ شيخ الإسلام في كتاب مستقل على الإخنائي في هذا الأمر مسمى بـ«الرد على الإخنائي» كما تقدم.

(٢) الفكر التربوي (ص ٦٩).

(٣) راجع التفصيل عن «شدّ الرحال» في «الباب الرابع» من هذا الكتاب.

وفـاتـه:

لقد عاش هذا العالم المجاهد صابراً شاكراً في السراء والضراء، لم يجامل أحداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يتنازل عن كلمة الحق أبداً، وصراحته في القول دفعته إلى أن يُزَجَّ في السجن مرة تلو الأخرى.

وعومل شيخ الإسلام معاملة سيئة في السجن في هذه المرة، وأخرِجَ ما كـان عنـده مـن الكتـب[1] والأوراق والـدواة والقلـم، ومنـع مـن الكتـابـة والمطالعة. غير أن هذه الحالة لم تدم طويلاً، إذ جاءه أجله المحتوم ولحق بالرفيق الأعلى في ليلة الاثنين، العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، بالقاعة التي كان محبوساً بها في قلعة دمشق.

وكانت جنازته مشهودة، «واجتمعوا لجنازته اجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر وديوان حاصر لما بلغوا هذه الكثرة».

ولم يتخلّف عن الحضور في جنازته من أهل العلم إلا ثلاثة أنفس، وهم: ابن جملة، والصدر، والقفجاري.

هؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته، فاختفوا من الناس خوفاً، بحيث أنهم علموا متى خرجوا أهلكهم الناس.

قال الإمام أحمد: «قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز». وقد كانت جنازة الإمام أحمد هائلة، وكذلك جنازة شيخ الإسلام، حتى صرخ صارخ وصاح صائح: «هكذا تكون جنائز أئمة السنّة».

---

(١) قال البرزالي: «وكانت نحو ستين مجلداً، وأربع عشرة ربطة كراريس» (البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٤).

فتباكى الناس، وضجّوا عند سماع هذا الصارخ[1].

اللهم اغفر له وارحمه!!

ثمرة المحنة المحمودة:

توفي شيخ الإسلام (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) في السجن بعد جهاد طويل، وكفاح مرير ضد كل فتنة داهمت بلاد الإسلام في عصره. وقد أقضّ على مضاجع أهل البدع والأهواء من الفلاسفة والمتكلمين، والصوفية والرافضة، والنصيرية والنصارى وغيرهم، بقلمه وبيانه، وسيفه وسنانه.

والعجيب أن يسجن شيخ الإسلام المحبّب لدى الجماهير من المسلمين، الناصح لهم طول حياته، ويموت في السجن، ويؤذى تلاميذه وأنصاره على مرأى ومسمع من قضاة الدولة وعلماء البلاط الرسمي، بل بمؤامراتهم، في حين كانوا يتلقون أغلى الهدايا وأثمن الجوائز من الدولة، ويتبسّطون بأنواع النعيم، ويعيشون حياة البذخ والترف، ويتفيّأون تحت ظلال الخفض والراحة، ويطلبون لأولادهم ما كان لهم من المناصب، ويموتون عن الذهب والفضة ما ينوء بالعصبة أولي القوة من الرجال.

وغير خافٍ على من له إلمام بهذا الباب المؤلم من التاريخ أن ابتلاء الإمام مالك (ـ ١٧٩هـ)، ومحنة الإمام أحمد (ـ ٢٤١هـ)، ونفي الإمام البخاري (ـ ٢٥٦هـ) وغيرهم من الأئمة الأعلام عبر التاريخ ـ حلقات من سلسلة وشاية علماء السوء بهم إلى الحكام والأمراء:

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ ﴾ [سورة البروج: ٨].

---

(١) راجع وصفاً حياً لجنازته في «البداية والنهاية» (١٤/ ١٣٧ ـ ١٤٠).

هؤلاء الأعلام حملوا راية الحق، ودافعوا عن عقيدتهم ومنه أحسن وجه. ولم يتنازلوا عما رأوه حقاً، ولم يساوموا عليه أحداً أبدا، ولم يخضعوا أمام قوة الحكم وجبروت الدولة. فشكر الله تعالى مساعيهم، وأعلى منارهم، وسجل لهم التاريخ هذه المواقف المشرفة في بيان الحق، والدفاع عن العقيدة. ويبقى ذكرهم خالداً في تاريخ الجهاد والكفاح.

قال الذهبي: «... هذا ثمرة المحنة المحمودة، أنها ترفع العبد عند المؤمنين»[(١)].

وقال أحمد بن طرخان الملكاوي (ـ ٨٠٣هـ):

«كل صاحب بدعة ومن ينتصر له ــ لو ظهروا ــ لا بد من خمودهم وتلاشي أمرهم. وهذا الشيخ تقي الدين ابن تيمية كلما تقدمت أيامه تظهر كرامته، ويكثر محبوه وأصحابه»[(٢)].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة غافر: ٥١ ــ ٥٢].

تحقق الخير الكثير على يده:

لقد حقق الله عز وجل خيراً كثيراً على يد هذا العالم المجاهد. فكم من حائر اطمئن، وكم من ضال اهتدى، وكم من مشرك تاب، وكم من كافر أسلم على يده.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٨١) ترجمة الإمام مالك رحمه الله تعالى.

(٢) الرد الوافر (ص ١٣٤).

قال الشيخ أبو عبد الله بن قوام:

«ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية»[(١)].

وقال الشيخ عبد الله بن حامد ــ وكان حائراً في كتابات الفلاسفة والمتكلمين ــ:

«وكنت قبل وقوفي على مباحث إمام الدنيا ــ رضي الله عنه ــ قد طالعتُ مصنفات المتقدمين، ووقفت على مقالات من المتأخرين من أهل الإسلام، فرأيت منها الزخارف والأباطيل والشكوك التي يأنف المسلم الضعيف في الإسلام أن تخطر بباله، فضلاً عن القوي في الدين... إلى أن قدر الله سبحانه وتعالى وقوع مصنف الشيخ الإمام ــ إمام الدين ــ [أي درء تعارض العقل والنقل] في يدي... فوجدت فيه ما بهرني من موافقة فطرتي لما فيه، وعزو الحق إلى أئمة السنّة وسالف الأمة...»[(٢)].

وقال الأستاذ قمر الدين خان:

«لقد أعاد ابن تيمية الحياة للقيم الإسلامية الأساسية، وعمل على خلق الظروف اللازمة لإعادة المجتمع الإسلامي بقيادة القانون الرباني: الكتاب والسنّة...

إن هذا المنهج سوف يمكّن المسلمين من استيعاب ظروف الحضارة المعاصرة، وأن يجابه متطلبات الحياة الديناميكية»[(٣)].

وقال أيضاً:

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٨٤).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٤١ ــ ٤٢ ــ مقدمة المحقق).

(٣) ابن تيمية وفكره السياسي (ص ٢٢٣) طبعة الفلاح بالكويت ١٩٨٥م.

«يمكن القول أنه إلى الآن لم يتم اكتشاف جميع أبعاد فكر ابن تيمية على الرغم من أهميتها في تاريخ نظام الحكم الإسلامي»[1].

أثره في مجتمعه المعاصر:

إن المجتمع المعاصر لشيخ الإسلام اكتوى بنار أهل البدع والأهواء الذين شوّهوا جمال الإسلام. وعرف الناس أنه مخلص في نصحه لهم، ودعوته إياهم إلى العقيدة الإسلامية الواضحة.

ومن هنا وجدت أفكاره الصائبة أذناً صاغية في المجتمع، وتلقتها الخاصة والعامة من الناس بالإعجاب والقبول.

قال الإمام الذهبي:

«... وله من الطرف الآخر محبّون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه، لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً، بلسانه وقلمه.

وأما شجاعته فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال. ولقد أقامه الله في نوبة غازان[2] والتقى أعباء الأمر بنفسه، قام وقعد، طلع وخرج.

---

(١) المصدر المذكور (ص ٢١٧).

(٢) غزا التتار بلاد الشام ثلاث مرات:

الأولى في سنة ٦٥٨هـ بقيادة هولاكو، واحتل «حرّان» وبسببها هاجر آل تيمية إلى دمشق. والثانية ٦٩٩ ــ ٧٠٢هـ بقيادة «غازان»

والثالثة ٨٠٣هـ، بقيادة تيمورلنك.

وقد خفف الله في الثانية عن دمشق الكثير من البلاء لمواقف شيخ الإسلام ابن تيمية، وشجاعة حافظ القلعة الأمير علم الدين المنصوري الذي كان محباً لابن تيمية، =

واجتمع بالملك مرتين، وبقطلوشاه، وببولاي. وكان قبحق يتعجب من إقدامه وجرأته على المغول.

وله حدة قوية تعتريه في البحث حتى كأنه ليث حرب.

وهو أكبر من أن ينبّه مثلي على نعوته، فلو حُلِّفتُ بين الركن والمقام لحلفت: «إني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم»[1].

وكان شيخ الإسلام رغم أنوف خصومه مرجعاً للخاصة والعامة، في المسائل المشكلة والقضايا المبهمة من العقائد والأحكام. وكانت الاستفتاءات والاستفسارات تتوارد إليه من كل حدب وصوب. وفتاواه الكبرى لهي أكبر دليل على إقبال الناس عليه في أدق المسائل وأهم القضايا.

وكذلك كان العديد من كتبه إجابة على أسئلة السائلين من مدن بعيدة وأقطار مختلفة، وعلى سبيل المثال:

* **«العقيدة الواسطية»**: كان جواباً للقاضي رضي الدين الواسطي الشافعي الذي طلب من شيخ الإسلام أن يكتب عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته»[2].

= وكانت بينهما مراسلات سرية أثناء الحصار.
بولاي وقطلو شاه كانا من أكبر قادة «غازان».
وقبحق هو سيف الدين المنصوري والي دمشق سنة ٦٩٦هـ. ثم انحاز إلى غازان «الرد الوافر» (ص ٧١ ــ تعليقاً).

(١) العقود الدرية (١١٧ ــ ١١٨)، والرد الوافر (٧١ ــ ٧٢).
(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١٢٩).

* و «الرسالة التدمرية»: كُتِبَتْ للأمير حسام الدين مهنا بن عيسى أمير العرب[1].

* و«الرسالة الحموية»: كانت لأهل حماة[2].

* و«الصفـديـة»: جـواب رسـالـة مـن سـائـل مـن مـدينـة «صفـد» بفلسطين[3].

* «و«المراكشية»: كانت لأهل مراكش[4].

* و«البعلبكية»: وهي كتبت لأهل «بعلبك»[5].

هذا يدل على أن شيخ الإسلام كان موضع الثقة عند الخاصة والعامة في الأقطار الإسلامية، وكان أثره في مجتمعه قوياً رغم مؤامرات مخالفيه وحساده.

«وكانت شعبيّته تحرّك الجماهير ضد معارضيه، وضد الاتجاهات التي يُدينها، وتروي المصادر أن الفقيه الذي يعارض ابن تيمية، كان لا يجرؤ على المرور في طريق معين، خوفاً من اعتراض أنصار ابن تيمية»[6].

وقام هذا الإمام الجليل في وجه أهل الأهواء، وصمد أمامهم كالجبل الشامخ. ودفعته جرأته الإيمانية القوية إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن

---

(١) المصدر المذكور (٣/ ١).

(٢) المصدر المذكور (٥/ ٥).

(٣) «الصفدية» (١/ ٢ ــ ٣ ــ مقدمة المحقق).

(٤) المصدر المذكور (١ ــ ٣).

(٥) المصدر المذكور (١ ــ ٣).

(٦) الفكر التربوي (ص ٥٨).

المنكر ما يتقاصر دونه كبار الدعاة، وبلغت به الغيرة على دين الله إلى أنه:

«دار مع أصحابه، على الخمارات وحانات الخمور، فشقوا الظروف وأراقوا الخمور، وعزّروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك»[1].

«وأمر أصحابه ــ ومعه حجّارون ــ بقطع صخرة كانت تُزَار، وينذر لها، فقطعها، وأراح المسلمين منها، ومن الشرك بها. فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً»[2].

وكان يستتيب المنحرفين والمشعوذين، ويدعوهم إلى التوبة والاستقامة[3].

أما صراحته في القول حتى عند الحكام والسلاطين، فكان محسوداً عليها عند أصحاب المناصب من القضاة والفقهاء والعلماء.

وما قام به من كلمة حق عند «غازان» سلطان التتار الظالم وقت هجومه على دمشق، يعتبر موقفاً خالداً في تاريخ «كلمة حق عند سلطان جائر».

وكان موته في هذه القضية عند هذا الظالم محققاً، ومع هذا لم يتقاعس عن أداء أمانة الكلمة، فكيف بالحكام الآخرين. ولهذا كانوا يتحرجون من مؤاخذاته كثيراً، وكان هذا سبباً من أسباب محنته وابتلاءاته.

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ١١).

(٢) المصدر المذكور (١٤/ ٣٣ ــ ٣٤).

(٣) المصدر المذكور (١٤/ ٣٤).

وكان شيخ الإسلام محبباً لدى الجماهير، يجول ويصول في تبيان الحق بدون أن يتحفظ على نفسه، ويخاف في الله لومة لائم.

قال الشيخ محمد أبو زهرة:

«خاصم ابن تيمية كل هؤلاء. وليس الغريب أن يكون له من بينهم قادحون، يورثون قول السوء فيه لأخلافهم.

بل الغريب أن يستمر في دعوته، وتأليبه عليهم من غير خوف. ليس الغريب أن يقضي سنين في غيابات السجن. بل الغريب ألا يعقدوا عليه بأيديهم وسيوفهم...

والسبب في ذلك أنه كان رجلاً مخلصاً، ابتدأ حياته محبوباً من الكافة. وكان من الواضح للعامة والكافة إخلاصه...»[1].

لقد اتضح جلياً بهذا الاستعراض السريع، مدى أثر شيخ الإسلام في مجتمعه المعاصر، ونفوذه القوي في أوساط الخاصة فضلاً عن العامة من الناس، حتى تتلمذ عليه الأمراء والحكّام.

وبات واضحاً أنه كيف كان تلامذته وأنصاره يتفاعلون معه في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟.

وكم كان يفرح العامة من الناس بجرأتهم على القضاء على أوكار الفسق والفجور، والحشيش والخمور، وعلى إزالتهم مظاهر الشرك والوثنية من البلاد؟.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الجمعة: ٤].

---

(١) «ابن تيمية» لمحمد أبي زهرة (ص ٨).

هذا العالم المجاهد يموت في السجن محبوساً، وخصومه من أهل الأهواء يتوارثون القضاء في الدولة، ويتوالدون فيه الأحقاد لأخلافهم. وعند ربهم يجتمع الخصوم. ولله في خلقه شؤون.

إنا لله وإنا إليه راجعون!

دعوته تساهم في إنعاش الحركات الإصلاحية الحديثة:

لا ريب أن المكتبات الإسلامية تزدان بما خلّفه شيخ الإسلام ابن تيمية من تراث موسوعي ضخم، وأن الأمة المهتدية إلى الصراط المستقيم لا تنسى فضله عليها في إيضاح معالم الطريق التي كادت تختفي تحت الركام الهائل من البدع والأهواء، والعادات والتقاليد، والأكاذيب والأباطيل.

إن تراث شيخ الإسلام اتصل بحياة الأمة ولا يزال. وهو رافد أساسي من روافد نشوء الحركات الإصلاحية، في العالم الإسلامي المعاصر. وتعتزّ كل حركة من الحركات المعاصرة التي تتصدر للإصلاح والتجديد، والدعوة والإرشاد، بالاقتباس من نور شيخ الإسلام ابن تيمية.

* قال الأستاذ محمد خليل هراس:

«هذه هي دعوة ابن تيمية: إصلاح وإحياء وتجديد. فهو بحق أبو النهضة الإسلامية الحديثة، وواضع أساسها. وجميع دعاة الإسلام من بعده إنما بهديه اقتدوا، وعلى كتبه تخرّجوا»[1].

* وقال الأستاذ أبو الحسن الندوي:

«كان القرن الثامن بحاجة إلى مثل هذا الرجل الكامل الذي يسنع نشاطه

---

(١) ابن تيمية السلفي (ص ١٩٨) طبعة اليوسفية ١٩٥٢م.

كل مجال من مجالات الحياة، من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاوية واحدة، أو تتركز على جانب واحد.

كان ذلك الرجل هو: شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاط وحياة وتحركات علمية وعملية، لا تزال آثارها خالدة باقية على مر القرون والأجيال»[١].

* وقال الأستاذ المودودي:

«... لكن نداءه لاتباع الإسلام الخالص المحض كان نفخة صور أحدثت في العالم حركة دائمة لا نزال نسمع صداها في أقطار الإسلام بين حين وآخر»[٢].

* قال (تشارلز آدمس):

«أما العامل الثاني المقوّم لهذه الحركة (أي حركة الأفغاني ومحمد عبده) فهو ابن تيمية... وابن قيم الجوزية. فقد شَنَّا غارة شعواء على ما كان في عصرهما من بدع وفساد...»[٣].

* وقال الدكتور أحمد أمين:

«اقتفى (أي محمد بن عبد الوهاب) في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً، ظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر هو: «ابن تيمية»...

... وفي مصر شبّ الشيخ عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ

---

(١) «الحافظ ابن تيمية شيخ الإسلام» للندوي.

(٢) «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» للمودودي (٧٩). مؤسسة الرسالة ١٣٩٥م.

(٣) ابن تيمية السلفي (ص ١٩٩)، نقلاً عن «الإسلام والتجديد في مصر» لتشارلز (ص ١٩٤).

الجو، فرجع إلى هذه التعاليم في أصولها، من عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية، إلى عهد ابن عبد الوهاب»[1].

* وقال الأستاذ عمر التلمساني:

«... ولئن كان الإمام المجاهد ابن تيمية وتلامذته، قد أدوا إلى الفقه الإسلامي وتوضيح مناهج السلف ما يعد غرة في جبين الفقه الإسلامي.

ولئن كانوا قد سجنوا وعذّبوا...

ولئن كانوا قد جاهدوا...

ولئن كانت لهم مدرستهم التي لا تنكر..

ولئن كنا نحن «الإخوان المسلمون» نعتبرهم أساتذة لنا. إلا أنني أقرر... أن مدرسة الإمام الشهيد حسن البناء كانت أعمق أثراً...»[2].

*و قال الأستاذ محمد الغزالي:

«نشأت مدرسة الموازنة والترجيح في القرن السابع على يد ابن تيمية وتلامذته، وهي المدرسة التي استوعبت الأخبار المروية، وأدركت وجوه الحكمة والمصالح....

... وفي القرن الثالث عشر والرابع نشأت مدارس أخرى.

هناك مدرسة أشبه أن تكون ابتداءً لمدرسة الأثر، عرضت الفقه الإسلامي من الكتاب والسنّة مباشرة. وأفادت من الجهد العقلي لرجال

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث (ص ١٥، ٢٥) مكتبة النهضة بالقاهرة ط. رابعة ١٩٧٩م.

(٢) «بعض ما علّمني الإخوان المسلمون» للتلمساني (٣ ـ ٤) وسيأتي التفصيل عن هذا الكلام في «الباب الثالث» من هذا الكتاب.

المذاهب التقليدية، وضمت إلى ذلك جهد الفقهاء الظاهريين، وانتفعت من مدرسة ابن تيمية. . . .

يمثّل هذه المدرسة الصنعاني في «سبل السلام»، والشوكاني في «نيل الأوطار» والسيد سابق في «فقه السنّة»، وصديق حسن خان في «مؤلفاته»، والألباني في «رسائله». . . »[1].

* وقال مالك بن نبي المفكر الجزائري المعروف:

«إن تراث ابن تيمية يكون الترسانة الفكرية التي لا زالت تمد الحركات الإصلاحية بالأفكار النموذجية إلى اليوم»[2].

هذه هي أقوال بعض الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي[3] في «ابن تيمية»، التي تمثّل الحركات الإصلاحية المعاصرة، والاتجاهات الفكرية المتعددة، والجماعات الإسلامية العاملة في ساحة الدعوة.

إن قادة الحركات، ورؤساء الجماعات يعترفون بفضل شيخ الإسلام ابن تيمية على الفكر الإسلامي المعاصر، ويشيدون بجهوده في إنعاش العمل الإصلاحي في العصر الحديث.

ولكن هؤلاء القادة يختلفون في الاستفادة من تراث شيخ الإسلام كماً

---

(١) «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» لمحمد الغزالي (٧٦ ـ ٧٧) دار القلم بالكويت ط ثانية ١٩٨٣م.

(٢) لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق (ص ٥١) طبعة إحياء التراث الإسلامي بالكويت.

(٣) غير «تشارلز آدمس» الذي ذُكِرَ قوله للتدليل على أنه أيضاً يرى ابن تيمية باعث النهضة الحديثة، فلينتبه.

وكيفاً، باختلاف أهدافهم ومقاصدهم، وباختلاف نظرياتهم ووجهاتهم، وباختلاف مداركهم ومواهبهم. «وكُلٌّ ميسّر لما خُلِقَ له».

إلا أنه ثبت باعترافهم أنفسهم أن تراث شيخ الإسلام أقرب تعبير عن تعاليم الإسلام الصحيحة.

نظراً إلى الاستفادة من تراث شيخ الإسلام تنقسم الحركات المعاصرة إلى ثلاث فئات:

* الحركات المؤيدة لدعوة شيخ الإسلام.

* الحركات المتراوحة بين التأييد والمعارضة.

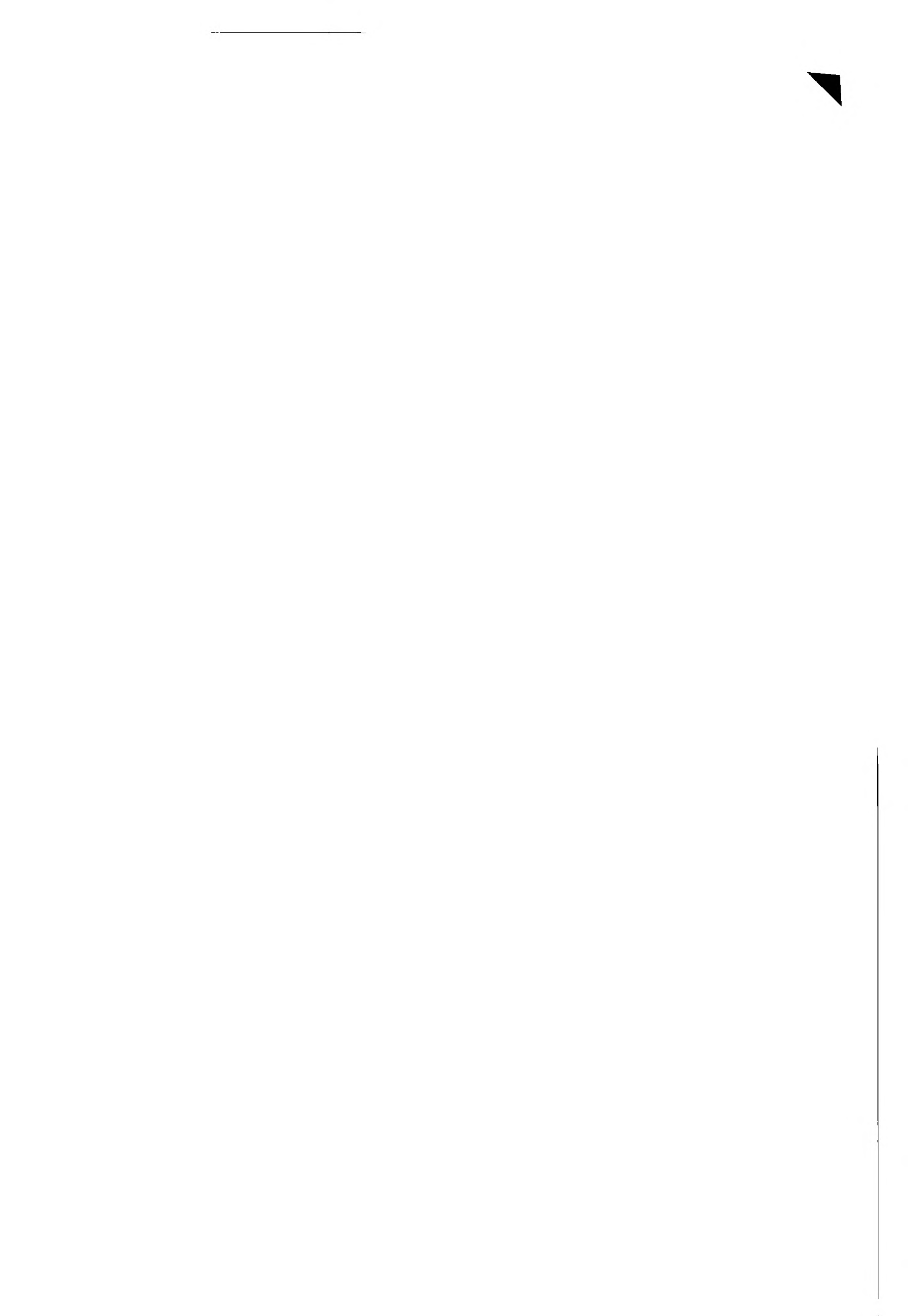
* الحركات المناهضة لهذه الدعوة.

وسترون ـ إن شاء الله ـ بعض التفصيلات عن هذه الحركات في الأبواب الآتية من هذا الكتاب.

• • •

الباب الثاني

الحركات المؤيِّدة لدعوة شيخ الإسلام



الباب الثاني

الحركات المؤيِّدة لدعوة شيخ الإسلام

إن الكتاب والسنّة هما المصدران الأساسيان للإسلام، وقد فضّل الله عزّ وجلّ القرون المشهود لها بالخير، على غيرها من القرون لأجل التمسك بهما، وبرّأها من كثير من الفتن والمحن، والبدع والخرافات، والحقد والحسد، والنفرة والكراهية، والخلافات والنزاعات التي حدثت في الأمة بعد الابتعاد عنهما، فنخرت جسمها، وفرّقت شملها، وخلخلت صفوفها، ودفعتها إلى حضيض الذل والهوان، فصارت ذليلة بعد أن كانت عزيزة، وهان أمرها على أعداء الإسلام، وبقيت كالأيتام على مائدة اللئام[1].

لقد أدرك شيخ الإسلام أن الاعتصام بالكتاب والسنّة، وفهمهما على منهج السلف الصالح يضمن التوحيد في العقيدة، والتوحيد في التشريع وبالتالي توحيد الأمة الإسلامية تحت لواء واحد من دون أي نفرة وكراهية.

وانطلاقاً من هذا المبدأ ركّز في كتاباته على إبراز منهج السلف الصالح في أمور العقائد والأحكام على السواء.

---

(١) راجع بعض الأسباب لسيطرة أعداء الإسلام على بلاد الإسلام في «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٢/ ٥٤ ـ ٥٥).

قال الذهبي:

«لقد نصر السنّة المحضة، والطريقة السلفية، واحتجّ لها ببراهين ومقدّمات وأمور لم يسبق إليها»[1].

قال شيخ الإسلام:

«قد ثبت بالكتاب والسنّة والإجماع أن الله سبحانه وتعالى فرض على الخلق طاعته، وطاعة رسوله ﷺ، ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه في كل ما يأمر به، وينهى عنه إلا رسول الله ﷺ، حتى كان صدّيق الأمة وأفضلها بعد نبيّها يقول: أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيتُ فلا طاعة لي عليكم.

واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوماً في كل ما يأمر به، وينهى عنه إلا رسول الله ﷺ. ولهذا قال غير واحد من الأئمة: «كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ».

وهؤلاء الأئمة الأربعة رضي الله عنهم قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولونه وذلك هو الواجب عليهم...»[2].

وقال أيضاً:

«أما الاعتقاد، فلا يؤخذ عني، ولا عمن هو أكبر مني، بل يؤخذ عن الله ورسوله ﷺ، وما أجمع عليه سلف الأمة، فما كان في القرآن وجب اعتقاده، وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم...»[3].

---

(١) العقود الدرية (ص ١١٧).

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٠/ ٢١٠ ـ ٢١١).

(٣) المصدر المذكور (٣/ ١٦١).

وكذلك رأى شيخ الإسلام أن التمسّك بالكتاب والسنّة في العقائد والأحكام، والتحاكم إليها عند التنازع هو الوسيلة الأولى والأخيرة لردم الهوّة الواقعة بين المذاهب العقدية والفقهية، وللقضاء على ما تسرّب إلى أوساط الأمة من البدع والأهواء، والخلافات والنزاعات.

وإذا اتفقت الأمة على هذا المبدأ السلفي قولاً وعملاً تتبخّر خلافاتها، وتزول الأحقاد المتوارثة بينها، إن شاء الله.

بيّن الإمام ابن قيم الجوزية بركة الالتزام بالكتاب والسنّة في العقائد والأحكام، فقال:

«ولهـذا تجد أقـل الناس اختلافاً أهل السنّة والحديث، فليس على وجه الأرض طائفة أكثر اتفـاقاً، وأقـلّ اختلافاً منهم لما بنوا على هذا الأصل.

وكلما كانت الفرقة عن الحديث أبعد، كان اختلافهم في أنفسهم أشد وأكثر، فإن من رد الحق مرج عليه أمره، واختلط عليه، والتبس عليه وجه الصواب، فلم يدر أين يذهب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [سورة ق: ٥][1].

ومن هنا نرى تشابهاً كبيراً في الحركات الإصلاحية التي تدعو إلى الاعتصام بالكتاب والسنّة على منهج السلف الصالح، وتجد في تراث شيخ الإسلام ابن تيمية ضالّتَها، وتعتبره نوراً على الدرب، ومِنْوَراً في إبراز معالم الطريق، ومنحة من المنح الإلهية لفهم الإسلام الصحيح.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٤٥) طبعة دار الجيل بيروت.

إليكم ذكر أهم الحركات الإصلاحية التي توافق دعوة شيخ الإسلام عقيدة وعملاً، ومنهجاً وسلوكاً. وبالله التوفيق.

• • •

دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥ ــ ١٢٠٦ هـ)

دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ)

كان الإمام العلامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ) رحمه الله تعالى من الأئمة المهتدين، والدعاة المخلصين الذين وفقهم الله تعالى للدعوة والإصلاح في الأوساط التي تحكمت فيها البدع والخرافات، والعادات والتقاليد.

ولقد جدد إمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب ما اندرس من معالم الإسلام في القرن الثاني عشر الهجري، وكان مخلصاً في الدعوة إلى الكتاب والسنّة، وموفّقاً في نشرها رغم أنوف خصومه، فبارك الله فيها، وانتشرت في مشارق الأرض ومغاربها كالنار في الهشيم. وما نرى من يقظة إسلامية مستقيمة في أقطار العالم، يرجع فضلها ـ بعد الله تعالى ـ إلى هذه الدعوة المباركة.

المبادىء الحقيقية لهذه الدعوة:

تتلخص هذه المبادىء في النقاط التالية:[1]

---

(١) راجع «حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي» =

* توحيد الله تعالى في عبادته، وتوحيده في ربوبيته، وتوحيده في أسمائه وصفاته، وإقرار هذا المبدأ قولاً وعملاً، والبعد عن جميع مظاهر الشرك والوثنية، والرفض والتصوف، والإلحاد والزندقة، التي تكدّر نقاوة الإسلام، وتشوّه جماله.
* التمسك بمنهج السلف المنبني على الكتاب والسنّة في العقائد والأحكام، مع تقرير مبدأ الاجتهاد، والرد على التقليد الأعمى.
* الجهاد في سبيل الله، لنشر الدعوة حيناً، ولحمايتها حيناً آخر.

مصادر هذه الدعوة:

«وقد اعتمد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دعوته على ثلاثة مصادر هامة:

أولها: القرآن الكريم.

ثانيها: السنّة النبوية.

ثالثها: آثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة الأعلام، خاصة الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية»[1].

= للدكتور محمد بن عبد الله السلمان (١٣٠ ــ ١٣٧) المنشور في «مجلة البحوث الإسلامية» بالرياض. العدد الحادي والعشرون ١٤٠٨هـ و«الشيخ محمد بن عبد الوهاب» للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي (١٣٤ ــ ١٣٥) طبع السلفية بالكويت ١٩٨٣م.

(١) المصدر المذكور في «مجلة البحوث» (١٢٧ ــ ١٢٨).

غاية هذه الدعوة:

غاية هذه الدعوة هي إعادة الإسلام إلى نقاوته الأولى، وإزالة أنقاض البدع والخرافات التي غشّت العقيدة الصحيحة.

وقد اعترف بهذه الحقيقة المستشرقون من أعداء الإسلام، فضلاً عن خصوم هذه الدعوة من المسلمين.

قال غولتسيهر المستشرق المجري اليهودي في كتابه «العقيدة والشريعة»:

«... يجب على من ينصب نفسه للحكم عند الحوادث الإسلامية أن يعتبر الوهابيين أنصاراً للديانة الإسلامية، على الصورة التي وضعها النبيّ والصحابة. فغاية الوهابية هي إعادة الإسلام كما كان»[1].

وجاء في «دائرة المعارف البريطانية»:

«الوهابية: اسم لحركة التطهير في الإسلام، والوهابيون يتّبعون تعاليم الرسول وحده، ويهملون كل ما سواها. وأعداء الوهابية هم أعداء الإسلام الصحيح»[2].

«والفضل ما شهدت به الأعداء»

لقب هذه الدعوة «السلفية لا الوهابية»:

إن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوة سلفية، وليست دعوة شخصية فتسمى بالوهابية. وكذلك أنصارها سلفيون، وليسوا بالوهابيين.

---

(١) «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لابن حجر آل بوطامي (ص ١٥٤).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٥٥).

«إن لقب «الوهابية» لقب لم يختره أتباع الدعوة لأنفسهم، لكنه أطلق من قبل خصومهم على اختلافهم، تنفيراً للناس منهم، وإيهاماً للسامع أنهم جاءوا بمذهب خامس يخالف المذاهب الإسلامية الأربعة الكبرى.

واللقب الذي يرضونه، ويسمّون به هو (السلفيون)، ودعوتهم (الدعوة السلفية)»[1].

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز:

(نسبة للشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي نسبة على غير القياس العربي فلقد كان الصحيح أن يقال المحمدية، إذ أن صاحب هذه الدعوة والقائم بها هو الشيخ محمد لا أبوه عبد الوهاب ومن أعجب العجيب أنك لا تجد لهذا اللقب أثراً بنجد بل يستنكر النجديون هذا اللقب لمن يخاطبهم به أو ينسبهم إليه وهذا يدلك على أن التسمية جاءت من الخارج من خصوم الدعوة وأكبرهم إذ ذاك الأشراف والأتراك وأكثر علمائها)[2].

وهذا الملك عبد العزيز يخطب بالحجيج سنة ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٢٩/٥/١١ يقول:

«يسموننا الوهابية ويسمون مذهبنا الوهابي باعتبار أنه مذهب خاص. نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة، ولم يأت محمد بن

---

(١) المصدر المذكور في «مجلة البحوث» (١٢٦ ــ ١٢٧)، نقلاً عن حسن بن عبد الله آل الشيخ في مقالة «الوهابية وزعيمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب» المنشور في مجلة العربي الكويتية (ص ٢٦) العدد (١٤٧) فبراير ١٩٧١م ــ وعن أحمد علي في كتابه «آل سعود» (ص ٢١٢).

(٢) مقدمته على كتاب «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي.

عبد الوهاب بالجديد، فعقيدتنا هي (عقيدة السلف الصالح) التي جاءت في كتاب الله وسنّة رسوله. ونحن نحترم الأئمة الأربعة ولا فرق عندنا بين مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة، كلهم محترمون في نظرنا إننا لا نبغي التجديد الذي يفقدنا ديننا وعقيدتنا»[1].

«الوهابية» أو «الوهبية». . من هم؟!

قال الدكتور محمد بن سعد الشويعر:

«في القرن الثاني الهجري، وعلى يد عبد الوهاب بن رستم، انتشرت في الشمال الأفريقي فرقة الوهابية نسبة إلى عبد الوهاب هذا، وهي فرقة متفرعة عن الوهبية: الفرقة الإباضية الخارجية، نسبة إلى مؤسسها الأصلي عبد الله بن وهب الراسبي، وبعضهم يسميها الراسبية.

ولما كان أهل السنّة بالمغرب كله يناوؤنها لأنها تخالفهم في المعتقد، وقد كفرهم كثير من علمائهم، كما نلمس في فتاواهم القديمة ـ ثم ذكر مؤامرة أهل البدع والأهواء، ودسائس المستشرقين من اليهود والنصارى ضد الإسلام والمسلمين، وقال ـ:

فقد بدأ هؤلاء جميعاً يقلبون صفحات التاريخ، وينبشون الماضي، علهم يجدون أشياء ترضي أصحاب الأهواء من أدعياء العلم الذين نصبهم المستعمر في مقامات إسلامية يستتر خلفهم، ويزينون له ما يريد، وأصحاب المصالح الذين باعوا أخراهم بعرض من الدنيا، فهؤلاء جميعاً ينشدون غرضاً، ويريدون تحقيق غاية.

---

(١) راجع «دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب سلفية لا وهابية» للشيخ أحمد بن عبدالعزيز الحصين (ص ١٣٦) ط. أولى ١٩٩٤م.

فأوهموا العامة وأنصاف المتعلمين الذين لا يقرؤون ولا يتعمقون، وهم الغالبية العظمى في المجتمع الإسلامي ذلك الوقت، بأن هذه الدعوة الجديدة التي تحركت في الجزيرة العربية ما هي إلا امتداد لتلك السابقة التي كانت في المغرب: فرقة الخوارج الأباضية التي تخالفكم معاشر المسلمين في المذهب والمعتقد.

ولكي تنطلي الحجة، ويمر التمويه لفقوا أقاويل على الشيخ محمد وأتباعه، أوضح ــ رحمه الله ــ كذبها في رسائله العديدة، وعرف هذا علماء المغرب في حوارهم عام ١٢٢٦هـ عندما حج المولى أبو إسحاق إبراهيم بن السلطان المولي سليمان رحمه الله، ومعه مجموعة كبيرة من علماء المغرب لحوار الإمام سعود بن عبد العزيز، ومناقشته فيما نسب إليهم، وكان هذا بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بزمن.

وقد سجلت تواريخ المغرب عن هذه الحادثة ما يثبت البراءة لهذه الدعوة السلفية من كل ما نسب إليها وقناعة علماء المغرب من سلامتها وصدقها، حتى إن الإمام إبراهيم هذا اقتنع بها[١].

الهدف من التسمية:

«لئن كان مسعود الندوي ــ رحمه الله ــ في كتابه (محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه) قد قال: «إن من أبرز الأكاذيب على دعوة شيخ الإسلام تسميتها بالوهابية، ولكن أصحاب المطامع حاولوا من

---

(١) راجع سيرة المولى أبي إسحاق بن سليمان في تواريخ المغرب مثلاً: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٨ ص ١٢٠ ــ ١٢٥ للناصري. والإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (ج ١٠ ص ٦٨ ــ ٧٣) و«خطأ تاريخي» للشويعر.

هذه التسمية أن يثبتوا أنها دين خارج عن الإسلام، واتحد الإنجليز والأتراك والمصريون فجعلوها شبحاً مخيفاً، بحيث كلما قامت أي حركة إسلامية في العالم الإسلامي في القرنين الماضيين، ورأى الأوروبيون فيها خطراً على مصالحهم، ربطوا حبالها بالوهابية النجدية وإن ناقضتها»[١].

«فإن الشيخ أحمد بن حجر قاضي المحكمة الشرعية الأولى بقطر قد ربط افتراءات بعض المتكلمين الحنابلة السابقين، بالافتراء على الشيخ محمد، لأن المخالفين لا ينقصون من قدر الآخرين إلا بالافتراء عليهم، وكذلك المستعمر لا يجد طريقاً في القضاء على الحركات الإسلامية إلا بمثل هذا الأسلوب...»

ثم قال:

«ومن هنا ندرك السر في الإصرار على لقب الوهابية، وإشاعة أنهم مذهب خامس لأن علماء المغرب قد اكتووا بنار الوهابية الرستمية الخارجية الأباضية، التي قامت هناك وأسسها عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم في آخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري ولديهم فتاوي حولها، ومذهب أهلها كما أوضحنا من قبل.

فهي ثوب جاهز ما على أعداء الدعوة إلا خلعه على هذه الدعوة الجديدة من باب التنفير، واختصار الطريق، لأنه لا يخدم المستعمر في ديار الإسلام إلا أصحاب البدع والخرافات»[٢].

---

(١) ص ١٦٥ ترجمة الدكتور عبد العليم البستوي مع مراجعة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، وعنه في «خطأ تاريخي».

(٢) راجع التفصيل في «تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية» للدكتور محمد بن سعد الشويعر ــ مكتبة المعارف بالرياض.

أثر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الدعوة:

كانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر، امتداداً لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن. وقد تأثر بها الإمام لموافقتها مع أصول الإسلام في العقائد والأحكام. واعتنى بكتب شيخ الإسلام وبكتب تلميذه ابن القيم اعتناء كاملاً، فأجاد وأفاد. رحمهم الله تعالى أجمعين.

ولقد أبرز الكتاب المسلمون وغيرهم من المستشرقين في كتاباتهم صلة الإمام ابن عبد الوهاب بدعوة شيخ الإسلام بأهمية بالغة.

ذكر العلامة الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي تصريحات كثير منهم بهذا الصدد:

* قال عبد المتعال الصعيدي في كتابه «المجددون في الإسلام»:

«... أخذ يدعو مثل ما دعا إليه ابن تيمية قبله، من التوحيد بالعبادة لله وحده»[1].

* وقال الأمير شكيب أرسلان في الجزء الرابع من «حاضر العالم الإسلامي» تحت عنوان «تاريخ نجد الحديث»:

«... وتشرّب مبادىء الحافظ حجة الإسلام ابن تيمية... وأخذ يفكّر في إعادة الإسلام لنقاوته الأولى... ولا أظنه أورد ثمة شيئاً غير ما أورده ابن تيمية»[2].

---

(١) «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لابن حجر آل بوطامي (ص ١٢١).

(٢) المصدر المذكور (١١٨ ــ ١١٩).

* وقال حافظ وهبة في كتابه «جزيرة العرب»:

«... وتكاد تكون تعاليمهم مطابقة تمام المطابقة لما كتبه ابن تيمية وتلاميذه في كتبهم، وإن كانوا يخالفونهم في مسائل معدودة في فروع الدين»[1].

* وقال منهج هارون في الرد على الكاتب الإنجليزي (كونت ويلز):

«... كل ما قاله الشيخ ابن عبد الوهاب قال به غيره ممن سبقه من الأئمة الأعلام ومن الصحابة الكرام. ولم يخرج في شيء عما قاله الإمام أحمد وابن تيمية رحمهما الله»[2].

* وقال محمد ضياء الدين الريس:

«... وابن تيمية هو الأستاذ المباشر لابن عبد الوهاب، وإن فصل بينهما أربعة قرون. فقد قرأ كتبه، وتأثر كل التأثر بتعاليمه»[3].

* وقال «بروكلمان» في تاريخ «الشعوب الإسلامية»:

«... وفي بغداد درس محمد فقه أحمد بن حنبل... ثم إنه درس مؤلفات أحمد ابن تيمية الذي كان قد أحيا في القرن الرابع عشر تعاليم ابن حنبل.

والواقع أن دراسته لآراء هذين الإمامين انتهت به إلى الإيقان من أن الإسلام في شكله السائد في عصره، وبخاصة بين الأتراك شرّب

(١) المصدر المذكور (ص ١٢٦).

(٢) المصدر المذكور (ص ١٢٧).

(٣) المصدر المذكور (ص ١٣٤).

بالمساوىء التي لا تمتّ إلى الدين الصحيح بنسب»[1].

* وقال أحمد أمين:

«. . . اقتفى في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر هو: ابن تيمية. . . وهو كان يقول بالاجتهاد، وكان حر التفكير في حدود الكتاب والسنّة. . .

فيظهر أن محمد بن عبد الوهاب عرف ابن تيمية. . . فكان إمامه، ومرشده، وباعث تفكيره، والموحي إليه بالاجتهاد، والدعوة إلى الإصلاح»[2].

* وقال ماجد عرسان الكيلاني:

«. . . أما في الجزيرة العربية، فقد وجدت روح تعاليم ابن تيمية تعبيرها الأكمل في حركة التوحيد التي بدأها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولعبت دوراً حاسماً في تاريخ المملكة العربية السعودية، وما جاورها من الأقطار العربية والإسلامية»[3].

وقد وضّح الكُتّاب الصلة الحقيقية بين الإمامين. وجاء مستشرق فرنسي فبيّن صلتهما في لغة العصر، بأسلوبه الخاص فقال:

«ابن تيمية وضع ألغاماً في الأرض، فجّر بعضها ابن عبد الوهاب، وبقي بعضها لم يفجّر»[4].

---

(١) المصدر المذكور (ص ١٤٣).

(٢) زعماء الإصلاح (ص ١٥).

(٣) الفكر التربوي عند ابن تيمية (ص ٩).

(٤) اقتباس من محاضرة الدكتور عايض القرني بالمملكة العربية السعودية.

أثر هذه الدعوة:

لقد انتشرت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب انتشاراً واسعاً، وتأثر بها كثير من الدعاة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً. وقامت الثورات على أيديهم ضد البدع والتقاليد التي كانت تسود المجتمع المسلم[1].

* قال «الزركلي» في «الأعلام»:

«وكانت دعوته الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله، تأثر بها رجال الإصلاح في الهند، ومصر، والعراق، والشام، وغيرها...»[2].

* وقال عبد الكريم الخطيب في كتابه «محمد بن عبد الوهاب»:

«والذي لا شك فيه أن الدعوة الوهابية كانت أشبه بالقذيفة الصارخة تتفجر في جوف الليل والناس نيام.

كانت صوتاً قوياً راعداً أيقظ المجتمع الإسلامي كله، وأزعج طائر النوم المحوم على أوطانهم منذ أمد بعيد»[3].

* وقال محمد ضياء الدين الريس:

«وهذه الحركة كانت نهضة أخلاقية شاملة، ووثبة روحية جريئة، ودعوة إلى دين الحق والإصلاح...

---

(١) راجع انتشار هذه الدعوة في العالم في المصدر المذكور في مجلة البحوث (١٤٠ ـ ١٤٩)، و«الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لابن حجر آل بوطامي (١٠٢ ـ ١٠٧).

(٢) «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (ص ١٣١).

(٣) المصدر المذكور (ص ١٣٦).

والواقع أن كل حركات الإصلاح التي ظهرت في الشرق في القرن التاسع عشر، كانت مدينة للدعوة الوهابية لتقرير هذه الأصول.

ويمكن تحديد الصلة بينها وبين كل من هذه الحركات إما عن طريق الاقتباس، أو المحاكاة، أو مجرد التأثر»[(١)].

* وقال محمد إقبال الشاعر الكبير:

«إنها أول نبضة حياة في تاريخ المسلمين الحديث، وأن آثارها قد استلهمها بشكل مباشر، أو غير مباشر جميع الحركات الإصلاحية في العالم العربي، وفي الهند، وإفريقيا وغيرها»[(٢)].

انتشار هذه الدعوة:

قيّض الله تعالى لهذه الدعوة حملتها المخلصين، فقاموا بنشرها حتى تعدّت حدود نجد والحجاز. وتلقّاها المسلمون بالإعجاب والقبول لموافقتها أصول الإسلام على منهج السلف الصالح، وبعدها عن البدع والخرافات، والعادات والتقاليد التي كانت تعتبر ديناً، وكان الخروج عليها جريمة. ووصل صداها إلى كثير من البلاد الآسيوية والإفريقية:

مثل اليمن، وأطراف الجزيرة، والعراق، والشام، وفارس، وشبه القارة الهندية، والتركستان، والصين، وجاوه، وسومطرة، وأندونيسيا، وغيرها من بلاد آسيا.

ومثل مصر، وليبيا، والجزائر، والسودان، وغرب افريقيا وغيرها من

---

(١) المصدر المذكور (١٣٤ ــ ١٣٥).

(٢) الفكر التربوي (٩ ــ ١٠).

المناطق في بلاد افريقيا[1].

والآن ــ الحمد لله ــ انتشرت هذه الدعوة في القارات الخمس بجهود العلماء المخلصين، رغم معارضة أهل البدع. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

عوامل انتشار هذه الدعوة:

هناك عدة عوامل ساعدت على انتشارها خارج الجزيرة ومنها:

* طبيعة الدعوة، وكون مبادئها توافق الفطرة السليمة، وكونها سهلة الفهم، بعيدة عن التعقيدات والأمور الفلسفية، لأنها هي الإسلام بعينه.
* صاحب الدعوة، وقوة إيمانه بدعوته، وجهاده في سبيل نشرها.
* القوة السياسية للدعوة، التي تتمثل في الدولة السعودية الأولى والأخيرة.
* بيئة الدعوة (نجد) من حيث بساطة أهلها، وتقشّفهم أعدّهم لتحمل مشاقّ نشر الدعوة.
* دور علماء الدعوة، وقيامهم بنشر مبادئها بكل رغبة وإخلاص.
* عصر الدعوة: من حيث ما أصاب المسلمين فيه من انحراف ديني، وتدهور سياسي بالإضافة إلى تقهقره الاجتماعي، وتخلّفه الاقتصادي ما جعل الدعوة أمام الناس المنقذ الوحيد لهم من هذه الأزمات.
* موسم الحج أكبر وسيلة لنشر مبادىء هذه الدعوة.

---

(١) «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لابن حجر آل بوطامي (١٠٢ ــ ١٠٧) و«رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (١٠٧ ــ ١١٤).

(ملاحظة): يوجد فهرس أسماء الشخصيات السلفية قديماً وحديثاً في تقديم الشيخ عبد الحميد الرحماني لكتاب: «زوابع في وجه السنة» لكاتب هذه السطور.

* العلاقات التجارية التي قامت بين أتباع الدعوة وغيرهم.

* دور خصوم الدعوة، الذين لفتوا أنظار الناس إليها من حيث لا يريدون كما قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشـــــر فضيلـــــةٍ ... طُـوِيَـتْ أتـاح لهـا لسـانَ حسـود

ولولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعْرفُ فضلُ طيبِ العود

باجتماع هذه العوامل وتكاتفها صار للدعوة رصيد كبير من الأنصار والمؤيّدين في كل بلاد العالم شرقاً وغرباً[1].

ولمّا اتصلت دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية بحياة الإمام محمد بن عبد الوهاب، انتشر فضلها وعمّ خيرها في مشارق الأرض ومغاربها.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

• • •

(١) المصدر المذكور في «مجلة البحوث» (١٤١ ـ ١٤٩) نقلاً عن حسين بن غنّام في «روضة الأفكار والأفهام» (١/ ٣٤) و«رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» للشيخ محمد بن عبد الله السلمان (١٠٥ ـ ١٠٦).

الحركة السلفية في العالم العربي



الحركة السلفية في العالم العربي

إن السلفية هي العودة بالأمة إلى الكتاب والسنّة على منهج السلف الصالح، في العقيدة والعمل، والسياسة والاجتماع، والمعيشة والاقتصاد، وغيرها من نواحي الحياة.

وهي تمثّل تعاليم الإسلام النقية من أكدار الجمود والركود، والشرك والوثنية، والبدع والأهواء، والخرافات والأوهام، والعادات والتقاليد.

وهي تعبير دقيق عن الإسلام الخالص، الخالي من هذه الشوائب كها.

ولم يخلُ أي عصر من عصور التاريخ من القرون المشهود لها بالخير حتى الآن من حملة المذهب السلفي، الذي هو التعبير الأدق عن الاعتصام بالكتاب والسنّة عقيدة وعملاً، ومنهجاً وسلوكاً.

ولقد استفاد العالم الإسلامي من دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب (ـ ١٢٠٦هـ) في القرن الثاني عشر، التي كانت تتجه إلى هذا الاتجاه المستقيم، وتأثر بها قادة الإصلاح، ورجال الدعوة في الأقطار الإسلامية، ووجدت آذاناً صاغية في الأوساط المتفهّمة في كثير من بلاد آسيا وإفريقيا.

* قال الزركلي:

«وكانت دعوته الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله، تأثر بها رجال الإصلاح في الهند، ومصر، والعراق، والشام، وغيرها.

فظهر الآلوسي الكبير في بغداد، وجمال الدين الأفغاني في أفغانستان، ومحمد عبده بمصر، وجمال الدين القاسمي بالشام، وخير الدين التونسي بتونس، وصديق حسن خان في بهوفال، وأمير علي في كلكتّه»[1].

تمثيل السلفية في العصر الحديث:

إن الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي مدينة لدعوة الإمام ابن عبد الوهاب الذي سلك منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الكتاب والسنّة وشرح المنهج السلفي في كتبه ورسائله.

ولا ريب أن دعوة شيخ الإسلام هي القنطرة للوصول إلى مذهب السلف الصالح في العصر الحاضر. وكتاباته أقرب تعبير عن تعاليم الإسلام الصحيحة، لا يستغني عنها الباحث عن الحق في أمور العقائد والأحكام.

«نشأت مدرسة الموازنة والترجيح في القرن السابع على يد ابن تيمية وتلامذته وهي مدرسة استوعبت الأخبار المروية... وأفادت من الرأي والأثر، وإن كان انتصارها للأثر أظهر، ودفاعها عنه أذكى وأقدر...

وهناك مدرسة أشبه أن تكون ابتداء لمدرسة الأثر عرضت الفقه الإسلامي من الكتاب والسنّة مباشرة... وانتفعت من مدرسة ابن تيمية...

يمثل هذه المدرسة الصنعاني في «سبل السلام»، والشوكاني في «نيل

---

(١) «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لابن حجر آل بوطامي (ص١٣١).

الأوطار»، والسيد سابق في «فقه السنّة»، وصديق حسن خان في «مؤلفاته»، والألباني في «رسائله». . . »[1].

مجلة «المنار» ودورها في نشر السلفية:

قامت في مصر حركة إصلاحية على يد شخصين يعتبران من قادة الفكر الإسلامي في العصر الحديث وهما: (جمال الدين الأفغاني (ـ ١٣١٥هـ) والشيخ محمد عبده (ـ ١٣٢٣هـ) إلا أنهما شخصيتان يختلف فيهما كثيراً، خاصة الأفغاني فإن انحرافاته واضحة في كتاباته وأعماله، وعقائده[2].

حركة الأفغاني ومحمد عبده صارت سبباً لاهتداء بعض النوابغ إلى المنهج الصحيح ومنهم تلميذهما: العلامة السيد محمد رشيد رضا (ـ ١٣٥٤هـ) ـ رحمه الله ـ الذي أنشأ مجلة «المنار» سنة ١٣١٥هـ.

تعلم السيد محمد رشيد رضا صراحة القول وحرية التفكير من الأفغاني ومحمد عبده التي دفعته إلى مطالعة كتب شيخ الإسلام وتلميذه ابن قيم الجوزية، ونصيرهما الإمام ابن عبد الوهاب. وكان النظر فيها محظوراً في محيطه آنذاك.

صادفت كتابات هؤلاء الأعلام رغبته الصادقة في دعوة الأمة إلى الكتاب والسنّة. فاتجه اتجاهاً سلفياً نحو العقيدة والعمل، وتحرر من كثير من انحرافات شيخه محمد عبده. قال:

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (٧٧ ـ ٧٨) ملخصاً.

(٢) راجع الاختلاف في شخصيتهما في «الباب الثالث» (حركة الإصلاحيين) من هذا الكتاب.

«وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه ــ رحمه الله تعالى ــ بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنّة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها. . . »[1].

* وشهد الدكتور مصطفى السباعي على ذلك بقوله:

«. . . يظهر أنه كان في أول أمره متأثراً بوجهة أستاذه الشيخ محمد عبده ــ رحمه الله ــ ، وكان مثله في أول الأمر قليل البضاعة من الحديث، قليل المعرفة بعلومه.

ولكنه منذ استلم لواء الإصلاح بعد وفاة الإمام محمد عبده، وأخذ يخوض غمار الميادين الفقهية والحديثية وغيرهما، وأصبح مرجع المسلمين في أنحاء العالم، في كل ما يعرض لهم من مشكلات ــ كثرت بضاعته من الحديث، وخبرته بعلومه، حتى غدا آخر الأمر حامل لواء السنّة، وأبرز أعلامها في مصر خاصة، نظراً لما كان عليه علماء الأزهر من إهمال لكتب السنّة وعلومها، وتبحرهم في المذاهب الفقهية والكلامية واللغوية وغيرها.

لقد أدركته ــ رحمه الله ــ في آخر حياته، وكنت أتردد على بيته، فأستفيد من علمه وفهمه للشريعة، ودفاعه عن السنّة ما أجد من حق تاريخه عليّ أن أشهد بأنه كان من أشد العلماء أخذاً بالسنة القولية، وإنكاراً لما يخالفها في المذاهب الفقهية. . . »[2].

* قال العلامة محمد كردعلي:

«أنشأ مجلة «المنار»، وجعل موضوعها الأول الإصلاح الإسلامي،

---

(١) تفسير «المنار» (١/ ١٦ ــ المقدمة).

(٢) السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي (ص ٣٠).

وطلّق التصوف، ونزع إلى مذهب السلف، وفي هذا الدور كان ممن استفاد من كتبهم، ونقل عنهم، واهتدى بآرائهم: شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية...

انتشر «المنار» في العالم الإسلامي، وكان له أنصار وخصوم، وأكثر خصومه مشايخ الأزهر.

كما كتب في السياسة... وكان رائده الإخلاص والغيرة على مصلحة الجماعة، يجاهر علماء الحشو والقبوريين والمبتدعين بالإنكار عليهم بشدة...

وأتى في أبحاثه الدينية بنغمة قلّما سمعت، فكان مناصروه قلة، ومشاكسوه كثرة، وأكثر المنكرين له جماعة الأزهر»[1].

* وقال الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي:

«فقد انتشرت هذه الدعوة المباركة بحضرموت، وجاوة بواسطة السيد محمد رشيد رضا، وتأليفه جمعية الإرشاد الداعية هناك إلى الكتاب والسنّة، ونبذ البدع والخرافات، طِبْقَ مبادىء الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وقد تأثر بها كثيرون بحضرموت، وعدن، وجاوة كما هو معروف»[2].

* وقال الدكتور ماجد عرسان الكيلاني:

«وما من شك أن أثر ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية كان واضحاً في نشاطات السلفية التي قادها عبده ورضا في مصر والشام. وخاصة في الفتاوى التي كانت تنشرها «المنار».

---

(١) المعاصرون (٣٣٥ ـ ٣٣٦).

(٢) الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص ١٠٧).

كذلك كان هذا الأثر واضحاً في مشاريع الإصلاح التربوية التي اقترحها الشيخ محمد عبده»[1].

* وقال الشيخ محمد عبد الرحمن المغراوي:

«إن الشيخ رشيد رضا قد أظهر مذهباً سلفياً جيداً فيما جمعه في تفسير «المنار» وقد أثبت في معظم الصفات مذهب السلف الصالح، ودافع عنه، وإن كان يقع في التأويل في بعض الصفات... فهو يعتبر من الذين غلبت عليهم الصبغة السلفية ومَدْحُه لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، ومن انتهج منهجهما في الدعوة والعقيدة، كجمال الدين القاسمي ـ يدل على إعجابه بالمذهب السلفي»[2].

* وقال الدكتور عبد الرحمن الفريوائي:

«واطلاعه على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب، واتصاله بعلماء الدعوة السلفية، في نجد، والحجاز، والهند أثّر في شخصيته، ودفعه إلى التحمس للدعوة السلفية، والدفاع عنها، وعن أئمتها، والردّ على العقائد البدعية، والشركيات، والتصوف، كما هو ظاهر من كتاباته في تأييد «الحركة الوهابية»، والدفاع عن بلاد التوحيد، وحاميَها الملك عبد العزيز آل سعود، ونشر كتاب «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للعلامة محمد بشير السهسوانى بتقديمه

---

(١) الفكر التربوي (ص ١٠).

(٢) السنّة والشيعة لمحمد رشيد رضا (ص ١٤ ـ مقدمة المحقق، طبعة بنارس ١٤٠٨هـ) نقلاً عن المغراوي في «المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات» (١/ ٢٤٤).

وتعليقاته»[1].

* قال الدكتور محمد بن عبد الله السلمان بعد ما ذكر الأفغاني ومحمد عبده:

«ثمّ ظهر الشيخ محمد رشيد رضا (ــ ١٣٥٤هـ)، الذي هاجر من الشام إلى مصر عام ١٣١٥هـ، وهو يعتبر شخصية سلفية من تلاميذ الأفغاني ومحمد عبده وكان بحق أكبر مناصر وداعٍ لحركة الدعوة السلفية في مصر خاصة، والعالم العربي عامة في العصر الحديث.

فقد ألّف عدّة كتب مناصرة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأسّس مجلة (المنار) في مصر عام ١٣١٥هـ، والتي استمرّت في الصدور حتى وفاته عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م)، وكانت أكبر مناصر للدعوة هناك.

كما طبعت مطبعة «المنار» بمصر عدداً من مؤلفات علماء الدعوة السلفية في نجد، وناشريها»[2].

جماعة أنصار السنّة المحمدية:

قد كان لنشاط محمد رشيد رضا السلفي نجاح كبير في مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي. وظهر أتباع عديدون مؤيدون للدعوة السلفية، كما ظهرت جمعيات عديدة تدين بالولاء والتبعية للدعوة السلفية، ومن أبرزها في مصر:

---

(١) المصدر المذكور للسيد محمد رشيد رضا (ص ١٤ ــ مقدمة المحقق).

(٢) المصدر المذكور في «مجلة البحوث» (١٤٦ ــ ١٤٧) للدكتور محمد السلمان، نقلاً عن كتابه «رشيد رضا ودعوة «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (ص ٣٣٥).

جمعية أنصار السنّة المحمدية التي أسسها العلامة الشيخ محمد حامد الفقي ــ تلميذ رشيد رضا في مصر ــ عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) بمدينة القاهرة، ثم توسعت أعمالها ونشاطاتها إلى بلاد السودان فيما بعد.

وكان الشيخ الفقي من خريجي «الأزهر»، بدأ دعوته إلى الكتاب والسنّة (الدعوة السلفية)، في أثناء فترة دراسته بالأزهر. وبعد عمل عظيم وعمر زاهر توفي إلى رحمة الله تعالى في سابع رجب ١٣٧٨هـ. رحمه الله تعالى[١].

أهداف هذه الجماعة:

بيّن العلامة الشيخ محمد حامد الفقي ــ رحمه الله ــ في كتابه «جماعة أنصار السنّة المحمدية: دعوتها وأهدافها» ما يلي:

١ ــ دعوة الناس إلى التوحيد الخالص.

٢ ــ إرشاد الناس إلى أخذ دينهم من نبعيه الصافيين، صريح الكتاب، وصحيح السنّة.

٣ ــ إرشادهم إلى أن نصوص الكتاب والسنّة لا محيد عنها البتّة.

٤ ــ الدعوة إلى حب رسول الله ﷺ حباً صادقاً صحيحاً يحمل على اتخاذه مثلاً أعلى.

٥ ــ الدعوة إلى مجانبة البدع ومحدثات الأمور.

٦ ــ محاربة الخرافات والعقائد الفاسدة.

---

(١) المصدر المذكور في «مجلة البحوث» (ص ١٤٧)، ومجلة الهدي النبوي المجلد (٢٣) رجب وشعبان (ص ٦٩ ــ ٧٣).

٧ ـ إرشاد الناس إلى أن حياتهم الدنيوية والأخروية مرتبطة كل واحدة منها بالأخرى أوثق ارتباط.

٨ ـ إرشاد الناس إلى أن الله تعالى مدح الخير ووعد فاعله بالمغفرة، وذمّ الشرّ، وتوعّد فاعله.

٩ ـ إرشادهم إلى أن الفسوق والعصيان نتيجة لازمة لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر.

١٠ ـ إرشاد الناس إلى أن أوامر الدين ونواهيه هي رحمة بهم.

١١ ـ إرشادهم إلى أن الرسول ﷺ حرّم تشريف القبور، لأنه ظلم يمقته الله.

١٢ ـ إرشاد الناس إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى هلكة في الدنيا، وشقاوة في الآخرة.

١٣ ـ إرشاد الناس إلى أن موقفهم من صفات الرب سبحانه وأسمائه يجب أن يكون مطابقاً لموقف الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم.

١٤ ـ إرشاد الناس إلى أن أصل الداء هو سماحهم للنساء بارتياد الملاهي، ودور السينما.

١٥ ـ إرشاد الناس إلى وجوب تمسّكهم بالرجولة، لتظلّ لهم القوامة على نسائهم.

وزادت لائحة الجماعة على ما جاء في رسالة الشيخ الفقي:

١ ـ توثيق روابط الإخاء والتضامن بين الجماعة، والجمعيات الأخرى.

٢ ـ التعاون مع مختلف الهيئات العلمية والثقافية على إحياء التراث الإسلامي.
٣ ـ تنشئة الشباب تنشئة دينية[١].

جمعية إحياء التراث الإسلامي:

أنشئت جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت سنة ١٤٠٢هـ= ١٩٨١م لرفع راية الإسلام بنشر التوحيد الخالص، وعلوم الكتاب والسنّة، وبث الوعي الديني العام، ودعم المشروع الإسلامي في أنحاء المعمورة.

وأهدافها تتلخص فيما يلي:

إن بلورة دعوة الإسلام إلى حيز الواقع العملي تتطلب وضوحاً في الغايات، والخطوات، والأهداف التالية جعلت الجمعية تعمل على تحقيقها:

* العمل على إبراز فضائل التراث الإسلامي، ودوره في تطوير الحضارة الإنسانية.
* تجميع المخطوطات، والكتب الإسلامية من جميع أنحاء العالم، وتوثيقها، وتنظيمها في مكتبة الجمعية.
* تشجيع العلماء، والباحثين في مجال الدارسات الإسلامية، والعمل على نشر بحوثهم، ونتاج عملهم.
* دعوة الناس للتمسك بدين الله تعالى بالحكمة، والموعظة الحسنة.
* العمل على تنقية التراث الإسلامي من البدع، والخرافات التي شوّهت جمال الإسلام، وحالت دون تقدم المسلمين.

---

(١) لائحة الجماعة الداخلية (ص ٢). راجع بعض التفاصيل في «الطريق إلى جماعة المسلمين» للأستاذ حسين بن محسن بن علي جابر (٢٨٠ ـ ٢٨٣) دار الدعوة بالكويت ط ثانية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

* إنشاء صندوق للزكاة ، والإشراف على صرفها في الوجوه المشروعة.

* إنشاء المساجد والمراكز، والمؤسسات التعليمية، والاجتماعية في جميع أنحاء العالم[1].

---

(١) لا شك أن الجمعية ـ خلال لجانها القارية، وفروعها في بعض بلاد أوربا وأمريكا، ومكاتبها في كثير من دول العالم ـ تسعى لتحقيق أهدافها حثيثاً، وما تمّ إنجازه بعون الله وتوفيقه لغاية سنة ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م ما يلي:
ـ بناء أكثر من (١٨٧٨) جامعاً ومسجداً.
ـ بناء (٢٠٥) مراكز إسلامية متكاملة.
ـ بناء (٤٠٠) معهد إسلامي ومدرسة إسلامية.
ـ بناء (١٢) مستشفى.
ـ بناء (٥٦) مركزاً صحياً.
ـ إنشاء أكثر من (٥٠٠) مشروع للصدقة الجارية.
ـ إرسال أكثر من (٨٠٠) مكتبة إسلامية.
ـ تقديم كساء لـ(١٠٠,٠٠٠) مسلم في أفريقيا، وآسيا.
ـ حفر أكثر من (٢٥٠٠) بئر ماء.
ـ طباعة، وتوزيع أكثر من مليون ونصف مليون كتيب إسلامي.
ـ كفالة أكثر من (١٣٠٠) داعية، ومعلم قرآن.
ـ كفالة أكثر من (١٣٠٠) يتيم.
ـ توزيع (١٠) آلاف مكتبة طالب علم.
ـ توزيع (٢٥٠) مكتبة صوتية.
ـ إفطار أكثر من ثلاثة ملايين مسلم.
[راجع «مسيرة الخير» كتاب تعريفي لجمعية إحياء التراث الإسلامي وأعمالها ونشاطاتها في أنحاء العالم ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م].

وهناك جمعيات سلفية أخرى أقيمت على غرار جمعية إحياء التراث الإسلامي في دول الخليج، ومن أهمها:

ـ جمعية دار البر (دبي) الإمارات العربية المتحدة .

ـ جمعية التربية الإسلامية (البحرين).

ولهذه الجمعيات أعمال دعوية وخيرية كثيرة في داخل تلك البلاد وخارجها. فجزى الله القائمين عليها خير جزاء.

الأصول العلمية للدعوة السلفية:

«فحوى هذه الدعوة يدل على أنها امتداد لدعوة الإسلام الأولى، لأنها تبغي الرجوع إلى الكتاب والسنّة، وفهمهما على النهج القويم الذي كان عليه السلف الصالح...»[١].

ولخّص فضيلة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق هذه الأصول في ثلاث نقاط جامعة:

١ ـ التوحيـد.

٢ ـ الاتبـاع.

٣ ـ التزكـية.

وبيَّن أهداف الدعوة السلفية فقال:

وها هي أهداف هذه الدعوة التي هي نفسها أهداف الدعوة الإسلامية:

أولاً: إيجاد المسلم الحقيقي.

(١) «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنّة» لسليم الهلالي وزياد الدبيج (ص ١٧١) ط: ثانية ١٩٨١م.

ثانياً: إيجاد المجتمع المسلم.

ثالثاً: إقامة الحجة لله.

رابعاً: الإعذار إلى الله بأداء الأمانة.

ومميزات هذه الدعوة:

١ ــ تحقيق التوحيد.

٢ ــ تحقيق الوحدة.

٣ ــ تيسير فهم الإسلام[١].

خلاصة هذه الدعوة:

١ ــ الرجوع إلى الكتاب والسنّة الصحيحة، وفهمهما على النهج الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

٢ ــ تعريف المسلمين بدينهم الحق، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه وأحكامه، والتحلّي بفضائله وآدابه التي تكفل لهم رضوان الله، وتحقق لهم السعادة والمجد.

٣ ــ تحذير المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره، ومن البدع والأفكار الدخيلة، والأحاديث المنكرة والموضوعة التي شوّهت جمال الإسلام وحالت دون تقدم المسلمين.

٤ ــ إحياء التفكير الإسلامي الحر في حدود القواعد الإسلامية.

٥ ــ إزالة الجمود الفكري الذي ران على عقول كثير من المسلمين، وأبعدهم عن منهل الإسلام الصافي.

---

(١) راجع التفصيل في «الأصول العلمية للدعوة السلفية» للشيخ عبد الرحمن. طبعة السلفية بالكويت.

٦ ــ السعي نحو استئناف حياة إسلامية، وإنشاء مجتمع إسلامي، وتطبيق حكم الله في الأرض.

وهذه الأمور لا تتحقق إلا بالأمور التالية:

*** التصفية:**

١ ــ تصفية العقيدة الإسلامية من آراء فرق الضلالة.

٢ ــ تصفية المذاهب الإسلامية من الاجتهادات المخالفة لقول الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ.

٣ ــ تصفية كتب التفسير والحديث مما خالطها وشوّه جمالها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات الساقطة.

*** فتح باب الاجتهاد:**

لإحياء التفكير الإسلامي الحر لا بد من فتح باب الاجتهاد، لأنه مصدر هام من مصادر الشريعة.

*** نشر الوعي الإسلامي الصحيح:**

يبدأ بالتوحيد بالمفهوم السلفي الذي يتناول توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وكذلك يركز على إفراد رسول الله ﷺ بالاتباع، تحقيقاً لمعنى «لا إله إلا الله محمد رسول الله»[1].

---

(١) المصدر المذكور لسليم الهلالي وزياد الدبيج (١٧١ ــ ١٧٧) باختصار.

شيخ الإسلام نصير السلفية:

يعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ نصير[1] مذهب السلف الصالح لأجل انتصاره «للسنّة المحضة والطريقة السلفية»[2]، ولأجل علاجه الفساد المستشري في عصره بأدلة الكتاب والسنّة في مقابل أهل البدع والأهواء.

أثمرت جهوده في مجال الدعوة والإصلاح، ولا تزال تؤتي أكلها. وتأثر رجال الدعوة الإسلامية، وزعماء التجديد والإصلاح بمبادئه الإصلاحية التي عالج بها مواطن الضعف في الأمة في القرن الثامن، لأن أسباب انحطاط الأمة، وتدليها إلى حضيض الذلّ والهوان كانت متشابهة ومتجانسة إلى حد كبير في عصرهم أيضاً.

قد علمنا أن دعوة شيخ الإسلام أثّرت في تكوين كثير من الحركات الإصلاحية، إلا أن الحركة السلفية ـ على اختلاف اسمها ـ في العالم أخذت حظاً وافراً من مبادئه في أمور العقائد والأحكام، والسياسة والاجتماع، والبحث والتفكير، والاستدلال والاستنباط على منهج السلف الصالح، بدون التقيّد بمذهب من المذاهب الفقهية.

وامتازت الدعوة السلفية عن غيرها من الدعوات، في مبادئها الإصلاحية لأجل انفتاحها الكامل على دعوة شيخ الإسلام التي تعتبر قنطرة للوصول إلى مذهب السلف الصالح في العصر الحاضر.

● ● ●

---

(١) السنّة والشيعة لمحمد رشيد رضا (ص ٦٩).
(٢) العقود الدرية (ص ١١٧).

أهل الحديث
في شبه القارة الهندية



أهل الحديث
في شبه القارة الهندية

تاريخ أهل الحديث في بلاد الهند والسند:

تشرّفت الهند بالإسلام في عهد الخلافة الراشدة، وفتحت بلاد السند في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك سنة ٩٣هـ على يد المجاهد الباسل محمد بن القاسم الثقفي.

وكان أهلها منذ الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن الرابع عاملين بالكتاب والسنّة على مذهب أهل الحديث، بعيدين عن الجمود الفقهي، الذي فرّق جمع الأمة الإسلامية، وشتّت شملها فيما بعد.

وشهد على ذلك أبو القاسم المقدسي الرحالة المعروف في كتابه «أحسن التقاسيم» حين زار بلاد السند سنة ٣٧٥هـ قائلاً:

«إن مذاهبهم أكثرهم أصحاب الحديث، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة ــ رحمه الله ــ، وليس به مالكية ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة إنهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة، وصلاح وعفّة. قد أراحهم الله من الغلو والعصبية والفتنة»[1].

---

(١) «جهود مخلصة في خدمة السنّة المطهرة» للفريوائي (ص ٦ ــ طبعة السلفية الهند).

ثم تتابعت الفتوحات الإسلامية على الهند، وظلت ثمانية قرون تحت الحكم الإسلامي، وصارت محطّ أنظار العلماء، ومركزاً للعلوم، ولكن تغيّرت الأوضاع الدينية، وتطرق التعصب المذهبي إلى صفوف المسلمين، وقَلّ اهتمامهم بالحديث، فنشأت البدع والخرافات، وحلّت محل شعائر الإسلام، واعتبر العمل بالحديث ضد الآراء الفقهية جريمة لا تغتفر.

مع هذا وذاك لم يكن يخلو عصر من التاريخ الإسلامي الطويل في الهند، من العلماء الذين نشروا الحديث عملاً وتدريساً، واعتصموا بالكتاب والسنّة منهجاً وسلوكاً ضد الحكم السائد في البلاد[1].

تشرفت الهند ـ بفضل الله تعالى ـ في القرن الثامن الهجري، بقدوم بعض تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية من مصر والشام، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشرهم علوم الكتاب والسنة، وتزويدهم المكتبة الإسلامية بما أتوا به من كتب السنة، وتأثيرهم في ملوك ذلك العصر وخاصة الملك محمد تغلق الذي أَحدث تغييراً في السياسة والحكم، وقضى على كثير من مظاهر الشرك والوثنية، وأتى على انحرافات المتصوفة من بنيانها. ومن هؤلاء التلاميذ البررة:

* العلامة عبدالعزيز الأردبيلي (وقد أثّر في الملك محمد تغلق تأثيراً كبيراً).

* والعلامة عليم الدين (حفيد بهاء الدين زكريا الملتاني) (ودعا الملك إلى إزالة البدع والخرافات).

---

(١) راجع الفصل الثاني من كتابنا «تاريخ أهل الحديث في شبه القارة الهندية».

* والعلامة شمس الدين ابن الحريري (وجاء إلى الهند بأربعمائة كتاب حديثي)[1].

وبعد فجوة كبيرة من الزمن في القرن الحادي عشر نجحت إلى حدٍّ ما جهود الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني (ـ ١٠٣٤هـ)، والشيخ عبد الحق المحدّث الدهلوي (ـ ١٠٥٢هـ) وأولادهما وتلاميذهما، فغيّرت كثيراً من العادات والتقاليد التي كانت تسود المجتمع المسلم في الهند.

وأيضاً توجه بعض العلماء إلى دراسة الكتاب والسنّة جزئياً خلاف المألوف في الأوساط العلمية عندهم، ولكن العقلية المتعصّبة لم تفسح مجالاً لهذه الجهود المباركة أن تؤتي ثمارها اليانعة، وتحقق آمالها المرجوة.

ومن ناحية أخرى، بدأ الرفض والتشيع أيضاً يجتاح البلاط المغولي مع انحرافاته وأهوائه الأخرى.

ويمكن تقدير خطورة الوضع الديني المتدهور في ذلك العصر بأن الملك المغولي «عالمكير» رغم جهوده لإحياء ما أميت من السنن والآثار من أمور الشريعة، لم يستطع أن يقدّم إلى الشعب المسلم إلا «الفتاوى العالمكيرية» المعروفة بالفتاوى الهندية، التي دوّنها كبار علماء الحنفية في ذلك العصر، وحشوها بكثير من الآراء والأقيسة ضد الكتاب والسنّة الصحيحة، وملأوها بسيل من البدع والخرافات ضد السنن والآثار.

---

(١) راجع تقديم الشيخ عبد الحميد الرحماني لهذا الكتاب.

شيخ الإسلام في نظر ولي الله الدهلوي:

في هذا الجو المتعصب الخانق، وهذا الوضع المنحط المتدهور ولد الشاه أحمد بن عبد الرحيم العمري المعروف بولي الله الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٤هـ). وكان أبوه من كبار علماء الحنفية وأحد المشاركين في تدوين «الفتاوى الهندية».

وفق الله عز وجل هذا العالم أن يتجه إلى نصرة العمل بالحديث على طريقة الفقهاء المحدّثين، بعد أن درس الحديث على علماء الحجاز المعروفين في ذلك الوقت، ومنهم:

* الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم بن حسن الكردي (ـ ١١٤٥هـ)، وهو تتلمذ على أبيه الشيخ إبراهيم الشافعي الإمام الكبير المجتهد (ـ ١١٠١هـ)، وكان سلفي العقيدة ذاباً عن شيخ الإسلام ابن تيمية.

* والشيخ محمد حياة السندي (ـ ١١٦٢هـ) شيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب (ـ ١٢٠٦هـ).

يظهر من دراسة حياة الشاه الدهلوي أن أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه وأنصاره أثرت في تكوين شخصيته بواسطة مشايخه في الحجاز. ورجع إلى الهند بعاطفة الاعتصام بالكتاب والسنّة. وصرح في كتابه بترجيح العمل بمذهب الفقهاء المحدّثين دون تقيّد بمذهب فقهي منسوب إلى أحد الأئمة الأعلام.

وقال في شيخ الإسلام: «والذي أعتقده أنا، وأحب أن يعتقده جميع المسلمين، في علماء الإسلام حملة الكتاب والسنّة والفقه، والذابين عن عقيدة أهل السنّة والحديث أنهم عدول بتعديل النبيّ ﷺ حيث قال: «يحمل

هذا العلم من كل خلف عدوله» ــ وإن كان بعضهم قد تكلم فيهم بما لا يرتضيه هذا المعتقد، إذا كان قولهم ذلك غير مردود عليهم بنص الكتاب والسنّة والإجماع. وكان قولهم ذلك محتملاً، وكان مجال ومساغ للخوض فيه، سواء كان قولهم ذلك في أصول الدين، أو في المباحث الفقهية، أو في الحقائق الوجدانية.

وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ فإنا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله، ومعانيه اللغوية والشرعية، وحافظ بسنّة رسول الله ﷺ وآثار السلف، عارف بمعانيهما اللغوية والشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرّر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله، فائق في الذكاء، ذو لسان وبلاغة في الذبّ عن عقيدة أهل السنّة، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة، اللهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها. وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنّة وآثار السلف.

فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره؟ والذين ضيقوا عليه لم يبلغوا معشار ما آتاه الله تعالى. وإن كان تضييقه ذلك ناشئاً من الاجتهاد. ومشاجرة العلماء في مثل ذلك ما هي إلا مشاجرة الصحابة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ فيما بينهم. والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخير»[1].

ثم أجاب عن مسائله التي ضيّقوا عليه لأجلها.

---

(١) جلاء العينين للآلوسي (٤٥ ــ ٤٦) نقلاً عن «التفهيمات الإلهية» للدهلوي.

أثر شيخ الإسلام في كتاباته:

يرى كل ذي عينين بصمات شيخ الإسلام واضحة في كتابات الشاه ولـي الله الدهلوي، في الدعوة إلى تجريد العمل بالكتاب والسنّة دون تقيدٍ بمذهب معين. قال الدهلوي:

«وترى العامة ــ لا سيما اليوم ــ في كل قطر يتقيّدون بمذهب من مذاهب المتقدمين، ويرون خروج الإنسان من مذهب من قلدوه ــ ولو في مسألةٍ ــ كالخروج من الملّة. كأنه نبي بعث إليه، وافترضت طاعته عليه. وكان أوائل الأمة قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد»[(١)].

وقال أيضاً:

«بعد دراسة فاحصة لكتب المذاهب الأربعة وكتب أصول الفقه والأحاديث التي يتمسكون بها استقرّ في القلب بتوفيق من الله وهدايته طريقة الفقهاء المحدثين»[(٢)].

رأى الشاه ولـي الله الدهـلوي أن الحـق بيـن التفـقّه والظـاهـرية فقال:

«. . . إني أقول لهؤلاء المسمِّين بالفقهاء الجامدين على التقليد: يبلغهم الحديث من أحاديث النبيّ ﷺ بإسناد صحيح، قد ذهب إليه جمع عظيـم مـن الفقهـاء المتـقدمين ، ولا يمنعهـم إلا التقـليد لمن لم يذهب إليه.

ولهؤلاء الظاهرية المنكرين للفقهاء الذين هم طراز حملة العلم وأئمة

---

(١) التفهيمات الإلهية للدهلوي (١/ ٥١) طبعة الهند ١٩٣٦م.

(٢) جهود مخلصة (ص ٥٢) عن كتابه «الجزء اللطيف» في الفارسية.

أهل الدين أنهم جميعاً على سفاهة وسخافة، وإلى ضلالة. وإن الحق أمر بين بين»[1].

«وهذا هو عين مذهب أهل الحديث»[2].

وقال العلامة محمد إسماعيل السلفي:

«من المتّبع لدى عامة الناس أنهم يشدون الرحال إلى المسافات البعيدة لزيارة الصلحاء ومقاماتهم، ويلتزمون بهذه الزيارة كشعائر الحج. وبهذا الصدد يقول الشاه ولي الله:

«والحق عندي أن القبر، ومحل عبادة وليّ من أولياء الله، والطور كل ذلك سواء في النهي، والله أعلم»[3].

والمحبّون للزيارة من الديوبنديين والبريلويين[4] يتكلمون في هذه المسألة بحماس وتجريح. ولكن الشاه ولي الله يقول بما قال به شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أئمة التوحيد، رحمهم الله تعالى»[5].

استياء حنفية الهند من موقف الدهلوي من مذهب المحدثين:

قد نحا الشاه ولي الله الدهلوي منحى مستقيماً في إرساء القواعد السلفية في كثير من كتبه، رغم صعوبة الأحوال والظروف.

---

(١) التفهيمات (١/ ٢٠٩).

(٢) حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي الله في التجديد للعلامة محمد إسماعيل السلفي (ص ٢٧٤) طبعة الجامعة السلفية الهند ١٣٩٧هـ.

(٣) حجة الله البالغة للدهلوي (١/ ١٩٢) دار التراث بالقاهرة.

(٤) انظر موقف «الديوبندية» و«البريلوية» من دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية في «الباب الرابع» من هذا الكتاب.

(٥) حركة الانطلاق الفكري (٧٧ ــ ٧٨).

«ومع هذه الصراحة وتلك الوصية والأقوال لا يرى من البأس انتسابه إلى الحنفية، والقيام ببعض الأعمال التي هي طريقة عامة الأحناف اقتضاء لأحوال العصر وخطورة الموقف، وخشية من فتنة المقلّدة الجامدين على المذهب لئلا ينفروا من دعوته الإصلاحية. وهذا كان من حكمته وتدّبره»[١].

موقف الشاه ولي الله الدهلوي هذا الصريح من تأييد أهل الحديث في مؤلفاته استاءته حنفية الهند جداً، واعتبرته من نقائصه.

قال الشيخ أنظر شاه بن أنور شاه الكاشميري أستاذ دار العلوم بديوبند:

«وبعد دراسة تحليلية لمسلك دار العلوم، قال مرة الشيخ الفاضل عبيد الله السندي أحد أفاضل ديوبند:

«إن الغرض الأساسي لدار العلوم هو تأييد الحنفية».

أنا أقول بدون أي تكلف وإحراج: إن هذه المادة المهمة قد بقيت غير منصوصة وغير مؤكدة من دروس الشاه ولي الله الدهلوي بالقدر المطلوب. فإن الشاه الدهلوي مع اتفاقه بالمدرسة الحنفية لم تنتفع الحنفية من غزارة علمه حسبما كان يتوقع منه لأنه كان يدعي الاجتهاد...»[٢].

والجدير بالذكر أن كل جماعة من المسلمين في شبه القارة الهندية تعتزّ بانتسابها إلى الشاه ولي الله الدهلوي، اعترافاً بفضله وجهده في مجال الدعوة

---

(١) جهود مخلصة (ص ٥٢).

(٢) المصدر المذكور (ص ١٢٨) نقلاً عن مجلة «الرشيد» عدد خاص حول دار العلوم ديوبند (٢١٤ ــ ٢١٥).

والتجديد، ولكنها سرعان ما تنصدم حينما ترى كتبه مشحونة بتأييد مذهب المحدثين في الأصول والفروع، وتعدّ حسناته هذه تقصيراً في هذا الباب.

كانت لطوائف المسلمين فرصة مواتية للانفتاح على التمسّك بالكتاب والسنّة على منهج السلف الصالح، مروراً بدعوة الشاه الدهلوي ولكن أعماها التقليد، وأصمّها من سماع القول المفيد.

ولا ينتهي عجبك إذا عرفت أن هذه الطوائف ـ مع هذا الإعراض عن دعوته ـ لا تتقاعس أبداً عن الادّعاء بأنها حاملة دعوة الشاه الدهلوي. ولله در القائل:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها　　　فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

دعوة أهل الحديث في نموّ وتقدم:

لقد اختار أنجال ولي الله الدهلوي منهج أبيهم في الدعوة والإرشاد، والتدريس والإفادة، والتصنيف والتأليف، وخاصة ابنه الكبير الشاه عبد العزيز[1] بن ولي الله الدهلوي (١١٥٩ ـ ١٢٣٩هـ)، كان مثل أبيه في نصرة العمل بالحديث ضد الجمود الفقهي.

وقد سئل الشاه عبد العزيز عن مذهب أئمة الحديث فقال:

«إن أئمة الحديث لا يتقيّدون بمذهب من مذاهب المجتهدين، بل إنهم يستفيدون من الفقهاء، ومن المصادر الأخرى على السواء»[2].

---

(١) ومن أهم مؤلفاته: «تحفة الاثنى عشرية» بالفارسية، ونقله إلى العربية الحافظ غلام محمد بن محيي الدين الأسلمي، وهذّبه علامة العراق السيد محمود شكري الآلوسي في «مختصر التحفة الاثنى عشرية».

(٢) حركة الانطلاق (٣٦)، نقلاً عن «الفتاوى العزيزية» (٢/ ١١٧).

وأدرك خطورة الأصول والقواعد التي وضعها متأخرة الحنفية للرد على الأحاديث الصحيحة فقال:

«ومن اللطائف التي قلّما ظفر بها جدليّ لحفظ مذهبه ما اخترعه المتأخرون لحفظ مذهب أبي حنيفة، وهي عدة قواعد يردون بها جميع مايحتجّ بها عليهم من الأحاديث الصحيحة»[1].

وتولى الشاه عبد العزيز التدريس محلّ أبيه بعد وفاته. وتقدمت حركة العمل بالحديث إلى الأمام قليلاً، ونجح في مهمته نوعاً ما، وقد انتفع به خلق لا يحصى. ومن أبرزهم:

* إخوته الثلاثة[2]: رفيع الدين (ـ ١٢٣٣هـ)، وعبد القادر (ـ ١٢٥٣هـ)، وعبد الغني (ـ ١٢٢٧هـ) أبناء ولي الله الدهلوي (ـ ١١٧٤هـ).

* وابن أخيه الشاه إسماعيل[3] بن عبد الغني الدهلوي (ـ ١٢٤٦هـ) الذي جاهر العمل بالحديث، وقام بالردّ على البدع السائدة في البلاد، وألف كتاب «تقوية الإيمان» الذي هو مثل «كتاب التوحيد» للإمام محمد بن عبد الوهاب. وأثمرت حركته لإحياء السنّة، وتحوّلت إلى حركة الجهاد، التي أقضّت مضاجع السيخ والإنجليز، حتى استشهد هو ومرشده في ميدان «بالاكوت» سنة ١٢٤٦هـ.

---

(١) المصدر المذكور (ص ٧٤) نقلاً عن «فتاواه» (١/ ٦٢).

(٢) راجع تراجمهم في «جهود مخلصة» (٥٨ ـ ٥٩).

(٣) راجع ترجمته في «أبجد العلوم» للنواب صديق حسن البوفالي (٣/ ٢٤٧) دار الكتب العلمية بيروت.

* والعلامة حسن[1] بن علي الحسيني القنّوجي (ـ ١٢٥٣هـ)، والد النواب صديق حسن البوفالي (ـ ١٣٠٧هـ)، الذي دعم الاتجاه السلفي للعمل بالحديث بنشر تأليفاته، وتأليفات علماء التفسير والحديث.

* وسبطه الشيخ محمد إسحاق المهاجر المكي[2] (ـ ١٢٦٢هـ)، الذي جلس للتدريس على مسند جده الشاه عبد العزيز الدهلوي في حياته، حتى هاجر إلى مكة المكرّمة سنة ١٢٥٨هـ.

وانتهت إليه رئاسة الحديث في عصره، وتخرّج عليه كبار علماء الهند.

ومن أبرز تلاميذه:

- خليفته السيد نذير حسين المحدث الدهلوي (ـ ١٣٢٠هـ)، رائد السلفية في الهند.
- والشيخ المحدث عبد الغني المجددي (ـ ١٢٩٦هـ) شيخ الحنفية في الهند[3].

تمييز الصف:

كان العلماء من أسرة الشاه ولي الله الدهلوي، وتلاميذهم وأنصارهم يصرّحون في كتاباتهم بحتمية الرجوع إلى الكتاب والسنّة، وعرض الفروع الفقهية عليهما، ولكنهم ــ عملاً ــ كانوا ينتسبون إلى المذهب الحنفي السائد في البلاد مراعاة للظروف والأحوال، وخوفاً من وشاية علماء السوء بهم إلى الدولة.

---

(١) راجع «أبجد العلوم» (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٢) المصدر المذكور (٣/ ٢٤٦)، و«جهود مخلصة (ص ٦٥).

(٣) جهود مخلصة (١٢٣ ـ ١٢٤).

في هذه الفترة الدقيقة من الزمن وفّق الله عزّ وجلّ الشاه إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي (ـ ١٢٤٣هـ)، أن يدعو الناس إلى العمل بالكتاب والسنّة، بقلمه ولسانه، نهاراً وجهاراً، ويردّ على البدع والخرافات التي كانت تسود المجتمع باسم الدين.

وكان كتابه «تقوية الإيمان» ــ مثل كتاب التوحيد للإمام ابن عبد الوهاب ــ دعوة صريحة إلى التمسك بالعقائد الإسلامية النقية من أكدار الشرك والوثنية، والإلحاد والزندقة، فاهتدى به إلى سبيل الحق والرشاد مئات الألوف من الناس. ولعله لم يحظ كتاب ــ بعد كتاب الله ــ في عصره بما حُظِيَ به هذا الكتاب من القراءة والمطالعة من قبل الموافقين والمخالفين على السواء. فكان حجة لهم أو عليهم: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [سورة الأنفال: ٤٢].

ومن ناحية أخرى: تحوّلت حركة الشاه إسماعيل الدهلوي لإحياء العمل بالكتاب والسنّة، وإقامة «الخلافة على منهاج النبوة» إلى حركة الجهاد ضد السيخ والاستعمار البريطاني أيضاً، التي أقضت مضاجعهم حتى قتل هو ومرشده السيد أحمد بن عرفان في ميدان بالاكوت سنة ١٢٤٦هـ على يد السيخ. رحمهم الله رحمة واسعة.

بعد هذا الواقع الأليم تحوّلت حركة الجهاد إلى حركة سرية ضد الاستعمار، وبقي أنصاره من أهل الحديث يقلقون جيش الاستعمار، خاصة في الحدود الشمالية من الهند، إلى أن انتهى دوره من الهند سنة ١٩٤٧م.

ولقد طَبَّق الشاه إسماعيل الدهلوي في حياته، ما كتبه جدّه وأعمامه في مؤلفاتهم، فتميّزت صفوف أهل الحديث في الهند، بالاعتصام بالكتاب

والسنّة، عن غيرهم من طوائف المسلمين. وتقدمت حركة إحياء السنّة إلى الأمام مع تمييز الصف، وتوضيح المنهج وتحديد المسار. فالحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

قيادة الإمامين:

بعدما تميّز الصف اهتم العلماء بالتدريس والإفادة، والدعوة والإرشاد، والتصنيف والتأليف. ونشأت اليقظة السلفية في القارة الهندية، بعد الركود الذهني المحزن، والسبات الفكري العميق، والجمود الفقهي الطويل، تحت قيادة الإمامين السيدين:

(أحدهما): العلامة نذير حسين المحدث الدهلوي[1] (ـ ١٣٢٠هـ) الذي كان أبرز تلامذة الشيخ محمد إسحاق (ـ ١٢٦٢هـ)، وتولى التدريس بعده في مكانه، ودرّس الحديث على طريقة فقهاء المحدثين ما يقارب اثنتين وستين سنة وتخرّج على يده أعلام أهل الحديث في الهند وخارجها، ومنهم[2]:

- أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي (ـ ١٣٢٩هـ) صاحب «عون المعبود على سنن أبي داود».
- أبو العُلى عبد الرحمن المباركفوري (ـ ١٣٥٣هـ) صاحب «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي».

---

(١) راجع ترجمته في «نزهة الخواطر» للسيد عبد الحي الحسني (٨/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠) و«الحياة بعد الممات» كتاب خاص بترجمته بالأردية.

(٢) هناك مقالات منشورة في «مجلة الجامعة السلفية» في تراجم العظيم آبادي، والمباركفوري، والسهسواني والآروي لكاتب هذه السطور.

ـ محمد بشير الفاروقي السهسواني (ـ ١٣٢٦هـ) صاحب «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان».

ـ أبو محمد إبراهيم الآروي (ـ ١٣١٩هـ) الذي اهتدى العلامة محمد نصيف وجيه جدة (ـ ١٣٩١هـ) بتوجيهاته إلى السلفية.

ـ الشيخ سعد بن عتيق ـ الذي انتشر سند شيخه المحدّث نذير حسين بواسطته في بلاد نجد والحجاز.

قال العلامة عبد الحي[1] الحسني في شيخه السيد نذير حسين المحدّث الدهلوي:

«. . . وكان له ذوق سليم في الفقه الحنفي، ثم غلب عليه حبّ القرآن والحديث، فترك اشتغاله بما سواهما إلا الفقه. . . ونفع الله بعلومه خلقاً كثيراً من العرب والعجم وانتهت إليه رئاسة الحديث في بلاد الهند.

أما تلامذته فعلى طبقات:

فمنهم العالمون الناقدون المعروفون، فلعلهم يبلغون إلى ألف نسمة.

ومنهم المقاربون للطبقة الأولى في بعض الأوصاف.

ومنهم من يلي الطبقة الثانية ـ وأهل هاتين الطبقتين يبلغون إلى الآلاف»[2].

وقال العلامة حسين بن محسن الأنصاري اليماني[3] (ـ ١٣٢٧هـ):

---

(١) هو والد الشيخ أبي الحسن علي الندوي.

(٢) «نزهة الخواطر» (٨/ ٥٠٠).

(٣) راجع ترجمته في «أبجد العلوم» (٣/ ٢١١).

«إنه فرد زمانه ومسند وقته وأوانه. ومن أجلّ علماء العصر، بل لا ثاني له في إقليم الهند في علمه وحلمه وتقواه. وإنه لمن الهادين والمرشدين إلى العمل بالكتاب والسنّة والمعلّمين لهما. بل أجلّ علماء هذا العصر المحققين في أرض الهند أكثرهم من تلامذته. وعقيدته موافقة لعقيدة السلف الموافقة للكتاب والسنّة»[١].

ولا ريب أنه ربّى جيلاً كاملاً على إحياء السنّة تدريساً وتأليفاً، ودعوة وتبليغاً، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

(والثاني): الأمير السيد صديق حسن الحسيني القنوجي البوفالي (ـ ١٣٠٧هـ) الذي نشر كتب الحديث ودواوين السنّة من جهة، وأثرى المكتبات الإسلامية بمؤلفاته من جهة أخرى.

وكان العلامة صديق حسن خان ممن تأثر بدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب[٢]. ومؤلفاته تمثّل «مدرسة الأثر» التي تعرض فروع الفقه الإسلامي على الكتاب والسنّة مباشرة[٣].

قال العلامة محمد عبد العزيز الخولي:

«ومن حسناته طبع «فتح الباري في شرح البخاري» للحافظ ابن حجر، و«نيل الأوطار» للإمام الشوكاني، و«تفسير الحافظ ابن كثير مع تفسير فتح البيان».

طبعت هذه على نفقته في المطبعة الأميرية بمصر، فكانت من أنجح

---

(١) نزهة الخواطر (٨/ ٤٩٩).

(٢) «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لابن حجر آل بوطامي (ص ١٣١).

(٣) دستور الوحدة (ص ٧٧).

وسائل إحياء السنّة»[1].

فقد قيّض الله عزّ وجلّ هذين الإمامين الجليلين فقام الأول بالتدريس والإفادة، وجدد العمل بالكتاب والسنّة على منهج السلف الصالح.

والثاني سلّط ماله في نشر دواوين السنّة، ومساعدة العلماء الذين قاموا بالتأليف والتصنيف، والدعوة والإرشاد في ربوع الهند.

وما يرى من ازدهار في حركة العمل بالسنّة في شبه القارة الهندية، يرجع فضله ـ بعد الله تعالى ـ إلى هذين العالمين الجليلين اللذين بارك الله في أعمالهما في نشر السلفية تأليفاً وتدريساً، ودعوة وتبليغاً.

وصدق فيهما قول النبيّ ﷺ:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسُلِّطَ على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها»[2].

مآثر أهل الحديث[3] في شبه القارة الهندية:

«على مرّ العصور وتلاحق الأجيال، ترسخت أصول وقواعد هذه الطائفة الناجية، وتحددت مناهجها، وتميّزت منابع فكرها ومناهل علومها، ودوّنت عقائدها، وتميّزت عن غيرها من عقائد وأصول ما عداها من الفرق

---

(١) مفتاح السنّة للخولي (ص ١٦٩) دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٥)، ومسلم (رقم ٨١٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) راجع فضل أهل الحديث في كتاب «شرف أصحاب الحديث» للإمام الخطيب البغدادي، وفي «مكانة أهل الحديث ومآثرهم وآثارهم الحميدة في الدين» لشيخنا الدكتور ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله تعالى.

الأخرى، فكانت هذه الطائفة بين سائر فرق الملّة، كالملة الإسلامية بين سائر الملل الأخرى. وتميّز أهلها عن غيرهم سواء في عقائدهم وفقههم، أم في أخلاقهم وسلوكهم، فكانوا خير شاهد لهذا الدين، وأقام الله بهم الحجة على عباده في كل عصر وجيل، ولا زال أئمة الهدى منهم شموساً ساطعة تضيء الطريق لكل من أراد الله له الخير والهداية في اقتفاء آثار رسول الله ﷺ، والاهتداء بهديه، والاستنان بسنّته»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ومن المعلوم أن أهل الحديث والسنّة أخص بالرسول واتباعه، فلهم من فضل الله، وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم، وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم. كما قال بعض السلف:

«أهل السنّة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل»[2].

وقال أيضاً:

«من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلّون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم بما ليس عندهم. فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقاً أخرى مثل المعقول، والقياس، والرأي، والكلام، والنظر، والاستدلال، والمحاجة، والمجادلة، والمكاشفة، والمخاطبة، والوجد، والذوق، ونحو ذلك.

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها: فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدّهم كلاماً، وأصحهم نظراً،

---

(١) أهل السنّة والجماعة: معالم الانطلاقة الكبرى (٢٩ ـ ٣٠).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤/ ١٤٠).

وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمّهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدّهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً.

وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنّة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل»[1].

والآن ننتقل إلى أتباع أهل الحديث في شبه القارة الهندية، فنجد أن فضائل هذه الطائفة كانت ولا تزال تذكر بين الطوائف، وعنايتها بالكتاب والسنّة كانت تفوق الفرق الأخرى.

* لقد سجّل الإمام محمد رشيد رضا اعترافه بخدمات أهل الحديث في الهند، سنة ١٣٥٣هـ، فقال:

«ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق. فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل هذا القرن الرابع عشر»[2].

* وأشاد العلامة محمد عبد العزيز الخولي بذكرهم فقال:

«ولا يوجد في الشعوب الإسلامية على كثرتها من وفي الحديث قسطه من العناية في هذا العصر، مثل إخواننا مسلمي الهند، أولئك الذين وجد بينهم حفّاظ للسنّة، ودارسون لها على نحو ما كانت تدرس في القرن الثالث، حرية في الفهم، ونظر في الأسانيد.

---

(١) المصدر المذكور (٤/ ٩ ــ ١٠).

(٢) مقدمة مفتاح كنوز السنّة.

كما طبعوا كثيراً من كتبها النفيسة التي كادت تذهب بها يد الإهمال، وتقضي عليها غبر الزمان.

وإن أساس تلك النهضة في البلاد الهندية أفذاذ أجلاء، تمخضت بهم العصور الحديثة، وانتهجوا في تحصيل العلوم نهج السلف، فنبه شأنهم وعلا أمرهم، وذاع صيتُهم. وتكونت جمعيات سلكت سبيلهم، وعملت على نشر مبادئهم فكان لها ذلك الأثر الصالح والسبق الواضح.

ومن أشهر هؤلاء الأعلام: ولي الله الدهلوي صاحب التصانيف في اللغتين: العربية والفارسية، وأشهرها كتاب «حجة الله البالغة». والسيد صديق حسن خان ملك بهوفال صاحب التصانيف الكثيرة أيضاً...

وفي الهند الآن طائفة كبيرة تهتدي بالسنّة في كل أمور الدين، ولا تقلّد أحداً من الفقهاء ولا المتكلمين وهي طائفة المحدثين»[1].

* وأثنى العلامة محمد منير الدمشقي على حركة أهل الحديث في الهند فقال:

«وهي نهضة عظيمة أثرت على باقي البلاد الإسلامية، فاقتدى بها غالب البلاد الإسلامية في طبع كتب الحديث والتفسير»[2].

* وقد اعترف بفضل حركة أهل الحديث الشيخ مناظر أحسن الكيلاني من تلامذة الشيخ محمد أنور الكشميري الحنفي، فقال:

«يُعْتَرَفُ أن اعتناء أحناف شبه القارة الهندية بالنبعين الأساسيين للدين

---

(١) مفتاح السنّة للخولي (١٦٨ ــ ١٦٩).

(٢) نموذج من الأعمال الخيرية للدمشقي (ص ٤٦٨) طبعة إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

(الكتاب والسنّة) فيه دخل كبير لحركة أهل الحديث ورفض التقليد. وإن لم يترك عامة الناس التقليد إلا أنه قد تحطّم سحر التقليد الجامد، والاعتماد الأعمى»[1].

حركة أهل الحديث في الهند امتداد لدعوة شيخ الإسلام:

إن أثر دعوة شيخ الإسلام في حركة أهل الحديث في القارة الهندية واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. وقد شق فكره طريقاً إلى مؤلفات الشاه ولي الله الدهلوي، ثم تأثر العلامة صديق حسن خان البوفالي بدعوة شيخ الإسلام ومؤلفاته وآرائه وأفكاره تأثراً كبيراً فعرّف به، وكتب له ترجمة حافلة في عدد من كتبه، وأوّل عالم ذُكِر في مبحث «ذكر حفاظ الإسلام» من كتابه «أبجد العلوم» هو شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ[2].

ومن ناحية أخرى سخّر مطابعه لطبع مختصرات بعض كتبه وفتاواه مترجمة إلى الفارسية (اللغة السائدة في الهند آنذاك). وكذلك أنه قام أيضاً بنشر كتابين مهمين في الدفاع عنه، ألا وهما:

ـ «الرد الوافر على من زعم أن من سمّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر»: للعلامة ابن ناصر الدين الدمشقي (ـ ٨٤٢هـ).

ـ و«جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»: للشيخ خير الدين الآلوسي (ـ ١٣١٧هـ).

ولا ينسى بعده فضل علماء الهند الآخرين أمثال الأستاذ شبلي

---

(١) جهود مخلصة (٧٥) نقلاً عن مجلة «برهان» (ج ٤١/ع٢ ـ أغسطس ١٩٥٨م).
(٢) أبجد العلوم (٣/ ١٣٠).

النعماني، وأبي الكلام آزاد، وغيرهم ــ في التعريف بشيخ الإسلام في الأوساط العلمية والدينية في العصر الحاضر.

وبعد ذلك ألّف الأستاذ أبو الحسن علي الندوي وغيره عديد من الأدباء والمؤرخين كتباً ورسائل مستقلة في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية بالأردية: لغة مسلمي القارة الهندية. وقام الأستاذ رئيس أحمد الجعفري بنقل كتاب «ابن تيمية» للأستاذ محمد أبو زهرة إلى الأردية، وعلق عليه العلامة الشيخ محمد عطاء الله حنيف الفوجياني ــ رحمه الله ــ (صاحب التعليقات السلفية على سنن النسائي) تعليقات مفيدة أزالت كثيراً من الشبه التي أثارها المؤلف ضد شيخ الإسلام، فجاء هذا الكتاب المترجم إلى الأردية أقرب إلى المقصود، وأنفع لطلبة العلم.

وأما مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية فإنها وإن كانت قد دخلت إلى الهند في القرن الثامن بواسطة تلاميذه البررة، ولكنها لم تتلق العناية بنشرها وترجمتها إلى الأردية إلا في القرن الرابع عشر. فقد قامت نخبة من العلماء بهذا العمل الجليل، الذي أفاد المسلمين كثيراً في مجالات العقائد والأحكام، فجزاهم الله خيراً[1].

لما تجددت دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب، تأثرت بها جميع الحركات السلفية في العالم. وأخذت حركة أهل الحديث بالقارة الهندية أيضاً حظاً وافراً من إصلاحاتها، لتقارب العهد بينهما:

«إن الحركة السلفية في بلاد نجد والحجاز، وفي شبه القارة الهندية

---

(١) راجع تقديم الشيخ الرحماني لهذا الكتاب.

بدأت في زمن متقارب. فإن الشاه ولي الله الدهلوي الذي مهّد الطريق للسلفية في الهند، والشيخ محمد بن عبد الوهاب قد درسا على الشيخ محمد حياة السندي. وقد كتب الله انتشاراً كبيراً، وازدهاراً عجيباً لهذه الدعوة المباركة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤][1].

إن حركة أهل الحديث في الهند، ملتقى حركات شيخ الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، والشوكاني، والدهلوي، في العودة بالأمة إلى الكتاب والسنّة في العقائد والأحكام.

قال العلامة السيد سليمان الندوي وهو من كبار علماء الهند:

«وكان من عظيم نعم الله تعالى وآلائه على الهند، في وقت انحطاطهم وضعفهم، أن جاء الشاه ولي الله الدهلوي، ورتّب منهاجاً جديداً للدعوة والإصلاح، وهو الرجوع إلى دين السلف الصالح.

وقد انتشرت هذه الدعوة في الهند، وكان بناؤها الفكري والعلمي والديني على أساس متين، بحيث لم يضعفه الانقلاب السياسي الهندي.

وكانت من مقاصدها الأولية تصفية الإسلام من البدع والخرافات، ودعوة الناس إلى اتباع منهج السلف الصالح في مجال العلم والعمل، واختيار طريق الفقهاء المحدثين في المسائل الفقهية.

وفي نفس الوقت، فكّر الناس في بلاد نجد والحجاز واليمن، لتجديد الحركة التي بدأها شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم في بلاد مصر والشام

(١) نشرة الجامعة السلفية (ج ٢٠ ــ ع ١، ٢) عن قدسية الحرمين الشريفين (ص ١١٩ ــ ١٢٠).

في القرن السابع والثامن الهجري، والتي كانت تهدف إلى تحرير الأمة الإسلامية من التقليد الجامد للأئمة المجتهدين، واتباعهم من غير دليل ولا برهان، ودعوتهم إلى اتباع الكتاب والسنّة.

وقد وصلت هذه الحركة إلى الهند في عهد إسماعيل الدهلوي المعروف بالشهيد وانضمّت مع حركة الشاه ولي الله المخلصة، وهي سمّيت في الهند بحركة أهل الحديث»[١].

ولا يفوتني أن أذكر أن صلة حركة أهل الحديث في شبه القارة الهندية بدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية تتجدد تجدّد الليل والنهار، وتتقوى بتلاحق الأزمان والأعصار، وأدلّ دليل على ذلك: «الندوة العالمية عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية وأعماله الخالدة[٢]» التي نظمتها الجامعة السلفية في الهند في الفترة ما بين (٢٩ ربيع الأول ــ ٢ ربيع الآخر ١٤٠٨هـ= ٢٢ نوفمبر ــ ٢٤ نوفمبر ١٩٨٧م)، للتعريف بهذه الشخصية السلفية الجبّارة في التاريخ الإسلامي، التي فرضت نفسها على الحركات الإصلاحية المعاصرة، وتعتبرها الأوساط الإسلامية الأصيلة بطلة للجماهير المسلمة، ورائدة للإصلاح الديني، وباعثة للنهضة الحديثة.

● ● ●

(١) جهود مخلصة (٦١ ــ ٦٢) نقلاً عن كتاب «مولانا السندي ونظرة في أفكاره ونظرياته» للأستاذ مسعود الندوي (المقدمة).

(٢) كان أصل هذا البحث معداً للتقديم في هذه الندوة، ولكن قدّر الله وما شاء فعل، بأني تأخرت عن الحضور فيها، لأجل حدوث الاضطرابات الطائفية في المنطقة. ووفّقت فيما بعد لإعادة النظر في هذا البحث، بفضل الله تعالى، وأضفت إليه إضافات زادت على الأصل مرات. فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الباب الثالث

الحركات المتراوحة

بين المعـارضة والتـأييد

الحركات المتراوحة بين المعارضة والتأييد

إن دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى الاعتصام بالكتاب والسنّة على فهم السلف الصالح، وإيضاح معالم الإسلام التي غمرت تحت أكداس مكدّسة من البدع والخرافات، تشمل جميع نواحي الحياة الإنسانية من العقيدة والعبادة، والمنهج والسلوك، والتعليم والتربية، والمعيشة والاقتصاد، والسياسة والاجتماع، والحكم والجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ، والدفاع عن حياض الإسلام من الفتن الداخلية والخارجية فكرياً وعسكرياً.

وأثمرت جهوده في إبراز معالم الإسلام في جميع مجالات الحياة، ولا تزال تثمر، وقد واجهته المشكلات العويصة في سبيل تحقيق أهدافه لإنقاذ الأمة من غياهب الأفكار الدخيلة في الإسلام، ولكن قدّر الله تعالى له النجاح مع الصبر والمثابرة، ووُفِّقَ لإنجاز مهام الأمور التي يتقاصر دونها كبار الدعاة.

وبما أن العصر الحاضر في نجوم الأحداث والأزمات، ووجود الانحرافات في الأوساط المسلمة في العالم الإسلامي، يشابه كثيراً عصر شيخ الإسلام فبالتالي يحتاج لمعالجتها إلى نفس الحلول التي قدّمها في القرنين السابع والثامن.

ولأجل هذا، أدرك قادة الاتجاهات، وروّاد الحركات في العصر الحديث أهمية دعوة شيخ الإسلام البناءة في جميع نواحي الحياة الإنسانية، من مستوى الفرد والجماعة إلى مستوى الحكم والدولة.

وما من حركة إلا وتهدف إلى تحقيق بعض الأهداف التي تناولها شيخ الإسلام بالتنقيح والتهذيب في آثاره ومآثره. ومن هنا تعتبره رائداً لنهضتها وباعثاً لمشاعرها، ومقياساً تقيس عليه نفسها في مجال الدعوة والإصلاح.

وفي غمرة الحركات المتعددة:

تجد حركة تقارن بين مؤسسها وبين شيخ الإسلام في تحقيق الأهداف التي أنشئت لأجلها، فترى الفضل فيها لمؤسسها.

وتأتي حركة فتثبت أن شيخ الإسلام مع فضله وتقدّمه، تأخر في المجال الذي هو هدفها الخاص.

وتجد حركة من الحركات تأخذ بعض إصلاحاتها، وتتغاضى عن الأخرى، لأنها خارجة عن أهدافها ومقاصدها.

وهناك بعض الحركات تستفيد من دعوته في السياسة والحكم، وتتقاعس عنها في العقائدَ والأحكام، لأنها تخالف مذهبها العقدي أو الفقهي الذي يتبنّاه مؤسسها.

وقد وجدت بعض الحركات الإصلاحية في ميزان دعوة شيخ الإسلام لا تسوى وزناً، ويتبيّن أن دعوى انتسابها إلى شيخ الإسلام أو مقارنتها مع دعوته أكبر من الواقع، بل الواقع الشاهد يرفض هذا الادّعاء في كثير من الأحيان.

وذلك لأن دعوة شيخ الإسلام هي الدعوة إلى الإصلاح الشامل في جميع مجالات الحياة الإنسانية، وفق الكتاب والسنّة على فهم السلف الصالح. فالتبعيض في قبولها قد يؤدي إلى اتباع الهوى. وعلى هذا، فإما قبولاً تاماً وإما رفضاً باتاً، لئلا يقعوا في التناقض الذي تصعب عليهم إزالته، ويصدق عليهم ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة المؤمنون: ٥٣].

وكــل يــدعــي وصــلاً بليلــى ... وليلــى لا تُقِــرُّ لــه بــذاكــا

إذا اشتبكــتْ دمــوعٌ فــي العيــون ... تبيّــن مــن بكــى ممــن تبــاكــا

والآن نذكر بعض هذه الحركات التي تتراوح بين التأييد والمعارضة في ضوء أقوال قادتها وأفعالهم وتحركاتهم وتصرفاتهم. وبالله التوفيق.

• • •

حركة الإصـلاحيـين

أو

مدرسة الأفغاني ومحمد عبده

حركة الإصلاحيين أو مدرسة الأفغاني

جمال الدين الأفغاني:

إن حركة الإصلاحيين تنتسب إلى دعوة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) وتلميذه محمد عبده (ـ ١٩٠٥م).

ولا شك أن جمال الدين شخصية حقيقية معروفة، ولكن ما يتعلق به من نسبة، وعقيدة، ومذهب، ودعوة، وسياسة، وموت، وجنازة، وقبر أشبه بالخرافة، لأن الكتاب اختلفوا فيما بينهم في تحديد هذه الأمور اختلافاً، قلما يوجد له نظير في التاريخ الحديث في تراجم الرجال.

وعلى سبيل المثال، نرى أنهم اختلفوا:

* في نسبته: هل هو أفغاني أم إيراني؟

* وفي عقيدته ومذهبه: هل هو سنّي حنفي، أم شيعي اثنا عشري؟

* وفي دعوته: هل هو مصلح إسلامي، أو داعية ماسوني؟ وإذا كان الأخير فهل كان مخدوعاً بالماسونية، أم جاهلاً بمبادئها؟

* وفي سياسته: هل هو اشتراكي، أم وطني؟

* وفي موته: هل مات مسموماً، أم بسبب الإهمال في عمليته الجراحية؟

* وفي جنازته: هل كانت محتفلاً بها، أم مغمورة؟

* وفي قبره: هل هو معروف أم مطموس؟

«في وسط هذا الخضم الواسع من الدعاوى يصعب تحديد نوعية دعوته، في بحر من النصوص التي يستند عليها كل من هؤلاء»[١].

* وقال الدكتور محمد محمد حسين عن دعوة جمال الدين وأهدافه:

«يحيط سيرته وأهدافه كثير من الغموض، الذي لم تكشف الأيام حقيقته بعد»[٢].

* وقال علي الوردي: «وقد اعتاد الأفغاني أن يغيّر لقبه كلما انتقل من بلد إلى آخر، فقد رأيناه في مصر وتركيا يلقب نفسه بـ(الأفغاني)، وبينما هو في إيران يلقب نفسه بـ(الحسيني).

ويتضح من أوراقه المحفوظة أنه كان يتخذ ألقاباً أخرى، مثل (الإستانبولي) و(الكابلي) و(الروسي) و(الطوسي) و(الأسدآبادي)...

وكان الأفغاني يغيّر زيه ولباس رأسه مثلما كان يغيّر لقبه، فهو في إيران يلبس العمامة السوداء، التي هي شعار الشيعة. فإذا ذهب إلى تركيا ومصر لبس العمامة البيضاء فوق طربوش تارة، وبغير طربوش تارة أخرى، وقد لبس الطربوش مجرداً في أوربا أحياناً. أما في الحجاز فقد لبس العقال والكوفية، وقيل: إنه في بعض جولاته لبس العمامة الخضراء. ومن يدري فربما لبس القبعة أحياناً»[٣].

---

(١) «دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام» للأستاذ مصطفى فوزي غزال (ص ١٩٨) دار طيبة بالرياض ١٤٠٣هـ.

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» (ص ٧٤) دار الإرشاد ط. أولى ١٣٨٨هـ.

(٣) «لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث» (٣/٣١٣)، وعنه في «دعوة الإخوان المسلمين في ميزان الإسلام» (٢٨ ـ ٢٩) ط. أولى ١٤١٤هـ.

قال مصطفى فوزي غزال:

«فهذا يدل على أنه له مهمة خفية يسعى لتنفيذها، وأنه يوجد وراءه من يخطط له ويطلب منه التلون بهذه الألوان، والتسمي بتلك الأسماء»[1].

عقيدة الأفغاني:

* قال الأستاذ مصطفى غزال:

«لو تتبعنا حياته الدراسية من مبدئها إلى منتهاها، لبدا لنا أنها كانت شيعية كلها، فقد تنقّل من مدرسة إلى أخرى ومن بلدة إلى أخرى، ومن شيخ إلى آخر، وفي كل ذلك يتقلّب من مجالات شيعية بحتة...»[2].

فإنه درس في قزوين، وطهران، والعراق، ومن مشايخه: آقاخان صادق، والشيخ مرتضى، والقاضي بشر، والحافظ دراز، وحبيب الله القندهاري، وكلهم من الشيعة.

* وقال المرزا لطف الله خان ابن خالة جمال الدين:

«... إن جمال الدين إيراني شيعي يختفي في ثياب الأفغاني، ويتخذ المذهب السنّي ستاراً له يحتمي به»[3].

* وأما انتسابه إلى البابية فلأجل معتقداته المتقاربة مع معتقدات البابية، وسجن أيضاً مع البابي قاتل الشاه ناصر الدين (شاه إيران) سنة ١٢٦٨هـ.

---

(١) «دعوة جمال الدين» (ص ٦٣).

(٢) المصدر السابق (٧١ ــ ٧٢).

(٣) جمال الدين الأسدبادي (ص ٣٤)، وعنه في «دعوة الإخوان» (ص ٣١).

وينسب إلى الإلحاد أيضاً لرأيه أن النبوة صناعة، وقوله بالاكتفاء بالقرآن دون السنّة، وإنكاره للمعجزات، واعتقاده بوحدة الوجود، ودعوته إلى وحدة الأديان، وغيرها من الطامات[1].

* وأما انتماؤه إلى المحافل الماسونية فمعروف.

فقد انضم إلى المحفل الماسوني البريطاني، ثم تركه لعدم تدخل المحفل في السياسة. ثم انضم إلى المحفل الماسوني الفرنسي، وبعد ثلاث سنوات أصبح من أهم رجال المحفل الماسوني، وتم اختياره رئيساً له لعام ١٨٧٨م بمصر[2].

وأيضاً أنشأ الأفغاني في مصر محفلاً ماسونياً كان يلتقي فيه أتباع الديانات المختلفة في قضية الحرية.

ولا ريب أنه جمع في شخصه أنواعاً من الإلحاد والانحراف، مع تستره بالإسلام والعمل للمسلمين.

نشاطـاتـه:

ركّز الأفغاني نشاطه في السياسة، وأثر في سياسة البلاد التي نزل فيها: كالهند، وأفغانستان، وإيران، ومصر، وتركيا، وأنشأ المنظمات السرية للإطاحة بالحكام، وإثارة الشعب ضدهم.

ومن هذه الجمعيات[3]:

---

(١) سيأتي شيء من التفصيل عنها قريباً.

(٢) راجع «دعوة جمال الدين الأفغاني»، وعنه في «دعوة الإخوان» (٤٩ ــ ٥٥).

(٣) «دعوة جمال الدين الأفغاني»، وعنه في «دعوة الإخوان» (٣٦ ــ ٤٥).

* **الحزب الوطني الحر بمصر:**

كان هذا الحزب في بداية أمره سرياً، ويظهر أنه كانت له صلة بالإنجليز، لأن أول من أصدر مبادئه المستر بلنت.

* **جمعية مصر الفتاة:**

أنشأها الأفغاني بالإسكندرية، وكان أغلب أعضائها من شبان اليهود والنصارى، وهي أشد الجمعيات اتصالاً بالسياسة.

* **جمعية العروة الوثقى:**

أنشأها أثناء إقامته في الهند، وكانت سرية، وامتدّ نشاطها إلى الشام، ومصر، والسودان، وتونس.

كان طابع هذه الجمعيات سياسياً وسرياً للغاية، وقد جمعت في أعضائها الخليط من اليهود والنصارى والمسلمين.

تلاميذ الأفغاني:

في غمرة هذه الاختلافات في شخصية من أشهر الشخصيات في العصر الحديث، يتبيّن أنها مشبوهة في الأوساط الإسلامية المحافظة، وتشير الدلائل إلى نكارة دعوتها، وغموض أهدافها، بل وخطورتها أيضاً على أصالة الفكر الإسلامي في أغلب الأحيان.

ومن أهم الأدلة على ذلك في نظري تلاميذ الأفغاني، وغيرهم من الكتاب المتنوّرين الذين تأثروا به، وكانوا على مزلق خطير من حرية التصريح ضد كثير من الأمور المتفق عليها بين المسلمين في العقائد والأعمال.

وهذا لا يحتاج إلى دليل خارجي، بل كتاباتهم المستقلّة في المجالات

المختلفة، ومقالاتهم المنشورة في الجرائد والمجلات، نفسها تحوي أدلة صارخة على هفواتهم وخزعبلاتهم.

ومن أشهر تلاميذ الأفغاني:[1]

* الشيخ محمد عبده.
* سعد زغلول.
* الميرزا محمد باقر الرافضي.
* إبراهيم المويلحي.
* علي يوسف.
* عبد الله النديم.
* سليم عنجوري النصراني.
* سليم النقاش.
* حنين نعمة الله الخوري.
* إبراهيم الهلباوي.
* الميرزا لطف الله خان الرافضي.
* محمد المخزومي.
* برهان الدين البلخي.

وكان في أعمال هذه الشخصيات وكتاباتها وأخلاقها كثير من الانحرافات والغموض، ولم تحز بثقة الأوساط الدينية، لأجل تحررها من أصول الدين، وقواعد الإسلام في كثير من الأمور، وكانت دائماً موضع ريبة وشك في أعين الطبقة الذكية من المسلمين.

---

(١) راجع «دعوة جمال الدين الأفغاني» (٢٨١ ــ ٣١٥).

«وما هذا الخليط من اليهود والنصارى الذي يجتمع حول هذا الرجل، الذي كان صوته أعلى الأصوات في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، والتنديد بفساد المجتمع الإسلامي والدعوة إلى إصلاحه»؟![1].

* * *

الشيخ محمد عبده:

هو أشهر تلاميذ الأفغاني بلا منازع. قال الدكتور أحمد أمين بعدما ذكر سلبيات عصر الشيخ محمد عبده:

«وفي هذا الجوّ المظلم كانت تلمع ثلاثة نجوم أضاءت جوانب نفسه: الشيخ درويش، والشيخ حسن الطويل، والسيد جمال الدين. . .

وكان السيد جمال الدين الأفغاني شعلة ذكاء، وقوة هائلة، ومتحركة ومحركة، ولا يمسّها ماسّ إلا شحن من كهربائه على قدر استعداده. . .

اتصل به في مصر محمد عبده، وسعد زغلول، وإبراهيم الهلباوي. . . وكان أقربهم إلى نفسه محمد عبده. قرأ فيه السيد الذكاء، وحسن الاستعداد، وطيب القلب، والحماسة للإصلاح.

وقرأ محمد عبده في أستاذه سعة العقل، وصحة الإرشاد، والسموّ في النفس، ونبل الغرض، وشيئاً جديداً لم يره في الأزهر»[2].

* وقال الدكتور مصطفى السباعي، وهو بصدد الرد على «محمود أبو رية»:

---

(١) المصدر المذكور (ص ٣٣٤).

(٢) «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» للدكتور أحمد أمين (٣١٣ ـ ٣١٤) مكتبة النهضة المصرية ط. رابعة ١٩٧٩م.

«أما الشيخ محمد عبده ــ رحمه الله ــ ، فلا شك أنه كان من أكبر رواد الإصلاح في عصرنا الحديث. وأنه كان في عصره فيلسوف الإسلام، ولسانه الناطق وعقله المفكر، وسلاحه الذائد عن حماه كل عدو ومفتر من الغربيين ــ وخاصة المستعمرين منهم ــ ونوره المشرق تجاه الجمود الذي ران على العالم الإسلامي من مئات السنين.

ولكنه ــ مع هذا ــ كان قليل البضاعة من الحديث، وكان يرى في الاعتماد على المنطق والبرهان العقليين خير سلاح للدفاع عن الإسلام.

ومن هذين العاملين، وقعت له آراء في السنّة ورواتها، وفي العمل بالحديث، والاعتداد به ما صح أن يتخذه مثل «أبي رية» تكأة يتكىء عليها، ليخرج على المسلمين بمثل الآراء التي خرج بها»[1].

* وقال مصطفى صبري:

«وأما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى محمد عبده، فخلاصته أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين، فقرب كثيراً من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات، ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة، وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني كما أنه هو الذي شجع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر»[2].

هذا قليل من كثير من أفكار الشيخ محمد عبده، التي انحرفت عن الخط المستقيم. وعليه ملاحظات أخرى أيضاً، لا ينسى دورها في تحديد اتجاهاته، ومنها:

---

(١) «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» (ص ٣٠).

(٢) «موقف العقل والعلم» (١/ ١٣٣ ــ ١٣٤)، وعنه في «دعوة الإخوان» (٥٦٥).

* عمق صلته بالإنجليز، مع أن شيخه جمال الدين كان يتظاهر بحربه لهم.
* تغيير وجهة نظره نحو السياسة، وتحسّره على أيامه السابقة التي أضاعها في زمن شيخه.
* تساهله في الفتيا، وإباحته لحم البقر وغيره المذبوح بالصعق على الطريقة الأوروبية. وتجويزه الربا اليسير، وهو محرّم بنص الكتاب والسنّة. ووجوده مع نساء أوروبيات كاشفات في بعض الصور، يدل على أنه كان يسير على خط شيخه جمال الدين الأفغاني، في هذه الأمور.
* إنه سافر إلى أوروبا، وإلى بلاد الشام. ولكنه لم يخطر بباله الذهاب لأداء فريضة الحج، ولذا كان يصفهُ أقرب أصدقائه، وهو المستر بلنت ـ فيقول:

«وعبده لا يؤمن بنهاية سعيدة للجنس البشري، وأخشى أن أقول: إن محمد عبده بالرغم أنه المفتي الأعظم، ليس له الثقة في الإسلام بأكثر مما لي من الثقة في الكنيسة الكاثوليكية»[١].

وهذا غير مستغرب، فقد كان محمد عبده رئيس المحفل الماسوني في مصر بعد جمال الدين الأفغاني[٢].

كما أنه عندما نزل بلاد الشام نزل ضيفاً على المحفل الماسوني، فلا يستغرب أن ينسب إليه الزندقة والمروق[٣].

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» (٨٠ ـ ٩٥).

(٢) «موقف العقل والعلم والدين والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (١/ ٣٤٢) المكتبة الإسلامية ـ رياض الشيخ ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.

(٣) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين (١/ ٣٢٩)، دار النهضة ط ثالثة ١٣٩٢هـ.

وقال محمد عبده في رسالة له إلى أستاذه الأفغاني:

«... نحن الآن على سنّتك القديمة، لا نقطع رأس الدين إلا بسيف الدين، ولهذا لو رأيتنا لرأيت زهاداً عباداً ركعاً سجداً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل»[(١)].

* انقلابه على شيخه «الأفغاني» بعد وفاته. لذا نراه يسير على خط أستاذه في أمور، ويخالفه في أمور، وحتى أنه أصبح يتحاشى ذكر اسم أستاذه في المناسبات الضرورية. وذلك لتبدّل في رأيه عن كثير من آرائه في الاستعمار[(٢)].

جراثيم أفكار الأفغاني:

تعدت جراثيم أفكار الأفغاني المشبوهة إلى تلامذته، وأشهرهم الشيخ محمد عبده. فأنكروا المعجزات غير القرآن، والملائكة، والشيطان، والجن، ونزول المسيح، وخروج الدجال، وشكّوا في صحة قصص القرآن[(٣)].

وربما صرّحوا في عدم تخصصاتهم تصريحات خطيرة خالفت كثيراً من نصوص الكتاب والسنّة، رغبة في الإتيان بالجديد، تشبثاً بدعوى ممارسة الحرية في التحقيق والتفكير، تأثراً بأعداء الإسلام القدامى والمحدثين من اليهود والنصارى من المستشرقين.

وقد تحوّل الشيخ محمد عبده عن كثير من آراء الأفغاني، ولكن تلامذة

---

(١) «دعوة الإخوان» (ص ٥٦).

(٢) راجع «دعوة جمال الدين الأفغاني» (٢٨٥ ــ ٢٨٨).

(٣) المصدر المذكور (ص ٣٣٨).

مدرستهما سلكوا مسلكهما في فهم نصوص الكتاب والسنّة، الذي قد يخالف قواعد الإسلام، ويؤدي إلى الانحراف عما هو ثابت معلوم من الدين بالضرورة، فمنهم من هداهم الله تعالى إلى الإيمان بنصوص الكتاب والسنّة، والرجوع إلى الحق والصواب.

ومنهم من تمادوا على تأليه العقول، وباضوا وفرّخوا. وبعض كتابات أنصار حركة الإصلاحيين ــ أمثال محمد الخضر، ومحمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد البهي، ومحمد المدني، وأحمد أمين، وأبو رية، وإسماعيل أدهم، وصالح أبو بكر، وعلي حسن عبد القادر، ومحمد مصطفى المراغي، وعلي عبد الرازق، وأبو زهرة، وأبو عبية، ومحمد حسنين هيكل، ومحمد عمارة، وعبد الحميد متولي، وحسين أحمد أمين وغيرهم ــ أدلّ دليل على انحرافاتهم في كثير من أمور العقائد والأحكام. وتجد المخالفات ــ مع شيء من الفوائد ــ منتشرة في أبوابها وفصولها.

محاولة إيجاد الصلة بين حركة الأفغاني ودعوة شيخ الإسلام:

من أساليب الدعاية العصرية أن المعجبين بمصلح ما، يختارون أقوى شخصية في مجال الدعوة والتجديد، والإصلاح والإرشاد، على مدى التاريخ الإسلامي الطويل، ثم يقيسون قائدهم عليها، ويقومون بالمقارنة بين أعمالهما الإصلاحية.

وقد قام الإصلاحيون أيضاً بالمقارنة بين دعوة الأفغاني وتلميذه محمد عبده وبين دعوة شيخ الإسلام، وحامل لوائها الإمام محمد بن عبد الوهاب.

* وقارن الدكتور محمد البهي (مدير جامعة الأزهر سابقاً) بين الأفغاني وشيخ الإسلام فقال:

«لقد أراد جمال الدين الأفغاني في كفاحه ضد الاستعمار الغربي، أن ينقل المسلمين من حال الضعف إلى حال القوة، كي يستطيعوا مواجهة الاعتداء الغربي في إعداده المنظّم، وعدّته القوية.

* وحال الضعف التي كان عليها المسلمون إذ ذاك تتمثل في:

- تفرُّق الكلمة في تعصّب، بسبب كثرة المذاهب وتباينها.

- والتقليد في تبعية لا تخضع لتروّ أو فهم، لآراء أرباب الفرق، والانحراف عن الإسلام بالاعتقاد في البدع والخرافات: لكرامات الأولياء وقدرتهم على الشفاعة والوساطة... هذا إلى سلبية واضحة في الحياة باتباع التصوف المنحرف، وتحكم عقيدة الجبر والتسليم في التوجيه!!.

* أما حال القوة: فهي في طرح ذلك كله... والتمسك بالقرآن كأساس موحد بين المسلمين، وإيجابية في الحياة بمباشرة الاجتهاد على الوضع الذي كان عليه السلف.

حال الضعف التي وصفها جمال الدين للمسلمين في وقته، هي حال الضعف التي كان عليها المسلمون في وقت «ابن تيمية».

ووسيلة القوة والتكتّل التي حددها ابن تيمية من قبل، هي الوسيلة لجمال الدين، وأصرّ على سلوكها.

ليس هناك اختلاف بين الاثنين سوى أن ابن تيمية برهن كعالم إسلامي مطلع، واستخدم الدليل الديني والمنطقي في تدعيم رأيه، وكتب وراسل وألّف.

أما جمال الدين فاتخذ أسلوب الإثارة، وإيقاظ الوعي، فتحدث وخطب... ومع ذلك، فقد خلق جمال الدين جيلاً من القادة، خلفه بعد وفاته على أساس من المعرفة، والتبصير الهادي الرزين، وعلى أساس من فهم صحيح للإسلام وتعاليمه، وفي توجيه العالم المجرّب...

ولولا دفع جمال الدين الأفغاني، وتبصيره العلمي الإسلامي لما رأينا من بعد شخصيته كشخصية الشيخ محمد عبده...

وهذا فضلاً عن الفارق الذي ذكر غير مرة...

وهو أن كلاً من حركة ابن تيمية، وحركة جمال الدين الأفغاني أخذت طابعاً معيناً أملته ظروف كل من صاحب الحركتين...»[١].

ثم تبجح الدكتور محمد البهي بذكر ميزات حركة الأفغاني ومحمد عبده على دعوة الشيخين: ابن تيمية، وابن عبد الوهاب ـ رحمهما الله تعالى ـ قائلاً:

«كما تتلمذ ابن عبد الوهاب على (كتابات) ابن تيمية، تتلمذ محمد عبده على (شخص) جمال الدين الأفغاني... ولكن مع فارق في التلمذة، وفارق آخر في نتيجة هذه التلمذة...»[٢].

* وأثبت الدكتور أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» أن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، امتداد لدعوة شيخ الإسلام

---

(١) «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» للدكتور محمد البهي (٨٥ ـ ٨٧) مكتبة وهبة الطبعة العاشرة.

(٢) المصدر المذكور (ص ١٤٦).

ابن تيمية، ثم قارن بين دعوة الإمام ابن عبد الوهاب وبين حركة محمد عبده فقال:

«وفي مصر شبّ الشيخ محمد عبده، فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو، فرجع إلى هذه التعاليم في أصولها من عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية، إلى عهد ابن عبد الوهاب.

وكان أكبر أمله أن يقوم في حياته للمسلمين بعمل صالح، فأدّاه اجتهاده وبحثه إلى هذين الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمه، وهما:

١ ـ محاربة البدع وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد بإشراك الأولياء، والقبور، والأضرحة مع الله تعالى[١].

٢ ـ فتح باب الجهاد الذي أغلقه ضعاف العقول من المقلّدين[٢].

وجرّد نفسه لخدمة هذين الغرضين، ولكنه امتاز بميزة كبرى عمن عداه، وهي ثقافته الواسعة الدينية والدنيوية، ومعرفته بشؤون الدنيا، وأسسها وتياراتها...

فلما تعرض لمثل ما تعرض له ابن عبد الوهاب فَلْسَفَ الدعوة، وركّزها

---

(١) أكثر كتب الإمام محمد بن عبد الوهاب ورسائله في الدعوة إلى التوحيد الخالص، والردّ على البدع والتقاليد السائدة في أوساط المسلمين. ومن أهمها: كتاب «التوحيد»، و«كشف الشبهات»، و«الأصول الثلاثة» و«مسائل الجاهلية» وغيرها.

(٢) راجع هذا المبحث في كتاب «إرشاد النقّاد إلى تيسير الاجتهاد» للأمير الصنعاني، مع المقدمة لكاتب هذه السطور، طبعة الدار السلفية بالكويت.

على أسس نفسية واجتماعية، كما شارك في تركيزها على الأسس الدينية...»[1].

لقد أوجد هؤلاء الكتّاب صلات بين دعوة شيخ الإسلام، وحركة الأفغاني وقد تأثر بمثل هذه الكتابات المستشرقون أيضاً، حتى قال (تشارلز آدمس) صاحب كتاب «الإسلام والتجديد في مصر» (ص ١٩٤ ـ تعريب عباس محمود):

«أما العامل الثاني المقوّم لهذه الحركة (أي حركة الأفغاني ومحمد عبده) فهو ابن تيمية وابن قيم الجوزية. فقد شنا غارة شعواء على ما كان في عصرهما من بدع وفساد... وقد نشر مذهبهما فيما بعد الوهابيون»[2].

أفكار الأفغاني وأنصاره في ميزان كتابات شيخ الإسلام:

إذا ألقينا نظرة عابرة على دعوة الأفغاني، وجدناها تختلف في مبادئها وأهدافها تمام الاختلاف، عن دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية. وأين الثرى من الثريا!

وأكثر ما يقال: إن هناك قدراً مشتركاً بين الحركتين، وهو أثرهما ونشاطهما، وتلقي الناس إياهما بالإعجاب والقبول في عصورهم. ولا ريب أن الأفغاني وتلامذته ـ وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده ـ قد استفادوا من حركة شيخ الإسلام استفادة مجملة، في كسر الجمود الفقهي، وإيقاظ الوعي العام، وتنبيه الجيل على الانفتاح على العالم المعاصر، وتحرير المواهب من التقاليد البالية.

---

(١) زعماء الإصلاح (ص ٢٥).

(٢) ابن تيمية السلفي للأستاذ محمد خليل هراس (ص ١٩٩) طبعة اليوسفية ١٩٥٢م.

ولكنهم لم يستفيدوا من دعوة شيخ الإسلام في تصحيح العقائد من شوائب الفرق الضالّة، ولا في تنقية الأحكام من أهواء الجامدين، لأن مركز دعوته هو العودة بالأمة إلى الكتاب والسنّة على منهج السلف الصالح في جميع أمور العقائد، والعبادات، والمعاملات، ودعوة الإصلاحيين تنبني على الإثارة والشغب ضد الحكم والحكام لأهداف فيها كثير من الغموض والانحراف، والريب والشكوك.

وكان الأفغاني الذي تنتسب إليه حركة الإصلاحيين، يعتقد بأمور، يكفي واحد منها لإدانته في عقيدته ودينه، فكيف وقد اجتمعت فيه كلها، ومنها:

* قوله بأن النبوة صناعة[١].
* وكلامه في النشوء والترقي يشبه كلام دارون[٢].
* وقوله بالاكتفاء بما جاء في القرآن دون السنّة[٣].
* وإنكاره للمعجزات[٤].
* واعتقاده بوحدة الوجود[٥].
* ودعوته إلى توحيد الأديان، مع دعوته إلى التقريب بين أهل السنّة والرافضة[٦].

---

(١) زعماء الأصلاح (ص ١٢٨).
(٢) المصدر المذكور (ص ١١٨)، ودعوة جمال الدين الأفغاني (ص ٣٤٥).
(٣) دعوة جمال الدين الأفغاني (٣٣٧ ـ ٣٣٨).
(٤) المصدر المذكور (ص ٣٣٨).
(٥) تاريخ الأستاذ الإمام للسيد محمد رشيد رضا (١/ ٧٩) (مطبعة المنار بمصر ١٣٥٠هـ) وزعماء الإصلاح (ص ١٢٠).
(٦) «دعوة الإخوان» (ص ٣٦).

ولقد تعدّت هذه الأفكار المشبوهة إلى تلاميذه وأنصاره أيضاً. فتجد في كتاباتهم: إنكار المعجزات، والملائكة، والشيطان، والجن، والتشكيك في صحة قصص القرآن كما وردت.

كذلك تجد فيها تأليه العقول، حتى في تفسير كتاب الله تعالى، وإطلاق الفكر من كل قيد، حتى قيود العقائد والأحكام.

إذا وزنا هذه الأقوال والأفكار في ميزان كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية، وجدناها موصومة بالإلحاد والزندقة والكفر والمروق من الدين.

* إن كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية دعوة صريحة إلى الاعتصام بالكتاب والسنّة معاً، خلاف الاكتفاء بالقرآن وحده دون السنّة.

* وهي مليئة بإثبات ما أثبته الكتاب والسنّة في أسماء الله تعالى وصفاته، وكذلك ما يتعلق بالغيبيات أيضاً من الجنة والنار، والملائكة والجن والشيطان، وما إلى ذلك. وهذا لا يحتاج إلى دليل وإحالة.

* وردّ على ضلالات الرافضة في كتابه القيم «منهاج السنّة».

* وقد شدّد النكير على تفلسف النبوّة في عديد من كتبه[١].

* وشن هجوماً على عقيدة ابن عربي في وحدة الوجود التي يميل إليها الأفغاني. حتى سجن سنة ٧٠٧هـ لأجله، بمؤامرة من ملاحدة الصوفية القائلين بوحدة الوجود[٢].

---

(١) راجع «النبوات» و«الصفدية» على سبيل المثال.

(٢) راجع «البداية والنهاية» (١٤/٥٣ ـ ٥٤) وتقدم أيضاً عند بيان «ابتلاءات شيخ الإسلام» (حوادث سنة ٧٠٧هـ) في الباب الأول من هذا الكتاب.

* وألّف كتابه النافع «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» في مجانبة هدى الكفار من الكتابيين والأميين والأعاجم.

وقد تقدم شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة والتجديد، وقيامه مع تلامذته وأنصاره بالإصلاح السياسي والاجتماعي للمسلمين في ضوء الكتاب والسنّة.

هذا هو شيخ الإسلام وتلامذته . وذاك الأفغاني وتلامذة مدرسته. وكلاهما على طرفي النقيض. بل أين الأفغاني من شيخ الإسلام؟!

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

حركة مشبوهة في الأوساط الدينية :

لأجل هذا الانحلال في أمور العقائد والأحكام، والتحرر في فهم النصوص، والإتيان بالآراء الغريبة، والتبني للأفكار المشبوهة، فقدت حركة الأفغاني ومحمد عبده ثقتها في الأوساط الدينية، وصارت الطبقة الذكية من المسلمين على حذر منها، ولكنها حازت إعجاب المستشرقين من اليهود والنصارى، وأذيالهم من أبناء المسلمين.

وقد تأسّف (جب) على هذا الموقف من هذه الحركة في كتابه (إلى أين يتجه الإسلام)، وقال:

«لسوء الحظ ، ظل قسم كبير من المسلمين المحافظين ولا سيما في الهند ـ لا يخضعون لهذه الحركات الإصلاحية المهدئة ، وينظرون إلى الحركة التي تزعّمتها «مدرسة علي كره

بالهند»[1] و«مدرسة محمد عبده بمصر»، نظرة كلها ريبة وسوء ظن، لا تقل عن ريبتهم في الثقافة الأوروبية نفسها»[2].

«ولكن الإصلاح الذي ينشده المستشرق (جب)، أوضحه في نفس الكتاب إذ قال:

(إن مشكلة الإسلام بالقياس إلى الأوروبيين، ليست مشكلة أكاديمية خالصة فحسب، فإن لتعاليم الدين الإسلامي من السيطرة على المسلمين في كل تصرفاتهم، ما يجعل لها مكاناً بارزاً في أي تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامي).

والتخطيط الذي يريده سجّله أيضاً في هذا الكتاب بقوله:

(والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب «أي أن يصبح الإسلام غربيّاً» هو أن نتبيّن إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادىء الغربية، وعلى التفكير الغربي. وهذا هو السبيل الوحيد، ولا سبيل غيره).

ثم يقول:

(إن التعاليم الدينية ومظاهرها عند أشد المسلمين محافظة على الدين،

---

(١) صاحب هذه المدرسة في الهند هو: «السير السيد أحمد خان» (١٨١٧ ــ ١٨٩٨م) وترجم له الدكتور أحمد أمين في «زعماء الإصلاح» (١٢٩ ــ ١٤٨). وراجع مناقشة بعض أفكاره الخاطئة في مبحث «فتنة إنكار الحديث في القارة الهندية» من كتابي: «زوابع في وجه السنّة قديماً وحديثاً (ص ٩٣) طبعة ثانية.

(٢) «السنّة المفترى عليها» للأستاذ سالم البهنساوي (ص ٢٠٧) دار البحوث ط. ثانية ١٤٠١هـ.

وتمسكاً به، قد أخذت في التحول ببطء خلال القرن الماضي ـ وإذا حدث هذا، فإن معناه أن الموازين الدينية والتعاليم الأخلاقية في الإسلام آخذة في التحول، وتتجه نحو تقريبه من الموازين الغربية في الأخلاق، التي هي في الوقت نفسه متمثلة في التعاليم الأخلاقية للكنيسة المسيحية).

غير أن الإصلاحيين اجتهدوا في خدمة الإسلام بهذه الوسائل، وليسوا متهمين بالعمل ضده كما يريد المستشرقون»[1].

لأجل هذه العواهن والعواقر في حركة الأفغاني أظهر المخطط الصليبي رضاه بها، وشجّع اتجاه «الحركة الإصلاحية» بواسط أقلام فلاسفته ومفكريه.

ولأجل هذا، كانت الأوساط الدينية دائماً على حذر منها.

وقال الدكتور محمد محمد حسين:

«وحقيقة الأمر في حركة الشيخ محمد عبده، وأستاذه جمال الدين الأفغاني الذي اقترن اسمه به في الشطر الأول من حياته، لا تزال تحتاج إلى مزيد من الوثائق التي توضّح موقفهما، وتزيل ما تحيط به من غموض فيما اجتمع حولهما من أخبار»[2].

رُبَّ ضارّةٍ نافعة:

ملخص القول إن جمال الدين الأفغاني نجح ـ مهما كانت أهدافه ـ في إثارة العواطف ضد الجمود والركود، والمذهبية والعصبية، التي اكتوت

---

(١) المصدر المذكور (٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(٢) الاتجاهات الوطنية (١/ ٣٢٨).

الأوساط الإسلامية بنارها كثيراً، رغم معارضة شديدة من قبل علماء الأزهر. وصادفت دعوته رغبة كثير من المتحررين، ووجدت أعواناً من الأمراء، وأصحاب المناصب، والكتّاب والخطباء الذين تشبّعوا بأفكاره، واعتبروه منقذاً من الانحطاط والتخلّف الذي مني به المسلمون. فألّفوا وكتبوا، وتحدّثوا وخطبوا، وهاجموا على كل قديم من العادات والتقاليد، وتطرفوا في إطلاق الفكر، وألّهوا عقولهم أحياناً، فلم تُصَنْ من تصرفاتهم العابثة حتى نصوص الكتاب والسنّة.

وحصل ذلك ـ في نظري ـ لفقدان التوجيه السليم الذي ينبني على أصالة الفكر الإسلامي في رسم خطوط الدعوة، وتحديد مسارها، ولأنهم اعتمدوا على توجيه الأفغاني المتحرر المنحرف عن الخط المستقيم، و«فاقد الشيء لا يعطيه».

نتيجة لهذا الخروج على التقاليد السائدة في المجتمع، اجترأ بعض من كتب الله له الهداية والتوفيق ليختار المنهج السلفي السليم، على قراءة كتب السنّة والعمل بمقتضاها، ووجدوا في كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية ضالتهم المنشودة التي كان النظر فيها إذ ذاك، نوعاً من الجريمة في الأوساط الدينية لأجل غلبة الهوى، والتعصب للمذاهب. وكان تراثه الموسوعي في تمثيل تعاليم الدين الصحيحة مهجوراً ومنبوذاً، حتى في المعاهد العلمية الكبيرة مثل الجامع الأزهر وغيره. فاهتدوا به إلى الحق، ورجعوا إلى صوابهم، وصاروا سبباً في نشر العمل بالحديث، وهداية كثير من الناس، ونجحوا في محيطهم في كسر الجمود الفقهي أيما نجاح، وحرّكوا مشاعر العلماء والطلبة نحو العمل بالسنّة، وصاروا حملة لوائها في مصر «نظراً لما كان عليه علماء

الأزهر من إهمال لكتب السنّة وعلومها»[١] ونادوا بعودة الأمة إلى الكتاب والسنّة.

وما جهود الإمام السيد محمد رشيد رضا وتلامذته وأنصاره عنكم ببعيدة[٢].

وقال الأستاذ محمد عبد العزيز الخولي:

«وقد وجد بين الأزهريين في هذه الأيام أفراد عنوا بدراسة السنّة دراسة كاملة، وأطلقوا لأنفسهم حرية البحث والفهم، وراضوا أنفسهم في كتب السنّة المختلفة، وإنه لبشير خير بتبدّل الأحوال، وإحلال العناية بالحديث محل الإهمال.

ولما كانت «مجلة المنار» سلفية المنهج، وكانت عنايتها موجهة إلى محاربة البدع، والرجوع بالدين إلى ما درج عليه الرعيل الأول من السلف، كان ذلك داعياً للعناية بالسنّة، والبحث فيها، وفي فنونها، والاستدلال بها في الفتاوى وغيرها...»[٣].

ولقد أراد الله تعالى أن تخرج نار هداية من رماد المدرسة الإصلاحية المنحرفة، وتصير شعلة جوّالة مع مرور الزمان، تضيء الطريق في الظلام الحالك من البدع والأوهام، والعادات والتقاليد.

لاَ تَعْجَبَنْ مِنْ هَالِكٍ كَيْفَ ثَوَىٰ ... بَلْ فَاْعْجَبَنْ مِنْ سَالِمٍ كَيْفَ نَجَا

---

(١) السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي (ص ٣٠).

(٢) راجع مبحث «مجلة المنار ودورها في نشر السلفية» تحت عنوان «الحركة السلفية في العالم العربي» في الباب الثاني من هذا الكتاب.

(٣) مفتاح السنّة للخولي (ص ١٦٨).

الجماعة الإسلامية
في شبه القارة الهندية

الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية

الأستاذ أبو الأعلى المودودي:

كان الأستاذ المودودي (١٩٠٣ ــ ١٩٧٩م) كاتباً مجيداً، وصحافياً ناجحاً، بارعاً في الأسلوب، لبقاً في الأداء، موفّقاً في عرض الحلول للمشاكل الناجمة في المجتمع، مبدعاً في تقديم الإسلام إلى المثقفين من غير المسلمين في أسلوب عصري أخّاذ.

لقد بدأ الأستاذ المودودي حركته بتصميم ثوري في الفترة ما بين (١٩٣٣ ــ ١٩٤١)، وأوضح ملامحها في كتبه، وأيضاً خلال كتاباته في مجلة «ترجمان القرآن» التي أصدرها سنة ١٩٣٢م، حتى أسس «الجماعة الإسلامية» بمدينة لاهور، في (٢٦/ أغسطس ١٩٤١م)، وذلك في جمع عدده (٧٥) شخصاً من أقصى الهند وأدناها. وتمّ انتخاب الأستاذ المودودي أميراً لها. وبقي على منصبه ما يقارب إحدى وثلاثين سنة حتى نوفمبر ١٩٧٢م. ثم اعتزل عن إمارتها لظروف صحية، وبدأ يقود الحركة فكرياً إلى أن وافاه الأجل المحتوم سنة ١٩٧٩م[1].

إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) أبو الأعلى المودوي فكره ودعوته للأستاذ أسعد جيلاني (٥٢٤ ــ ٤٢٥) طبعة لاهور ١٩٨٣م.

كتاباتـه:

ألّف الأستاذ المودودي في مجالات مختلفة من التفسير والحديث، والتعليم والتربية، والسياسة والقانون، والاقتصاد والاجتماع، والدفاع عن الإسلام.

وردّ في كثير من كتاباته على الحضارة الغربية الزائفة، والأفكار الإلحادية المستوردة، والحركات الهدامة المعاصرة من الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والقومية.

وكذلك حذّر المسلمين من الشرك، والتصوف، والتقليد الأعمى، وبذل جهداً مشكوراً مع الجماعات الإسلامية الأخرى في تدوين الدستور الإسلامي لباكستان، ومطالبة تطبيق الشريعة الإسلامية فيها، وركّز في كتاباته على تغيير الحكم والانقلاب السياسي.

واعتقل عدة مرات، وحكم عليه بالإعدام أيضاً سنة **١٩٥٣**م، ولكن قامت المحكمة بالعفو عنه في آخر الأمر(١).

الدكتور محمد إقبال الشاعر الإسلامي
وتجديـد الفكـر الـديني في الإسـلام:

كـان الـدكتـور محمـد إقبـال (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨هـ) مخلصـاً لـلإسـلام والمسلمين، ونادى بإنشاء دولة مستقلةً لهم في شبه القارة الهندية، وقد ظهرت في صورة «باكستان» بعد وفاته.

---

(١) راجع تقديم «موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي» للعلامة محمد إسماعيل السلفي» بقلم كاتب هذه السطور (١٠ ـ ١١) طبعة السلفية بالكويت ١٩٨٦م.

كذلك دعا إلى تجديد الفكر الديني في الإسلام، وإلى صياغة الفقه الإسلامي من جديد.

ولكن الإخلاص وحده لا يكفي لتحديد خط سير المسلمين إلى الإسلام الصحيح، من دون العلم الكافي بالكتاب والسنّة، والبصيرة النافذة في علوم الشريعة.

كانت حركة الدكتور محمد إقبال تشبه حركة الإصلاحيين، وتهدف إلى تقريب حياة المسلم المعاصر إلى المستجدات الحضارية، ولكن من منطق التفكير الغربي.

لأجل هذا نرى أنه يُقَارَنُ بينه وبين الشيخ محمد عبده في الحركة والعمل، ويعتبران من الشخصيات البارزة في ساحة الإصلاح الديني في عصر واحد[1].

لقد كانت دراسة الدكتور محمد إقبال دراسة فلسفية جامعية، وكتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام» يعرض فيه محاولته لفلسفته الإصلاحية بكل وضوح.

وذكر الدكتور محمد البهي رأيه في محمد إقبال، فقال:

«قد يقال: إن «إقبال» قرأ لـ«أوجست كومت»، وتأثر بمذهبه الوضعي.

وقد يقال: إنه قرأ لـ«هيجل»، وتأثر برأيه في «أنا»، وقرأ لـ«نيتشه»، ومال في مذهبه في «السوبرمان»...

ثم قرأ لـ«فيتشه» ما يراه في «التاريخ البشري» من أن عظماء الأفراد هم الذين يكوّنون التاريخ، وليست أحداث الحياة...

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث (٣٣١ ـ ٣٣٢).

وقد يقال: إنه صوفي ينزع إلى «وحدة الوجود»، ويفضّل الرياضة الصوفية، كطريق لصفاء النفس، أو كوسيلة للوصول إلى الذات العليا والقرب منها. . .

قد يقال كل هذا، أو بعضه. . .

والذي لا شك فيه، أن «إقبال» درس الفكر الغربي دراسة واسعة، وهضمه، واستفاد من منهجه، وتعبيراته، ومصطلحاته. . .

والذي لا شك فيه أيضاً أن «إقبال» كان صوفياً، وكان يقدّر الرياضة الصوفية. . . ليس فقط لصفاء النفس والروح، وإنما أيضاً للوصول إلى المعرفة «الكلية». . .

ولكن مع ذلك ليس ما يذكره «إقبال» هنا، هو ترديداً للفكر الغربي، أو أثراً للصوفية، أو مزاوجة بين الفكر الغربي والصوفية في الإسلام معاً. . .

وعندئذ يبدو «إقبال» في جانب الفرد ــ أو في جانب الذاتية الفردية أنه تأثر بـ«هيجل» في فكرته التي تقوم على «أنا»، وبـ«نيتشه» في فكرته التي تقوم على تمجيد القوة ــ وقوة الفرد وحدها، وبـ«فيتشه» في فكرته في استناد الجماعة إلى الفرد وعمله.

* ولكن إقبال في ذلك كله لم يكن إلا مسلماً أولاً.

* ومفكّراً غربياً في الصياغة والمنهج ثانياً.

. . . ثم صحبت كل هذه الآراء الإسلامية الصياغة الفلسفية الغربية»[1].

---

(١) المصدر المذكور (٣٧٨ ــ ٣٨٠).

يلاحظ على تفكير إقبال أيضاً: أنه تأثر بالمذهب الوضعي.

ومجّد بعض الحركات تبعاً للمستشرقين، وأحسن الظن بهم ما جعل فيه نقطة ضعف أخرى.

«إن إقبال في تجديد الفكر الديني في الإسلام كان جامعياً في محاولته... وفي عمله الفكري للخاصة، وفي اعتبار هذا العمل لجيل معيّن، هو جيل التفكير الوضعي، أو التفكير المادي الإلحادي. وهو لهذا يعتبر عملاً فكرياً مضاداً لحركة «التجديد» في الفكر الإسلامي في مصر، التي يتزعّمها بعض التابعين للفكر الاستشراقي، أو بعض المرددين للفكر الآخر المادي الإلحادي الممثل في وضعية «كومت» وماركسية «ماركس».

و«إقبال» بهذا، يعتبر المصلح الفكري في الإسلام في الوقت الحاضر، ويتميّز بذلك عن الشيخ محمد عبده في اتجاهه الإصلاحي. ولكن لأن محاولة «إقبال» الفكرية هي محاولة للخاصة، فهي في حاجة إلى حركة الشيخ عبده، كي تكون حركة إصلاحية فكرية عامة للجماعة الإسلامية في كل طبقاتها...»[1].

مع هذا وذاك وصف الدكتور محمد إقبال دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب التي هي امتداد لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية:

«أنها نبضة حياة في تاريخ المسلمين الحديث، وأن آثارها قد استلهمها بشكل مباشر أو غير مباشر جميع الحركات الإصلاحية في العالم العربي، وفي الهند، وأفريقيا وغيرها»[2].

---

(١) المصدر المذكور (٣٨٢ ــ ٣٩٥).

(٢) «الفكر التربوي» (٩ ــ ١٠).

بين الدكتور محمد إقبال والمودودي:

كان الدكتور محمد إقبال من المعنيين بمجلة «ترجمان القرآن» التي كان يصدرها الشيخ المودودي. فوجد في شخص المودودي خلال كتاباته بارقة أمل لتحقيق مشروعه في «تجديد الفكر الديني في الإسلام»، و«صياغة الفقه الإسلامي من جديد».

وقال الأستاذ المودودي:

«وقد عرفت اهتمامه هذا لأول مرة في بداية عام ١٩٣٧م، حين وصلني خطابه الذي أظهر فيه ــ العلامة إقبال ــ رغبته أن أترك حيدرآباد، وأذهب إلى البنجاب، وأبقى في لاهور، وأتعاون معه في «تدوين الفقه الإسلامي من جديد» . .

وقد وعدني أنه سيأتي للقيام هناك عدة أشهر كل سنة، بعد أن أنتقل إلى هذا المكان.

وطبقاً لهذا القرار ذهبت إلى حيدرآباد، للبدء في إتمام استعدادات الهجرة. وفي مارس ١٩٣٨م، انتقلت من حيدرآباد، ووصلت إلى «دار الإسلام» إلا أنه للأسف، كانت هذه هي الأيام الأخيرة للمرحوم، فقد انتقل إلى الرفيق الأعلى في الشهر التالي. وبقيتُ أنا وحيداً، من أجل هذا العمل الذي أردت ورغبت أن ألتقي فيه معه، ونقوم به معاً.

هذه هي باختصار قصة علاقتي به ــ رحمه الله ــ . . . »[1].

ولقد كان بين الدكتور محمد إقبال والأستاذ المودودي «انسجام كبير في الآراء» و«كان كل منهما قريباً من قلب الآخر». ولما بلغته وفاة «محمد إقبال» كتب كلمة قصيرة، قال فيها:

---

(١) أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته (٣٧٧ ــ ٣٧٨).

«فقدتُ أكبر سندٍ لي في الدنيا بموت هذا الرجل العظيم»[1].

الصياغة الجديدة للفكر الإسلامي في نظر العلماء:

قال الأستاذ المودودي في كتابه المصطلحات الأربعة في القرآن:

«لما نزل القرآن الكريم في العرب وعرض على الناطقين بالضاد. كان كل امرىء منهم يعرف معنى الإله، وما المراد بالرب. لأن كلمتي «الإله» و«الرب» كانتا مستعملتين في كلامهم من ذي قبل. وكانوا يحيطون علماً بجميع المعاني التي تطلق الكلمتان عليها. ومن ثم إذا قيل لا إله إلا الله، ولا رب سواه، ولا شريك له في ألوهيته وربوبيته، أدركوا ما دعوا إليه تماماً، وظهر لهم من غير ما لبس أو إبهام: أي شيء هو الذي نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به. وأي شيء قد خصه وأخلصه لله تعالى. والذين كفروا إنما كفروا عن بينة ومعرفة بكل ما يبطله وينعي عليه كفره، بألوهية غير الله وربوبيته.

وكذلك من آمن فقد آمن عن بينة وبصيرة بكل ما يوجب قبول تلك العقيدة: الأخذ به، والانسلاخ عنه، وكذلك كانت كلمتا «العبادة» و«الدين» شائعتين في لغتهم وكانوا يعلمون ما العبد، وما الحال التي يعبر عنها بالعبودية، وما هو المنهاج العملي الذي يطلق عليه اسم العبادة، وما مغزى الدين، وما هي المعاني التي تشتمل عليها هذه الكلمة. ومن ثم لما قيل لهم: اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وادخلوا في دين الله منقطعين عن الأديان كلها، ما أخطأوا في فهم هذه الدعوة التي جاء بها القرآن. وما أن قرعت

---

(١) «الإمام أبو الأعلى المودودي» للأستاذ خليل الحامدي (٢٩ ـ ٣٠) مكتبة الرشد بالرياض ١٤٠٣هـ.

أسماعهم حتى تبينوا أي نوع من التغيير في نظام حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة.

ولكن القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل فيها المعاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن. حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع لما كانت تتسع له وتحيط به من قبل. وعادت منحصرة في معان ضيقة محدودة ومخصوصة لمدلولات غامضة مشتبهة وذلك لسببين:

(أ) قلة الذوق العربي السليم، ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة.

(ب) إن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشأوا فيه لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات: الإله، والعبادة، والرب، والدين، ما كان شائعاً في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن.

ولأجل هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون في العصور المتأخرة يشرحون أكثر كلمات القرآن في معاجم اللغة، وكتب التفسير بالمعاني التي فهمها المتأخرون من المسلمين، بدلاً من معانيها الأصلية وأمثلة ذلك:

١ ــ أن كلمة **الإله**: جعلوها كأنها مترادفة مع كلمة الأوثان والأصنام.

٢ ــ أن كلمة **الرب**: جعلوها مرادفة مع الذي يربي وينشىء، والذات القائمة بأمر تربية الخلق وتنشئتهم.

٣ ــ **العبادة**: حددوها في معاني التأله والتنسك والخضوع والصلاة بين يدي الله تعالى.

٤ ــ **الدين**: جعلوها نظير كلمة النحلة.

٥ ــ **الطاغوت**: فسروها بالصنم، أو الشيطان.

والنتيجة: أن تعذر على الناس أن يدركوا حتى الغرض الحقيقي والمغزى الجوهري من دعوة القرآن: فإذا دعاهم القرآن ألا يتخذوا من دون الله إلهاً، ظنوا أنهم وفوا مطالب القرآن حقها لما تركوا الأصنام، واعتزلوا الأوثان، والحال أنهم لا يزالون متشبثين بكل ما يسعه ويحيط به مفهوم الإله ما عدا الأوثان والأصنام. وهم لا يشعرون: أنهم بعملهم هذا قد اتخذوا غير الله إلهاً. وإذا ناداهم القرآن بأن الله تعالى هو الرب فلا تتخذوا من دون رباً قالوا: ها نحن أولاء لا نعتقد من دون الله مربياً لنا، ومتعهداً لأمرنا. وبذلك قد كملت عقيدتنا في باب التوحيد. والواقع أنه قد أذعن أكثرهم لربوبية غير الله تعالى من حيث المعاني الأخرى التي تطلق عليها كلمة «الرب» غير هذا المعنى «المربي».

وإذا خاطبهم القرآن أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت: قالوا لا نعبد الأوثان، ونبغض الشيطان ونلعنه، ولا نخشع إلا لله، وقد امتثلنا هذا الأمر القرآني امتثالاً، والحال أنهم لا يزالون متمسكين بأذيال الطواغيت الأخرى غير الأصنام المنحوتة من الحجارة. وقد خصوا سائر ضروب العبادة ــ اللهم إلا التأله ــ لغير الله. وقل مثل ذلك في الدين: فإنه لا يفهم الناس من معنى إخلاص الدين لله تعالى غير أن ينتحل المرء ما يسمونه بالديانة الإسلامية، وإلا يبقى في ملة الهنادك أو اليهود أو النصارى. ومن هنا: يزعم كل من هو معدود من أهل الديانة الإسلامية أنه قد أخلص دينه لله تعالى. والحق أن أغلبيتهم لم يخلصوا دينهم لله تعالى من حيث المعاني الواسعة التي تشتمل عليها كلمة «الدين». انتهى.

* قال الأستاذ حسن الهضيبي ــ بعدما نقل عن «المصطلحات الأربعة في القرآن» للمودودي رداً عليه:

«اعتراض على بعض ما قرره الأستاذ المودودي:

● ونرد أولاً على التقرير بأن معاني «الألوهية والربوبية والعبادة والدين» كانت شائعة معروفة بين العرب من قبل البعثة وأنها بعد ذلك قد ضاعت وتبدلت وانحصرت في معان ضيقة محدودة غير ما كانت تتسع له من قبل.

● فنقول بعون الله: إن هذا التقرير لا يتفق مع الواقع. ذلك أنه أياً كانت المعاني التي كانت شائعة في الجاهلية لتلكم الكلمات فإن القرآن الكريم قد جاء محدداً ما يقصده من كل منها، معرفاً المفهوم المعني من كل لفظة من ألفاظها، مبيناً ذلك غاية البيان، مجلياً المعنى المراد بما لا يدع مجالاً للبس أو غموض ــ وهـذا البيـان القـرآني قد أغنى عن الرجوع إلى أصل تلك الكلمات في اللغة، وما كان لهـا مـن معان قبل نزوله، ولا يستريب مسلم أن بيان القرآن الكريم هو الأحكم والأوضح والأشمل والأجل، بل هو الذي يتعين الأخذ به، والتسليم بمقتضاه سواء وافق ذلك ما كان قبل نزوله أم لا.

والقرآن الكريم يزخر بالآيات البينات لمعاني «الألوهية، والربوبية، والعبادة، والدين» ــ ثم ذكر آيات كثيرة من القرآن الكريم ــ وقال:

«هذا قليل من الكثير الذي جاء به القرآن الكريم موضحاً معنى الألوهية مبيناً خصائصها وأبعادها وقدراتها وسلطانها. . .

أيرقى إلى هذا الذي سقناه أو يدانيه ولو من بعيد أي مفهوم كان شائعاً في الجاهلية لمعنى الألوهية!!؟

أيحتاج أي مفسر بعد هذا الذي تضمه دفتا المصحف الشريف إلى الرجوع إلى أصل كلمة «الإله» في اللغة ومما اشتقت. وما كان مفهومها في الجاهلية قبل نزول القرآن. . ؟!

أيصح بعد ذلك القول إن معاني الألوهية قد ضاعت وتبدلت ولم تعد شائعة معروفة وأن الذين ولدوا في الإسلام وفي رحاب ذلك الفيض الزاخر من آيات الله لم يبق لهم من معاني كلمات «الإله والعبادة والرب والدين» ما كان شائعاً معروفاً في الجاهلية قبل نزول القرآن. . !؟.

أيصح ــ في الواقع ــ أنه لما كان العرب قبائل شتى متفرقة ومختلفة ولكل منها لهجتها، لا تجمعها رئاسة، أو ثقافة، أو معتقدات موحدة، وكانوا أمة أمية، ندر فيهم من ألم بالقراءة والكتابة: يكسوهم الجهل والانحطاط، ليس لهم كتاب، أو إحاطة بعلم أو فن ــ لما كانوا كذلك كان مفهوم كلمات «الإله والرب والعبادة والدين» شائعاً بينهم معروفاً لدى كل امرىء منهم على حد سواء وعلى صفة معينة محددة ــ فلما نزل كتاب الله تعالى بالذكر المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مشتملاً على البيان الجلي والإيضاح الشامل، يتعبد الناس بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار ويجهرون به في صلوات تقام جماعة في المساجد وغيرها ضاعت تلك المعاني واندثرت ولم تعد شائعة بين الناس بمثل ما كانت شائعة بينهم في الجاهلية ــ أيصح ذلك وكتاب الله محفوظ بين المسلمين ولو قرأ أيهم الفاتحة، أو قل هو الله أحد، أو المعوذتين أو سمعها، لاطلع وعرف وأبصر ما لم يكن يعرف الجاهلي عنه شيئاً. . ؟.

أما كان الواجب قبل أن يلقى ذلك القول، أن يقدم له بالدلائل التي تدل على صحته؟.

أما وإذ جاء القول «إن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشأوا فيه لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات «الإله والرب والعبادة والدين» ما كان شائعاً في المجتمع الجاهلي قبل نزول القرآن» ــ بغير برهان يقوم حجة على صدقه وصحته ــ فإنه يكون مجرد قول لا حجة ولا يجوز اتباعه ولا يصح أن تبني عليه أحكام، وما سبق أن اجتزأناه من كتاب الله من آيات شاملة على معاني الألوهية والربوبية، والمفسرون ما اقتصروا قط على تفسير كلمة الرب بمعنى دون سائر المعاني التي تشملها. وإنما هم فسروا الكلمة في كل موضع على المعنى الذي يدل عليه السياق».

والآيات القرآنية قد أبرزت معنى كلمة الرب سواء فيما يتعلق بالملك والتصرف أو التعهد بالإصلاح والتربية والتنشئة والكفالة أو الرقابة والسيادة والعلاء والرياسة. . . ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

ثم ذكر عدة آيات فيه ذكر الرب تعالى وذكر الربوبية والألوهية وقال:

● هذا يسير من كثير جاء به القرآن الكريم فأبرز به معاني الألوهية والربوبية ــ والحق أن الناظر فيما قدمناه وفي سائر ما جاء به القرآن الكريم ليجد أن القرآن الكريم قد استعمل في أكثر الآيات كلمتي «الإله والرب» كمترادفين، وما قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [سورة القصص: ٣٨]، إلا كمثل قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النازعات: ٢٤].

وكذلك الأمر بالنسبة لكلمتي «العبادة والدين» فقد جاء بيانهما في القرآن الكريم كاملاً شافياً: ـ

«مالك يوم الدين» ولا نظن أنا بحاجة إلى إقامة دليل على أن الشائع المعروف بين المسلمين أن ذلك معناه يوم القيامة الذي يكون فيه الحساب والجزاء والعقاب.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [سورة آل عمران: ١٩]، ويفهم الأمي من ذلك أن المراد كافة ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وكافة شرائع الإسلام وهو ما يفهمه من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [سورة يوسف: ٤٠]. ومن قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة: ٣]. ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة يونس: ١٠٤ ـ ١٠٥].

ولقد تناولت الآيات التي قدمناها أيضاً معاني العبادة من إقامة الشعائر والنسك فضلاً عن الخضوع والذلة والطاعة والاتباع والانقياد المطلقين.

ولقد ورد بالقرآن الكريم النصوص الكثيرة الصريحة في دلالتها على أن الله تعالى هو ـ دون غيره ـ الحاكم الآمر الناهي، وأن الاتباع والانقياد المطلقين واجبان له دون سواه بما أغنى عن الاستدلال بمفهوم كلمة الرب للتدليل على ذلك ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [سورة يوسف: ٤٠].

ثم ذكر الآيات التي فيها ذكر العبادة والطاعة، والاتباع والحكم، وقال:

وكل ذلك محفوظ معروف مشهور يكفي أن يسمعه من لا يعرف من العربية إلا إحدى لهجاتها العامية فيفهمه ويلم بمقاصده العامة فتستنير بصيرته وإن جهل الفواصل بين الأحكام الشرعية المختلفة.

وما عمل المفسرين في هذا الشأن إلا إيضاح معنى كلمة قد لا يعرف معناها من لا يجيد اللغة العربية أو إيراد أسباب النزول أو بعض الأحاديث المناسبة للآية والمتعلقة بها، أو المقابلة بين الآية والحديث أو الآية والآية ثم الإشارة إلى الأحكام الشرعية التي تستنبط من مجموع الآيات والأحاديث المتعلقة بموضوع ما.

أما من لا يتكلمون العربية فالأمر بالنسبة لهم مرده إلى الترجمة: فإن وقعت صحيحة فهي ـ وإن لم تبلغ بلا ريب بيان القرآن العربي المعجز ـ تكون كافية في تحصيل المعاني المقصودة وإبلاغ البيان المطلوب. وإن لم تكن كذلك ولابسها التحريف فهي كذب وافتراء، وقول على الله بغير الحق.

● ثم نرد على القول بأنه: «لما نزل القرآن الكريم في العرب وعرض على الناطقين بالضاد كان حينئذ يعرف كل امرىء منهم ما معنى «الإله» وما المراد بـ«الرب» ومن ثم إذا قيل: لا إله إلا الله ولا رب سواه ولا شريك له في ألوهيته وربوبيته، أدركوا ما دعوا إليه تماماً وتبيّن لهم من غير ما لبس أو إبهام أي شيء هو الذي نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به وأي شيء قد خصه وأخلصه لله تعالى».

● فنقول بعون الله إنه إن كان المقصود بهذا القول القطع بأن كل فرد ممن كان بنجد والحجاز وغيرهما وقت بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام على وجه التحديد والتعيين، قد أدرك بغير ما لبس ولا إبهام ما دعي إليه وكان على علم كامل شامل بمعنى كلمتي «الإله والرب» وحقيقة التوحيد. وبالجملة: المفهوم الكامل الشامل بشهادة «لا إله إلا الله» إن كان هذا هو المقصود فإنه يكون قولاً في حاجة لإقامة البرهان على صحته، ولا يكفي للتدليل على صحة هذه الدعوى: الادعاء بشيوع معاني كلمتي «الإله والرب» بين العرب الناطقين بالضاد.

أولاً: لأن الشيوع مهما بلغ واشتد معناه، معرفة الكثرة الغالبة بالأمر ولا يرقى إلى حد القطع والتيقن من حقيقة علم كل فرد على وجه التحديد والتعيين، فمن ذا الذي أحصاهم عدداً وتأكد من حقيقة أمر كل منهم فرداً فرداً، ليجزم باستحالة أن يكون بينهم من أخطأ الفهم أو لم يصله العلم. . . ؟

ثانياً: إن الذين كانوا بنجد والحجاز وغيرها، لم يكونوا كلهم من العرب الخلص العالمين باللغة العربية كأهلها بل كان فيهم بيقين كثير من المستعربين والأرقاء المستجلبين من نواح شتى وأجناس مختلفة وكان فيهم أيضاً الأحرار الأجانب الأعجميو اللسان، فلا يصدق في حقهم القول بالفهم كفهم الناطق بالضاد، ولقد حفظ لنا التاريخ أسماء كثيرين من صحابة رسول الله ﷺ من فارسيين وروميين وأحباش، وأشار القرآن الكريم إلى وجود هؤلاء الأجانب ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة النحل: ١٠٣].

ولقد كانت دعوة الرسول ﷺ موجهة للجميع على سواء، وقبل عليه الصلاة والسلام إسلام من نطق منهم بالشهادتين دون تفرقة أو تمييز. ولقد كان يكفي لدحض تلك الدعوى أن تكون بغير دليل، ولقد قدمنا ما يعارضها. ونؤكد هذه المعارضة بواقعة علم بها الرسول عليه الصلاة والسلام تؤكد جهل الكثيرين ممن أسلموا واعتبرهم النبيّ ﷺ مسلمين، ببعض معاني التوحيد ومفهوم الشهادة.

أورد الشاطبي في كتابه الاعتصام: «أنه ورد في الصحيح عن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل خيبر ونحن حديثو عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها «ذات أنواط». فقلنا يا رسول الله: إجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال ﷺ: «الله أكبر كما قالت بنو إسرائيل. اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم» «قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».

ولقد أورد ابن كثير والقرطبي وابن حزم روايات مماثلة [الاعتصام ص ٤٥].

أفهؤلاء الذين طلبوا من رسولهم أن يجعل لهم إلهاً من دون الله يصدق في حقهم القول إنهم إذ شهدوا أن لا إله إلا الله ولا رب سواه قد أدركوا تماماً ما دعوا إليه وتبيّن لهم من غير ما لبس ولا إبهام أي شيء هو الذي قد نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به، وأي شيء قد خصه وأخلصه لله تعالى...!!؟

هذا وقد سبق أن أوردنا ما كان من أمر عدي بن حاتم رضي الله عنه وجهله بحقيقة معنى كلمة العبادة حتى بين له رسول الله ﷺ المعنى المقصود»[1].

* وذكر الأستاذ أبو الحسن علي الندوي أثر كتابات المودودي في إعادة الثقة إلى الطبقة الذكية المثقفة بالثقافة الغربية، بالإسلام وقيمه وتصوراته وقال:

«ولكان من حسن حظ الإسلام، وسعادة جد المسلمين لو جعل الأستاذ المودودي هذا العمل وحده نصب عينيه، وجنّد له مواهبه الغنية، ووقف عليه حياته العلمية الخصبة.

ولكنه ذهب يمارس ما نستطيع أن نسمّيه «الصياغة الجديدة للفكر الإسلامي» أو «الصياغة الجديدة للإلهيات الإسلامية»، واعتبره أساساً فكرياً لنهضة المسلمين، ولجمع كلمتهم، وللجماعة الإسلامية.

ونعني بذلك بصفة خاصة ـ كتابه المستقل الذي أسماه «المصطلحات الأربعة في القرآن» الذي فسّر به تلك المصطلحات القرآنية الأربعة التي يدور عليها الإسلام، وتقوم عليه تعاليمه ودعوته، وإليها تستند «إقامة الحكم الإسلامي» أو «إمامة الدين» تفسيراً خاصاً يتميز بالطابع السياسي، ويدور حول «حاكمية الإله» و«سلطان الرب» ويحدد علاقة العبد بربه في مفهوم خاص وفي حدود معينة، وينحصر به غرض نزول القرآن والدعوة الإسلامية في «تأسيس الحكم الإسلامي» و«إقامة الحكومة الإلهية».

---

(١) راجع التفصيل في «دعاة لا قضاة» للأستاذ حسن الهضيبي (١٦ ـ ٣١).

وكان له موقف خاص هو نتيجة طبيعية منطقية نحو «الوسائل» و«الغايات» والعبادة والذكر، والأركان الأربعة العملية»[1].

ويلاحظ أن الأستاذ الندوي كان في بداية أمره من الموافقين للجماعة الإسلامية التي أسسها الأستاذ المودودي، ثم اعتزل عنها ـ كما اعتزل غيره من العلماء ـ لأسباب هم أعرف بها[2].

* ولا يفوتني أن أذكر هنا، رأي أحد من أبرز علماء القارة الهندية في الدعوة والإصلاح، والصراحة والشجاعة، في الشيخ المودودي، ونوعية دعوته ألا وهو «صوفي نذير أحمد الكاشميري»[3] (١٩٠٤ ـ ١٩٨٥م) من معاصريه، حيث قال:

«لما أراد الشيخ المودودي إنشاء «الجماعة الإسلامية» وجه الدعوة إليّ أيضاً للحضور في ذلك المجلس، وكنت إذ ذاك في «علي كره».

---

(١) التفسير السياسي للإسلام للندوي (١٦ ـ ١٧) مطبعة ندوة العلماء بالهند ١٣٩٩هـ.

(٢) وأبرزهم: الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي، والأستاذ أسرار أحمد، والأستاذ وحيد الدين خان، والشيخ منظور أحمد النعماني، والأستاذ الطبيب عبيد الله الكاشميري ـ وكل هؤلاء كتبوا كتابات مستقلة في الرد على الأستاذ المودودي وكثير من آرائه وأفكاره.

(٣) كان الشيخ «صوفي نذير أحمد الكاشميري» (١٩٠٤ ـ ١٩٨٥م) من كبار العلماء الزهاد في شبه القارة الهندية. وتأثر بكتابات شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، وكان يعتبرها من بواعث القوة الإيمانية والجرأة الدينية. وكان يقرّر بأنه كما لا نظير لإبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الأنبياء والرسل في الدعوة والعزيمة، كذلك الإمام أحمد وابن تيمية لا نظير لهما في العلماء المجتهدين من أمة محمد ﷺ.

كتبت رسالة اعتذار إليه من عدم الحضور، مع تأييد تكوين «الجماعة». وألقيتها في صندوق البريد. ثم رجعت إلى البيت ونمت بعد الدعاء والذكر فرأيت في المنام:

«إن حشيشة اللبن (الصقلاب) تعصر في إحدى غابات ألمانيا، ويُعَبَّأُ في القارورات، وأخبرت بعد الاستفسار أن هذا اللبن هو الذي يروَّج في السوق بدل اللبن الأصلي».

لقد تنبهت من النوم متضايقاً جداً لما رأيته في المنام، وشعرتُ أني أخطأت في إرسال رسالة الموافقة على تكوين الجماعة، وأسرعت إلى صندوق البريد، ووقفت هناك، ولما جاء مسؤول الصندوق ليفرغ الرسائل منه، فاستردت رسالتي منه، ومزّقتها.

وبعد مدة علمتُ تفسير هذه الرؤيا، بأن الشيخ المودودي يعرض فكرة الفلسفي الألماني (هيجل)[1] في «الحكومة الكلية» في لباس الفكر الإسلامي، بدل وجهة النظر الإسلامية الأصيلة»[2].

أثر شيخ الإسلام في دعوة المودودي:

تأثر الأستاذ المودودي في دعوته بشيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن خلفياته العلمية والدينية والثقافية، لم تفسح أمامه مجالاً لترحيب أفكاره ترحيباً كاملاً، لأنه نشأ في بيئة حنفية متعصبة، ورافق بعض المتحررين

(١) تقدم أن الدكتور «إقبال» كان متأثراً بـ«هيجل»، وانسجام الأستاذ المودودي مع «إقبال» في الآراء لا يحتاج إلى مراجعة.

(٢) مجلة «محدّث» (الأردية) الصادرة من بنارس (العدد ٤٨ ـ ربيع الآخر ١٤٠٦هـ) (ص ٤٩ ـ ٥١).

المنحلين من منكري الحديث في بداية أمره[1]. ووافق على مواقف الشيعة من بعض الصحابة[2]، وركّز جهده على تغيير الحكم، وفسّر الإسلام تفسيراً سياسياً حيناً، وتفسيراً فلسفياً حيناً آخر[3].

وبقيت كل هذه الاتجاهات المتعارضة مع أصول الإسلام، في كتاباته وأفكاره حتى آخر حياته، رغم تغيّر الظروف والأحوال، وتبنّتها «الجماعة الإسلامية» بدون رد أو مناقشة، وعضّت عليها بالنواجذ، وجعلتها محور دعوته.

لأجل قليل من جرأة الأستاذ المودودي:

على ردّ التقليد الأعمى ــ مع أنه حنفي أصولاً وفروعاً ــ، وعلى نقد التصوف ــ مع أنه يُقرر بعض أنواعه ــ وعلى ردّ البدع ــ مع أنه شجّع عديداً منها ــ.

اعتبره غلاة الحنفية خارجاً على المذهب، واتهموه بالزيغ والضلال[4].

---

(١) راجع «موقف الجماعة الإسلامية من الحديث» للعلامة محمد إسماعيل السلفي (ص ٤٤ ــ مقدمة الفوجياني)، وكتابنا «زوابع في وجه السنّة قديماً وحديثاً».

(٢) راجع «الخلافة والملك» للمودودي، تجد فيه عواهن كثيرة. وسيأتي شيء من بيان فرحة الروافض والخوارج بهذا الكتاب في آخر هذا المبحث تعليقاً إن شاء الله.

(٣) راجع «التفسير السياسي للإسلام» للندوي.

(٤) قال الشيخ محمد يوسف البنوري من كبار علماء «التبليغ» الديوبنديين: «أنادي على رؤوس الأشهاد أن الرجل «أبا الأعلى المودودي» زائغ ضال مضلّ. في كتبه ورسائله الطامات». (رسالة جماعة التبليغ للأستاذ محمد أسلم ص ٣٠ ــ «والطريق إلى جماعة المسلمين ص ٣١٩).

كما أن أنصاره وصفوه بأنه «يحمل طابع ابن تيمية»[1].

وقارنوا بينه وبين شيخ الإسلام في نقد الحديث[2]، كما قارنوا بينه وبين الإمام محمد بن عبد الوهاب في مجال الدعوة والإصلاح[3].

وقال الدكتور ماجد الكيلاني:

«وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، أو منذ أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، أخذ تأثير ابن تيمية يتجاوب صداه في مختلف الأقطار العربية والإسلامية. وأبرز من عكس هذا التأثير مدرستان:

مدرسة أبي الأعلى المودودي، ومدرسة مالك بن نبي.

أما عن المدرسة الأولى، فإن أثر ابن تيمية يبدو واضحاً جداً في التفكير السياسي لهذه المدرسة، وخاصة في تفكير أشهر مفكريها، وهما المودودي وسيد قطب...»[4].

محور دعوة المودودي:

تدور دعوة الشيخ المودودي حول مسألة القيادة والإمامة والزعامة، وإحداث الانقلاب فيها، ويفسّر الإسلام تفسيراً سياسياً وفلسفياً، ويجعل «الغايات» وسائل لتحقيق المآرب السياسية. ويرى أن الرسل لم يبعثوا إلا لذلك.

---

(١) أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته (ص ١٨٤).

(٢) «موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي» (ص ٤٦ تعليقاً).

(٣) راجع مقال الشيخ محمد يوسف أمير الجماعة الإسلامية بالهند سابقاً ـ المنشور ضمن «بحوث مؤتمر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب» الذي عقدته جامعة الإمام بالرياض.

(٤) الفكر التربوي (ص ١٢).

ولا ريب أن هذا خلاف منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى.

ويمكن تحديد محود دعوته في ضوء كتاباته بالنقاط التالية:

* **مسألة القيادة والإمامة مسألة المسائل:**

قال الأستاذ المودودي:

«لعله قد تبين لكم من كتاباتنا ورسائلنا أن غايتنا النهائية التي نقصدها من وراء ما نحن بصدده الآن من الكفاح، إنما هي إحداث الانقلاب في القيادة. . .»(١).

وقال: «إن مسألة القيادة والزعامة هي مسألة المسائل في الحياة الإنسانية وأصل أصولها. . .»(٢).

وقال: «غاية الدين الحقيقية إقامة نظام الإمامة الصالحة الراشدة»(٣).

وقال: «لأجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله ــ عليهم السلام ــ في هذه الدنيا أن يقيموا فيها الحكومة الإسلامية. . . ولذلك قد سعى كل نبيّ وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي حيثما بعث. . .»(٤).

---

(١) «الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية» (ص ١٦).

(٢) المصدر المذكور (ص ٢١).

(٣) المصدر المذكور (ص ٢٢).

(٤) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه (٣٤ ــ ٣٥) مؤسسة الرسالة ١٣٩٥هـ.

(فائدة): قال الأستاذ حسن إسماعيل الهضيبي (المرشد العام الثاني للإخوان المسلمين في كتابه «دعاة لا قضاة» (١٠٦): «ثم نقول للذين قالوا: إن البيعة ولزوم الجماعة من شروط الإيمان: إن كل من نطق بالشهادتين فهو مسلم مؤمن، ولو =

* **أصل الألوهية هو السلطة:**

لمّا كانت غاية الدين الحقيقية ــ عند الشيخ المودودي ــ إقامة نظام الإمامة، وكانت غاية بعثة الأنبياء والرسل إحداث الانقلاب السياسي، وكانت مسألة القيادة مسألة المسائل في الحياة الإنسانية ــ قرر في كتابه «المصطلحات[1] الأربعة في القرآن» أن حقيقة «الألوهية» و«الربوبية» هي «السلطة» و«الحاكمية» فقال:

«فخلاصة القول: إن أصل «الألوهية» وجوهرها هو السلطة...»[2].

وقال بعد سرد بعض الآيات في هذا الموضوع:

«ففي جميع هذه الآيات من أولها إلى آخرها، لا تجد إلا فكرة رئيسية واحدة، وهي أن كلاً من «الألوهية» و«السلطة» تستلزم الأخرى، وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح»[3].

وقال أيضاً:

«إن القرآن يجعل «الربوبية» مترادفة مع الحاكمية، والملكية، ويصف

= جهل لزوم البيعة، ووجوب التزام الجماعة حتى يبلغه الأمر بذلك، وتقوم عليه الحجة اللائحة بثبوته، ثم إنه إن اعتقد خلاف ما رآه غيره من معنى البيعة والجماعة والإمامة الحقة مجتهداً في ذلك ما وسعه من اجتهاد، أو مسترشداً بأقوال الفقهاء المشهود لها، والمشهود لهم بالعلم والورع.. وهم قد اختلفوا في ذلك اختلافات كثيرة، وذهبوا مذاهب شتى ــ فإنه وإن أخطأ، واعتقدنا بخطئه، فهو معذور بخطئه مأجور على نيّته، محكوم بإسلامه وإيمانه».

(١) هي «الإله، والرب، والعبادة، والدين».

(٢) «المصطلحات الأربعة في القرآن» (ص ٢٣) طبعة دار القلم بالكويت ١٣٨٩هـ.

(٣) المصدر المذكور (٢٨ ــ ٢٩).

لنا الرب بأنه الحاكم المطلق لهذا الكون، ومالكه وآمره الوحيد لا شريك له»[1].

وقال:

«فأنت ترى أن كلمة (الدين) في القرآن تقوم مقام نظام بأكمله يتركب من أجزاء أربعة:

١ ـ الحاكمية[2] والسلطة العليا.

---

(١) المصدر المذكور (ص ١٢٠).

(٢) قال الأستاذ حسن الهضيبي رداً على مصطلح «الحاكمية»: «جرت على بعض الألسن لفظة «الحاكمية» تعبيراً عن معان وأحكام تضمنتها آيات من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، ثم أسندت هذه اللفظة إلى اسم المولى عزّ وجلّ فقيل «حاكمية الله»... نحن على يقين أن لفظة (الحاكمية) لم ترد بأية آية من الذكر الحكيم، ونحن في بحثنا في الصحيح من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، لم نجد فيها حديثاً قد تضمن تلك اللفظة، فضلاً عن إضافتها إلى اسم المولى عز وجل... غير أنه لا يمر إلا الوجيز من الزمن حتى يستسهل الناس المصطلح الموضوع فيتداولونه بينهم... وقد لا يمضي كثير وقت حتى يستقل المصطلح بنفسه في أذهان الناس ويقرّ في آذانهم أنه الأصل الذي يرجع إليه...

وهكذا يجعل بعض الناس أساساً لمعتقدهم مصطلحاً لم يرد له نص من كتاب الله أو سنّة الرسول... لذلك كان لزاماً أن لا نتعلق بالمصطلحات التي يقول بها البشر غير المعصومين، وأن نتشبّث ونلوذ بكلام رب العالمين وكلام المعصوم سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام.

هذا هو الكلام المحكم الذي لا يظن فيه خطأ أو نقصان أو وهم.. والأحكام الشرعية تؤخذ من كلام الله تعالى وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام، لا من أقوال ومصطلحات يضعها الناس أياً كان هؤلاء...» (دعاة لا قضاة: ٦٣ ـ ٦٤).

٢ ـ الإطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة.

٣ ـ النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية.

٤ ـ المكافأة التي تكافئها السلطة العليا على اتباع ذلك النظام، والإخلاص له، أو على التمرد عليه والعصيان له»[١].

*** العبادات وسائل لتحقيق غاية الإمامة:**

وإذا كانت حقيقة «الألوهية» و«الربوبية» هي السلطة و«الحاكمية».

وإذا كان «الدين» هو الإذعان والطاعة لتلك «الحاكمية» ابتغاء مكافأتها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وغاية الدين الحقيقية هي إقامة الإمامة.

انطلاقاً من هذا الفهم جعل «العبادات الإسلامية» وسائل لتحقيق تلك الغاية فقال:

«هذه هي الغاية التي من أجلها فرض الإسلام عبادات الصلاة والصيام، والزكاة، والحج. والتعبير عنها بالعبادة لا يعني أنها هي العبادة ليس غير. بل معنى ذلك أنها تعدّ الإنسان لتلك العبادة، فكأنها مقررات تدريبية لازمة لها»[٢].

هذه الأمور هي «الغاية النهائية» لدعوة الشيخ المودودي.

---

(١) الاصطلاحات الأربعة (ص ١٢٠).

(٢) التفسير السياسي للإسلام (١٠٩ ـ ١١٠) نقلاً عن «نظرة فاحصة على العبادات الإسلامية» للمودودي الجزء الأول ص ١٣.

رأي شيخ الإسلام في مثل هذه الدعوة:

يوجد تشابه كبير بين ما قاله الأستاذ المودودي بأنه غاية الدين، وبين ما قاله ابن المطهر الحلي الرافضي في كتابه «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة».

وقد ردّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في كتابه القيم «منهاج السنّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» فقال:

«قال المصنف الرافضي أما بعد: فهذه رسالة شريفة ومقالة لطيفة، اشتملت على أهم المطالب في الدين، وأشرف مسائل المسلمين، وهي مسألة «الإمامة» التي يحصل بسبب إدراكها نيل درجة الكرامة. وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في الجنان، والتخلّص من غضب الرحمن. . .

فيقال: الكلام على هذا من وجوه:

* **(أحدها)**: أن يقال ــ أولاً ــ :

إن القائل إن مسألة الإمامة أهم المطالب في أحكام الدين وأشرف مسائل المسلمين كاذب بإجماع المسلمين سنيّهم وشيعيّهم، بل هو كفر فإن الإيمان بالله ورسوله أهم من مسألة الإمامة. وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام. . .

فإن قيل: إن النبيّ ﷺ كان هو الإمام في حياته، وإنما يحتاج إلى الإمام بعد مماته، فلم تكن هذه المسألة أهم مسائل الدين في حياته، وإنما صارت أهم مسائل الدين بعد مماته.

قيل الجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: إنه بتقدير صحة ذلك لا يجوز أن يقال: إنها أهم مسائل الدين

مطلقاً، بل في وقت دون وقت. وهي في خير الأوقات ليست أهم المطالب في أحكام الدين ولا أشرف مسائل المسلمين.

والثاني: أن يقال: الإيمان بالله ورسوله في كل زمان ومكان أعظم من مسألة الإمامة، فلم تكن في وقت من الأوقات الأهم ولا الأشرف.

الثالث: أن يقال: فقد كان يجب بيانها من النبيّ ﷺ لأمته الباقين من بعده، كما بيّن لهم أمور الصلاة والزكاة والصيام والحج. وبيّن أمر الإيمان بالله، وتوحيده، واليوم الآخر. ومن المعلوم أنه ليس بيان مسألة الإمامة في الكتاب والسنّة ببيان هذه الأصول.

* **(الوجه الثاني)**: أن يقال: أصول الدين عند الإمامية أربعة: التوحيد، والعدل، والنبوّة، والإمامة.

والإمامة هي آخر المراتب... فكيف تكون الإمامة أشرف وأهم.

وأيضاً فالإمامة إنما أوجبوها، لكونها لطفاً في الواجبات، فهي واجبة وجوب الوسائل. فكيف تكون الوسيلة أشرف وأهم من المقصود.

* **(الوجه الثالث)**: أن يقال: إن كانت الإمامة أهم مطالب الدين، وأهم مسائل المسلمين، فأبعد الناس عن هذا الأهم والأشرف هم الرافضة، فإنهم قد قالوا في الإمامة أسخف قولٍ وأفسده في العقل والدين...

* **(الوجه الرابع)**: أن يقال: قوله: «التي يحصل بسبب إدراكها نيل درجة الكرامة» كلام باطل، فإن مجرد معرفة إمام وقته، وإدراكه بعينه لا يستحق به الكرامة، إن لم يوافق أمره...

* **(الوجه الخامس)**: قوله: «وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في الجنان» فيقال له:

من جعل هذا من الإيمان إلا أهل الجهل والبهتان. . .»[1].

بعض الكتب والرسائل في معارضة فكر المودودي:

لقد قام عديد من العلماء المعاصرين بالرد على آراء الأستاذ المودودي وتصريحاته في «غاية الدين» في كتب مستقلة. وهنا نعرض أقوال بعضهم من خلال كتبهم، ليستفيد منها الباحث عن الحق في مثل هذه القضايا.

منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل:

قال العلامة الدكتور ربيع بن هادي عمير المدخلي، بعدما نقل كلام شيخ الإسلام السابق:

«لقد أطلت النفس في نقل كلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ لإمامته وجلالته وثقة الناس بقوة فهمه للإسلام، وعمقه، واعتقادهم في إخلاصه ــ لتشابه دعوى المودودي ودعوى الرافضي، بل مع الأسف الشديد ــ يرى القارىء أن دعوى الأستاذ المودودي أعظم، إذ الشيعي يقول: إنها أهم المطالب في أحكام الدين، ولم يقل في أصول الدين. ويقول: «وهي أحد أركان الإيمان».

أما صاحبنا فقد جعلها «مسألة المسائل في الحياة الإنسانية وأصل أصولها». وجعلها غاية الدين الحقيقية، وجعلها غاية مهمة الأنبياء. . .»[2] ــ وعلّق أيضاً على قول الأستاذ المودودي:

---

(١) «منهاج السنّة النبوية» (١/ ١٦ ــ ٢٦) باختصار ــ طبعة الأميرية ببولاق ١٣٢١هـ.

(٢) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، فيه الحكمة والعقل للدكتور ربيع بن هادي المدخلي (١١٤) طبعة السلفية الكويت ١٤٠٦هـ.

«ولأجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله... أن يقيموا فيها الحكومة الإسلامية»[1].

بقوله:

«**أولاً**: إن الحديث عن رسل الله وأنبيائه لا يجوز أن يكون عن طريق الاستنتاج والاستنباط السياسي. وقصص الأنبياء وتاريخهم من الأمور الغيبية التي لا يجوز الخوض فيها، إلا في حدود الوحي الذي أوحاه الله إلى محمد ﷺ...

وقال تعالى ـ عقب قصة نوح عليه السلام ـ:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة هود: ٤٩].

ويشتدّ هذا المنع وتزداد حرمته إذا خالف هذا الاستنتاج ما أخبر الله به عنهم. فقد بين الله غاياتهم إجمالاً، فقال:
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

وقال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥].

ويحدّث عن بعضهم تفصيلاً، كنوح وإبراهيم، وهود، وصالح، وقد تحدثنا عن منهجهم سابقاً[2]. وسردنا الآيات التي تحدد منهجهم وغاياتهم،

---

(١) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه للمودودي (ص ٣٤).

(٢) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (٢٨ ـ ٥٤).

وهي تطابق تماماً ما ذكر الله عنهم إجمالاً، من الدعوة إلى التوحيد، ومحاربة الشرك ومظاهره، مع الدعوة إلى الخير، وليس في القرآن ولا في السنّة ما يؤيّد ما زعمه المودودي في قوله:

«لأجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله عليهم السلام في هذه الدنيا أن يقيموا فيها «الحكومة الإسلامية»... فمن كانت عنده أدلة واضحة من الكتاب والسنّة، فليأت بها وعلينا الإيمان والاتباع.

ثانياً: عاش الأستاذ المودودي ـ رحمه الله ـ في عصر الصراع السياسي والحزبي، وبلغ التنافس والصراع على الحكم أوجه في الشرق والغرب، وبحكم قيادته وريادته السياسية والحزبية خيّل إليه أنه لا بد أن يكون الأنبياء أشدّ الناس عزماً وجدّاً وجهاداً في الوصول إلى الحكم، وإحراز مقاليد السلطة...»[1].

قال الأستاذ المودودي:

«ولذلك قد سعى كل نبي وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي حيثما بعث. فمنهم من اقتصرت مساعيه على تمهيد السبيل وإعداد العدد، كإبراهيم عليه السلام، ومنهم من أخذ فعلاً في الحركة الانقلابية، ولكن انتهت رسالته قبل أن تقوم على يده الحكومة الإلهية، كعيسى عليه السلام.

ومنهم من بلغ بهذه الحركة منازل الفوز والنجاح كموسى عليه السلام، وسيّدنا محمد ﷺ»[2].

---

(١) المصدر المذكور (١١٦ ـ ١١٨).

(٢) «موجز تاريخ تجديد الدين» (ص ٣٥).

وعلّق عليه الشيخ ربيع بن هادي قائلاً:

أولاً: إن عدد الأنبياء والرسل يزيد على عشرين ومائة ألف، ولم يقص الله علينا إلا قصة حوالي خمسة وعشرين نبياً ورسولاً في القرآن، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [سورة غافر: ٧٨].

والواجب علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل وكتبهم إجمالاً، وبما ذكره منهم ومن كتبهم تفصيلاً.

وما سكت عنه منهم، ومن قِصَصهم، ولم يخبر به رسوله محمداً ﷺ فهو من أمور الغيب.

وأعتقد أن مثل هذا التعبير «ولذلك سعى كل نبيّ وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي...» ليس من العلم الموروث عن خاتم الأنبياء ﷺ...

وقد قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الإسراء: ٣٦].

ثانياً: أعتقد أنه لا يجوز شرعاً أن يطلق دعوات الأنبياء الحكيمة، وهدايتهم الرحيمة المشتملة على الحكمة والعلم والثبات والصبر والتأني ـ لا يجوز أن يطلق على هذه الدعوات أنها محاولة انقلابات سياسية، لأن الانقلابات السياسية تقوم على المكايد والدسائس والمؤامرات التي لا يقوم بها إلا أناس لا يبالون بسفك الدماء، وإهلاك الحرث والنسل، والإفساد في الأرض.

ثالثاً: إن هذا التفسير لمهمة الأنبياء وغايتهم في غاية الخطورة لتأثيره الخطير على شباب الأمة المساكين، لأنهم قد يقولون: إذا كان الأنبياء زعماء سياسيين، وقادة حركات انقلابية، فلماذا لا يكون أتباعهم أيضاً سياسيين انقلابيين، ويسلكون إلى غايتهم ما تتطلبه الانقلابات السياسية من التخطيط والتدابير، وهل سيكونون معصومين في إحداث الانقلابات السياسية.

رابعاً: لا أدري ما يريد الأستاذ المودودي بقوله:

«فاقتصرت جهود بعضهم على تمهيد السبيل، وإعداد العدد، كسيدنا إبراهيم . .».

هل يريد أنه وضع خططاً سياسية وانقلابية لمن يأتي بعده من الأنبياء والقادة السياسيين، أو يريد شيئاً آخر.

وعلى كل حال، هذا يعطي صورة غريبة عجيبة رهيبة عن الأنبياء، لم يصورها القرآن ولا السنّة، ولا عرفها علماء الإسلام، برّأ الله الأنبياء منها ونزههم عنها.

إن قصة إبراهيم ــ مثلاً ــ واضحة في الكتاب والسنّة قد كرّرها الله في القرآن وكلها كانت جهاداً في سبيل التوحيد، وفي تحطيم الأوثان بالحجة والبرهان، وباليد عندما ألجىء إلى ذلك . . .

ولم يذكر الله عنه شيئاً من الانقلابات السياسية ولا إعداد العدد لها، ولا تمهيد السبيل إليها . . .

ومتى قام عيسى فعلاً بالحركة الانقلابية؟! وكيف توقف، أو أحبط هذا الانقلاب؟!! وما هو البرهان على هذا القول الخطير؟!.

وكيف لم يبلغ إلا موسى ومحمد فقط إلى منازل الفوز والنجاح؟!! مع أنه قد سعى كل نبيّ وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي ــ كما يزعم المودودي ــ فكيف لم يبلغوا إلى منازل الفوز والنجاح، وهم يزيدون على عشرين ومائة ألف؟!.

ألا ترى معي إلى ثمار الغلو المرة، وإلى نتائجه الصعبة الخطيرة التي تزلزل الإيمان والعقيدة؟.

فإذا كان اثنان فقط من أعداد الأنبياء الهائلة، قد وصلا إلى منازل الفلاح والفوز، أفلا يحكم القارىء الكافر، والضعيف الإيمان، والجاهل، على الأنبياء الآخرين بالخيبة والخسران...؟.

إذا كنا نحن نرسم للأنبياء هذه الغايات، ونحكّم في دعواتهم وأعمالهم الخيالات، فإن النتائج ستأتي صعبة جداً...

وإذا كنا نعتمد في تحديد غاياتهم، وفي رسم أعمالهم على كتاب الله الخالد، وسنّة رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

وقد حدد الله غاياتهم وبيّن دعواتهم فقال:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

فهذه مهمتهم، وهذه غاياتهم: دعوة إلى توحيد الله، وتحذير من الشرك والمعاصي، وتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين والمعاندين.

وقد أدوا واجبهم، ووصلوا جميعاً إلى منازل الفلاح والنجاح، ونصرهم الله على أعدائهم في الدنيا، وينصرهم غداً يوم يقوم الأشهاد.

والكافرون ــ بهذه المقاييس الصحيحة ــ هم الفاشلون الأخسرون المغلوبون في الدنيا والآخرة.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [سورة الصافات: ١٧١ ــ ١٧٣].

وقال تعالى:

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة المجادلة: ٢١].

وقد أخبر الله كيف انتصر الأنبياء على أعدائهم الكافرين في قصص كثيرة من القرآن...»[١].

التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ المودودي:

بيّن الأستاذ أبو الحسن علي الندوي سبب تأليف كتابه «التفسير السياسي للإسلام» فقال:

«ولم يُقْدِم المؤلف إلى هذا البحث إلا حين عرف وعاشر كثيراً من الذين تخرّجوا في المدرسة الفكرية التي تقوم على كتابات الأستاذ المودودي وحدها، وتعتمد على فهمه للدين، وتفسيره له، ورضعوا بلبانها، ونشأوا في أحضانها. لا يدينون في ثقافتهم الدينية وفهمهم لحقيقة الدين لمدرسة دينية أخرى ــ بمعنى المدرسة الواسع ــ، أو لمكتبة إسلامية أخرى ــ بمعنى المكتبة الواسع ــ وإذا كان لهما نصيب في عقليتهم، وثقافتهم الدينية فهو

---

(١) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (١٢٠ ــ ١٢٥) ملخصاً.

نصيب ضئيل سطحي. وأفزعته اتجاهات فكرية، وفهوم وتفسيرات للدين بدت طلائعها في الحديث والكتابة، والفكر والتأليف، والعمل والتطبيق.

وخاف [أي المؤلف] أن تنشأ طبقة أو مجتمع فيه عدد كبير من الشباب الأذكياء المثقفين، والعاملين لمجد الإسلام المخلصين... على منهج يختلف عن المنهج الإسلامي الأول في الروح والدوافع، والنفسية والعقلية، والأهداف والغايات، والمثل والقيم، ويضعف ما جاهد له الرسول وأصحابه من إخلاص الدين لله، والعمل للآخرة، وروح الإيمان والاحتساب... ويتحوّل هذا الكفاح إلى عملية تنظيم جماعي، أو محاولة الحصول على الحكم والسلطان للمسلمين.

وقد يكون تحوّلاً لا رجعة بعده إلى الأصل والمصدر، كما جُرِّبَ ذلك مراراً في تاريخ الأديان والفرق، والدعوات والحركات، فأقبلنا ــ مضطرين علم الله ــ على التنبيه على هذا الخطر ــ ولو كان غامضاً أو بعيداً، فالحب يبعث على الإشفاق، والنصح يدفع إلى الإنذار»[١].

ــ وبيّن الأستاذ الندوي التأثير النفسي للاعتقاد بمجرد حاكمية الإله وسلطة الرب، فقال:

«إن هذا المنهج من التفكير... يشكل ظاهرة خطيرة ــ وقد بدت آثارها ــ؟ وهي أن الذين يستقون معلوماتهم الدينية من نبع هذا التفسير للإسلام وحده، وتقتصر دراستهم للإسلام على هذه الكتابات وحدها، ستعود علاقتهم مع الله علاقة ضيقة... فارغة من الكيفيات الداخلية، التي مطلوب من المؤمن أن يتكيّف بها، ولا سيما إذا جاء الضغط مراراً وتكراراً

(١) «التفسير السياسي للإسلام» (١٩ ــ ٢١ مقدمة المؤلف).

على أن الهدف الجذري من بعثة الأنبياء، وأن غاية تعاليمهم ومنتهى أعمالهم، هو إحداث التغيير في هذه الحياة الدنيا المحدودة، والقيام بالانقلاب الصالح، وتأسيس الحضارة البشرية على الأسس الصحيحة...»[1].

ذكر الأستاذ الندوي قول الأستاذ المودودي:

«هذه هي الغاية التي من أجلها فرض الإسلام عبادات الصلاة والصوم والحج والزكاة...»[2].

ثم علق عليه قائلاً:

«إن العبارة المذكورة أعلاه تدل دلالة واضحة على أن العبادات... في الواقع وسائل إلى غاية أخرى، هي: «الطاعة»، و«تأسيس الحكومة الإلهية»، وإعادة التنظيم إلى الحياة، على حين ينصّ القرآن الكريم أن الجهاد والحكومة وسيلة، و«إقامة الصلاة» هي الغاية، ولندع القرآن يقرر ما هي «الغاية» وما هي «الوسيلة». اقرأوا معي الآيات التالية من سورة الحج:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٣٩ ـ ٤١][3].

---

(١) المصدر المذكور (١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) نظرة فاحصة على العبادات الإسلامية (١/ ١٣).

(٣) التفسير السياسي للإسلام (١١٠ ـ ١١١).

واستشهد أيضاً على كون العبادات غاية منشودة بأسوة النبيّ ﷺ في كيفية صلاته، وطول قيامه في جوف الليل، ثم قال:

«ولنظرة على القرآن الكريم تدل دلالة صارخة على أن العلاقة مع الله، والعبودية، والعبادات المعينة (الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج) مطلوبة من العبد رأساً حيث يُسأل عنها يوم القيامة... يقول القرآن الكريم وهو يصوّر الحوار مع الذين استحقوا النار:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٤٦ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۝٤٧﴾ [سورة المدثر: ٤٢ ــ ٤٧].

ويقول في موضع فيما يتصل بالكافرين:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ۝٣١ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ۝٣٣﴾ [سورة القيامة: ٣١ ــ ٣٣].

هذه الآيات تدل صريح الدلالة على أن العبادات وأركان الدين هي حجر الزاوية في نظام الدين كله، يؤاخذ عليها العبد ويحاسب يوم القيامة.

وأما الأمور الأخرى: كإقامة الحكومة الإلهية، وتأسيس المدنية الإسلامية على أسس الخير والفلاح ــ فهي وسائل، وفي درجة ثانوية في الدين»[1].

وقال:

«وإن كان لا بد من وصفها [أي العبادات] بالوسائل فإنها وسائل التقرب إلى الله، والفوز برضاه»[2].

---

(١) المصدر المذكور (١١٢ ــ ١١٣).

(٢) المصدر المذكور (ص ١١٥).

ذكر الأستاذ الندوي الفعل النفسي لأسلوب التفكير السلبي فقال:

«ومن ثم، فإن الذين يقتصرون على دراسة كتابات الأستاذ المودودي، ولم يفهموا الإسلام إلا من خلال كتاباته... قد بلغ بهم اليأس من تاريخ الإسلام وماضي المسلمين ومآثرهم العملية والفكرية فيما بعد القرون الثلاثة الأولى، حتى تضاءلت أمامهم الشخصيات الإسلامية العملاقة... وآمن كثير منهم ــ وصرّح به بعضهم ــ أن فكرة الإسلام المنسّقة، أو التصور الإسلامي الكامل، لم يعرض إلا في هذا الزمن الأخير عن طريق دعوة «الجماعة الإسلامية» في شبه القارة الهندية، وبقلم مؤسسها في الثلاثينات من القرن العشرين»[١].

وإذا كان الأمر كذلك، لم يكن غريباً أن يبلغ بهم التعصب إلى النيل من كرامة من ينتقد كتابات الأستاذ المودودي.

قال الأستاذ الندوي:

«كانت مفاجأة ــ حقاً ــ للمؤلف حين تلقى رسائل حانقة تنبىء عن استياء شديد، ونقد لاذع من عدد من المنتمين إلى الجماعة في الهند، على إثر صدور الطبعة الأردية [لكتاب «التفسير السياسي للإسلام»]، لأنه كان يتوقع منهم أن يكونوا أوسع صدراً، وأكثر احتمالاً من غيرهم من غلاة المنتسبين إلى جماعات أخرى، وأنهم يُميّزون بين الخلاف الشخصي الحاقد، والاختلاف المبدئي الهادف»[٢].

---

(١) المصدر المذكور (٦٥ ــ ٦٦).

(٢) المصدر المذكور (٢٦ ــ ٢٧ تعليقاً).

وقال: «ونحن نستبعد جداً من الجماعة، التي كان منطلقها من النقد الجريء الشامل لكل العصور الإسلامية... أن يكون عند أعضائها في الداخل، أو أصدقائها في الخارج تعظيم يبلغ حد التقديس لمؤسسها والداعي إليها وأن تكون عندهم حساسية زائدة في كل ما يوجه له من نقد أو ملاحظات أو مآخذ.

وقد ضرب الأستاذ أبو الأعلى المودودي لذلك مثلاً عملياً، حينما وضع كتابه «التجديد وإحياء الدين» (باللغة الأردية) الذي تناول فيه مآثر عدد[1] من كبار رجال التجديد والإصلاح في تاريخ الإسلام بالنقد والتحليل، ولم يحل بينه وبين أن يبدي آراءه وانطباعاته نحو هؤلاء الأعلام، عظمتهم وشهرتهم وعلو مكانتهم عند الناس...

ومعذرةً، فلا يطبق قانون «اتجاه واحد»، الذي يعمل به في تنظيم

---

(١) ذكر الأستاذ المودودي مآثر عمر بن عبد العزيز، والأئمة الأربعة، والغزالي، وابن تيمية، والشيخ أحمد السر هندي، وولي الله الدهلوي، والسيد أحمد البريلوي، وإسماعيل الدهلوي ــ وتناولها بالنقد والتحليل، وبيّن مواطن الضعف في أعمالهم.
ويرى أنه لم يأت بعد مجدد كامل، ويقول:
«وإن النظر في التاريخ الإسلامي يدل على أنه لم يولد في الأمة المسلمة مجدّد كامل حتى الآن.
ولا ريب أن كان الخليفة عمر بن عبد العزيز أوشك أن يبلغ هذه المنزلة السامية، إلا أنه عاجلته المنية دون بلوغه الغاية في مسعاه. والذين جاءوا بعده من المجدّدين قام كل منهم بعمل التجديد في شعبة بعينها» أو بضع شعب من الدين لا غير. ولذلك لا يزال موضع المجدّد الكامل المستوفي الشروط غير مشغول بعد. (موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص ٤٨).

حركة المرور على النقد العلمي. . . ولو طبق هذا القانون على عالم التفكير والتأليف لشلّ الذهن الإنساني، وتعطلت الحركة العلمية، ووقف سير الإصلاح والتجديد، والموافاة بالمفيد الجديد، إلى الأمة التي هي «كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»

«والله يقول الحق وهو يهدي السبيل»[1].

تنقيد المسائل:

ألّف شيخ الحديث العلامة محمد الغوندلوي (١٣١٥ ــ ١٤٠٥هـ) كتاب «تنقيد المسائل» (بالأردية)، انتقد فيه على بعض كتابات الأستاذ المودودي.

وبيّن سبب تأليف هذا الكتاب فقال:

إن الهدف الأول لخلق الإنسان هو «العبادة». قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

وهذه هي غاية بعثة الأنبياء، وإنزال الكتب السماوية. ومن زَلَّ في فهم هذه القضية، أخطأ في فهم الإيمان والكفر، وغيرهما من الحقائق المتباينة.

وأيضاً هذا الخطأ العلمي يسبب الانحراف عن النظام العملي، الذي لأجله اعتبرت المعتزلةُ والخوارج جميع أهل الكبائر خالدين مخلّدين في النار.

وقد غالى بعضهم فقال: من لا يعتقد بذلك يجب أن يُحَارَب.

وقال بعضهم أشد من ذلك، وهو: من لا يحاربه يكون كافراً أيضاً.

---

(١) التفسير السياسي للإسلام (٢٦ ــ ٢٨ مقدمة المؤلف).

وقوع هذا النوع من الخطأ في الفهم يغيّر نظام الجهد الإنساني. لأجل هذا رأيت لزاماً، أن أوضح حقيقة هذا الأمر، حتى لا يقع العامة من الناس ــ بل خاصتهم أيضاً الذين هم في الحقيقة كالعامة ــ في هذا الخطأ»[1].

وبيّن العلامة محمد الغوندلوي ــ رحمه الله ــ أن الشيخ المودودي أخطأ في تعيين مفهوم العبادة تبعاً للفلاسفة، فخلط بين «الغاية» و«الوسيلة». فبالتالي تتابعت الأخطاء الأخرى الكثيرة في كتاباته.

وقال: «لقد قام الشيخ المودودي ــ في زعمه ــ بإنشاء الصلة المنطقية بين أركان الإسلام، وجزئياته على النحو التالي:

١ ــ الإسلام نظام سياسي واقتصادي.

٢ ــ العبادات كلها مقرّر تدريبي لإقامة النظام.

٣ ــ إن الحاكم والمستحق للطاعة هو الله وحده.

وفهم الشيخ المودودي الإسلام، بعد هذا الارتباط المنطقي، على النحو التالي:

١ ــ الإله: بمعنى المعبود.

٢ ــ العبادة: بمعنى الطاعة.

٣ ــ الطاعة: هي الامتثال بالحكم. والحاكمية خاصة بالله تعالى.

٤ ــ هذه العقيدة، هي مركز النظام الذي رتبه الأنبياء ــ عليهم السلام ــ وبالتالي أن الغاية الحقيقية لبعثتهم هي: «إقامة الحكومة الإلهية».

---

(١) «تنقيد المسائل» (١٥ ــ ١٦) طبعة غوجرانواله، باكستان.

٥ ـ العبادة الأصلية هي: «إقامة الحكومة الإلهية»، وليست أركان الإسلام التي هي صور للطقوس، عبادة حقيقية. وإنما هي مقررات تدريبية للعبادة الأصلية»[١].

وصرح الأستاذ المودودي في كتاباته ما يوافق مذهب الفلاسفة في بيان غاية «العبادة»، «وبعثة الرسل»، «وإنزال الكتب»، وغيرها من الأمور، فقال:

إن الإسلام يهدف أصلاً، إلى تخريج جماعة من الصالحين، تقوم ببناء المدنية الإنسانية، على أسس من الخير والفلاح»[٢].

وقال أيضاً: «ولتشييد هذه الحضارة، والمدنية في الأرض أرسل الله تعالى رسله تترى»[٣].

وقال أيضاً: «أريد أن أركّز في أذهانكم باختصار: أن دعوة الإسلام إلى توحيد الله، وعبادته لم تكن دعوة إلى عقيدة دينية، مثل عقائد دينية أخرى، بل كانت ـ في الحقيقة ـ دعوة إلى الانقلاب الاجتماعي»[٤].

وقال: «. . . وكذلك اعتبرت عبادات الإسلام تعبّداً محضاً، مع أنها وسائل لإحكام الأسس الفكرية والخلقية، التي بنى عليها الإسلام نظامه الاجتماعي»[٥].

---

(١) المصدر المذكور (٣٤ ـ ٣٦).

(٢) التفسير السياسي للإسلام (ص ١٠٨) نقلاً عن «نظرة فاحصة على العبادات الإسلامية للمودودي (١/ ٧٥).

(٣) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه (ص ٣٢).

(٤) تنقيد المسائل (٣٤ ـ ٣٥) نقلاً عن «تفهيمات» للمودودي (ص ٦٨).

(٥) المصدر المذكور (ص ٣٥) نقلاً عن كتاب «المسلمون والصراع السياسي في العصر الحاضر» للمودودي (ص ٣).

أشار العلامة الغوندلوي إلى مثل هذه التصريحات الفلسفية في كتابات الأستاذ المودودي وقال:

إن الفلاسفة يعتبرون العبادات خادمة للحضارة والمدنية، والغاية ـ عندهم ـ هي الحياة الاجتماعية. وهي لا تقوم إلا بتوزيع الشؤون والأعمال. وتفادياً من الإفراط والتفريط، وإبقاءً للاعتدال والتوازن يحتاج إلى القانون الذي لا بد أن يكون من الله، ويُحتاج إلى العبادة لإنشاء الشعور بالله تعالى»[1].

ولقد تناول العلامة الغوندلوي هذه النقاط في كتابات الأستاذ المودودي بالبحث والمناقشة، في ضوء الكتاب والسنّة، ثم أكد على تأثره بالفلاسفة وقال:

«يرى الشيخ المودودي ـ وهو من مقتضيات ربطه المنطقي والفلسفي ـ أن العبادات الإسلامية (الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والذكر، وتلاوة القرآن) مقررات تدريبية لعبادة أصلية أخرى، هي: «تأسيس الحكومة الإلهية».

ورأيه هذا، مأخوذ من ملاحدة الفلاسفة. وقد صرّح أبو علي ابن سينا في «الإشارات»، وغيره من الفلاسفة في كتبهم أن العبادات خادمة للحضارة والمدنية.

وقد رد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية على هذا الرأي السافل، في كتابه «الرد على المنطقيين» فقال:

---

(١) المصدر المذكور (١٦ ـ ١٧).

«المقصود هنا التنبيه على أنه لو قدّر أن النفس تكمل بمجرد العلم، كما زعموه مع أنه قول باطل، فإن النفس لها قوتان: «قوة علمية نظرية»، و«قوة إرادة عـملية»، فلا بد لها من كمال القوتين بمعرفة الله وعبادته. وعبادته تجمع محبته والذل له، فلا تكمل نفس فقط، إلا بعبادة الله وحده لا شريك له.

والعبادة: معرفته، ومحبته، والعبودية له. وبهذا بعث الله الرسل وأنزل الكتب الإلهية كلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وهؤلاء يجعلون العبادات التي أمرت بها الرسل، مقصودها: إصلاح أخلاق النفس، لتستعد للعلم الذي زعموا أنه كمال النفس.

أو مقصودها: إصلاح المنزل والمدنية، وهو الحكمة العملية.

فيجعلون العبادات وسائل محضة إلى ما يدعونه من العلم. ولذلك يرون هذا ساقطاً عمن حصل المقصود، كما تفعل الملاحدة الإسماعيلية، ومن دخل في الإلحاد، أو بعضه، وانتسب إلى الصوفية، أو المتكلمين، أو الشيعة، أو غيرهم»[(١)].

ومفاد كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أن مذهب الفلاسفة، والملاحدة والإسماعيلية وغيرهم يعتبر العبادات وسيلة للحصول على علم الكشف، أو على إصلاح المنزل والمدنية.

وقول شيخ الإسلام: «ولذلك يرون هذا ساقطاً عمن حصل المقصود» ليس مذهباً للجميع، بل بعضهم يوجبون العبادة بعد حصول المقصود أيضاً.

وذكر الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٥٢) فقال:

---

(١) راجع «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٩/ ١٣٦) المنطق.

ومنهم من يوجب القيام بالأوراد، والوظائف، وعدم الإخلال بها»[1].

* **كتاب الخلافة والملك في ميزان الشرع والتاريخ:**

قال مؤلفه الحافظ صلاح الدين يوسف: يتلخص كتاب «الخلافة والملك» للمودودي في النقاط التالية:

١ ــ تحول نظام الحكم الإسلامي (الخلافة) إلى الملك بعد مدة قليلة، وابتدأ ذلك من زمن عثمان رضي الله عنه، وبتصرفه.

٢ ــ قضى معاوية ــ رضي الله عنه ــ في عهده إلى سنة ستين، على مميزات الحكم الإسلامي.

٣ ــ ولإثبات ما ذهب إليه المودودي، قد نال من الصحابة وخاصة (عثمان، وعمرو بن العاص، ومغيرة بن شعبة، ومعاوية، وعائشة، وطلحة والزبير وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.

ونشأت بهذا النهج من التفكير آثار سيئة في المجتمع المسلم. ومنها:

١ ــ زالت عظمة الصحابة وهيبتهم من قلوب بعض الناس، وحل محلها البغض والكراهية ضدهم. ووجد الرفض والتشيع أدلة من مؤلف سني على ضلالاتهم.

٢ ــ وهذا الكتاب ينشىء في المسلمين روح الانهزامية واليأس تجاه إقامة الحكم الإسلامي (مع أن مؤلفه المودودي من كبار الدعاة إليه). بمعنى أن عثمان ومعاوية وغيرهما من الصحابة قضوا على مميزات الحكم الإسلامي وعلى مرأى ومسمع من الصحابة الذين تربوا في مدرسة

---

(١) تنقيد المسائل (٦٦ ــ ٦٧).

النبيّ ﷺ ولم يستطيعوا على إبقاء الحكم الإسلامي القائم، فكيف يستطيعون على إحيائه مرة أخرى؟.

٣ ـ هذا الكتاب ـ شاء مؤلفه أم أبى ـ يؤيد رأي المستشرقين وأنصارهم من المستسلمين بأن نظام الحكم الإسلامي انتهى بانتهاء خلافة الخلفاء الراشدين، فليرتب المسلمون نظاماً جديداً للحكم يساير العصر الراهن[١].

شيخ الإسلام في نظر المودودي:

لا يفوتني أن أذكر أن الأستاذ المودودي ـ رحمه الله ـ أعطى شيخ الإسلام حقه في التعريف بأعماله التجديدية والإصلاحية[٢]. وقال، بعدما ذكر نقائص الغزالي العلمية والفكرية ـ:

«وإن الرجل الذي مضى قدماً بعمل الإمام الأصلي في بعث روح الإسلام الفكرية وتنقية نظام الفكر، ونظام التمدّن من أوساخ البدع والضلالات، متجنّباً لتلك النقائص هو الإمام ابن تيمية»[٣].

وبعدما ذكر الحالة السياسية والدينية في عصر ابن تيمية، قال مشيداً بذكره:

«ومن ثم ترى أنه، وإن لم يخلُ ذلك العصر من وجود العلماء ذوي الفكر السليم، والنظر الواسع، والبصر بحقيقة الأمور، ولا كان يقل فيه عدد الصوفية الراشدين السائرين على جادة الحق ـ إلا أن الذي اجترأ على رفع

---

(١) «الخلافة والملك في ميزان الشرع والتاريخ» (٥٥١ ـ ٥٥٣) ملخصاً.

(٢) راجع «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» (٧٣ ـ ٧٩).

(٣) المصدر المذكور (٧٣).

راية الإصلاح في ذلك العصر المظلم، لم يكن إلا رجل واحد فذّ هو هذا الإمام»[1].

ثم ذكر أعماله التجديدية في نقد المنطق والفلسفة، وإقامة الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام، ورفع النكير على التقليد الجامد، والقضاء على البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد.

ومضافاً إلى ذلك بين أن الإمام ابن تيمية جاهد بالسيف همجية التتر ووحشيتهم، ونفث في قلوب الرؤساء وعامة المسلمين، روح الغيرة والحمية والحماس، وأيقظ فيهم روح الشجاعة والاستبسال بما بثّ في قلوبهم من التحمس وحب الجهاد»[2].

مؤاخذة المودودي على شيخ الإسلام:

معلوم أن محور دعوة الشيخ المودودي هو إحداث الانقلاب في السياسة والحكم، وإحراز مقاليد السلطة، وإقامة الحكومة الإلهية.

وبالنظر إلى ذلك يعدّ الأستاذ المودودي من نقائص شيخ الإسلام أنه لم يوفّق في إحداث حركة سياسية تقوم بقلب الحكم القائم في ذلك العصر.

قال مؤاخذاً على هذا «التقصير»:

«على أنه من الواقع ـ مع ذلك كله ـ أنه لم يوفّق لبعث حركة سياسية في المسلمين، يحدث بها الانقلاب في نظام الحكم، وتنتقل مقاليد الحكم والسلطة من أيدي الجاهلية إلى أيدي الإسلام»[3].

---

(١) المصدر المذكور (٧٥).

(٢) المصدر المذكور (٧٦ ـ ٧٨).

(٣) المصدر المذكور (٧٩).

مناقشة هذه المؤاخذة:

ردّ الأستاذ أبو الحسن علي الندوي على مثل هذا الانتقاد، وبيّن أن محاولات إقامة الدين دائماً تقرن بمراعاة الحكمة وفقه الدين، وقال:

«لكن هذا الركن ـ أعني محاولة تمكين الإسلام، وجعله قوة حاكمة، لها الأمر والنهي ـ من أركان «إقامة الدين»، ليس كقالب حديدي لا نعومة فيه ولا مرونة... فالذين نثق بإخلاصهم، ورسوخهم في العلم، وتفقههم في الدين... نعلم أنهم لم يكونوا من أهل «الرخصة»، بل كانوا من رجال «العزيمة». فلا بد أن نعترف بأنهم لم يتخذوا من وسائل هذا العمل العظيم، ومناهج تحقيقه إلا ما كانوا يرونه منسجماً مع الأوضاع التي كانوا يعيشونها، ولم يألوا جهداً فيما كانوا يستطيعونه، لأن المقصود هو النتيجة لا الوسيلة، والبناء لا الهدم، والإيجاب لا السلب.

وكيف يسوغ لعاقل أن يقول: إن هؤلاء المصلحين المجاهدين كان واجباً عليهم على كل حال أن يضعوا كل جهودهم في هدم الأبنية التي فسدت بعض أجزائها أو أسيء استخدامها ـ... سواء وجدوا فرصة إعادة بنائها أو لم يجدوها. فإن وقفوا من الحكومات الإسلامية المحكمة التي كان حكامها يتلفّظون بكلمة الإسلام، ويعملون بكثير من فرائضه وشعائره... موقف الإصلاح والنصح، والتفهيم والإيضاح، دون المعارضة الكلية، واستخدموا مبدأ «الإمالة» دون «الإزالة». لا يجوز لنا أن نرميهم بالإهمال الكلي في القيام بهذه الشعبة من شعب «إقامة الدين»، وباقتراف «التعاون على الإثم والعدوان».

... فلا بد أن نعترف لهم بالفضل، ونعتبرهم حاملي لواء السعي في سبيل إقامة الدين... ولا يحق لنا أن نسقطهم من الحساب، ونخرجهم من

القائمة، أو نرميهم بالتقصير في المسؤولية، بمجرد أنهم لم ينجحوا في تأسيس حكومة إلهية مثالية.

والأستاذ المودودي نفسه يضغط بكل قوة على الأخذ بهذه الحكمة، ومراعاة الظروف والأوضاع، واللياقة واللباقة، حين تتطلبها الظروف، وتوجبها الملابسات، ويعبّر عنه بالحكمة العملية»[١].

ولم يغفل شيخ الإسلام ابن تيمية في دعوته، عن الإصلاح السياسي[٢]. بل إنه ركّز في المجال السياسي على بناء تصور سليم للحكم الإسلامي، وإقامة حكومة قوية، وبعث روح الجهاد والمقامة لمواجهة الأخطار الخارجية.

ولم تكن علاقات شيخ الإسلام بأمراء المماليك، إلا لإقناعهم بأفكاره ومشروعاته حول الحكومة القوية التي يجب بناؤها.

قال الدكتور ماجد الكيلاني:

«ومن المؤكد أن ابن تيمية لم يرد بهذه العلاقات أية طموحات سياسية شخصية، ولكن من المؤكد أنه كان يسعى لتخليص الدولة المملوكية من أمراضها ومشكلاتها، حتى تتمكن من إعادة سابق مجد الإسلام وقوته»[٣].

إن النصيحة لأئمة المسلمين وحكامهم، ووصيتهم بتقوى الله في السر والعلانية، وحثهم على الخير، والرجوع إلى الحق، والتمسك بالإسلام، وتنفيذ أوامر الله في أرض الله ــ كل ذلك من الدين.

---

(١) التفسير السياسي للإسلام (١٥٧ ــ ١٦٠) ملخصاً.

(٢) راجع «منهجه في الدعوة والتجديد» في الباب الأول من هذا الكتاب.

(٣) الفكر التربوي (٥٣ ــ ٥٤).

وهذا هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، الذي اختاره شيخ الإسلام، وسلكه في دعوته.

ولكن هذا المنهج يأباه الشيخ المودودي قائلاً:

«فإن أراد أحد اليوم أن يطهّر الأرض، ويستبدل فيها الصلاح بالفساد، والأمن بالاضطراب، والأخلاق الزكية بالإباحية، والحسنات بالسيئات، لا يكفيه أبداً أن يدعوهم إلى الخير، ويعظهم بتقوى الله وخشيته، ويرغّبهم في الأخلاق الحسنة.

بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الإنسانية الصالحة ما يتمكن من جمعه، ويجعل منها كتلة متضامنة، وقوة جماعية، تمكّنه من انتزاع زمام الأمر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا، وإحداث الانقلاب المنشود في زعامة الأرض وإمامتها»[1].

وعلّق عليه الدكتور ربيع بن هادي المدخلي قائلاً:

«فكيف بالمساكين الذين أعرضوا عن منهج الأنبياء، وتركوا أعظم الأدواء ــ وهو الشرك ــ يفتك بالأمم، ولم يدخل هذا في حسابهم، ثم يريدون أن يجمعوا من العناصر الصالحة كتلة متضامنة، وقوة جماعية، ليصلوا بهم إلى ما رسموه لأنفسهم، وجعلوه مطمح أبصارهم؟!!.

فقل لي بربّك: من أين تأتي بهذه العناصر الصالحة، ونحن قد تخلّينا عن عقيدة الأنبياء، ومنهجهم في التربية والدعوة؟!!.

أتهبط علينا من السماء؟!!»[2].

---

(١) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (ص ١٠٦) نقلاً عن المودودي.

(٢) المصدر المذكور (ص ١٠٦).

مآخذ على الأستاذ المودودي:

ذكر شيخنا الدكتور المدخلي الاتجاهات المهمة التي تعمل في ساحة الدعوة الآن.

«ومنها: الاتجاه الذي تمثّله جماعة اهتمت بجوانب من الإسلام سياسية واقتصادية واجتماعية، وقدمت الكثير...

ومما يؤخذ على هذا الاتجاه، أنهم كتبوا في المجال السياسي الشيء الكثير... وقصّروا في حق العقيدة تقصيراً واضحاً...

ومن كبار قادة هذا الاتجاه: أبو الأعلى المودودي ــ رحمه الله ــ. هذا المفكر الكبير، له حسنات جلى في خدمة الإسلام لا تجحد، ولكن عليه مآخذ شديدة، لا يجوز لمسلم يخشى الله، ويجل الإسلام الذي يربأ باتباعه عن تقديس الأشخاص وأفكارهم ــ أن يسكت عنها.

فمن تلكم المآخذ:

أولاً: إنه على عمق فهمه، وتوقد ذكائه لم ينطلق بدعوته من حيث انطلق الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ في الدعوة إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله، ومحاربة الشرك ومظاهره، مع أن بلاده التي نشأ فيها أشدّ بلدان الله حاجة إلى دعوة الأنبياء. والدواعي فيها أوفر...

ثانياً: اهتم بالجانب السياسي، فأخذ من دعوته مساحة كبيرة، وحجماً أكبر من الحجم الذي أعطاه الإسلام لهذا الجانب، وفهم علماء سلف هذه الأمة من محدثين وفقهاء. وجعل لنفسه ولأتباعه غاية لم يرسمها الله لرسله، ولا كلّفهم وأتباعهم بها، لأنها فوق الطاقة البشرية»[1].

---

(١) المصدر المذكور (١٠١ ــ ١٠٤).

وزد إلى ذلك أن هناك مخالفات أخرى منتشرة في كتابات الأستاذ المودودي ــ رحمه الله ــ ، لأنه دخل في بعض المواضيع الشائكة التي لم يكن يحسنها، ولا يلزم على كاتب أن يكتب عما هو خارج عن تخصصاته.

وقام العلماء في شبه القارة الهندية بتنبيهه على تلك المخالفات، ولكنه ــ مع إظهار رحابة صدره في الرجوع إلى الحق، وترحيبه بالنقد البنّاء ــ لم يرجع عنها.

ومن هذه المخالفات[1]:

* ــ تأويل آيات الصفات.
* ــ تأويل بعض المعجزات.
* ــ قلة الاهتمام بالأحاديث الصحيحة في تفسير القرآن.
* ــ موقفه الضعيف من الحديث، ومنهج المحدثين، وإيراد الشبه في الإسناد والمتن، وتقديم الدراية على الرواية، والحكم على الحديث بالذوق والوجدان، وظنية أخبار الآحاد، ورد بعض أحاديث الصحيحين.
* ــ موقفه (النابي) من الصحابة (أمثال عثمان بن عفان، ومعاوية بن أبي سفيان، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي سرح رضي الله تعالى عنهم). وذلك في كتابه «الخلافة والملك»، ما جعله الشيعة شبكة يتصيّدون بها سفهاء

---

(١) راجع ردود العلماء على المودودي في «موقف الجماعة الإسلامية من الحديث» للسلفي (١٢ ــ ١٣ مقدمة كاتب هذه السطور) وأيضاً كتاب «زوابع في وجه السنّة» للمؤلف.

الأحــلام وضعــاف العقــول مــن المسلميــن لإســاءة الظــن بالصحابة[1]. رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) قد فرح بكتابه «الخلافة والملك» الخوارج والروافض على السواء. قال الإباضي الخارجي أحمد محمد الخليلي ــ مفتي عمان ــ وهو يدافع عن الاتهامات التي توجه إلى الإباضية لأنهم يعادون أصحاب رسول الله ﷺ: «والذي أريد أن أقوله: إن الإباضية ليسوا وحدهم في هذا الميدان، فكثير من الناس تحدثوا عن تلك الفتنة ــ ثم ذكر من المعاصرين سيد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية» وقال: «وكثير من الكاتبين تناول هذا الموضوع بالنقد والتحليل ومن بينهم العلامة المودودي في كتابه «الخلافة والملك» وكذلك في كتابه «التجديد لهذا الدين». وقد حلّل ما حدث في كتابه «التجديد لهذا الدين» بأن الخليفة الثالث جاءته الخلافة وقد بلغ من الكبر عتياً، وكان لم يمنح من المواهب التي منح العظيمان اللذان تقدماه. فهل الإباضية وحدهم الذين يتحدثون عن مثل هذه الأشياء أو يكتبون عنها؟!! (مجلة «جبرين» ٢٩ رجب ١٤٠٤هـ، وعنها في «مطاعن سيد قطب من أصحاب رسول الله ﷺ» (١١، ١٥).

وقالت «مجلة الشيعة» الأسبوعية (٥٧/ لاهور/ ١ ــ ٨ أكتوبر ١٩٧٩م). وعنه كتاب «الشقيقان» (ص ٤٠): «إن علماء العالم الإسلامي كله قد أظهروا أحزانهم البالغة بموت الأستاذ المودودي، ومدحوا جهوده الدينية، كان المرحوم ساعياً في اتحاد المسلمين، شجاعاً في بيان كلمة الحق، وسيظل تأليفه الشهير «الخلافة والملك» تذكاراً على مر العصور، وقد انتقد الأستاذ المودودي في مؤلفه تنقيداً شديداً على الخلفاء الثلاثة (أبو بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية) (راجع «دعوة الإخوان» ص ٨٤).

وقال أحد سادة الروافض (كما في مجلة «التوحيد» بطهران (العدد ٢٧/ السنة الخامسة/ رجب ١٤٠٧هـ): «وننصح من يشاء أن يراجع كتاب «الخلافة والملك» للتعرف على مدى خسارة المسلمين بتولي معاوية بن أبي سفيان لسدّة الحكم وجعله فيما بعد وراثياً» (دعوة الإخوان ص ٨٥).

ويلاحظ أن هذه الأمور كلها تخالف مذهب السلف الصالح الذي نصره شيخ الإسلام في كتاباته؛ ونذر حياته في الدفاع عنه، من ضلالات أهل الأهواء.

ومن التحقيق العلمي ـ والأسف الشديد ـ عند الأستاذ المودودي أنه لا يعتمد في ردّ ضلالات الروافض، على «العواصم من القواصم» لأبي بكر بن العربي، و«منهاج السنّة» لابن تيمية، و«تحفة الاثنى عشرية» للشاه عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي ـ لأن مؤلفيها كتبوها رداً على تهم الشيعة وفيها دفوع قانونية من جانب واحد[1].

وإذا اتُّبع هذا المنهج العلمي الجديد الذي وضعه الأستاذ المودودي، تتخلى الأمة عن التراث الضخم الهائل الذي خلّفه العلماء الأعلام عبر العصور والأجيال، في الرد على أصحاب البدع والأهواء.

وهل يسمح أفراد «الجماعة الإسلامية» لأحد أن يقول بكل صراحة: إن كتابات المودودي لا يعتمد عليها، لأن فيها محاماة من جانب واحد.

وإذا أجيز لكل أحد أن ينسف جهد من كان قبله من العلماء الجهابذة، تعم الفوضى الفكرية باسم العلم والتحقيق، وحرية البحث والرأي، ويتطرّق عدم الثقة بأعمال علماء الأمة، إلى صفوف المسلمين، وصدق الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنتَ تبنيه وغيرك يهدم

• • •

(١) «الخلافة والملك» للمودودي (ص ٢١٩) طبعة دار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ.

الإخوان المسلمون

الإخــوان المسـلـمـون

تأسيس الجماعة:

في ذي القعدة من عام ١٣٤٧هـ. وفي مدينة الإسماعيلية تأسست جماعة الإخوان المسلمين، بعد اجتماع في منزل مؤسس الجماعة ومرشدها الأول الإمام حسن البنا ــ رحمه الله تعالى ــ (١٩٠٦ ــ ١٩٤٩م).

ضم هذا الاجتماع ستة من الذين سمعوا خطب الشيخ وتأثروا به. وفي هذا الاجتماع تبايع السبعة على أن يحيوا إخواناً عاملين للإسلام، ومجاهدين في سبيله[١].

الجماعة ومؤسسها في سطور:

* نشأ الأستاذ حسن البنا نشأة صوفية منذ صباه على الطريقة الحصافية الشاذلية، وكان مأذوناً بأورادها ووظائفها، حتى وصل إلى مرتبة (التابع المبايع). ونزل في دمنهور (وفيها مقر ضريح الشيخ السيد حسنين الحصافي شيخ الطريقة الأولى) وهو مشبع بالفكرة الحصافية، وأيام دمنهور كانت فترة استغراق في التعبد والتصوف.

---

(١) «مذكرات الدعوة والداعية» للبنا (ص ٧٢)، والطريق إلى جماعة المسلمين لحسين علي جابر (ص ٣٣٧) دار الدعوة ط. ثانية ١٤٠٦هـ.

* كان يريد إعادة الخلافة بعد سقوطها، ويتطلع إليها بجهد ووفاء.

* وأسس جمعية إصلاحية هي (الجمعية الحصافية الخيرية) وانتخب سكرتيراً لها. وقال: «وخلفتها في هذا الكفاح جمعية (الإخوان المسلمون) بعد ذلك»[(١)].

* وكان متأثراً بمدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وقال في كتابه «مذكرات الدعوة والداعية» (ص ١٨٢) في الثناء على جمال الدين الأفغاني وطلابه ودعوتهم ما نصه:

«بنى مصطفى كامل وفريد ومن قبلهما جمال الدين ومحمد عبده نهضة مصر، ولو سارت في طريقها ولم تنحرف عنه لوصلت إلى بغيتها، أو على الأقل لتقدمت ولم تتقهقر، وكسبت ولم تخسر».

وأكد على ذلك محمد ضياء الدين الريس في مجلة «الدعوة» (عدد ١٣ رجب ١٣٩٧هـ ص ٢٢) بقوله:

«... ثم ظهرت جماعة الإخوان المسلمين لتسير على منهج المصلحين والسابقين».

وقال العشماوي في مجلة «الدعوة» (عدد ٢١ ربيع الأول ١٣٩٨هـ/ ص ٢٣):

«حسن البنا في حربه للاستعمار، وثورته للحرية ودعوته للوحدة الإسلامية إنما كان يضع حلقة جديدة من الكفاح الإسلامي بجانب الحلقة التي وضعها جمال الدين الأفغاني.

---

(١) كما سيأتي قريباً إن شاء الله.

ولقد جمع حسن البنا بين طريقة السيد جمال الدين الثائر للحرية. . . وبين طريقة محمد عبده. . .»[1].

وتأثراً بهذا المزيج من الأفكار المتناقضة وصف حسن البنا دعوته بقوله:

«وتستطيع القول ولا حرج عليك إن الإخوان المسلمين: دعوة سلفية، طريقة سنية، حقيقة صوفية. . .»[2].

ومعلوم أن الحقيقة الصوفية تعارض في كل خطوة من خطواتها الدعوة السلفية والطريقة السنية، فكيف تجمع جماعة الإخوان بين هذين الوصفين المتناقضين؟ ولكنه حصل!

الجماعة في نظر أنصارها:

* قال الأستاذ سعيد حوى:

«ولا شك أن دور الجماعة قبل السلطة وبعدها هو المنظّم لهذا كله. ونقصد بالجماعة هنا جماعة المسلمين. ونعتقد أنه لا جماعة كاملة للمسلمين إلا بفكر الأستاذ البنا، وإلا بنظرياته وتوجيهاته التي من جملتها الحب لكل العاملين المخلصين»[3].

* وقال الأستاذ حسين بن محسن بن علي جابر:

«ومن خلال دراستنا لمبادئها وأفكارها، والذي تلخص بعضها في

---

(١) راجع «دعوة الإخوان» (ص ٦٠).
(٢) نظام الأسر ونظام التعليم (ص ١٢).
(٣) جولات في الفقهين الأكبر والأصغر (ص ٧٩) دار الأرقم عمان. الطبعة الأولى.

المباحث الآتية، يتقرر أنها أقرب الجماعات المرشحة لتخليص الأمة الإسلامية مما تعانيه من فساد وضياع وأنها الجماعة التي سيكون على يدها عودة مجد الأمة الإسلامية وكرامتها بإذن الله»[1].

* وإن الأستاذ محمد الحامد: «كان يعتبر حسن البنا مجدد القرون السبعة الماضية، وليس مجدداً لقرن واحد، والذي كان يعتبر حسن البنا قد وصل «الاجتهاد» وهو الذي لا يسلم[2] أن الأمة قد وجد فيها مجتهد منذ عشرة قرون. وكل ذلك عن تجربة شخصية مع حسن البنا ــ رحمه الله ــ.

وكان يعتبر حسن البنا هو الوحيد الذي أعطته النفس مقاليد القيادة الكاملة»[3].

محاولة إيجاد الصلة بين شيخ الإسلام ودعوة الإخوان:

لقد ألفت كتب ورسائل لإيجاد الصلة بين دعوة شيخ الإسلام والبنا، ومنها: «ابن تيمية وحسن البنا»، و«سلفية حسن البنا»، و«محمد بن

---

(١) الطريق إلى جماعة المسلمين (ص ٣٤٣).

(٢) لقد وصف الشيخ محمد الحامد في رسالته «لزوم اتباع مذاهب الأئمة» (ص ١٣): كل من يحاول الاجتهاد بأنه ناقص العقل قليل العلم، رقيق الدين أحمق» ــ هذا هو يزعم أن البنا مجدد القرون السبعة الماضية. فما هذا التناقض العجيب الغريب الذي يجعل الإسلام ألعوبة في أيدي هؤلاء، فيوثقون من شاءوا، ويطعنون فيمن شاءوا»؟!.
(مؤلفات سعيد حوى: دراسة وتقويم للأستاذ سليم الهلالي ص ١٢٤ ــ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ).

(٣) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين لسعيد حوى (ص ١٨٣).

عبد الوهاب وحسن البنا»[1]، حتى قام آخر بالمقارنة بينهما ففضل دعوته على دعوة شيخ الإسلام[2].

وقال الدكتور ماجد عرسان الكيلاني:

«. . . إن أثر ابن تيمية يبدو واضحاً جداً في التفكير السياسي لهذه المدرسة، وخاصة في تفكير أشهر مفكريها، وهما المودودي، وسيد قطب. فالمكانة التي أعطاها ابن تيمية للدولة الإسلامية استطرد المودودي وقطب في تفاصيلها، واستعملا نفس المصطلحات التي استعملها ابن تيمية.

وحينما ردّد حسن البنا عبارته: يا قومنا! ندعوكم والقرآن في يميننا، والسنّة في شمالنا، وأعمال السلف الصالح قدوتنا» فقد كان في الحقيقة يلخص ما تكرر عند ابن تيمية من الدعوة للمنابع الصافية في القرآن والسنّة وأعمال السلف الصالح»[3].

قال الدكتور ربيع بن هادي المدخلي:

«ومما يؤخذ على هذا الاتجاه أنهم كتبوا في المجال السياسي الشيء الكثير باسم السياسة الإسلامية، والدعوة إلى حاكمية الله، وإقامة الدولة الإسلامية.

وأهابوا بالأمة الإسلامية ـ خصوصاً شبابها ـ لتكريس طاقاتها، وتجنيد إمكانياتها لتحقيق هذه الغاية، بأساليب في غاية من القوة والجاذبية التي تأسر القلوب وتخلب الألباب. وكتبوا في الاقتصاد الإسلامي، وعن

---

(١) دعوة الإخوان (ص ٦٨).

(٢) سيأتي الرد عليه مفصلاً إن شاء الله.

(٣) الفكر التربوي (ص ١٢).

محاسن الإسلام. وفيه الشيء الكثير الطيب النافع الذي تحتاج إليه الأمة خصوصاً في هذا الوقت، والذي يحمدون عليه.

وفيه أيضاً الذي يؤاخذون عليه أنهم في الوقت نفسه الذي اهتموا فيه بهذه الجوانب قصّروا في حق العقيدة تقصيراً واضحاً. فلو اتجهوا بالقوة نفسها، والاهتمام نفسه إلى الإصلاح في العقيدة على منهج الأنبياء، وكرّسوا جهودهم وأقلامهم على اقتلاع الشركيات ومظاهرها، والبدع والخرافات وأساطيرها لحققوا الخير الكثير للإسلام والمسلمين، ولأتوا البيوت من أبوابها، ولكانوا حقاً على منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لما كانت دعوتهم وإنتاجهم الفكري بالمكانة التي ذكرتها»[1].

المهمات من دعوة شيخ الإسلام وموقف الإخوان منها:

مهمة دعوة شيخ الإسلام هي العودة بالأمة إلى الكتاب والسنّة على فهم السلف الصالح، في العقائد والأحكام، والعبادات والمعاملات، والمعيشة والاقتصاد، والسياسة والاجتماع، والسلطة والحكم وغيرها من نواحي الحياة الإنسانية.

وقد ركّز شيخ الإسلام في كتاباته على تصفية العقيدة من أكدار الشرك والوثنية، والبدع والخرافات، والأساطير والأوهام، كما أولى اهتماماً كبيراً في كتاباته لتخليص الأمة من التقليد الأعمى.

وإذا تحقق هذان الجانبان: (العقيدة، واتباع الدليل) في الأمة الإسلامية، استقام مسيرها على الدرب السليم الذي يؤدي إلى منهج الأنبياء في الدعوة والإرشاد.

---

(١) منهج الأنبياء (١٠١ ــ ١٠٢).

نحاول هنا أن نعرف آراء أصحاب هذا الاتجاه في هاتين القضيتين المهمتين في تاريخ الدعوة والدعاة.

العـقائـد:

نختار هنا من العقائد بعض جوانبها التي اهتم بها شيخ الإسلام ابن تيمية، في كتاباته، ومنها:

أسماء الله تعالى وصفاته:

قال شيخ الإسلام في «العقيدة الواسطية»:

«ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [سورة الشورى: ١١].

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيّفون، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سميّ له، ولا كفؤ له، ولا ندّ له، ولا يقاس بخلقه ــ سبحانه وتعالى ــ فإنه ــ سبحانه ــ أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من خلقه»[١].

هل أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه:

قال مؤلفا «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنّة»:

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١٢٩ ــ ١٣٠).

«عقيدة الإخوان في توحيد الأسماء والصفات مضطربة، لذلك لم يقرّ لهم في هذه المسألة قرار. ويرى الإمام حسن البنا أن آيات الأسماء والصفات وأحاديثها من المتشابه»[1].

قال شيخ الإسلام في رسالة «الإكليل»:

«وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثره الله بعلم تأويله... فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه، ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم، فالكلام على هذا من وجهين:

(الأول): من قال: إن هذا من المتشابه، وأنه لا يفهم معناه.

فنقول: أما الدليل على بطلان ذلك، فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة، ولا الأئمة... أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في الآية، ونفى أن يعلم أحد معناه، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم، ولا قالوا: إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه. إنما قالوا: كلمات لها معان صحيحة، قالوا في أحاديث الصفات تمر كما جاءت...

(الثاني): إنه إذا قيل: هذه من المتشابه، أو كان فيها ما هو من المتشابه، فيقال: الذي في القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله، إما المتشابه، وإما الكتاب كله كما تقدم. ونفي علم تأويله ليس نفي علم معناه...

ونزيده تقريراً أن الله أنزله ليعقلوه وأنه طلب تذكّرهم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد: ٢٤][2].

---

(١) شرح الأصول العشرين: الأصل العاشر (ص ٣٩).

(٢) الإكليل في المتشابه والتأويل (٣٢ ـ ٥٠) باختصار.

التفويض:

«والاعتقاد بأن آيات الصفات وأحاديثها من المتشابه هو الأصل الذي بنى عليه حسن البنا قوله بالتفويض فقال:

«ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت، وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع حسماً لمادة التأويل والتعطيل. فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان، وأثلج صدره ببرد اليقين فلا تعدل به بديلاً. ونعتقد إلى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق»[1].

وقال حسن البنا أيضاً: «وأن البحث في مثل هذا الشأن مهما طال فيه القول لا يؤدي في النهاية إلا إلى نتيجة واحدة، هي التفويض لله تبارك وتعالى».

ومن قوله يستنبط أنه يعتقد أن رأي السلف السكوت، وتفويض علم هذه المعاني إلى الله. وهذا يعني مجرد الإيمان بألفاظ آيات الصفات وأحاديثها من غير فقه لمعانيها...

وهذا خلاف الحق. وقد قال شيخ الإسلام ـ وهو يفنّد رأي أهل التفويض:

«وحينئذ، فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن، أو كثير مما وصف الله به نفسه، لا يعلم الأنبياء معناه بل يقولون كلاماً لا يعقلون معناه... ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء. إذ كان الله أنزل القرآن، وأخبر أنه

---

(١) مجموعة رسائل حسن البنا، رسالة العقائد (ص ٤٩٨).

جعله هدى وبياناً للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزّل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله. ومع هذا، فأشرف ما فيه ــ هو ما أخبر به الرب عن صفاته. . . ــ لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بيّن للناس ما نُزِّل إليهم ولا بلّغ البلاغ. وعلى هذا التقدير، فيقول كل ملحد مبتدع: الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي. وليس في النصوص، يناقض ذلك. لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة، لا يعلم أحد معناه، وما لا يعلم أحد معناه، لا يجوز أن يُستدل به.

فيبقى هذا الكلام سداً لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء وفتحاً لباب من يعارضهم ويقول: إن الهدى والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء، لأننا نحن نعلم القول ونبيّنه بالأدلة العقلية، والأنبياء لا يعلمون ما يقولون فضلاً من أن يبيّنوا مرادهم.

فتبيّن أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون السنّة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد»[1].

وقد صرح شيخ الإسلام أيضاً أن التفويض مذهب النفاة[2].

وقال الخطابي ــ رحمه الله ــ: «من ظن أن التفويض مذهب السلف فهو خاطىء»[3].

---

(١) العقل والنقل (ص ١٢٥).

(٢) الرسالة التدمرية (ص ٣٠).

(٣) الروضة الندية (ص ٢٣). راجع التفصيل في «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنّة» للأستاذ سليم الهلالي ــ وزياد الدبيج (١١٠ ــ ١١٤) ط. ثانية ١٤٠١هـ.

التصـوف:

قال حسن البنا في (مذكرات الدعوة والداعية ص ٢٧):

«وصحبت الإخوان الحصافية بدمنهور، وواظبت على الحضرة في مسجد التوبة في كل ليلة...» وقال أيضاً: «وحضر السيد عبد الوهاب (المجيز في الطريقة الحصافية) وتلقيت الحصافية الشاذلية عنه، وآذنني بأدوارها ووظائفها».

وقال جابر رزق في كتابه «حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه» (ص ٨): «... ورغب في أخذ الطريقة، حتى انتقل من مرتبة (المحب) إلى مرتبة (التابع المبايَع)».

وقال البنا في مذكراته (ص ٢٨): «وفي هذه الأثناء بدا لنا أن نؤسس في المحمودية جمعية إصلاحية هي (الجمعية الحصافية الخيرية) ... وانتخبت سكراتيراً لها... وخلفتها في هذا الكفاح جمعية (الإخوان المسلمين) بعد ذلك» وقال في مذكراته (ص ٣٢) أيضاً: «كانت أيام دمنهور ومدرسة المعلمين أيام الاستغراق في عاطفة التصوف والعبادة... فكانت فترة استغراق في التعبد والتصوف...».

وقال أيضاً: «ونزلت دمنهور شبعاً بالفكرة الحصافية، ودمنهور مقرّ ضريح الشيخ السيد حسنين الحصافي شيخ الطريقة الأولى»، وكان حسن البنا ينشد في حلقة الذاكرين من الحصافية، وأيام الاحتفال بمولد النبي ﷺ أبياتاً وقصائد تدل على وحدة الوجود، وحضور النبي ﷺ في موكب المولد ومسامحته للمشاركين ما تقدّم من ذنوبهم ومن هذه الأبيات:

فالكل دون الإله إن حققته ... عدم على التفصيل والإجمال

ومنها:

هـذا الحبيب مع الأحباب قد حضرا   وسامـح الكـلَّ فيمـا قـد مضى وجـرا

ومعلوم أن المولـد أحدثه الفاطميون في مصر[1].

وبعد الاطلاع على هذه الدندنة حول التصوف لا يصعب فهم وصف حسن البنا دعوة الإخوان بوصف متناقض حيث قال: «وتستطيع القول ولا حرج عليك أن الإخوان المسلمين: دعوة سلفية، طريقة سنية، حقيقة صوفية...».

ويقول: «ونظام الدعوة في هذا الطور صوفي بحت من الناحية الروحية»[2].

وقال سعيد حوى:

«ومن أجل تذوق العقائد الإسلامية، وإقامة الأحكام الشرعية، قام علم التصوف»[3].

ولا يغرّك قول سعيد حوّى أن المقصود بالتصوف طهارة النفس، ونقاء القلب والمواظبة على الذكر، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير، بل الواقع يقول عكس ذلك. وإن شئت فاقرأ كتاب «تربيتنا الروحية» فالطريّقة الرفاعية لا غبار عليها، وألاعيب الدجاجلة كضرب السيم، ووضع السيف في البطن كرامات»[4].

---

(١) راجع التفصيل في «دعوة الإخوان» (٦٣ ـ ٦٧).

(٢) نظام الأسر ورسالة التعليم (ص ١٢).

(٣) جولات في الفقهين (ص ٣٩).

(٤) تربيتنا الروحية (٢١٦ ـ ٢١٧) وقد ردّ على سعيد حوى في تمجيده التصوف =

يريد سعيد حوّى إبراز سمة التصوف في جماعة الإخوان بكل وسيلة، ويذكّر أنصاره بقوله:

«ثم إن حركة الإخوان المسلمين نفسها أنشأها صوفي، وأخذت حقيقة التصوف دون سلبياته»(١).

وقال الأستاذ محمد قطب في البنا ــ رحمه الله ــ :

«بدأ حياته صوفياً، فانتمى منذ صباه إلى جماعة صوفية، عمّقت إشراقه الروحي ووصّلت قلبه بالله.

ولكنه أدرك ــ بما فتح الله عليه ــ أن الإسلام أعظم بكثير مما تتمثله الصوفية وتمارسه... إنه نظام حياة كامل،وليس صلة روحية بين العبد والرب فحسب»(٢).

نشأ الشيخ حسن البنا صوفياً على الطريقة الحصافية، وبقي متمسكاً بها، كما قال الأستاذ أبو الحسن علي الندوي:

«إنه كان في أول أمره ــ كما صرّح بنفسه ــ في الطريقة الحصافية الشاذلية. وكان قد مارس أشغالها وأذكارها، وداوم عليها مدة.

وقد حدّثني كبار رجاله وخواص أصحابه أنه بقي متمسكاً بهذه

= المبتدع، وتشجيعه الطريقة الرفاعية عديد من العلماء، ومنهم: الدكتور علي ناصر الفقيهي في مقدمة «الرد على الجهمية» لابن منده؛ والدكتور عبد العزيز القاري في «العقيدة أولاً لو كانوا يعلمون»، والأستاذ سليم الهلالي في «كتابات سعيد حوى».

(١) جولات (ص ١٥٤). راجع «الجماعات الإسلامية» (١٠٨ ــ ١٠٩).

(٢) واقعنا المعاصر (ص ٤٠٢) مؤسسة المدينة جدة. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

الأشغال، والأوراد إلى آخر عهده، وفي زحمة أعماله...»[1].

التربية الصوفية في نظر شيخ الإسلام:

* إن رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في التربية الصوفية معروف، لا يحتاج إلى مراجعة. ومناظرته مع دجاجلة البطاحية كشفت نواياهم أمام الجمع الحاشد من الخاصة والعامة[2].

قال شيخ الإسلام:

«... أنا أخاطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها، أي شيء

---

(١) التفسير السياسي للإسلام (ص ١٣٩). (ملاحظة): يدندن أبو الحسن علي الندوي كثيراً في كتبه ورسائله حول التمجيد بالتصوف، ويحمي حماه، ويدعو إلى ضرورة التربية الصوفية في الدعوة، مستدلاً على نجاحها بالحركات الدعوية الحديثة التي قامت على أيدي الدعاة المتصوفة، «كالحركة السنوسية» في ليبيا، و«الحركة المهدية» في السودان، وجماعة التبليغ في شبه القارة الهندية، وجماعة الإخوان بمصر. ويتغاضى عن سلبيات التصوف التي انعكست آثارها السيئة ولا تزال في تشويه جمال الإسلام وإبعاد المسلمين عن المحجة البيضاء. وهل يمكن نسيان دورهم المحزن في تعزيز الاستعمار في بعض البلاد الإسلامية، وتثبيت دعائم حكم الضلال من الملاحدة والباطنية في الأخرى؟!.
والسبب لوقوع الأستاذ الندوي فيما وقع فيه أنه بحكم نشأته لم يعرف أن هناك علاجاً ناجعاً للمشكلات في غير الالتزام بطرق التربية الصوفية. والظن به أنه لو عرف أن الحق في غير ما ذهب إليه لقال به. والله يتولى السرائر. ولنا عودة إلى ما كتب في هذا المجال إن شاء الله تعالى.

(٢) راجع «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١١/ ٤٤٥ ـ ٤٧٥) فإنه مهم جداً في معرفة دجل الرفاعية في دخول النار وضرب السيم وغيرها من التلبيسات.

فعلوه في النار، فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترق فهو مغلوب. . .

ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة. . . لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع، ولا على إبطال الشرع، فإن الدجال الأكبر يقول للسماء أمطري، فتمطر. . . ومع هذا فهو دجّال كذاب ملعون ـ لعنه الله ـ ورفعت صوتي بذلك: فكان لذلك وقع عظيم في القلوب».

وقال: «وسألني الأمير عما تطلب منهم؟.

فقلت: متابعة الكتاب والسنّة، مثل أن لا يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعهما. . .»[(١)].

وكذلك رد شيخ الإسلام على التربية الصوفية التي مارسها أبو حامد الغزالي وحصر طرق الطالبين ـ في زعمه ـ في أربع فرق:

* ـ (**المتكلمون**): وهم يدّعون أنهم أهل الرأي والنظر.
* ـ و(**الباطنية**): وهم يدّعون أنهم أصحاب التعلم، والمخصصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.
* ـ (**والفلاسفة**): وهم يدّعون أنهم أصحاب المنطق والبرهان.
* ـ و(**الصوفية**): ويدّعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المكاشفة والمشاهدة.

قال الغزالي: «فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة. فهؤلاء هم السالكون سبل طريق الحق، فإن سد الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع. . .».

---

(١) المصدر المذكور (١١/ ٤٦٥ ـ ٤٦٨).

وقال: «وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها، والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية، إيمان يقينيّ بالله، وبالنبوة، وباليوم الآخر».

قال شيخ الإسلام بعدما نقل كلام الغزالي هذا، رداً عليه:

«قلت: ويستفاد من كلامه: أن أساس الطريق: هي شهادة أن لا آله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ــ كما قررته غير مرة ــ وهذا أول الإسلام الذي جعله هو النهاية.

وبيّنت الفرق بين طريق الأنبياء، وطريق الفلاسفة، والمتكلمين. ولكن هو لم يعرف طريقة أهل السنّة والحديث من العارفين. فلهذا لم يذكرها، وهي الطريقة المحمدية المحضة، الشاهدة على جميع الطرق»[1].

شدّ الرحال إلى القبور:

من الصعب أن يتخلى الرجل الذي تربّى تربية صوفية، عن الركام التاريخي للتصوف، وخاصة إذا مارس المريد أشغال الطريقة المعينة وأورادها إلى آخر حياته، وصرّح بأن دعوته «حقيقة صوفية»، لا يمكن أن يقال فيه إنه تخلّص من رواسب التصوف كلياً.

قال حسن البنا في مذكراته (ص ٣٣) ما نصه:

«وكنا في كثير من أيام الجمع التي يتصادف أن نقضيها في دمنهور نقترح رحلة لزيارة الأولياء القريبين من دمنهور، فكنا أحياناً نزور دسوقي، فنمشي على أقدامنا بعد صلاة الصبح مباشرة بحيث نصل حوالي الساعة

(١) المصدر المذكور (٢/ ٥٥ ــ ٥٧).

الثامنة صباحاً، فنقطع المسافة في ثلاث ساعات وهي نحو عشرين كيلومتراً ــ ، ونزور ونصلّي الجمعة ونستريح بعد الغداء، ونصلي العصر ونعود أدراجنا إلى دمنهور، حيث نصلها بعد المغرب تقريباً».

وقال أيضاً: «وكنا أحياناً نزور عزبة النوام حيث دفن في مقبرتها الشيخ سيد سنجر من خواص رجال الطريقة الحصافية المعروفين بصلاحهم وتقواهم، ونقضي هناك يوماً كاملاً، ثم نعود»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ مستدلاً بحديث متفق عليه:

«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد. . .» ــ «إذا كان السفر إليها (أي إلى القبور) ليس للعلماء فيها إلا قولان:

ــ قول من يقول: إنها معصية.

ــ وقول من يقول: إنها ليس بمحرم، بل لا فضيلة فيه وليس بمستحب.

فإذن من اعتقد أن السفر لزيارة قبورهم، أنه قربة وعبادة وطاعة، كان ذلك محرّماً بالإجماع. . .»[2]. وقد اعتقل شيخ الإسلام في هذه المسألة سنة ٧٢٢هـ كما تقدم.

التــوســـل:

قال الشيخ حسن البنا في «الأصول العشرين»، الأصل الخامس عشر:

«والدعاء إذا قرن بالتوسّل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية

---

(١) راجع للتفصيل «دعوة الإخوان» (ص ٨٠).

(٢) راجع «الرد على الإخنائي» (١٢ ــ ١٥) وسيأتي مفصلاً في الباب الرابع إن شاء الله.

الدعاء، وليس من مسائل العقيدة[1].

«يستنبط من هذا القول إن الدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه، من الأمور الفرعية التي ليست من جوهر العقيدة، فإذا حصل ذلك من العباد، لا يوقعهم في الشرك الصريح، وهذا جهل بهذا الأمر، لأن «الدعاء هو العبادة»[2] ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة غافر: ٦٠].

والعبادة يجب أن تصرف خالصةً لله، وإلا لم يقبلها الله، لأنها إذا قرنت بشيء بطلت، وردّها الله، ولم يقبلها. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢ ــ ١٦٣].

فالأمر إذن من جوهر العقيدة، والخلاف فيه جوهري، وليس فرعياً...»[3].

* معلوم أن شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ لأجل منعه التوسل في الدعاء بأحد من الخلق، رمي بتنقيص منزلة الأنبياء والصالحين. فكتب كثيراً في هذا الموضوع، ومباحثه مبثوثة في كتبه وفتاواه[4].

وكأن شيخ الإسلام ابن تيمية يردّ على مثل قول البنا قائلاً:

---

(١) شرح الأصول العشرين (ص ٤٧).

(٢) رواه أبو داود، وأحمد (٤/ ٢٧١) عن النعمان بن بشير بإسناد صحيح.

(٣) «الجماعات الإسلامية» (ص ١٠٩).

(٤) راجع مبحث «التوسل والوسيلة» في الباب الرابع من هذا الكتاب.

«ولا يجوز أن يكون الشيء واجباً أو مستحباً إلا بدليل شرعي يقتضي إيجابه أو استحبابه. والعبادات لا تكون إلا واجبة أو مستحبة. فما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة. والدعاء لله تعالى عبادة إن كان المطلوب به أمراً مباحاً»[1].

وبين شيخ الإسلام مراتب الأدعية البدعية الثلاث فقال:

«الثالثة: أن يقال: أسألك بفلان، أو بجاه فلان عندك، ونحو ذلك الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهي عنه. وتقدم أيضاً أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة، بل عدلوا عنه إلى التوسل بدعاء العباس وغيره»[2].

هذا رأيه في النبيّ ﷺ الذي هو سيد الأولين والآخرين، فكيف بغيره من خلق الله تعالى، لأن التوسل بذات النبيّ ﷺ لم يكن مشهوراً عند السلف[3].

وأما التوسل بدعاء النبيّ ﷺ فجائز، كما ورد في حديث الأعمى، أنه طلب من النبيّ ﷺ أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره. فتوسل بدعاء الرسول ﷺ[4].

وما ورد عن الإمام أحمد بن حنبل في التوسل بالنبيّ ﷺ في الدعاء، فقال فيه شيخ الإسلام:

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١/ ٢٦٥).

(٢) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (ص ١٥٢).

(٣) المصدر المذكور (ص ١٢٩).

(٤) المصدر المذكور (ص ٥٢).

«ونقل عن أحمد بن حنبل في منسك المروذي التوسل بالنبيّ ﷺ في الدعاء. ونهى عنه آخرون.

فإن كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به، وبمحبته، وبموالاته، وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين.

وإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع. وما تنازعوا فيه يردّ إلى الله والرسول»[1].

مع الأستاذ التلمساني:

كان الأستاذ عمر التلمساني المرشد العام الثالث للإخوان في مصر، الذي تربّى على يد المرشد الأول الأستاذ حسن البنا، واستفاد من تجارب المرشد الثاني الأستاذ حسن الهضيبي الطويلة في مجال الدعوة والإرشاد. وقضى حياته معهم في السرّاء والضرّاء.

وكثيراً ما يصرّح بأنه استفاد من تعاليم الأستاذ البنا، وقيادة الهضيبي في مجال الدعوة.

ومن هنا نعرض بعض آرائه في «التوسل»، و«شد الرحال» إلى القبور، والصلاة والدعاء عندها، لأجل الأهمية، التي تحدد اتجاهه العقدي في هذه القضايا التي لأجل منعها سُجِنَ شيخ الإسلام ابن تيمية، حتى توفي في السجن ــ رحمه الله تعالى ــ.

قال التلمساني:

«وبمناسبة قول «أم كلثوم» عندما ظنت عائشة ــ رضي الله تعالى

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١/ ٢٦٤).

عنها ــ ستكرهها على الزواج من عمر. فستخرج إلى رسول الله ﷺ وتستغيث به في مثواه الطاهر الكريم، لينقذها ربّها مما يراد بها ولا تريده[1].

أثار هذا التصرف في نفسي معنى لم أستطع تجاوزه والمرور به دون التعرّض له لأنه يشغل من نفسي مكاناً ذا أثر.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النساء: ٦٤].

قال البعض: إن رسول الله ﷺ يستغفر لهم إذا جاءوه حياً فقط، أتبيّن سبب التقييد في الآية عند الاستغفار بحياة الرسول ﷺ، وليس في الآية الكريمة ما يدل على هذا التقييد... وما ذنب الذين جاءوا بعد وفاته ﷺ حتى يحرموا من استغفاره لهم!؟.

وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه الصلاة والسلام، لماذا؟ وما الذي يضرّه عليه الصلاة والسلام رفع الصوت؟ وماذا يرضيه في خفضه إذا كان لا يسمع؟.

التخصيص بغير مخصِّص يدخل في باب التعمل، والتعمل ممقوت.

ولذا أراني أميل إلى الأخذ بالرأي القائل أن رسول الله ﷺ يستغفر حياً وميتاً لمن جاءه قاصداً رحابه الرحيم...»[2].

---

(١) قصته بلا إسناد ومصدر. ولا وزن لمثلها في ميزان الاستدلال لمعارضتها للأدلة القطعية الواضحة. ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦]. راجع التفصيل في «الطريق إلى الجماعة الأم» (٣٦ ــ ٣٧) ط. ثانية ١٩٩٢م.

(٢) شهيد المحراب (٢٢٥ ــ ٢٢٦).

ثم ذكر أن الاستنجاد به ﷺ مباح وليس بمستنكر، مستدلاً بحكاية أم كلثوم ــ وهي من غير زمام ولا خطام ــ وقال:

«فلا داعي إذن للتشدّد في النكير على من يعتقد في كرامة الأولياء، واللجوء إليهم في قبورهم الطاهرة، والدعاء فيها عند الشدائد. وكرامات الأولياء من أدلة معجزات الأنبياء[1].

وبعدما ذكر قول الإمام النووي في استحباب الدفن عند مدافن الصالحين قال:

«فعلى مقابر الصالحين تتنزّل رحمات الله وبركاته ونفحاته، ولا بد للمسلم أن يتعرّض ويقترب، وأن يدعو في أماكن تغمرها رحمات أرحم الراحمين»[2].

ثم استدلّ بالتبرك بجبة النبيّ ﷺ على التبرك بآثار الصالحين وثيابهم، تبعاً للنووي ــ مع أنه خاص بالنبيّ ﷺ ــ، وذكر كرامات الأولياء ــ وما أحد ينكرها ــ ثم قال:

«فما لنا وللحملة على أولياء الله وزوّارهم، والداعين عند قبورهم ومقاماتهم...

ولئن كان هواي مع أولياء الله وحبهم، والتعلق بهم، ولئن كان شعوري الغامر بالأنس والبهجة في زياراتهم ومقاماتهم بما لا يخلّ بعقيدة التوحيد، فإني لا أروّج لاتجاه بذاته. فالأمر من أوّله إلى آخره أمر تذوق.

(١) المصدر المذكور (ص ٢٢٦).
(٢) المصدر المذكور (ص ٢٢٧).

وأقول للمتشددين في الإنكار: هوناً ما، فما في الأمر من شرك ولا وثنية ولا إلحاد.

وأقول للمحبين رفقاً ما حتى لا تجعلوا لمنكر عليكم سبيلاً، وإن كان الهوى غلّاباً»[1].

ثم ذكر فضائل أولياء الله وقال:

«ويتغالى بعض الناس في منع زيارة المساجد التي فيها مدافن بعض أولياء الله مستندين إلى حديث رسول الله ﷺ:

«لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

وفي معنى هذا الحديث يقول العلماء: ويبنون على هذا تحريم شدّ الرحال إلى غيرها، أو بالأقل كراهية هذا الشدّ.

مع أن معنى الحديث عند جمهور العلماء أنه لا أفضلية في شد الرحال إلى غيرها.

ولا شك أنه ما من مسلم يعدل بهذه المساجد الثلاثة مسجداً آخر، فليس في ذهن من يزور غيرها أي معنى من معاني التفضيل عليها، ولكنه طلب المثوبة وحب التبرّك والقرب. وشتان بين تحريم وعدم منع. هدانا الله جميعاً إلى الصواب...»[2].

سئل التلمساني: «يقال: إن حضور قيادة الإخوان وممثليهم لزيارة

---

(١) المصدر المذكور (ص ٢٣١).

(٢) المصدر المذكور (ص ٢٣٣).

الأضرحة التي بنيت عليها مساجد يعتبر إقراراً بشرعية ذلك مع أن رسالة (الأصول العشرين) نصّت على عدم شرعية ذلك فما هو ردّكم؟

قال التلمساني: نحن نعتقد أن عادة الأهالي هنا بزيارة القبور ليس فيها ما يخالف السنّة، فأنا إذا زرت قبراً لا أفعل إلا السنّة. ولكن إذا كنت مسلماً وأرى أن الحسين أو غيره يستطيع أن يفعل لي شيئاً أو يضرّ أو ينفع فلا شك أن هذا شرك. ونحن إذا دعينا لزيارة القبور فإننا نزور، ولكن لا نتأثم، غير أنه إذا زار غيرنا ضريحاً ليستشفى، أو يستنزل رزقاً فإن هذا وثنية»[١].

عقّب عليه الأستاذ عثمان عبد السلام نوح بقوله: «هذا دفاع المرشد، وفي نظرنا أنه أنكر ما قد اعترف به جميع من كان له مثقال ذرة من علم من كافة الجماعات، إذ الكل مجمع على أن أفعال العوام عند القبور وخاصة المشهد الشركي المسمى بالحسين، الكل مجمع على أنه شرك لا ريب فيه، حتى الذين هم خارج مصر يعلمون هذه الأفعال الشركية وعندنا أن المنكر لوقوع أفعال العامة المخالفة للتوحيد، فضلاً عن السنّة، مثل الذي يجحد رؤية الشمس في رابعة النهار... نقول: الذي يبدو لنا من هذه التصريحات المتناقضة أن المرشد ــ رحمه الله ــ يرى جواز هذه الأمور، ولكن الصحفي أحرجه بما في رسالة (الأصول العشرين)... فاضطر إلى هذه الأجوبة غير المعقولة...»[٢].

آراء التلمساني في ميزان الكتاب والسنّة:

كلام الأستاذ التلمساني يكفي لمعرفة اتجاهه في «التوسل»، و«شدّ

(١) مجلة المجتمع الكويتية (عدد (٤٧٦) في ١٥/ ٤/ ١٩٨٠م).
(٢) الطريق إلى الجماعة الأم (٣٥ ــ ٣٦).

الرحال»، و«الصلاة عند القبور»، و«استغفار النبيّ ﷺ لمن جاءه حياً وميتاً».

وهنا نعرض آراء شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في مثل هذه القضايا باختصار.

* قال شيخ الإسلام:

«ومنهم من يتأوّل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النساء: ٦٤]. ويقولون: إذا طلبنا منه بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة. ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين. فإن أحداً منهم لم يطلب من النبيّ ﷺ بعد موته أن يشفع له، ولا سأله شيئاً، ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخري الفقهاء، وحكوا حكاية مكذوبة على مالك ــ رضي الله عنه ــ سيأتي ذكرها وبسط الكلام عليها إن شاء الله تعالى[(١)].

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم، وفي مغيبهم، وخطاب تماثيلهم، هو من أعظم أنواع الشرك[(٢)] الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى.

---

(١) راجع «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١/٢٢٦، ٣٥٣) «وهي الحكاية المكذوبة على مالك في الاستشفاع بقبره ﷺ».

(٢) ولكن التلمساني يقول للمتشددين: «هوناً ما، فما في الأمر من شرك ولا وثنية...».

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ [سورة الشورى: ٢١].

. . . ومن تعبّد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة، وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة[١] فهو ضالّ مبتدع: بدعة سيئة لا بدعة حسنة، باتفاق أئمة الدين. فإن الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب.

وكثير من الناس يذكرون في هذه الأنواع من الشرك منافع ومصالح ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأي أو الذوق[٢]، أو من جهة التقليد، والمنامات ونحو ذلك. . .»[٣].

* وقال شيخ الإسلام أيضاً:

«وأما قول القائل نحن في بركة فلان، أو من وقت حلوله عندنا حلّت البركة، فهذا كلام صحيح باعتبار، وباطل باعتبار.

فأما الصحيح: فأن يراد به أنه هدانا، وعلّمنا. . . فببركة اتباعه حصل لنا من الخير ما حصل.

وأما «المعنى الباطل» فمثل أن يريد الإشراك بالخلق، مثل أن يكون رجل مقبور بمكان فيظن أن الله يتولاهم لأجله[٤]، وإن لم يقوموا بطاعة الله

---

(١) قال التلمساني: «فعلى مقابر الصالحين تنزل رحمات الله. . . ولا بد للمسلم أن يتعرض. . . وأن يدعو في أماكن تغمرها رحمات أرحم العالمين».

(٢) كما قال التلمساني: «فالأمر من أوله إلى آخره أمر تذوق».

(٣) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١/ ١٥٩ ــ ١٦٠).

(٤) تذكر قول التلمساني: «لا بد للمسلم. . أن يدعو في أماكن تغمرها رحمات أرحم الراحمين».

ورسوله فهذا جهل. فقد كان الرسول ﷺ سيد ولد آدم مدفوناً بالمدينة عام الحرة، وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا الله، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك...

وكذلك الخليل عليه الصلاة والسلام مدفون بالشام، وقد استولى النصارى على تلك البلاد قريباً من مائة سنة، وكان أهلها في شر. فمن ظن أن الميت يدفع عن الحيّ مع كون الحيّ عاملاً بمعصية الله فهو غالط.

وكذلك إذا ظن أن بركة الشيخ تعود على من أشرك به...

وكذلك إذا اعتقد أن ذلك الشيخ يشفع له،ويدخله الجنة بمجرد محبته، وانتسابه إليه.

فهذه الأمور ونحوها مما فيه مخالفة الكتاب والسنّة، فهو من أحوال المشركين وأهل البدع، باطل لا يجوز اعتقاده، ولا اعتماده، والله سبحانه وتعالى أعلم»[1].

* وذكر شيخ الإسلام الغلو في الصالحين، فقال:

«الغلو في الأمة وقع في طائفتين: طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية.

وطائفة من جهال المتصوّفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين»[2].

فمن وفّقه الله تعالى للردّ على غلوّهم يلمزهم التلمساني بقوله: «فما لنا

---

(١) المصدر المذكور (١١/ ١١٤ ـ ١١٥).

(٢) المصدر المذكور (١/ ٦٦).

وللحملة على أولياء الله وزوّارهم، والداعين عند قبورهم ومقاماتهم...»[1].

ما أحسن ما قال العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ـ رحمه الله تعالى ـ :

«من أوسع أودية الباطل الغلوّ في الأفاضل، ومن أمضى أسلحته أن يرمي الغالي كل من يحاول رده إلى الحق، ببغض أولئك الأفاضل ومعاداتهم. يرى بعض أهل العلم أن النصارى أول ما غلوا في عيسى عليه السلام كان الغلاة يرمون كل من أنكر عليهم بأنه يبغض عيسى ويحقره ونحو ذلك. فكان هذا من أعظم ما ساعد على انتشار الغلوّ، لأن بقايا أهل الحق كانوا يرون أنهم إذا أنكروا على الغلاة نسبوا إلى ما هم أشدّ الناس كراهية له من بغض عيسى وتحقيره، ومَقَتَهم الجمهور وأوذوا. فثبّطهم هذا عن الإنكار، وخلا الجو للشيطان. وقريب من هذا حال الغلاة الروافض، وحال القبوريين[2] وحال غلاة المقلّدين»[3].

وأما ما يتعلق بشدّ الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، فسيأتي قريباً إن شاء الله[4]. والعجيب أن التلمساني تعلّق بالمعنى الذي وافق حيث قال

---

(١) شهيد المحراب (ص ٢٣١).

(٢) قال التلمساني ـ وهو يتستّر بالتوحيد ويخفي أنه داعية إلى المقامات ـ : «ولئن كان هواي مع أولياء الله... ولئن كان شعوري الغامر بالأنس والبهجة في زياراتهم ومقاماتهم بما لا يخل عقيدة التوحيد، فإني لا أروّج لاتجاه بذاته. فالأمر من أوله إلى أخره أمر تذوّق».

(٣) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (ص ٦).

(٤) راجع مبحث «شدّ الرحال» في الباب الرابع من هذا الكتاب.

في الآية: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا﴾ أين التقييد؟!:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

الاعتذار عن البنا:

كيف يمكن أن يقبل اعتذار الدكتور محمد فتحي عثمان عن حسن البنا حيث قال:

«ولا يغضن من ذلك إيثاره الحكم على «الاستعانة بالمقبورين، والنذر لهم، وسترها، وإضاءتها، والتمسح بها، والحلف بغير الله، وما يلحق بذلك من المبتدعات» بأنها كبائر، وليست شركاً أو كفراً. فلعله راعى تفشي الأمية والجهالة بين الواقعين في ذلك من بني قومه وقتذاك[1] بحيث أنهم لا يدركون المعنى الحقيقي، والدلالة الصريحة الصحيحة لما يقولون أو يفعلون...

وكذلك لا يغضن من حرص الرجل على نهج السلف في الاعتقاد أنه ذكر أن «الدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة»، فيبدو أنه قد أخذ الأمر على أيسر وجوهه، وما يجمع الناس، ولا ينفرهم من القول بالتكفير، ولا سيما أن ظلمات الجهل والتقليد كانت تخيم على العقول والقلوب حتى غابت دلالات العقل ومعاني الألفاظ، وحقائق آيات الكتاب التي تتلى بين الناس بكرة وعشياً»[2].

---

(١) كان ذاك الوقت وقت دعوة بني قومه إلى التوحيد الخالص من أكدار الشرك والكفر والوثنية والإلحاد، وكان وقت المصارحة لإحقاق الحق وإبطال الباطل لا المجاملة.

(٢) السلفية في المجتمعات المعاصرة (١٢٨ ـ ١٢٩) طبعة دار آفاق الغد بمصر.

كيف يقبل هذا الاعتذار عن الأستاذ حسن البنا، وهو لم يتعرض طول حياته لبيان خطورة هذه الأنواع من الشرك، والتحذير منها مفصلاً، «حفاظاً على حساسيات الجماهير، ورغبة في تجميعهم». وقد تولى التلمساني بعده منصب المرشد العام للإخوان بحوالي اثنتين وعشرين سنة، وبقي أكثر من عشر سنوات في منصبه. وهو الذي يتناغم كثيراً أنه استفاد من تجارب البنا والهضيبي في مجال الدعوة والإرشاد. وفي هذه المدة الطويلة لم يصحح هذه المفاهيم الخاطئة نحو التوسل، وشدّ الرحال، والصلاة والدعاء عند المقبورين، بل زادت كتابات التلمساني الأمر بشاعة أكثر مما كان عليه من قبل.

فالأمر ليس أمر مراعاة البيئة وقتذاك، بل الحق أنهم: «ليس عندهم تصور عقدي واضح يدعون إليه. ولذلك نرى أن قادتهم يصرحون في هذا الأمر بتصريحات مخالفة لعقيدة السلف، لا يمكن تأويلها أو الاعتذار عنها»[1].

ولا شك أنهم قدّموا الكثير في مجال السياسة والاقتصاد، ولكنهم قصّروا في جانب الدعوة إلى التوحيد الخالص، ونبذ البدع والخرافات تقصيراً واضحاً ما جعل أهم مهمات الإسلام هيّناً وفرعياً في نظرهم. «كثر القائل فارتاب العاقل».

نُـرَقِّـعُ دنيـانـا بتمـزيـقِ ديننـا فـلا دينُنـا يبقـى ولا مـا نُـرقِّـعُ

وإذا أردت أن تعرف تهوينهم لشدّ الرحال فاقرأ ما كتبه محمد الغزالي،

---

(١) راجع كتاب «وقفات مع كتاب للدعاة فقط» للأخ محمد سيف العجمي حفظه الله تعالى.

وما رمى ابن تيمية به من كراهة زيارة قبر النبيّ ﷺ حيث قال:

«فرأينا ابن تيمية يكره زيارة قبر النبيّ ﷺ! لماذا؟ إن زيارة القبور كلها سنّة، فلِمَ يشذّ هذا القبر وحده؟...»[١].

هكذا هوّل، واتهم شيخ الإسلام بما لم يقله. بل هو ـ رحمه الله ـ نظراً للحديث الوارد يفرّق بين شدّ الرحال وزيارة القبر، فالأول منهي عنه، والثاني مستحب[٢]. وكتبه وفتاواه مليئة بهذا التقرير ولكن العناد...

وهبنـــي قلـــت أن الصبـــح ليـــل أيعمـــى المبصـــرون عـــن الضيـــاء

التعاطف مع الرافضة:

اجتمعت علماء السنّة الأفاضل قديماً وحديثاً على أن الروافض أكذب الطوائف إطلاقاً. وما يوجد في عقائدهم من:

* ـ الإشراك بالله تعالى شركاً جلياً لا يحتمل التأويل أبداً.

* ـ والاعتقاد بالرجعة، والغيبة، والبداء، والتقية.

* ـ والاعتقاد بعصمة الأئمة، وأنهم يعلمون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

* ـ والغلو في قبور أئمتهم، وفي مجتهديهم.

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (ص ١٦٠) دار القلم بالكويت ط. ثانية ١٤٠٣هـ (وهل ذلك محمول من القادح إلا على امتطاء نضو الهوى المفضى لصاحبه إلى التوى». «فتاوي شيخ الإسلام»: ٢٧/ ٢٠٣).

(٢) سيأتي التفصيل عنه في مبحث «شدّ الرحال» في الباب الرابع من هذا الكتاب.

* ـ والاعتقاد بتحريف كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

* ـ والانحراف في تفسير القرآن والسنّة، والإنكار للإجماع والغلو في الإمامة.

* ـ وسبّهم الصحابة الذين هم أفضل الناس بعد الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ .

* ـ والدعوى بعدم شرعية أي حكومة إسلامية غير الحكومة الاثني عشرية.

* ـ ورميهم عائشة أم المؤمنين، التي هي أحبّ أزواج النبيّ ﷺ إليه بالعظائم.

* ـ وتحليلهم[1] الزنا باسم المتعة ـ وغيرها من المؤامرات التي حاكوها ضد المسلمين ودولهم عبر القرون والأجيال ـ .

لجنة التقـريـب:

هذه العظائم وغيرها، تكفي لمعرفة هوية هذه الطائفة، وإدانتها، ومقاطعتها، والتبرىء منها. ولكن من السذاجة بمكان أن أناساً بمصر قاموا بتشكيل لجنة للتقريب بين الشيعة والسنّة، على أساس أن الله واحد والكتاب، واحد، والنبيّ واحد.

ولا سبيل لرفع الخلاف والروافض مصرون على شذوذهم عن جماعة المسلمين في أصول العقائد والأحكام. قال الإمام أبو يعلى:

---

(١) لعل هذا جزاء «الإفك» من جنس العمل.

«لو ذهب ذاهب إلى ترك مناظرة الروافض ومكالمتهم لكان قد ذهب مذهباً ليس ببعيد. وذلك أن المتناظرين إنما يتناظران ويردان إلى أصل قد اتفق عليه. والأصول التي ترجع إليها الأمة فيما اختلفت فيه إنما هو الكتاب والسنّة وإجماع الأمة وحجج العقول. وهذه الأصول الأربعة لا يمكن الرجوع إليها على قول الرافضة.. وذلك أن مذهبهم أن الكتاب مغيّر مبدّل... وكذلك لا يجب أن يرجع فيما اختلف فيه إلى السنّة لأن النقلة فسقة... وكذلك الرد إلى الإجماع ليس فيه حجة، لأن الأمة يجوز عليها أن تجتمع على خطأ وضلال، وأنها معصومة بقول الإمام. فإذن ليست الحجة إلا قول الإمام فقط. وكذلك حجج العقول لأن الخلق كلهم قد عمّهم النقص إلا المعصوم...»[١].

ويرى الشيخ موسى جار الله أنه لن يجدي أي كلام من التقريب، وأي مؤتمرات لتحقيق التآلف، ما لم يقم مجتهدو الشيعة بنزع تلك العقائد التي تطعن في القرآن والسنّة والصحابة والأمة... من كتبهم[٢].

وقد كتب العلامة محب الدين الخطيب كتابه القيم «الخطوط العريضة لما قام عليه دين الشيعة الاثني عشرية» لبيان أن التقريب يمكن على أساس العقيدة، لا على حساب العقيدة.

وبمرور الوقت استفاد الشيعة من هذا التقريب واستغلّوه، حتى اضطر الدكتور مصطفى السباعي مراقب الإخوان السابق في سوريا (أحد دعاة

---

(١) المعتمد (٢٥٩ ــ ٢٦٠)، وعنه في «مسألة التقريب بين أهل السنّة والشيعة» (٢/ ٢٥٤ ــ ٢٥٥).

(٢) «مسألة التقريب» (٢/ ٢٥٨).

التقريب) أن يصرّح بأن الشيعة يريدون تقريب السنّة إليهم، لا تقريب الشيعة إلى السنّة». وهذا يدل على أن الروافض لا يقبلون هذا التعاون إلا إذا كان في ذلك نشر لمذهبهم»[1].

ولقد قدّر الله تعالى أن حصلت الثورة الخمينية في إيران، فمجّدها دعاة التقريب وأنصارهم، وصرّح علماء السنّة العقلاء من أول يومها بأنها «ثورة رافضية» ولا يرجى من ورائها خير للإسلام والمسلمين. فرجع من دعاة التقريب من رجع إلى صوابه. وبقي من بقي يمجّدها حتى الآن، وقد افتضح أمرها أمام العالم كله مسلميه وكافريه.

---

(١) المصدر المذكور (٢/ ٢٦١) وقال مؤلفه د. ناصر بن عبد الله القفاري: «ولما قامت حركة التقريب في مصر، وأعلنت أن هدفها هو إعادة الصفاء والود بين الطائفتين، والتقريب بين أهالي المذهبين مع تمسّك كل بما عنده، رأينا أن هذا مجرد شعار وواجهة، وأن المنهج المرسوم الذي بدأ تنفيذه هو نشر عقيدة الرفض بين أهل السنّة بوسائل وأساليب مختلفة. (٢/ ٢٥٩).
ذكر أحد شيوخ الشيعة ــ وهو عبد الحسين نور الدين العاملي ــ رأيهم صراحة في مثل هذا التقريب بأن الخلاف بين الفريقين هو من أرسى قواعد الإسلام وأقوى دعائمه، وأنه لا بد من حسم ذلك بالبرهان، وإلا فإن التعاون بأي شكل من الأشكال متعذر، وإن حدث فهو مبني على المجاملة وغير مأمون العاقبة.
وعقب الشيخ رشيد رضا على رأي الشيعي هذا بأن تاريخ الشيعة مع أهل السنّة يؤيده فهو تاريخ حافل بالغدر والخيانة، وممالأة الأعداء ومناصرتهم ضد أهل السنّة (مجلة «المنار» ج ٣٢/ ٦١ ــ ٧٢، وعنه في مسألة التقريب ٢/ ٢٦٠).
ومن أبرز الأسباب في ذلك أن هؤلاء الروافض لا يؤمنون بشرعية حكومة إسلامية إلا حكومة المنتظر الذي غاب منذ أكثر من أحد عشر قرناً. ولهذا وجد الأعداء مدخلاً إلى قلوبهم من هذا الطريق» (مسألة التقريب: ٢/ ٢٦١).

واتركْ كتابات محمد الغزالي الذي يشنّ هجوماً على الشباب الملتزم بالكتاب والسنّة في العقائد والأعمال والأخلاق والآداب، ويهوّن العمل بالحديث ويستخفّ بالسنّة[1]، في حين أنه سهل متسامح مع الرافضة[2].

وغضّ الطرف عن بعض كتابات المودودي وسيد قطب التي فيها لمز بالخليفة الثالث عثمان، وكاتب الوحي معاوية، وغيرهما من أصحاب النبيّ ﷺ ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. فثناء الشيعة على هؤلاء ليس حباً لهم ولدعوتهم، بل لأجل نيلهم من كرامة بعض أصحاب النبيّ ﷺ، مع أن سيد قطب رجع عن بعض كتاباته في الطبعات الأخيرة من كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، ولكن الرافضة استغلّوا الطبعة الأولى من الكتاب، وهو يطبع عندهم يوزّع على ما فيه من الهمز واللمز[3].

---

(١) راجع «زوابع في وجه السنّة قديماً وحديثاً» (٣٢٧ ـ ٢٦٣) لمؤلف هذا الكتاب. ط. ثانية.

(٢) قال محمد الغزالي في (دفاع عن العقيدة ص ٢٢): «إن المدى بين الشيعة والسنّة كالمدى بين المذهب الفقهي لأبي حنيفة والمذهب الفقهي لمالك والشافعي... ونحن نرى الجميع سواء في نشدان الحق، وإن اختلفت الأساليب!!» (راجع التفصيل في «دعوة الإخوان» ص ١٢١ ـ ١٢٣).

(٣) وقد رد على كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» عالمان جليلان من علماء الأمة.
(أحدهما): هو العلامة الأديب محمود محمد شاكر فقد ردّ عليه في مجلة «المسلمون» المصرية (السنة الأولى، العدد الأول ديسمبر ١٩٥١م، والعدد الثاني يناير ١٩٥٢م، والعدد الثالث فبراير ١٩٥٢م، والعدد الرابع مارس ١٩٥٢م) على الترتيب بعناوين: «حكم بلا بيّنة»، و«تاريخ بلا إيمان»، و«ولا تسبّوا أصحابي»، و«ألسنة المفترين».
يظهر أن سيد قطب تضجر كثيراً من رد محمود محمد شاكر عليه. وأرسل رسالة إلى الأستاذ رجب البيومي (وهي منشورة في مجلة «الرسالة» العدد ٩٧٧/ ٢٤ مارس =

. . . .

= ١٩٥٢م) وفيها: «وما كان لي بعد هذا، وأنا مالك زمام أعصابي مطمئن إلى الحق الذي أحاوله، أن ألقى بالاً إلى صخب مفتعل، وتشنج مصطنع، وما كان لي أن أدعو الله لصديقنا شاكر بالشفاء والعافية والراحة مما يعاني، والله لطيف بعباده الأشقياء.

وأما أنا فما أحب أن يكون لي مع قوم خرجوا على خليفة رسول الله [أي علي]، وقتلوا ابن بنت رسول الله، ورموا وحرّقوا بيت الله، وساءوا في سياسة الحكم وفي سياسة المال على غير هدى الله... أدب أرفع من أدب مولى رسول الله الذي أدّبه وربّاه» ــ يشير به إلى قول سفينة: «كذبوا بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك» ــ وهو زيادة ضعيفة (الصحيحة للألباني رقم ٤٥٩).

(والثاني): هو أستاذنا الشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي. وقد ألّف كتاباً مستقلاً في الرد على سيد قطب وأسماه «مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ» فجزاهم الله خيراً.

ومن المؤسف المحزن أن الضلال من الرافضة والإباضية يتصيدون مثل هذه الكتابات السقيمة في أصحاب رسول الله ﷺ للاستدلال بها على كفرهم وضلالهم.

● قال الإباضي الخارجي أحمد الخليلي مفتي عمان:

«ولست هنا بصدد الحكم في تلك الفتنة العمياء... إنما كل ما أريده الآن هو دفع الاتهامات التي توجّه إلى الإباضية لأنهم يعادون أصحاب رسول الله ﷺ وينالون من كرامتهم.

والذي أريد أن أقوله: «إن الإباضية ليسوا وحدهم في هذا الميدان فكثير من الناس تحدثوا عن تلك الفتنة ــ إلى أن قال ــ : وإذا جئنا إلى أعلام الفكر الإسلامي لعصرنا الحاضر نجد كثير(؟) منهم تناول هذه الفتنة، وتحدثوا عما جرى فيها بكل جرأة، ومن هؤلاء شهيد الإسلام سيد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية»... والعلامة المودودي في كتابه «الخلافة والملك» وفي كتابه «التجديد لهذا الدين»...».

(راجع «مطاعن سيد قطب» (١٠ ــ ١٥ عن مجلة «جبرين» الإباضية»).

وأما كتاب المودودي «الخلافة والملك»[١] فجعلوه تكأة يتكئون إليها لإثبات باطلهم، بدليل أنه رأي أحد من كبار المسلمين.

اطو الكشح عن هذا، وذاك.

ولكن إن تعجب فعجب أمر الأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد العام الرابع للإخوان المسلمين، لأنه متعاطف حتى الآن مع الثورة الرافضية، وباقٍ على فكرة التقريب بين الشيعة والسنّة التي ساهم فيها حسن البنا المرشد العام الأول للإخوان[٢].

---

(١) تقدم في التعليق السابق إشادة الإباضي أحمد الخليلي (مفتي عمان) بهذا الكتاب وكتابه «التجديد لهذا الدين». وأما الرافضة فلا تسأل عن فرحتهم بهذا الكتاب. كما تقدم شيء من التفصيل عنه في موضعه.

(٢) ● قال الأستاذ عمر التلمساني في كتابه «الملهم الموهوب حسن البنا» (ص ٧٨):
«وبلغ من حرصه على توحيد كلمة المسلمين أنه كان يرمي إلى مؤتمر يجمع الفرق الإسلامية... ولقد استضاف لهذا الغرض فضيلة الشيخ محمد القمي ــ أحد كبار علماء الشيعة وزعمائهم ــ في المركز العام فترة ليست بالقصيرة، كما أنه من المعروف أن الإمام البنا قد قابل المرجع الشيعي آية الله الكاشاني أثناء الحج عام ١٩٤٨م، وحدث بينهما تفاهم...»
● وقال صاحب «موقف علماء المسلمين من الشيعة والثورة الإسلامية» (ص ١٥):
«قام الإمام الشهيد حسن البناء بجهد ضخم على هذا الطريق، يؤكد ذلك ما يرويه الدكتور إسحاق موسى الحسيني في كتابه «الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة» من أن بعض الطلاب الشيعة الذين كانوا يدرسون في مصر، قد انضموا إلى جماعة الإخوان المسلمين. ومن المعروف أن صفوف الإخوان المسلمين في العراق كانت تضمّ الكثير من الشيعة الإمامية الاثني عشرية.
وعندما زار «نواب صفوي» سوريا، وقابل الدكتور مصطفى السباعي المراقب العام =

. . . .

= للإخوان المسلمين، اشتكى إليه الأخير أن بعض شباب الشيعة ينضمون إلى الحركات العلمانية والقومية، فصعد نواب إلى أحد المنابر، وقال أمام حشد من الشبان الشيعة والسنّة: من أراد أن يكون جعفرياً حقيقياً فلينضم إلى صفوف الإخوان المسلمين»

● وقال صاحب «موقف المسلمين. . .» (ص ١٣) أيضاً:

«وفي العصر الحديث كانت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي شارك فيها الإمام الشهيد حسن البنا. . . يقول الأستاذ سالم البهنساوي أحد مفكري الإخوان المسلمين ــ في كتابه «السنّة المفترى عليها» (ص ٥٧):

«منذ أن تكونت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، والتي ساهم فيها الإمام البنا والإمام القمي، التعاون قائم بين الإخوان المسلمين والشيعة وقد أدى ذلك إلى زيارة الإمام نواب صفوي سنة ١٩٥٤م للقاهرة».

ويقول في الصفحة نفسها: «ولا غرو في ذلك، فمناهج الجماعتين تؤدي إلى هذا التعاون» (راجع للتفصيل في الموضوع «دعوة الإخوان» (١١٣ ــ ١٢٠) فإنه مهم.

● وقد بقي هذا التعاون على ما كان عليه في زمن حسن البنا تمسكاً بمبدأ التقريب وأكد على ذلك المرشد العام الحالي للإخوان المسلمين محمد حامد أبو النصر بقوله:

«والإمام الشهيد كان عمل لجنة للتقريب بين المذاهب، ونحن على هذا المبدأ نقرّب بينهما ولا نباعد بينهما، لأن الكل يؤمنون بإله واحد، وكتاب واحد، ونبيّ واحد. . .» ــ كما هو مذكور في نص المقابلة الصحفية الآتي.

أما تأييد الإخوان للثورة الرافضية في إيران، وقيامهم في جنبها ضد العراق في الحرب العراقية الإيرانية، ثم تأييدهم لطاغية العراق في عدوانه الغاشم المنكور على دولة الكويت فمواقف متناقضة مخزية، كل منها أشد فضيحة من الآخر.

وسيأتي شيء من هذه المواقف قريباً إن شاء الله.

أجرت مجموعة من الشباب المسلم العامل بالصحافة مقابلة مع الأستاذ محمد حامد أبو النصر، بمناسبة حضوره في المؤتمر في (باكستان)، في شعبان سنة ١٤٠٨هـ.

ويظهر من نص المقابلة أن المرشد العام للإخوان كم كان متأثراً بالثورة الخمينية. وكيف أخذت بمجامع قلبه وفكره؟ فإنه يُسْأَل عن «الجهاد الأفغاني»، فيتكلم عن «إخوانه الإيرانيين». وحدث هذا في المقابلة نفسها أكثر من مرة.

وإليك بعض المقتطفات التي تهمنا في هذا الموضوع:

«**الصحفي**: فضيلة الشيخ بالنسبة للتنسيق بين الإخوان المسلمين، «والجهاد الأفغاني» منذ متى بدأ هذا التنسيق؟ وهل ما زال مستمراً عبر كافة المراحل التي يمر بها «الجهاد» إلى الآن؟.

المرشد: ليس هناك تنسيق إنما كانت هناك صلات قديمة منذ الإمام الشهيد حسن البنا. كانت هناك صلات قديمة بين بعض الإخوان الإيرانيين والإخوان في القاهرة، ثم لما انتقل الإمام الشهيد!! (تعقيب من الصحفي، الإخوان الأفغانيين تقصد) صحح المرشد كلامه فقال: آسف أقصد الإخوان الأفغانيين.

نعم اشتركنا كأي أمة إسلامية...

الصحفي: فضيلة الشيخ! الفكرة لدى الإخوان كجماعة عالمية إسلامية، والفكرة التي لديهم عن الجهاد الأفغاني ما هي؟ هل الفكرة لدى الإخوان المسلمين تتمنى أن يتكشف عن دولة وقعت في كارثة نعينها على تخطي هذه الكارثة؟.

المرشد: لا شك حينما ولدت هذه الثورة فرحنا بها غاية الفرح، لِمَ؟ لأننا نريد نموذج حديث يعالج القضايا الإسلامية، ويربّي الدولة الإسلامية، كنا فرحين على اعتبار أنها دولة شابة حديثة سيكون لها كيان خصوصاً بعدما أخرجت الامبراطور الشاه!!.

والأمور هذه كلها قوة مستقلة لها أهداف إسلامية معينة فرحنا بها.

الصحفي: نحن نتكلم عن أفغانستان!!.

المرشد: لا إله إلا الله. . . !!.

الصحفي: الفكرة عن الإخوان المسلمين عن الجهاد في أفغانستان. . .

المرشد: أنا قلت لكم أنا غير مشترك معهم!!».

[هكذا أنطقه الله العلي القدير الذي ينطق كل شيء يوم القيامة، فصرّح بما كان في قلبه من دون أن يُسأل عنه.

ولكن لاحظوا كيف اشمئز في الأخير، حينما سئل عن موقف جماعة الإخوان في إيران، متعاطفاً معها، ومتضامناً. ؟!].

الصحفي: أريد أن أسأل فضيلتك عن موقف جماعة الإخوان من إيران؟

المرشد: بالنسبة لإيران، الصحوة التي قاموا بها إحنا كنا معجبين بها، ومرتاحين لها خصوصاً بعد الظلم الذي كان قائماً في مدة الشاه. . . إنه شعب. . . عاوز يعيد الإسلام كيانه. لا شك نحن متعاطفين معاه من الناحية دي مش عاوزه كلام. ثم أيضاً لا نثير حكاية!!.

شيعة وسنّة. . . نكره هذا ونبغضه تماماً. . . والإمام الشهيد كان عمل لجنة للتقريب بين المذاهب.

نحن على هذا المبدأ نقرّب بينهما، ولا نباعد بينهما، لأن الكل يؤمنون بإله واحد، وكتاب واحد، ونبيّ واحد. . . اكتب الكلام ده. ده كلام بيتكتب نفس الشيء، سجّله»[1].

هذه هي بعض المقتطفات من نص المقابلة التي أجريت مع الأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد العام للإخوان المسلمين بمصر، أتركها بدون تعليق متمثلاً بقول الشاعر في «الثورة الرافضية»:

منى إن تكن صدقاً فأحسن المنى   وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

موقف الإخوان من الثورة الإيرانية:

قال صاحب «دعوة الإخوان»:

وفي كتاب «موقف علماء المسلمين. . .» (ص ٤١ ــ ٤٢) قال المؤلف عز الدين إبراهيم: «الثورة التي اشتعلت مع مطلع عام ١٩٧٨م، وانتصرت مع مطلع عام ١٩٧٩م، فأيقظت روح الأمة المسلمة على طول المحور الممتد من طنجة إلى جاكرتا، ومع تقدم الثورة كان استقطابها للجماهير يزداد. . . الجماهير التي كانت تعبر عن بهجتها وفرحتها في شوارع قاهرة المعز ودمشق الشام. . . في كراتشي والخرطوم. . . في إستامبول ومن حول بيت المقدس. . . وفي كل مكان يوجد فيه المسلمون. . .

في ألمانيا الغربية كان الأستاذ عصام العطار ــ أحد الزعماء التاريخيين لحركة الإخوان المسلمين ــ يكتب كتاباً كاملاً يتناول تاريخ الثورة وجذورها، ويقف بجانبها مؤيداً، ويبرق أكثر من مرة للإمام الخميني مهنئاً ومباركاً، وانتشرت أحاديثه المسجلة على أشرطة الكاسيت المؤيدة للثورة بين

(١) راجع «نص المقابلة» وهو مطبوع على الآلة الكاتبة.

الشباب المسلم، كذلك قامت «مجلة الرائد» لسان حال الطلائع الإسلامي بدور مهم في تأييد الثورة وشرح موقفها.

وفي السودان كان موقف الإخوان المسلمين وموقف شباب جامعة الخرطوم الإسلاميين من أروع المواقف التي شهدتها العواصم الإسلامية، حيث خرجوا بمظاهرات التأييد، وسافر الدكتور الترابي زعيم الإخوان إلى إيران، حيث قابل الإمام معلناً تأييده، ومن الجدير بالذكر أن هذا الموقف مستمر حتى الآن.

وفي تونس كانت مجلة الحركة الإسلامية «المعرفة» تقف بجانب الثورة؛ تباركها، وتدعو المسلمين إلى مناصرتها، ووصل الأمر أن كتب زعيم الحركة الإسلامية الغنوشي ـ والذي هو عضو التنظيم الدولي للإخوان المسلمين ـ كتب مرشحاً الإمام الخميني لإمامة المسلمين!.

ويعتبر الغنوشي أن الاتجاه الإسلامي الحديث تبلور وأخذ شكلاً واضحاً على يد الإمام البنا والمودودي وقطب والخميني ممثلي أهم الاتجاهات الإسلامية في الحركة الإسلامية المعاصرة.

وانظر كتاب «الحركة الإسلامية والتحديث» راشد الغنوشي وحسن الترابي (ص ١٦)» [راجع التفصيل في «دعوة الإخوان»: ١٣٣ ـ ١٣٥].

موقف الإخوان من الحرب العراقية الإيرانية:

قال صاحب «دعوة الإخوان»:

«في كتاب «موقف علماء المسلمين» (ص ٤٤) قال المؤلف ما نصه:

«أما في مصر؛ فقد وقفت مجلة «الدعوة» و«الاعتصام» و«المختار» إلى جانب

الثورة؛ مؤكدة إسلاميتها، ومدافعةً عنها، في وجه الإعلام الساداتي الأمريكي، كتبت «الاعتصام» على غلاف (عدد ذي الحجة ١٤٠٠هـ/ أكتوبر ١٩٨٠م): «الرفيق التكريتي (يعني: صدام حسين) تلميذ ميشيل عفلق الذي يريد أن يصنع قادسية جديدة في إيران المسلمة».

وفي (ص ١٠) من العدد نفسه كتبت «الاعتصام» تحت عنوان (أسباب المأساة): «الخوف من انتشار الثورة الإسلامية في العراق».

ثم قالت: «ورأى صدام حسين أن فترة الانتقال التي يمر بها جيش إيران وتحوّله من جيش إمبراطوري إلى جيش إسلامي هي فرصة ذهبية لا تتكرر للقضاء على هذا الجيش قبل أن يتحوّل إلى قوّة لا تقهر بفضل العقيدة الإسلامية في نفوس ضباطه وجنوده».

وفي عدد (محرم ١٤٠١هـ/ ديسمبر كانون الأول ١٩٨٠م) كتب جابر رزق ــ أحد أبرز صحفيي الإخوان المسلمين في «الاعتصام»(ص ٣٦) معللاً أسباب الحرب؛ قال: «إن الوقت الذي اندلعت فيه هذه الحرب هو ذات الوقت الذي فشلت فيه كل الخطط الأمريكية التآمرية على ثورة الشعب الإيراني المسلم».

ويقول (ص ٣٧): «وقد نسي صدام حسين أنه سيقاتل شعباً تعداده أربعة أضعاف الشعب العراقي، وهذا الشعب هو الشعب المسلم الوحيد الذي استطاع أن يتمرّد على الإمبريالية الصليبية اليهودية».

ثم يواصل حديثه: «والشعب الإيراني بكامل هيئاته ومنظماته مصمم على مواصلة الحرب حتى النصر، وحتى إسقاط البعث الدموي. . .».

ثم يشرح جابر رزق أن هدف الاستعمار من الحرب إسقاط الثورة، فيقول: «. . . وبسقوط النظام الثوري الإيراني يزول الخطر الذي يهدد هذا النوع من الطواغيت الذين يرتجفون من تصورهم احتمال ثورة شعوبهم وإسقاطهم؛ مثلما فعل الشعب الإيراني المسلم ضد الشاه العميل».

وفي (ص ٤٧) من كتاب «موقف علماء المسلمين. . .»: «وعندما بدأ الغزو الصدَّامي لإيران المسلمة؛ أصدر التنظيم الدولي للإخوان المسلمين بياناً وجّهه إلى الشعب العراقي، هاجم فيه حزب البعث الملحد الكافر على حد تعبير البيان الذي قال أيضاً: إن هذه الحرب أيضاً ليست حرب تحرير المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فشعب إيران المسلم قد حرر نفسه من الظلم والاستعمار الأمريكي في جهاد بطولي خارق، وبثورة إسلامية عارمة فريدة من نوعها في التاريخ البشري، وتحت قيادة إمام مسلم هو دون شك فخر للإسلام والمسلمين».

ثم يتكلم البيان عن أهداف العدوان الصدامي قائلاً: «. . . ضرب الحركة الإسلامية، وإطفاء شعلة التحرير الإسلامية التي انبعثت من إيران».

وفي نهاية البيان يقول مخاطباً الشعب العراقي: «. . . اقتلوا جلاديكم؛ فقد حانت الفرصة التي ما بعدها فرصة، ألقوا أسلحتكم، وانضموا إلى معسكر الثورة، الثورة الإسلامية ثورتكم».

وفي (ص ٤٩) قال المؤلف: «وفي كتاب من كتب فتحي يكن الأخيرة «أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي» يستعرض المؤلف مؤامرات الاستعمار والقوى الدولية ضد الإسلام، فيقول (ص ١٤٨): «وفي التاريخ القريب شاهد على ما نقول، ألا وهو تجربة الثورة الإسلامية في إيران، هذه

التجربة التي هبّت لمحاربتها وإجهاضها كل قوى الأرض الكافرة ولا تزال، بسبب أنها إسلامية، وأنها لا شرقية ولا غربية»اهـ [دعوة الإخوان: ١٠٩ ـ ١١١].

موقف الإخوان من أزمة الخليج:

قال صاحب «دعوة الإخوان»:

«والآن؛ سأعرض إلى موقفهم من صدام (الكافر العميل) في حرب إيران، (الملاك المجاهد الداعية رافع راية الإسلام في وجه الأمريكان والإمبريالية والصهيونية والعمالة الأمريكية... الخ على حد تعبيرهم ومصطلحاتهم) في حرب الخليج...

وهذا الأمر في نظري ليس بحاجة إلى تفصيل؛ فإن موقف الإخوان في حرب الخليج كان واضحاً في مصر والأردن والسودان وتونس والجزائر وباكستان وأفغانستان فقد أصبح البعثي الدموي الكافر العميل عندهم في حرب إيران إماماً مجاهداً، ولا أدري علام بنوا ذلك؟! والله المستعان.

وإليك هذا البيان الذي نشرته «مجلة فلسطين» آذار (مارس) ١٩٩١م:

وفد من الإخوان وحماس زار طهران:

«ضمن ما تشهده العاصمة الإيرانية من تحركات دبلوماسية متعددة وزيارات متتالية لوفود على مختلف المستويات، زار طهران الشهر الماضي زيارة من نوع خاص وفد إسلامي مشترك ضم ممثلين عن الحركة الإسلامية في الأردن «الإخوان المسلمون»، وعن المقاومة الإسلامية «حماس»، والتقى الوفد في زيارته تلك بمرشد الثورة الإسلامية في إيران علي خامنئي، وبرئيس

مجلس الشورى الإيراني مهدي كروبي، ووزير الخارجية علي أكبر ولايتي، وعدداً آخر من المسؤولين والعلماء.

وجاءت زيارة الوفد في إطار التحركات التي تقوم بها الحركة الإسلامية في الأردن بهدف تبصير الشعوب والحكومات الإسلامية بحقيقة الحرب الظالمة ضد العراق، والتي تستهدف تحطيم قدراته العسكرية والاقتصادية، ولدفع مواقف الحكومات الإسلامية باتجاه مناصرة العراق والوقوف معه ضد الهجمة الصليبية الحاقدة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية.

وعلم أن الوفد طالب المسؤولين في الجمهورية الإسلامية الإيرانية بضرورة الإسراع في اتخاذ الموقف المأمول إزاء هذه المنازلة مع قوى الاستكبار، وهو الموقف الذي تنتظره مئات الملايين من الجماهير في العالم الإسلامي، والذي يتناسب مع طروحات وشعارات الثورة الإسلامية في إيران.

كما ناقش الوفد تحديداً آلية مساعدة الشعب العراقي المسلم بشتى السبل؛ كي يواصل صموده البطولي أمام الغزو البربري الذي يتعرض له، وضرورة مساعدة المسلمين في فك الحصار المفروض على العراق لتجويعه وإنهاكه!.

وذكرت مصادر الوفد أنه تم بحث الأوضاع في الأردن وفلسطين وحقيقة الأخطار والتحديات التي يتعرض لها الأردن، والأساليب القمعية المتزايدة التي يمارسها العدو الصهيوني على شعبنا الفلسطيني مستغلاً الانشغال العالمي بحرب الخليج، والمخططات التي يرسمها بغية التوسع لاستيعاب الهجرة اليهودية القادمة من الاتحاد السوفييتي.

وقد أبدت القيادة الإيرانية استعدادها الدائم للوقوف إلى جانب الأردن في حالة تعرضه لأية اعتداءات صهيونية، حيث صرح آية الله خامنئي بأن إيران ستقف إلى جانب الأردن إذا تعرض للعدوان، كما أكد المسؤولون الإيرانيون دعمهم لجهاد الشعب الفلسطيني وانتفاضته المباركة، واعتبارهم لمعركة تحرير الأقصى وفلسطين معركتهم كما هي معركة كل المسلمين» [دعوة الإخوان: ١١٢ ـ ١١٣].

موقف الشيعة من السنّة ودولهم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وكثير منهم يوادّ الكفار من وسط قلبه أكثر من موادته للمسلمين ولهذا لما خرج التتر الكفار من جهة المشرق وقتلوا المسلمين وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها كانت الرافضة معاونة لهم على المسلمين، وكذلك الذين كانوا بالشام وحلب وغيرهما من الرافضة كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين وكذلك النصارى الذين قاتلوا المسلمين بالشام كانت الرافضة من أعظم المعاونين لهم... فهم دائماً يوالون الكفار من المشركين والنصارى ويعاونوهم على قتال المسلمين ومعاداتهم)[١] ويكفي في تأكيد ذلك مؤامرة مؤيد الدين ابن العلقمي الرافضي، مع التتار لإسقاط الخلافة الإسلامية في بغداد، مع أن هذا الرافضي كان وزيراً للمعتصم أربع عشرة سنة، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة ما لم يحصل لغيره من الوزراء، فلم يُجْدِ هذا التسامح والتقدير له في إزالة الحقد والغلّ الذي يحمله لأهل السنّة»[٢].

---

(١) «منهاج السنّة»: (٢/ ١٠٤) وكذلك محاربة الدولة الصفوية في إيران للدولة العثمانية في ذلك العصر بتحريض الإنجليز كانت حلقة من تلك السلسلة.

(٢) راجع «مسألة التقريب»(٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤).

منهاج السنّة النبوية:

كتب شيخ الإسلام كثيراً في الرد على الروافض، وكشف مؤامراتهم ضد السنّة ودولهم، وفضح باطلهم في عقائدهم وأفكارهم، ومن أهم كتبه في هذا الموضوع «منهاج السنّة».

قال شيخ الإسلام في مقدمة «منهاج السنّة»:

«أما بعد: فإنه قد أحضر إلي طائفة من أهل السنّة والجماعة كتاباً صنّفه بعض شيوخ الرافضة في عصره منفقاً لهذه البضاعة يدعو به إلى مذهب الرافضة الإمامية...

وذكر من أحضر هذا الكتاب أنه من أعظم الأسباب في تقرير مذاهبهم عند من مال إليهم من الملوك وغيرهم، وقد صنّفه للملك المعروف الذي سمّاه فيه (خدابنده)، وطلبوا مني بيان ما في هذا الكتاب من الضلال وباطل الخطاب لما في ذلك من نصر عباد الله المؤمنين، وبيان بطلان أقوال المفترين الملحدين.

فأخبرتهم أن هذا الكتاب وإن كان من أعلى ما يقولون في باب الحجة والدليل فالقوم من أضلّ الناس عن سواء السبيل. فإن الأدلة إما نقلية وإما عقلية، والقوم من أضلّ الناس في المنقول والمعقول في المذاهب والتقرير. وهم من أشبه الناس بمن قال الله فيهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الملك: ١٠][1].

* * *

---

(١) منهاج السنّة (١/ ٤ ـ ٨).

لقد قيّض الله تعالى شيخ الإسلام لتقويض ما شيّده ابن المطهر الحلّي على شفا جرف هار، بالأدلة الدامغة والحجج الداحضة من النقل والعقل في «منهاج السنّة». وهو كتاب قيّم عظيم حافل جليل في غاية الجودة والإفادة مع استطرادات نافعة لا توجد في غيره.

والحق أن كتاب «منهاج السنّة» أثلج صدور أهل السنّة وأوغر قلوب الرافضة وغيرهم من أهل البدع والأهواء[١].

* * *

قال ابن كثير تلميذ شيخ الإسلام:

«وله (أي لابن المطهر الحلي) كتاب «منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة» خبط فيه في المعقول والمنقول، ولم يدر كيف يتوجه، إذ خرج عن الاستقامة.

وقد انتدب في الردّ عليه الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية في مجلدات أتى فيها بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة، وهو كتاب حافل»[٢].

نظراً إلى أهمية «منهاج السنّة»، وتعميماً لفائدته قام العلامة الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (تلميذ شيخ الإسلام) بتلخيصه في كتاب «المنتقى من منهاج الاعتدال».

* * *

---

(١) كما سيأتي موقف الكوثري الحاقد من هذا الكتاب في مبحث الطلاق إن شاء الله تعالى.

(٢) البداية والنهاية: (١٤/ ١٢٥).

لقد عرف فحول علماء السنّة في عصورهم قيمة كتاب «منهاج السنّة» لشيخ الإسلام.

أقول: لو لم يكن له كتاب إلا «منهاج السنّة» لكفاه فخراً وعزاً وشرفاً في الدنيا والآخرة، فكيف وأن المكتبات الإسلامية في العالم تزدان بكتبه ورسائله وفتاواه في جميع العلوم الإسلامية.

قال قائل في «منهاج السنّة»:

فلو كان تأليف الفتى مخلداً له لكان من «المنهاج والله مُخْلَدُ

ولو كان في الدنيا جزاءٌ لمحسنٍ لكان له فيها النعيم[1] المؤبَّدُ

وأنشد الشيخ المفتي عبد القادر بن صديق (ـ ١١٣٨هـ):

لِلّه در شهاب الدين أحمد من دُعِيَ ابنَ تيمية ذي الفطنة اللسن

فقد أتى بالذي لا يستطاع له دفع بتحريره المنهج الحسن

وأضحت السنّة الغرّاء تزهر من أنوار «منهاجه» في واضح السنن

فالله يوسعه بِراً ويشكر ما أبدى لنا معشر القرآن[2] والسنن

* * *

اعتراف كبار الإخوان بالتقصير في تصحيح العقيدة:

لقد انتبه بعض قادة الإخوان إلى خطورة الإهمال أو التقصير في جانب

(١) في الصفحة الأخيرة من «منهاج السنّة النبوية» طبعة الأميرية ببولاق. و«الحمية الإسلامية» (ص ٣٠) بتحقيق المؤلف.

(٢) منهاج السنّة (١/ ١٣٨ مقدمة التحقيق) طبعة جامعة الإمام. «والحمية الإسلامية» (ص ٣٠).

العقيدة في دعوتهم، فصرّحوا بذلك أداءً للأمانة، وتفادياً للأخطاء التي حصلت في تربية الشباب في الماضي.

* قال الأستاذ سيد قطب ــ رحمه الله ــ :

«وبعد مراجعة ودراسة طويلة لحركة الإخوان المسلمين، ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى للإسلام أصبح واضحاً في تفكيري أن الحركة اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات البشرية يوم جاء الإسلام أول مرة من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية، وليس فقط البعد عن النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية...

... ولا بد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة، وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلامية صحيحة، وعدم إضاعة الوقت في الأحداث السياسية الجارية، وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي لأنها عرفته على حقيقته، وتريد أن تحكم به.

هذا الظرف كان يحتّم عليّ أن أبدأ مع كل شاب، وأسير ببطء وحذر من ضرورة فهم العقيدة الإسلامية فهماً صحيحاً قبل البحث عن تفصيلات النظام، والتشريع الإسلامي. وضرورة عدم إنفاق الجهد في الحركات السياسية المحلية الحاضرة في البلاد الإسلامية، للتوفر على التربية الإسلامية الصحيحة لأكبر عدد ممكن. وبعد ذلك تجيء الخطوات التالية بطبيعتها

بحكم اقتناع وتربية قاعدة في المجتمع ذاته. لأن المجتمعات البشرية اليوم بما فيها المجتمعات في البلاد الإسلامية قد صارت حالة مشابهة كثيراً، أو مماثلة لحالة المجتمعات الجاهلية يوم جاءها الإسلام، فبدأ معها من العقيدة والخلق، لا من الشريعة والنظام.

واليوم يجب أن تبدأ الحركة والدعوة من نفس النقطة التي بدأ منها الإسلام وأن تسير في خطوات مشابهة مع مراعاة بعض الظروف المغايرة»[(١)].

قال الدكتور ربيع بن هادي المدخلي، بعدما نقل كلام سيد قطب هذا:

«رحم الله سيد قطب، لقد نفذ من دراسته إلى عين الحق والصواب، ويجب على الحركات الإسلامية أن تستفيد من هذا التقرير الواعي الذي انتهى إليه سيد قطب عند آخر لحظة من حياته بعد دراسة طويلة واعية. لقد وصل في تقريره هذا إلى عين منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[(٢)].

* قال الأستاذ محمد قطب في كتابه «واقعنا المعاصر»[(٣)] ــ وكأنه

---

(١) جريدة المسلمين الدولية (المسلمون) السنة الأولى، العدد الثالث، الصادر في يوم السبت الموافق ٤/ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ. (٦ ــ ٧) حلقة من سلسلة مقالات تحت عنوان (لماذا أعدموني؟).

(٢) منهج الأنبياء (ص ١٣٩).

(٣) كتب الدكتور محمد حكمت تعريفاً بكتاب «واقعنا المعاصر» تحت عنوان «قراءة في كتاب واقعنا المعاصر للأستاذ محمد قطب» في مجلة المجتمع الكويتية (السنة التاسعة عشرة، العدد ٨٧٠) فقال:

«هذا هو آخر كتاب يصدره المفكر الإسلامي محمد قطب، وقد أفرغ فيه خلاصة فكرية ناضجة، وتجربة إسلامية غنية تصف واقع المسلمين اليوم، وتحلل جذور المشكلات التي يعانون منها. وقد قام المؤلف بتشخيص خطر الانحراف الذي =

يفسّر رأي أخيه في الاهتمام بجانب العقيدة ـ :

«لقد كان العمل الذي قام به حسن البنا عملاً ضخماً يشبه أن يكون إعادة بناء أمة . . .

لقد كان حال هذه الأمة كجدار يريد أن ينقضّ . . . فأقامه[1] . . .

ولكن هذا البناء الضخم الذي أقامه كان يشتمل على ثغرات تعطي تأثيراتها بصور شتى في خط السير . . . وأغلب الظن أن هذه الثغرات لم تكن بادية للبنا العظيم في بداية السير، إلا أنها بدت له واضحة فيما بعد قبيل مقتله ـ كما سيجيء ـ وإن كان لم يمهل لترسيخها في قلوب أتباعه.

* كانت الثغرة الأولى: الاستعجال في التجميع الجماهيري قبل موعده الذي ينبغي أن يجيء فيه[2] . . .

* وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع قبل أن يتمّ بناء

= أصاب المجتمع الإسلامي، وبدأ الهبوط به عن الذروة العليا التي كان عليها جيل الصحابة والخلفاء الراشدين. ثم حلّل آثار هذا الانحراف الذي طرأ على المجتمع الإسلامي.

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن الصحوة الإسلامية المعاصرة بما تشكله من آمال كبار، وما يعترض طريقها من مشكلات إلى أن ينتهي بنظرة إلى المستقبل. كل ذلك في عرض مفصّل شيّق، وبأسلوب رصين معتدل. وهو، وإن فصل بحكم المعايشة في تجربة مصر في هذا المجال، إلا أن ما ينطبق على مصر ينطبق على كثير من البلدان العربية والإسلامية سواء على الصعيد الإسلامي أو على الصعيد العلماني. ويقع هذا الكتاب النفيس في خمسة فصول . . .».

(١) واقعنا المعاصر (ص ٤١٠).

(٢) المصدر المذكور (ص ٤١١).

الأعمدة الراسخة بالمواصفات المطلوبة، حدث التعجل بالتحرك قبل الأوان المناسب، سواء في الساحة الداخلية، أو في ساحة المعركة في فلسطين[1].

* وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع، وفي التحرّك بهذه الجماهير قبل الأوان المناسب، حدث كذلك في عملية البناء ذاتها. فلم تبدأ من نقطة البدء اللازمة، بل تجاوزتها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب...

لقد اعتبرت قضية العقيدة قضية بديهية، وقضية منتهية... وكان هذا... مبالغة في إحسان الظن، وأثبتت الأيام فيما بعد أنه في حاجة إلى مراجعة شديدة. وأن نقطة البدء كان ينبغي أن تكون هي تصحيح العقيدة ذاتها، وجلاء مفهومها الحقيقي الذي غاب عن الجماهير، بل غاب عن كثير[2] من الدعاة أنفسهم في غربة الإسلام الثانية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ حين قال:

«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء»[3].

منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله:

وصل الأستاذ محمد قطب بهذا التحليل المرحلي الدقيق، والنظر الواسع العميق في دعوة الإخوان، إلى أهمية العقيدة، وترسيخها في أذهان الشباب أولاً وقبل كل شيء، بحيث تُدَكُّ قاعدتُها دكاً متيناً، لا يتأثر برواسب البيئة وعواصفها وتقاليدها وعاداتها.

---

(١) المصدر المذكور (ص ٤١٧).

(٢) وما أمر التلمساني والغزالي وسعيد حوى ومحمد حامد أبو النصر وغيرهم عنكم ببعيد.

(٣) واقعنا المعاصر (ص ٤١٩).

وهذه هي «نقطة البدء اللازمة» في الدعوة، ولا يجوز تجاوزها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب ظناً بأن المجتمع مسلم لا يحتاج إلى مراجعة في عقيدته. وهذا هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى.

ومن هنا نرى أن الهدف الأساسي لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية هو تنقية العقيدة الإسلامية من رواسب البيئة، وتهويلات أهل البدع والأهواء، حتى تبقى واضحة نقية طبق الكتاب والسنّة، كما كانت في عهد الإسلام الزاهر.

ولا يمكن إعادة مجد المسلمين المفقود، واسترداد حقوقهم المغصوبة في مشارق الأرض ومغاربها إلا بالعودة إلى الكتاب والسنّة عقيدة وعملاً، ومنهجاً وسلوكاً.

مقارنة بين حسن البنا وشيخ الإسلام:

تقدم أن الحركات كلها تقارن بين مؤسسها وبين شيخ الإسلام في مجال العمل الإسلامي، لأنه أقوى شخصية في ساحة الدعوة الإسلامية، فإذا نجحت أي حركة أو جماعة في إبراز أعمال قائدها على مآثر ابن تيمية، نجحت ـ في زعمها ـ في إقناع أتباعها أن قائدها ليس بأقل تأثيراً في المجتمع المسلم، أو أقل إصلاحاً وتجديداً في شؤون الأمة من ابن تيمية.

ومن هذا الباب قام الأستاذ عمر التلمساني (المرشد العام للإخوان بمصر سابقاً) أيضاً بالمقارنة بين حسن البنا وشيخ الإسلام في كتابه: «هكذا علّمني الإخوان المسلمون»، فقال:

* ـ ولئن كان الإمام المجاهد ابن تيمية وتلامذته قد أدّوا إلى الفقه

الإسلامي وتوضيح مناهج السلف ما يعدّ غرة في جبين الفقه الإسلامي[1].

* ــ ولئن كانوا قد سجنوا، وعذّبوا في سبيل التمسّك برأيهم الصحيح.

* ــ ولئن كانوا قد جاهدوا في سبيل الله بالسيف والمزراق فعلاً.

* ــ ولئن كانت مدرستهم التي لا تنكر[2].

* ــ ولئن كنا نحن «الإخوان المسلمين» نعتبرهم أساتذة لنا.

إلا أنني أقرر ــ وأنا كامل الإيمان والصدق ــ أن مدرسة الإمام الشهيد حسن البنا، كانت أعمق أثراً، وأبعد فاعليةً في نفوس شباب المسلمين[3].

وذلك لأن مدرسة الإمام ابن تيمية أخرجت فقهاء وعلماء حقاً. ولكن مدرسة البنا أخرجت مجاهدين في ميادين القتال، ومثلاً في مواقف النضال[4].

---

(١) سجّل التلمساني هذا الاعتراف على نفسه. وتقدم أنه كم خالف منهج السلف في التوسل، وشدّ الرحال، والدعاء والصلاة عند قبور الصالحين ومقاماتهم كما تقدم.

(٢) وهذا تمهيد من التلمساني لتنكّره إياها، كما سيأتي في كلامه نفسه.

(٣) قال الشاعر:

عيــن الــرضــا عــن كــل عيــب كليلــة ... ولكنّ عين السخط تبدي المساويا

(٤) قال الأستاذ محمد قطب: «... والذين يستطيلون الطريق ينبغي أن يأخذوا عبرة التجربة، سواء كانت التجربة هي مذبحة حماة، أو كانت هي التجربة «السياسية» في السودان. فإذا كنا لا نعتبر بالأحداث. فذلك في ذاته دليل على نقص في تربيتنا يحتاج إلى علاج!» (واقعنا المعاصر ص ٤٩٧). =

كما أن مدرسة ابن تيمية اقتصرت على المحيط الإسلامي في منطقة الشرق الأوسط، وبعض البلاد الإسلامية المتنائية، بينما بسطت مدرسة البنا تعاليمها على أرض القارات الخمس التي تكون هذه البسيطة ـ التي يحيا عليها البشر أيامنا هذه. . .»[1].

ثم برر الأستاذ التلمساني موقفه من هذه المقارنة قائلاً:

«لا أقول هذا انتقاصاً لفضل ابن تيمية ومدرسته على المسلمين فما ينكر ذلك إلا جاحد، ولا يماري فيه إلا معاند، وأعوذ بالله من أن يكون مسلم من بين هؤلاء.

ففضل ابن تيمية فوق مستوى شبهات الممترين[2] ولكني أقوله تقريراً لحقيقة تكابر فيها القلوب الضالّة المركوزة بين حنايا الصدور[3].

وأعتذر إلى الإمام ابن تيمية ومدرسته وتلامذته قسوا كثيراً على معارضيهم في الرأي، وتناولوهم بألفاظ مرة قاسية[4].

= وقال أيضاً: «فالصدام مع السلطة قبل وجود القاعدة المسلمة الواعية المجاهدة عمليات انتحارية لا طائل وراءها إلا إعطاء الطغاة حجة لتقتيل المسلمين وتذبيحهم. . .» (واقعنا المعاصر ص ٤٧٥).

(١) هكذا علّمني الإخوان المسلمون (٣ ــ ٤).

(٢) ولكن العجيب أن التلمساني يرميه بما ليس فيه، من القسوة والجور على مخالفيه، وكيف يكون هذا، ولم يكن ذا منصب في الدولة. بل هو نفسه أوذي بما لا مزيد عليه؟!.

(٣) قال الشاعر:

فما كل ذي لبّ بمؤتيك نصحه ... ولا كلُّ مُوتٍ نصحه بلبيب

(٤) ستأتي حقيقة قساوتهم. وإن سلّمناها فإنهم لم يغتالوا أحداً من مخالفيهم في الرأي أبداً، كما حدث في صفوف الإخوان.

وهو الأمر الذي حرص الإمام الشهيد على الابتعاد عنه، والنفور منه. . . فكان الصابر على الأذى، الغافر لمن أساء واعتدى.

وهناك أيضاً أمر آخر لا دخل[١] فيه للرجلين: ابن تيمية وحسن البنا. ففي عهد ابن تيمية كانت أجهزة الإعلام محدودة، فلم يحظ ابن تيمية بما حظي به حسن البنا في حياته من شهرة، وذياع صيت، ونباهة ذكر في كل أنحاء العالم الإسلامي. . . وللرجلين عندنا المكانة العليا»[٢].

هكذا تنتهي هذه المقارنة بما فيها من مبالغة في الوصف، وإطراء في الثناء. ولكل حق أن يثني على قائده بما يشاء وكيف يشاء. وهذا هو الأسلوب المعاصر للدعاية. ولكن إذا كان الثناء على أحد، على حساب الآخر، قد يضطر إلى مناقشة الأمر، ورده إلى الحق إنزالاً للناس منازلهم.

ومن هذه الناحية أرى أن محتويات هذه المقارنة تحتاج إلى بعض الملاحظات التي تتلخص في النقاط التالية:

مدرسة ابن تيمية جامعة بين العقيدة والفقه والجهاد:

معروف أن شيخ الإسلام ابن تيمية من العلماء الذين جاهدوا بالقلم والبيان، والسيف والسنان. ولم يكن في زمانهم لدحر الأعداء وقهرهم إلا «السيف والمزراق» فكيف يستعملون الصواريخ، والدبابات، والقنابل، والأسلحة المدمّرة الأخرى.

والمهم أن شيخ الإسلام وتلامذته لم يقصّروا في إعلاء كلمة الله

---

(١) إذا كان الأمر كذلك، فما الفائدة من هذه المقارنة اللهم إلا تسلية «الإخوان»؟.

(٢) «هكذا علّمني الإخوان المسلمون» (٤ ــ باختصار).

بالجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين. وكان لجهود ابن تيمية أثر كبير في الانتصار على التتار الوحوش في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ.

وإنجازات شيخ الإسلام في هذا المجال غير خافية على طلبة التاريخ[١]. وإخفاؤها بذكر «السيف والمزراق» عند المقارنة بينه وبين حسن البنا، لإبراز خططه الجهادية على ما حققه ابن تيمية فعلاً، ليس من الأمانة والتحقيق في شيء.

قال الأستاذ المودودي بعد أن ذكر عمل ابن تيمية التجديدي: «مضافاً إلى هذا العمل التجديدي جاهد بالسيف هجمية التتر ووحشيتهم.

كانت بلاد مصر والشام عند ذلك بمفازة من هذا السيل، فنفث الإمام في قلوب الرؤساء وعامة المسلمين هناك روح الغيرة والحمية والحماس وحرّضهم على مقاومة أولئك. وقد شهد معاصرو الإمام أن المسلمين كان بلغ منهم الخوف والفزع من التتر أن كانوا يرتعشون لمجرد ما يسمعون ذكرهم، وكانوا يحجمون عن لقائهم خوفاً وذعراً، كأنما يساقون إلى الموت.

ولكن ابن تيمية أيقظ فيهم روح الشجاعة والاستبسال بما بث في قلوبهم من التحمس وحب الجهاد»[٢].

لو لم يكن لابن تيمية إلا هذا الموقف البطولي المشرّف الوحيد في تاريخ كفاحه المسلح ضد الأخطار الخارجية والداخلية، لكفاه عزاً وفخراً

---

(١) راجع مبحث «الدعوة للإصلاح السياسي» في الباب الأول من هذا الكتاب. و«البداية والنهاية» (١٤/٧ ـ ٣٥)، والفكر التربوي (ص ٥٥).

(٢) موجز تاريخ تجديد الدين (ص ٧٩).

وخلوداً في تاريخ أبطال الإسلام، فكيف وقد سجّل له التاريخ مواقف في ساحات القتال، وميادين النضال.

فهل تنسى مآثر شيخ الإسلام وتلاميذه في ميدان الجهاد. لا، وألف لا.

وإن سكتوا أثنت عليك الحقائب

وكذلك لا ينسى ما «ينقل التاريخ المعاصر من بطولات حافلة سطّرها شباب الإخوان على قناة السويس لمقارعة وقضّ مضاجع الاستعمار الإنجليزي اللعين. وكذلك خاضت كتائب الإخوان حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، وأبلوا بلاء حسناً. فتراب صور باهر، وبيت سوريك يشهد لهم بذلك.

وفي أمسنا القريب لقنوا الصهاينة دروساً قاسية، وإن كانوا تحت راية علمانية»[١].

وإن قال الأستاذ محمد قطب:

«... حدث التعجل بالتحرك قبل الأوان المناسب سواء في الساحة الداخلية أو في ساحة المعركة في فلسطين...

وأما في فلسطين، فلقد كان دخول الفدائيين من الإخوان المسلمين في ساحة المعركة قدراً مقدوراً دون شك... ولكن هذا الحدث كان له أثر بالغ في سير الأحداث كلها فيما بعد. وما قدّره الله لا بد أن يتم، ولكن كتاب الله علمنا أن قدر الله لا ينفي دور البشر ومسؤولياتهم:

---

(١) الجماعات الإسلامية (ص ٩٨) بتصرف يسير.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥ ـ ١٦٦].

وليس لدي الآن ما يثبت أن الإمام الشهيد قد اتخذ قرار دخول الفدائيين فلسطين بمحض رغبته، أم بضغط الشباب وإلحالهم عليه. . .

ولكني أحسب أن ما سبق من اشتراك الجماعة في القضايا السياسية المثارة على الساحة، هو الذي جعل دخول الإخوان المعركة في فلسطين هو الأمر «الواجب»، سواء كان قائد الجماعة مقتنعاً بجدواه أم غير مقتنع. فما دامت الجماعة قد شاركت في الأحداث من قبل، وهي تنادي بالجهاد والفداء، فإن قعودها عن دخول المعركة كان يعد بالنسبة إليها نكوصاً عن المبادىء التي أعلنَتْها من قبل، ودعت إليها الجماهير. . .»[1].

وإن قال الأستاذ محمد قطب أيضاً:

«فالصدام مع السلطة قبل وجود القاعدة المسلمة الواعية المجاهدة عمليات انتحارية، لا طائل وراءها إلا إعطاء الطغاة حجة لتقتيل المسلمين وتذبيحهم. . .»[2].

وإن قيل هذا وذاك، ولكن الحق ـ والحق يقال ـ أن للإخوان فضلاً كبيراً في مجال الجهاد.

وهذا لا يعني أن يقلِّل شأنُ مدرسة ابن تيمية العملاقة التي تجمع بين

---

(١) واقعنا المعاصر (٤١٧ ـ ٤١٨).

(٢) المصدر المذكور (٤٧٥).

العقيدة والفقه والجهاد على السواء، بمثل هذه المقارنة المسلية للقلوب المركوزة بين حنايا الصدور.

شمول مدرسة ابن تيمية القارات الخمس:

وصلت دعوة شيخ الإسلام إلى القارات الخمس الآن ــ وإن لم تصل إليها في حياته ــ وعمَّت مشارق الأرض ومغاربها بواسطة دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب التي هي امتداد لدعوته، قبل أن يكون حسن البنا، ــ فضلاً أن تكون له دعوة أو مدرسة ــ بقرون.

وكانت مدرسة ابن تيمية ذات أثر عميق في أوساط العلماء من أول يومها ــ وفرضت هيمنتها العقدية والفقهية والجهادية على المخالفين قبل الموافقين. واعتبرت شخصيته ميزاناً لمعرفة الخطأ والصواب فيما بعده من العصور. وكان علماء البلاد يُعْرَفون باتجاهاتهم بالميل إليه، أو الميل عنه، حتى بدأ يذكر هذا الوصف في تراجمهم، فيقال:

«كان من المائلين إلى ابن تيمية، أو المائلين عنه»[1].

أما الاستعجال في التجميع الجماهيري، والاغترار به هو الثغرة الأولى في دعوة الإخوان، ولو كان الخير يتحقق من هذه الكثرة، ما حجبها الله عزّ وجلّ من نبيّه ﷺ في مكة خلال ثلاثة عشر عاماً إلا قلة محدودة، ولكنهم كانوا هم الأعمدة الراسية. فإذا عدنا إلى جماعة الإخوان نجد أن الأفواج من الناس دخلوا فيها بدون أن يدك الأساس المتين بالقدر المطلوب، وأن تقام الأعمدة التي تحمل البناء على المواصفات المطلوبة[2].

---

(١) طلب العلم وطبقات المتعلمين للشوكاني (ص ١٤).

(٢) واقعنا المعاصر (٤١١ ــ ٤١٦).

نظراً إلى هذه الأمور الاغترار بأن مدرسة حسن البنا كانت أعمق أثراً، وأبعد فاعليةً في نفوس الشباب، وأخرجت مجاهدين في ميادين القتال، وبسطت تعاليمها على أرض القارات الخمس ـ دون دك الأساس المتين للعقيدة الإسلامية ـ لا يجعل الإخوان على مستوى الأحداث.

قال الأستاذ محمد قطب:

«ومن لم يدخل من باب العقيدة... من باب لا إله إلا الله (على حقيقتها الربانية)... فيظل «يتفرج» على الإسلام، وعلى الحلول الإسلامية دون أن يدخل المعمعة... دون أن يخوض المعركة الضارية التي تقيمها الجاهلية المعاصرة ضد الإسلام، وتفرض على المسلمين أن يخوضوها إن لم يكن اليوم فغداً»[1].

صبر ابن تيمية على الأذى وقساوة خصومه:

جنَّد شيخ الإسلام كل قواه العلمية والدعوية للقضاء على الفساد المستشري في عصره، في العقائد، والأحكام. وقام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يحاب في ذلك حاكماً ولا سلطاناً، ولا قاضياً ولا فقيهاً. ولم يخف في الله لومة لائم، وكشف نوايا الرافضة والصوفية، وفضحهم في كتاباته. وساعده على إكمال دعوته تلاميذه البررة، وشاركوه في السراء والضرّاء.

فإن قيل: «إن ابن تيمية وتلامذته قسوا كثيراً على مخالفيهم في الرأي وتناولوهم بألفاظ قاسية مرة» ـ فقد كان مخالفوهم أشد ضراوة منهم، ولا يرقبون فيهم إلاّ ولا ذمة. وزجّوا في السجون والمعتقلات بمؤامرات أهل البدع والأهواء وتواطؤ قضاة الدولة وفقهائها.

---

(١) المصدر المذكور (٤٧٤).

أما صبره على الأذى، وعفوه عمن أساء إليه واعتدى فهو مضرب المثل. قال الدكتور ماجد الكيلاني بعدما ذكر اعتراضات ابن تيمية على صوفية زمانه، مبرراً موقفه منهم، ومن غيرهم من أهل الأهواء:

«والواقع أن ابن تيمية لم يكن وحيداً في ممارسة هذا النقد. فلقد كان من الشائع بين الفقهاء والعلماء، ومشايخ التصوف انتقاد بعضهم البعض، والنيل من بعضهم البعض بلهجات أقسى، وتجريح أشد بسبب التفكير المذهبي الذي ساد. ولعل ابن تيمية كان أكثرهم اعتدالاً في نقده، وعفّة في لسانه، وعدالة في أسلوبه»[1].

وقال الدكتور محمد الجليند:

«مع شجاعة ابن تيمية في الحق فقد كان حليماً حيث يكون الحلم عزاً يشرف صاحبه، عفوّاً حيث يكون العفو من شيم العلماء، فقد استحثه الملك محمد بن قلاوون على أن يستصدر فتوى بقتل العلماء الذين تكرر منهم الإفتاء بحبسه، وكان الفقهاء والقضاة قد ناصروا أعداءه عليه. فأراد أن يستغل الموقف، ويستفتي ابن تيمية في قتلهم، ولكن حلم الرجل وعفوه قد منعاه من ذلك، وأبت عليه نفسه الشجاعة أن يقتنصها فرصة لقتل العلماء. فقد قال للسلطان: «من آذاني فهو في حل مني، ومن آذى الله ورسوله، فالله ينتقم منه، وأنت إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم»[2].

---

(١) الفكر التربوي (ص ٦٤). وراجع «البداية والنهاية» (١٣/٣٠٨، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٠؛ ١٤/٣٥ ــ ٤٥).

(٢) دقائق التفسير لابن تيمية (١/ ٣٥ ــ المقدمة)، وراجع «البداية والنهاية» (١٤/ ٥٤) حوادث سنة ٧٠٥هـ.

هذا موقف من مواقف ابن تيمية الرزينة من خصومه الألدّاء في الدعوة إلى محض الكتاب والسنّة على منهج السلف الصالح. وقد تأثر القاضي ابن مخلوف المالكي أحد خصومه، بموقفه هذا العاقل الصابر الحكيم فقال:

«ما رأينا أتقى من ابن تيمية. لم نُبْقِ ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا»[1].

هل من الإنصاف ـ بعد هذا البيان ـ أن يقول التلمساني: «... إلا أن ابن تيمية وتلامذته قسوا كثيراً على معارضيهم في الرأي، وتناولوهم بألفاظ مرة قاسية. وهو الأمر الذي حرص الإمام الشهيد على الابتعاد عنه، والنفور منه...».

نعم! مهما بلغ بهم القسوة، ولكنهم لم يتجرّأوا أبداً على إهدار دماء مخالفيهم، كما حدث في صفوف الإخوان عندما قاموا ببعض الاغتيالات السياسية ضد خصومهم، الأمر الذي دفع أعداءهم على الانتقام من الأستاذ البنا نفسه، الذي كان مرشداً لهم ومربياً، بغض النظر عما حدث من الاغتيالات الأخرى، وكانت برضاه أم بدونه فصار ـ رحمه الله تعالى ـ هو الضحية لتصرفات أتباعه الخاطئة.

ما كان ينبغي لرجل مسؤول مثل الأستاذ التلمساني المرشد العام للإخوان سابقاً، أن يرمي ابن تيمية وتلامذته بالقسوة، وينسى أو يتناسى هذه الحقائق التاريخية كلها. ويقوم بهذه المقارنة السمجة بين ابن تيمية والبنا ـ رحمهما الله ـ تسليةً وشفاءً.

---

(١) العقود الدرية (ص ٢٨٣). وراجع «ابتلاءاته» في الباب الأول من هذا الكتاب.

شهرة ابن تيمية في السابقين واللاحقين :

لا ريب أن وسائل الإعلام المعاصرة من الإذاعة والتلفاز والصحف وضعت العالم كله تحت وطأة الأسماع والأبصار.

وكذلك وسائل النقل المتطورة طوت مسافة شهر في ساعة أو ساعتين، وهي لم تستحدث في هذه الصورة المتقدمة إلا في العصر الحديث. وقد خلت ثلاثة عشر قرناً منذ زمن النبيّ ﷺ إلى الماضي القريب، من هذه الوسائل الإعلامية والسفرية المستحدثة المتطورة.

فالمقارنة بهذه الناحية، بين رجل عاش في هذا القرن العلمي المتقدم وبين رجل عاش في القرن الثامن مقارنة لا معنى لها، اللهم إلا تسلية «القلوب الضالة المركوزة في حنايا الصدور»[١]، وتنويم «الأتباع» على أن مرشدهم أفضل من ابن تيمية، لأنه استفاد من الإعلام المتطور المعاصر.

وإذا جازت هذه المقارنة، جاز أن يقارن بين الرعيل الأول من هذه الأمة، ومن بعدهم من التابعين، ومن يليهم من مشاهير أئمة الحديث والفقه والتفسير، وأصحاب دواوين السنّة، ومن بعدهم من نوابغ الإسلام، وبين رجل من القرن العشرين بأنه أشهر من المتقدمين الأوائل، لأنه وجد في عصر أجهزة الإعلام الحديثة.

حقيقة لا يجادل فيها إلا مكابر أنه لا يلزم من وجود الإنسان في عصر الإعلام المتقدم أن يكون أشهر صيتاً، وأنبه ذكراً من نوابغ الإسلام الأوائل لأن المشاهير من علماء الأمصار قد عرفوا بأعمالهم وآثارهم ومآثرهم في عصورهم وما يليها من القرون المتلاحقة، حتى جاء هذا العصر الإعلامي

---

(١) على قول التلمساني المتقدم آنفاً.

المتطور، فحظوا أيضاً بما حظي به عالم هذا العصر المتقدم، من شهرة، وذياع صيت، ونباهة ذكر، ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته ـ رحمهم الله تعالى ـ .

فقد طبعت كتبهم في المطابع الحديثة ما يفرح به المؤمنون، ويغيظ به الخصوم. ووزّعت مئات الألوف في مشارق الأرض ومغاربها، ووصلت إلى القارات الخمس بواسطة الدعاة إلى الله، وحجاج بيت الله الحرام. وأدخلت في مناهج المعاهد، والكليات، والجامعات، فاستفاد منها القاصي والداني من العامة والخاصة من الناس.

فأي فضل لمتأخر على متقدم، وقد اشترك الجميع في الاستفادة من أجهزة الإعلام المتطورة المعاصرة.

وما معنى قول التلمساني: «هناك أيضاً أمر آخر، لا دخل فيه للرجلين: ابن تيمية، وحسن البنا. ففي عهد ابن تيمية كانت أجهزة الإعلام محدودة، فلم يحظ ابن تيمية بما حظي به حسن البنا في حياته من شهرة، وذياع صيت، ونباهة ذكر في كل أنحاء العالم الإسلامي...» ـ إلا إبراز قيادة البنا، والتغطية على جهود ابن تيمية الجبارة في مجال الدعوة إلى الله، التي تبقى منار الهدى، ونبراس الحق إلى ما شاء الله. فإلى الله المشتكى.

شكوت وما الشكوى لمثلي عادةٌ ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

• • •

انتهى الجزء الأول ويليه:

الجزء الثاني وأوله:

الباب الرابع

الاتجاهات المناهضة لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية

* * *

الباب الرابع

الاتجـاهات المناهضة

لدعوة شيخ الإسلام ابن تيميّة

شبه ردّ عـلى

«التوفيق الرباني» و«الرسائل السبكية»

و«الـكـلابـيـة» و «النصيحـة الـذهبية»

الباب الرابع

الاتجاهات المناهضة لدعوة شيخ الإسلام

لقد أحدثت دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ انقلاباً فكرياً هائلاً في عصره المليء بالاتجاهات المنحرفة. وأدّت كتاباته القيّمة وآراؤه الصائبة دوراً فعالاً في إزالة الركام الهائل من المغالطات والتهويلات، والبدع والانحرافات في أمور العقائد والأحكام على السواء. وأثمرت جهوده في الإصلاح والتجديد، والدعوة والإرشاد، ورزقها الله تعالى قبولاً حسناً بين المسلمين. فشكروها لخلّوها من رواسب الجمود والركود، والتعصب والتحيّز، والأنانية وحب الذات، ولاحتوائها على براعة الاستدلال المباشر بالكتاب والسنّة على منهج السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم.

«فدوى صوته بآرائه في مجتمعه، فتقبّلتْها عقول واستساغتها، وضاقت عنها أخرى وردّتْها. وانبرى لمنازلته المخالفون، وشدّ أزره الموافقون. وهو في الجمعين يصول ويجول، ويجادل ويناضل، والعامة من وراء الفريقين قد سيطر عليهم الإعجاب بشخصه وبيانه، وقوة جنانه وحدة لسانه، واعترتْهم الدهشة لما يجيء به من آراء يجدد بها أمر هذه الأمة، ويعيد إليها دينها غضاً قشيباً كما ابتدأ»[1].

---

(١) ابن تيمية حياته وعصره وآراؤه الفقهية لمحمد أبو زهرة (٣ ـ ٤) دار الفكر العربي.

وقال الإمام الشوكاني:

«وجعل الله له من ارتفاع الصيت، وبعد الشهرة ما لم يكن لأحد من أهل عصره حتى اختلف من جاء بعد عصره في شأنه، واشتغلوا بأمره، فعاداه قوم وخالفه آخرون. والكل معترفون بقدره، معظمون له، خاضعون لعلومه. واشتهر هذا بينهم غاية الاشتهار، حتى ذكره المترجمون لهم في تراجمهم، فيقولون: «وكان من المائلين إلى ابن تيمية، أو المائلين عنه»[1].

وقال أيضاً:

«وهذه قاعدة مطّردة في كل عالم متبحّر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره ويدين بالكتاب والسنّة. فإنه لا بد أن يستنكره المقصرون، ويقع له معهم محنة بعد محنة. ثم يكون أمره الأعلى، وقوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين، ويكون لعلمه حظّ لا يكون لغيره.

وهكذا حال هذا الإمام، فإنه بعد موته عرف الناس مقداره، واتفقت الألسن بالثناء عليه إلا من لا يعتدّ به. وطارت مصنّفاته واشتهرت مقالاته»[2].

دعوة شيخ الإسلام في مواجهة الانحراف:

«جرت الطبيعة البشرية على أن كل من علا نجمه، واشتهر فضله، كثر حسّاده وكثر الناقمون عليه، وما أكثر حساد ابن تيمية! وما أكثر الناقمين

---

(١) «طلب العلم وطبقات المتعلمين» للشوكاني (ص ١٤) دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للشوكاني (١/ ٦٥) مطبعة السعادة ١٣٤٨هـ.

عليه! فإن لسان الرجل وقلمه لم يجعلا له من صديق، لأنه لم يدار أحداً، ولم يعرف النفاق إلى قلبه سبيلاً».

«ومن هنا فقد ناصب العداء لكل ذي بدعة على اختلاف مشاربها، فتعرّض بالنقد والتمحيص لمذاهب الفلاسفة، والباطنية، والشيعة، والصوفية، والقرامطة، والإسماعيلية. وكشف أستار هؤلاء وأولئك. وانتصر للحق ولدينه منهم جميعاً»[1].

إن الانتقادات الهادفة التي وجهها شيخ الإسلام إلى مواطن الضعف في مجتمعه المعاصر، أسهمت في إثارة المذاهب الفقهية، وإثارة الفرق المنحرفة على السواء.

فحيكت ضده المؤامرات، ورمي بما ليس فيه. ولم يتأخر قضاة الدولة وفقهاؤها من استغلال مناصبهم في الوشاية به إلى الحكام، ثم زجّهم إياه في السجون والمعتقلات، لأنهم ما كانوا يستطيعون مخالفة شيخ الإسلام بأقوالهم وآرائهم في ضوء الأدلة الواضحة من الكتاب والسنّة:

إن العرانين تلقّاها محسدة ولم تجد للئامِ الناسِ حُسّادا

الالتزام بأدلة الكتاب والسنّة:

استقلّ شيخ الإسلام في تفكيره بالالتزام بأي مذهب معين، واتّبع منهج السلف الصالح في العقائد والأحكام المبنية على أدلة الكتاب والسنّة.

وناقش شيخ الإسلام ظاهرة التقليد مناقشة علمية فقال:

«لا يخلو أمر الداعي من أمرين:

---

(١) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية (١/ ٣٤، ٣٥ ــ ٣٦ ــ مقدمة الجامع محمد الجليند) دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ.

الأول: أن يكون مجتهداً أو مقلّداً.

فالمجتهد ينظر في تصانيف المتقدمين من القرون الثلاثة، ثم يرجح ما ينبغي ترجيحه.

والثاني: المقلد، فيقلّد السلف. إذ القرون المتقدمة أفضل مما بعدها»[1].

وقال أيضاً:

«واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوماً في كل ما يأمر به وينهى عنه إلا رسول الله ﷺ. ولهذا قال غير واحد من الأئمة:

«كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ» وهؤلاء الأئمة الأربعة ــ رضي الله عنهم ــ قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولونه وذلك هو الواجب عليهم...»[2].

الاتهامات بين الحقيقة والرواية:

انطلاقاً من اتباع الدليل، قد يخالف شيخ الإسلام ما هو مألوف في بعض المذاهب الفقهية، ويدفعه اجتهاده إلى اختيار ما هو أوفق للكتاب والسنّة. ويرد على بعض الاعتقادات السائدة في أوساط المسلمين، التي هي خلاف الدليل.

ومن هنا نرى أن الاتهامات التي وجهت إلى شيخ الإسلام تختلف باختلاف مفتريها. وإليكم الآن بيان بعض أهم الأمور التي استغلها أعداؤه للنيل من كرامته، ولأجلها زجّ في السجون والمعتقلات مرة تلو الأخرى:

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٠/ ٩).

(٢) المصدر المذكور (٢٠/ ٢١٠ ــ ٢١١).

قضية شدّ الرحال
إلى غير المساجد الثلاثة



قضية شدّ الرحال

إلى غير المساجد الثلاثة

لما تطرّقت البدع إلى أوساط المسلمين، وبدأوا يعتقدون في المشاهد والقبور، والأضرحة والمزارات ما لم ينزل الله به سلطاناً، من شد الرحال إليها والاستغاثة بأهلها، صارت هذه القضية مفروغاً من الكلام فيها عند العلماء فضلاً عن العامة من الناس، واعتبرت من القضايا الحسّاسة، التي تستغلّ لإثارة غضب الجماهير ضد من يرد عليها.

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أشرب قلبه بالإيمان الصافي من أكدار الفلسفة والتصوف وبالعقيدة السليمة من نواقض التوحيد الخالص، متى كان يتقاعس عن إحقاق الحق، وإبطال الباطل؟ ومتى كان يخاف في الله لومة لائم؟ ومتى سكت عن منكر رآه؟.

فقد سئل شيخ الإسلام عن شدّ الرحال إلى غير المساجد الثلاثة حينما كان في القاهرة، فردّ عليه رداً مستنبطاً من الكتاب والسنّة، ونهى عنه استدلالاً بحديث:

«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[١].

---

(١) البخاري (٣/ ٦٣)، ومسلم (رقم ١٣٩٧) عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ .

مؤامرة وتحـريـف:

فاستغل هذه الفتيا القاضي المالكي تقي الدين محمد بن أبي بكر الإخنائي (ـ ٧٥٠هـ) ضد شيخ الإسلام استغلالاً مغرضاً سنة ست وعشرين وسبعمائة، وزاد فيها ونقص، ورماه بالتنقيص بمنزلة النبيّ ﷺ، وحرّض السلطان عليه تقرّباً إليه، وكسباً لعواطف العامة من الناس أيضاً. وألّف رسالة أسماها «المقالة المرضيّة في الرد على من ينكر الزيارة المحمدية» لقد أشار الشيخ محمد بن عبد الهادي إلى هذا التحريف فقال:

«الحمد لله رب العالمين. أما بعد:

فهذه فتيا أفتى بها شيخ الإسلام... ثم بعد مدة نحو سبع عشرة سنة أنكرها بعض الناس، وشنّع بها جماعة عند بعض ولاة الأمور، وذكرت بعبارات شنيعة. ففهم منها جماعة غير ما هي عليه، وانضم إلى الإنكار والشناعة وتغيّر الألفاظ أمور أوجب ذلك كله مكاتبة السلطان... فجمع قضاة بلده، ثم اقتضى الرأي بحبسه. فحبس بقلعة دمشق المحروسة، بكتابٍ وَرَدَ سابع شعبان المبارك سنة ست وعشرين وسبعمائة.

وفي ذلك كله لم يحضر الشيخ المذكور بمجلس حكم، ولا وقف على خطه الذي أنكر، ولا ادعي عليه بشيء...»[1].

بيان شيخ الإسلام ما حدث في قضية شدّ الرحال:

كتب شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه ما حدث في قضية «شدّ الرحال» في كتابه «الرد على الإخنائي، واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية» فقال:

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٧/ ١٨٢).

«قد أرسل إليّ بعض أصحابنا جزءاً، أخبر أنه صنّفه بعض القضاة، قد تكلم في المسألة التي انتشر الكلام فيها، وهي السفر إلى غير المساجد الثلاثة ــ كالسفر إلى زيارة القبور ــ هل هو محرم، أو مباح، أو مستحب؟ وهي المسألة التي أجبت فيها من مدة بضع عشرة سنة بالقاهرة. فأظهر بعض الناس في هذا الوقت:

ظناً أن الذي فيها خلاف الإجماع، وأن السفر لمجرد قبور الأنبياء والصالحين هو مثل السفر المستحب بلا نزاع: هو السفر إلى مسجد نبيّنا محمد ﷺ المتضمّن لما شرعه الله من السفر إلى مسجده، والصلاة فيه، والسلام عليه. . .

فظنّ من ظنّ أن السفر المشروع هو لمجرد القبر، لا لأجل المسجد، وأن المسجد يدخل ضمناً وتبعاً في السفر، وأن قبور سائر الأنبياء كذلك، وأن المسافرين لمجرّد القبور سفرهم مشروع كالسفر إلى المساجد الثلاثة.

ومن الناس من ظنّ أنه أفضل من السفر إلى المساجد الثلاثة، حتى صرّحوا بأنه أفضل من الحج. . .

وظنّ من ظنّ هذا مجمع عليه، وأن من قال: السفر لغير المساجد الثلاثة ــ سواء كان لقبر نبيّ، أو غير نبيّ ــ منهي عنه، أو أنه مباح ليس بمستحب، فقد خالف الإجماع.

وليس معهم بما ظنوه نقل عن أحد من أئمة الدين، الذي لهم في الأمة لسان صدق، ولا حجة من كتاب الله ولا من سنّة رسوله. بل الكتاب والسنّة وإجماع السلف، والأئمة المشهورين وغيرهم على خلاف ما ظنوه. . .

لكن المقصود هنا أنه أرسل إليّ ما كتبه هذا القاضي، وأقسم بالله عليّ أن أكتب عليه شيئاً ليظهر للناس جهل مثل هؤلاء الذين يتكلمون في الدين بغير علم وذلك أنهم رأوا في كلامه من الجهل والكذب والضلال ما لا يظن أن يقع فيه آحاد العلماء الذين يعرفون ما يقولون، فكيف بمن سمّي قاضي القضاة؟!.

ورأيت كلامه يدلّ على أن عنده نوعاً من الدين كما عند كثير من الناس نوع من الدين، لكن مع جهل وسوء فهم وقلة علم، حتى قد يجهل دين الرسول الذي هو يؤمن به، ويكفّر من قال بقول الرسول، وصدّق خبره، وأطاع أمره...

نقل هذا المعترض عن الجواب ما ليس فيه، بل المعروف المتواتر عن المجيب في جميع كتبه وكلامه بخلافه.

وليس في الجواب ما يدلّ عليه، بل على نقيض ما قاله. وهذا إما أن يكون عن تعمّد للكذب، أو عن سوء فهم مقرون بسوء الظن وما تهوى الأنفس. وهذا أشبه الأمرين به...»[1].

قال المعترض:

«أما بعد: فإن العبد لما وقف على الكلام المنسوب لابن تيمية، المنقول عنه من نسخة فتياه، ظهر لي ــ من صريح ذلك القول وفحواه ــ مقصده السيء ومغزاه وهو تحريم زيارة قبور الأنبياء وسائر القبور، والسفر إليها، ودعواه أن ذلك معصية محرّمة مجمع عليها».

---

(١) الردّ على الإخنائي (٧ ــ ٩) تحقيق العلامة عبد الرحمن المعلمي. طبعة دار الإفتاء بالرياض ١٤٠٤هـ.

فيقال: هذا الكلام مع قلته فيه من الكذب الباطل والافتراء ما يلحق صاحبه بالكذابين مردودي الشهادة، أو الجهال البالغين في نقص الفهم والبلادة. وكان ينبغي له أن يحكي لفظ المجيب بعينه، ويبيّن ما فيه من الفساد، وإن ذكر معناه فيسلك طريق الهدى والسداد. فأما أن يذكر عنه ما ليس فيه، ولا يذكر ما فيه فهذا خروج عن الصدق والعدل إلى الكذب والظلم.

وذلك أن الجواب ليس فيه تحريم زيارة القبور البتّة، لا قبور الأنبياء والصالحين ولا غيرهم، ولا كان السؤال عن هذا. وإنما فيه الجواب عن السفر إلى القبور وذكر قولي العلماء في ذلك.

والمجيب قد عُرِفَت كتبه، وفتاواه مشحونة باستحباب زيارة القبور. بل كان يعتقد حين كتب هذا الجواب أن زيارة القبور مستحبة بالإجماع. ثم رأى بعد ذلك فيها نزاعاً، وهو نزاع مرجوح، والصحيح أنها مستحبة.

وهو في هذا الجواب إنما ذكر القولين في السفر إلى القبور، وذكر أحد القولين أن ذلك معصية، ولم يقل: «إن هذا معصية محرّمة مجمع عليها»، لكن قال:

إذا كان السفر إليها ليس للعلماء فيه إلا قولان:

- قول من يقول: إنها معصية.
- وقول من يقول: إنها ليس بمحرّم، بل لا فضيلة فيه، وليس بمستحب.

فإذن من اعتقد أن السفر لزيارة قبورهم أنه قربة وعبادة وطاعة فقد خالف الإجماع، وإذا سافر لاعتقاده أن ذلك طاعة، كان ذلك محرماً بالإجماع.

فهذا الإجماع حكاه، لأن علماء المسلمين الذين رأينا أقوالهم اختلفوا في قوله: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[1]. هل هو تحريم لذلك، أو نفي لفضيلة؟ على قولين.

وعامة المتقدمين على الأول، مع اتفاقهم على أن هذا يتناول السفر إلى القبور، ولكن طائفة من المتأخرين قالوا: ليس هذا نهياً، بل هو نفي لاستحباب السفر إلى غير الثلاثة، ونفي لوجوب السفر بالنذر إلى غير الثلاثة، وهؤلاء يقولون: إن الحديث عام في السفر إلى قبور الأنبياء، وآثارهم وغير ذلك»[2].

وقال المعترض القاضي الإخنائي أيضاً في شيخ الإسلام:

«حاد في دعواه عن الحق وما جاد، وجاهر بعداوة الأنبياء وأظهر لهم العناد...»[3].

وقال أيضاً:

«وتعرّض لتنقيص الأنبياء، وحطّ من مقادير الصحابة والأولياء. فلقد تجرأ بما ادعاه وقاله، على تنقيص الأنبياء لا محالة...»[4].

فردّ عليه شيخ الإسلام قائلاً:

«... وليس في كلام المجيب [ابن تيمية] إلا حكاية القولين في السفر

---

(١) تقدم تخريجه آنفاً.

(٢) الرد على الإخنائي (١٢ ـ ١٥).

(٣) المصدر المذكور (ص ٣٤).

(٤) المصدر المذكور (ص ١٩١).

لزيارة القبور فإذا قيل: إنه جاهر بالعداوة وأظهر العناد لأجل تحريم هذا السفر، كان كلّ من حرّمه مجاهراً للأنبياء بالعداوة، مظهراً لهم العناد.

ومعلوم أن مجاهرة الأنبياء بالعداوة، وإظهار العناد لهم غاية في الكفر، فيكون كل من نهى عن هذا السفر كافراً.

وقد نهى عن ذلك عامة أئمة المسلمين. وإمامه مالك صرّح بالنهي عن السفر لمن نذر أن يأتي قبر النبيّ ﷺ، مع أن النذر يوجب فعل الطاعة عنده، فلم يجعله مع النذر مباحاً، بل جعله محرّماً منهياً عنه...»[1].

وقال شيخ الإسلام أيضاً:

«كلام علماء المسلمين: مالك وغيره موجود في كتب كثيرة، فكفى بقاضٍ مالكي جهلاً وضلالاً أن يقول بكفر من قال بقول إمامه وأصحابه. بل كفى بمن قال ذلك جهلاً وضلالاً سواء كان مالكياً أو غير مالكي مع عظم قدر مالك بإجماع أهل الإسلام الخاص منهم والعام، بل لم يكن في وقته مثله...»[2].

وقال شيخ الإسلام أيضاً:

«... عداوة الأنبياء وعنادهم هو بمخالفتهم لا بموافقتهم، كمن نهى عما أمروا به من عبادة الله وحده، وأمر بما نهوا عنه من الشرك بالمخلوقات كلها...»[3].

---

(١) المصدر المذكور (ص ٣٥).

(٢) المصدر المذكور (ص ٤٢).

(٣) المصدر المذكور (ص ٦٤).

تهـويلات أخـرى:

لما حكم القضاة الأربعة بمصر على شيخ الإسلام بالحبس والعقوبة لأجل فتواه في «السفر لمجرد زيارة قبور الأنبياء» أبطل دعواهم من وجوه كثيرة، وقال: «قد بسطت في غير هذا الموضع وهي خمسون وجهاً، تبيّن بطلان ما كتب به، وبطلان الحكم به»[1].

كما ردّ شيخ الإسلام على هؤلاء، كذلك رد على القاضي كمال الدين الزملكاني، والتقي السبكي في القضية نفسها. هناك كتابات أخرى أيضاً في الرد على شيخ الإسلام في هذا الموضوع من قبل معاصريه، كابن الحاج وغيره.

والجدير بالذكر أن كتابات هؤلاء كلها تنبني على تلك الأدلة التي فنّدها شيخ الإسلام في كتاباته. والأسف أنهم لم يستفيدوا من استدلاله القوي على مراده، بل ردّدوا ما عرفوه من الأدلة، من دون التأكد من صحتها وضعفها.

ولأجل هذا قال العلامة ابن عبد الهادي تلميذ شيخ الإسلام في كتابه «الصارم المنكي في الرد على السبكي»:

«فإني وقفت على الكتاب الذي ألّفه بعض قضاة الشافعية في الرد على شيخ الإسلام... في مسألة «شدّ الرحال وإعمال المطي إلى القبور»، وذكر أنه كان قد سماه «شن الغارة على من أنكر سفر الزيارة»، ثم زَعَمَ أنه اختار أن يسميه «شفاء السقام في زيارة خير الإنام». فوجدت كتابه مشتملاً على

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٧/ ٢٨٨ ـ ٣١٣). وذكر في هذا الموضع اثنين وأربعين وجهاً. ومن شاء فليراجعها فإنها مهمة في هذا الموضوع.

تصحيح الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وتقوية الآثار الواهية والمكذوبة، أو تحريفها عن مواضعها، وصرفها عن ظواهرها بالتأويلات المستنكرة المردودة.

ورأيت مؤلف هذا الكتاب المذكور رجلاً ممارياً معجباً برأيه متبعاً لهواه...»[1].

وقال ابن عبد الهادي أيضاً:

«ولقد أخبرني الثقة أنه ألّف هذا الكتاب لما كان بمصر قبل أن يلي القضاء بالشام بمدة كبيرة ليتقرّب به إلى القاضي الذي حكى عنه هذا الكذب، ويحظى لديه فخاب أمله ولم ينفق عنده. وقد كان هذا القاضي الذي جمع المعترض كتابه هذا لأجله من أعداء الشيخ المشهورين»[2].

ورد التقي السبكي في أبيات[3] له، على شيخ الإسلام في «منهاج السنّة»، فقال:

لو كان حياً يرى قولي ويسمعه	رددت ما قال رداً غير مشتبه
كما رددت عليه في الطلاق وفي	«ترك الزيارة» أقفو إثر سببه

فعارض هذه الأبيات[4] العلامة أبو المظفّر يوسف بن محمد العقيلي

(١) «الصارم المنكي في الردّ على السبكي»(١٨ ــ ١٩) طبعة دار الإفتاء بالرياض ١٤٠٣هـ.

(٢) المصدر المذكور (ص ٢١). والقاضي المشار إليه هو زين الدين علي بن مخلوف المالكي (ــ ٧١٨هـ) وكانت ولايته ثلاث وثلاثين سنة (شذرات الذهب ٦/ ٤٩).

(٣) راجعها في «طبقات السبكي» (٦/ ١٦٠).

(٤) هذه الأبيات منشورة وملحقة بـ«منهاج السنّة» طبعة الأميرية. ونشرها الدكتور محمد

السرّمري، وقال:

فضحت نفسك في هذا المقال ولم ... تشعر وعجت عن المرعى وأخصبه

عَرَّفْتَنَا أن ما قد قلتَ ليس لوجـ ... ـهِ الله بل للمرا أقبح بمنصبه

إذ لو أردت بيان الحق قلتَ به ... في محضر الخصْم أما في مغيبه

ما ذاك صدّك بل خوف الجواب كما ... أجبت قبل بسهم من مصوّبه

لكن إذا الأسد الضرغام غاب عن الـ ... ـعرين تسمع فيه ضبح ثعلبه

إلى أن قال:

وفي الزيارة لم تنصف رددت على ... ما لم يقله، ولم تمرر بسببه

رداً ملخصاً أشياء أذكرها ... إما حديث ضعيف عند مطلبه

إما صحيح ولكن لا دليل به ... على مرادك بل هدم لمنصبه

إما بمجمل لفظٍ، قول خصمك من ... أقوى المقال به قسراً وأصوبه

إما بلا علم لي والجهل غايته ... أيعذر الشخص فيما لا أحاط به

فأي رد لعمري قد رددتَ وما ... ذا قلتَ إذ قلتَ أقفو إثر سببه

فإن كان عندك في شدّ الرحال إلى الـ ... ـقبور نقل فعارضه بموكبه

أنَّى وذلك كالعنقاء في عدم ... وكالسمندل يحكي مع تغيّبه

ما أنت إلا كما قد قيل في مثل ... خالف لتعرف مشهور لضرّبه

رشاد سالم في مقدمة الجزء الأول من «منهاج السنّة» الذي طبع بتحقيقه في الرياض سنة ١٤٠٦هـ، ثم قمت بتحقيق قصيدة «الحمية الإسلامية» هذه للسرّمري، وقصيدة محمد بن يوسف اليمني في الدفاع عن ابن تيميّة، وهما منشورتان في كتاب مستقل..

انتصار علماء الأمصار المعاصرين لشيخ الإسلام في «شـدّ الرحـال»:

لما أثار القاضي الإخنائي المالكي هذه القضية ضد شيخ الإسلام، وحبس ـ رحمه الله ـ سئل بعض مالكية دمشق عن مسألة «شدّ الرحال» فكتبوا كما كتب شيخ الإسلام، وكذلك وافق عليه من وقف من أهل مصر أيضاً.

«وقد وصل ما أجاب به الشيخ في هذه المسألة إلى علماء بغداد، فقاموا في الانتصار له، وكتبوا موافقته»[١].

* قال ابن الكتبي الشافعي:

«ولا ريب أن المملوك وقف على ما سئل عنه الشيخ الإمام... وما أجاب به. فوجدته خلاصة ما قاله العلماء في هذا الباب حسبما اقتضاه الحال من نقله الصحيح، وما أدّى إليه البحث من الإلزام والالتزام، لا يداخله تحامل، ولا يعتريه تجاهل. وليس فيه ـ والعياذ بالله ـ ما يقتضي الإزراء والتنقيص بمنزلة الرسول ﷺ»[٢].

* وقال محمد بن عبد الرحمن المالكي البغدادي، بعدما أثبت بالأدلة منع شدّ الرحال إلى غير المساجد الثلاثة:

«وحيث تقرّر فلا يجوز أن ينسب من أجاب في هذه المسألة بأنه سفر منهي عنه إلى الكفر. فمن كفّره بذلك من غير موجب، فإن كان مستبيحاً ذلك فهو كافر، وإلا فهو فاسق»[٣].

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٧/ ١٨٢ ـ ١٨٣، ١٩٣).

(٢) المصدر المذكور (٢٧/ ١٩٥).

(٣) المصدر المذكور (٢٧/ ١٩٨).

* وقال الشيخ جمال الدين يوسف بن عبد المحمود الحنبلي في شيخ الإسلام:

«وقد بلغني أنه رزىء وضيق على المجيب، وهذا أمر يحار فيه اللبيب، ويتعجب منه الأريب، ويقع به في شك مريب.

فإن جوابه في هذه المسألة قاض بذكر خلاف العلماء، وليس حاكماً بالغضّ من الصالحين والأنبياء. فإن الأخذ بمقتضى كلامه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في الحديث المتفق على صحة رفعه إليه: هو الغاية القصوى في تتبع أوامره ونواهيه، والعدول عن ذلك محذور، وذلك مما لا مرية فيه.

وإذا كان كذلك فأي حرج على من سئل عن مسألة فذكر فيها خلاف الفقهاء، ومال فيها إلى بعض أقوال العلماء؟ فإن الأمر لم يزل كذلك على ممر العصور وتعاقب الدهور.

وهل ذلك محمول من القادح إلا على امتطاءِ نِضْو الهوى المفضي بصاحبه إلى التوى...»[1].

* ثم ذُكِرَ جواب آخر لبعض علماء أهل الشام المالكية، ولبعض علماء بغداد أيضاً في تأييد موقف شيخ الإسلام من منع شدّ الرحال إلى القبور، وفيه:

«وأما إزراء بعض العلماء عليه في فتاواه، وجوابه عن مسألة شدّ الرحال إلى القبور، فقد حمل جواب علماء هذه البلاد إلى نظرائهم من العلماء، وقرنائهم من الفضلاء، وكلهم أفتى: أن الصواب في الذي به أجاب».

---

(١) المصدر المذكور (٢٧/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

وفيه أيضاً ذكر رسالة استرحام إلى السلطان في حق شيخ الإسلام بما يأتي:

«وبعد لما قرع أسماع أهل البلاد المشرقية والنواحي العراقية، التضييق على شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس «أحمد بن تيمية» ـ سلَّمه الله ـ عظم ذلك على المسلمين، وشقّ على ذوي الدين، وارتفعت رؤوس الملحدين، وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين.

ولما رأى علماء هذه الناحية عظم هذه النازلة من شماتة أهل البدع وأهل الأهواء بأكابر الأفاضل وأئمة العلماء: أنهوا حال هذا الأمر الفظيع والأمر الشنيع إلى الحضرة الشريفة السلطانية ـ زادها الله شرفاً ـ وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجاب به الشيخ ـ سلَّمه الله ـ في فتاواه. وذكروا من علمه وفضائله وبعض ما هو فيه. وحملوا ذلك إلى بين يدي مولانا ملك الأمراء... غيرةً منهم على هذا الدين، ونصيحة للإسلام وأمراء المؤمنين.

والآراء المولوية العالية أولى بالتقديم، لأنها ممنوحة بالهداية إلى الصراط المستقيم»[1].

ولقد كانت كتابات شيخ الإسلام الواضحة في هذه المسألة ـ في مؤلفاته: «المنسك القديم» و«الجديد»، و«الجواب الباهر في زوّار المقابر»، و«الرد على الإخنائي» وغيرها من كتبه وفتاواه ـ قاضية على تهويلات أهل البدع، وضربة قاسية على ظهور أهل الأهواء، الذين كانوا يروّجون ما يحلو لهم من الضلالات والخرافات في أوساط المسلمين. ويتململ خصوم مذهب السلف من وقعها الشديد حتى يومنا هذا.

---

(١) المصدر المذكور (٢٧/ ٢١٠ ـ ٢١٣).

وكفى شيخ الإسلام عزاً وفخراً بأنه أقضّ أصحاب البدع والأهواء مضاجعهم حياً وميتاً.

فما من كاتب من سدنة القبور ومعتقديها من عصره حتى عصرنا هذا، إلا ويرى كتاباته وكتابات تلاميذه وأنصاره أكبر عقبة في تضليل العوام، ويذكرهم في كل مكان مستهجن، ويرميهم بما ليس فيهم لتشويه الحق، وتمويه الباطل، ولصرف الناس عنهم وعن كتاباتهم.

● ● ●

التـوسُّــل والوســيــلة



التـوسُّـل والوسـيـلة

إنّ علة العلل التي أصيبت بها الأمة هي الاستغاثة بالأموات، والتوسل المنهي عنه، المنافي للتوحيد الخالص الذي لأجل تحقيقه بعث الله تعالى الأنبياء والرسل. قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦].

كان اعتقاد التوسل بالأموات، من أهم الأسباب المؤدّية إلى ضعف الصلة بين العبد وربه سبحانه وتعالى، ويجرّه إلى ما لا تحمد عقباه من الوقوع في الإشراك بالله تعالى في عبادته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته.

ولقد انتبه شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ إلى هذا الداء العضال، والشر المستطير، ففرّق بين ما دلّ الكتاب والسنّة عليه من التوسّل، وما تكلم به الصحابة وفعلوه، وبين ما أحدثه أهل البدع مستدلين بالضعاف والموضوعات من الأحاديث والآثار.

التوسُّل المشروع:

إن خلاصة ما حرر في هذا الباب، في ضوء الكتاب والسنّة يفيد أن

التوسّل المشروع ينقسم إلى ثلاثة أنواع[1]:

١ ــ التوسل بذات الله تعالى وأسمائه وصفاته. مثل حديث: (أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك).

٢ ــ والتوسل بالأعمال الصالحة (كدعاء أصحاب الغار الثلاثة الذين توسلوا بأعمالهم الصالحة...).

٣ ــ والتوسل بدعاء الرجل الحيّ (كأن يقال له: ادع الله تعالى لي أن يوفقني لما يحبه ويرضاه).

أما غير هذه الأنواع من التوسل، فإنها إما مختلف فيها ــ والراجح عدم الجواز ــ اختلافاً مرجوحاً لا دليل عليه من الكتاب والسنّة الصحيحة، وإما أنها منهي عنها في الكتاب والسنّة نهياً صريحاً، ولكن وقع الناس فيها اتباعاً لآبائهم وأجدادهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة المائدة: ١٠٤].

التوسُّل غير المشروع:

قال شيخ الإسلام:

«وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية، وأعرضوا عن الأدعية البدعية، فينبغي اتباع ذلك.

---

(١) راجع «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» لابن تيمية وكتاب «الزيارة» له أيضاً، و«التوصل إلى حقيقة التوسل» للشيخ محمد نسيب الرفاعي، و«التوسل أنواعه وأحكامه» للشيخ الألباني.

والمراتب في هذا الباب ثلاث:

(إحداها): أن يـدعو غـير الله، وهو ميت أو غائب سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم، فيقول: يا سيدي فلان أغِثْنِي، أو أنا استجير بك...

وأعظم من ذلك أن يقول: اغْفِر لي، وتُبْ عَلَيَّ، كما يفعله طائفة من الجهال المشركين.

وأعظم من ذلك أن يسجد لقبره، ويصلي إليه، ويرى الصلاة إليه أفضل من استقبال القبلة، حتى يقول بعضهم: هذه قبلة الخواص، والكعبة قبلة العوام.

وأعظم من ذلك أن يرى السفر إليه من جنس الحج حتى يقول: إن السفر إليه مرات يعدل حجة. وغلاتُهم يقول: الزيارة إليه مرة أفضل من حج البيت مرات عديدة، ونحو ذلك.

فهذا شرك بهم، وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه.

(الثانية): أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين: ادع الله لي، أو ادع لنا رَبَّك، أو اسأل الله لنا ـ كما تقول النصارى لمريم وغيرها ـ فهذا أيضاً لا يستريب عالم أنه غير جائز.

وإنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة.

(الثالثة): أن يقال: اسألك بفلان، أو بجاه فلان عندك، ونحو ذلك، الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهي عنه.

وتقدم أيضاً أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة. بل عدلوا عنه إلى

التوسّل بدعاء العباس وغيره. . .»[1].

وقد ردّ شيخ الإسلام على الأحاديث الضعيفة والموضوعة الواردة في هذا الباب، التي تشبَّثَ بها المجوّزون للتوسل، من دون أن يميزوا بين الصحيح والسقيم، وتوجد هذه المباحث مبثوثة في فتاواه وكتبه، وخاصة في «قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة»، وكتاب «الزيارة»، و«الرد على البكري»، و«الرد على الإخنائي».

وملخص القول إن التوسل المنهى عنه من البلايا العامة التي وقع فيها العلماء، فضلاً عن العامة من الناس. وهو فرع مسألة شدّ الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، من الأضرحة والقبور، والمشاهد والمزارات.

ولما كانت كتابات شيخ الإسلام في غاية القوة والوضوح في منع التوسل بالأنبياء والصالحين، وبذوات الأموات وأشخاصهم، وبجاههم وحرمتهم عند الله، وبالإقسام على الله بهم ـ رماه خصومه بتنقيص منزلتهم، والحط من أقدارهم، لأن المبتدعة لا يكفيهم الثابت من الكتاب والسنّة. والذباب لا يهوى العيش إلا على أكوام القاذورات. ونعوذ بالله من ذلك.

ومتى كان شيخ الإسلام يداري هؤلاء وأولئك في إحقاق الحق وإبطال الباطل، إذا ثبت عنده ما ذهب إليه بأدلة الكتاب والسنّة؟.

وكأنه يتمثل بقول الشاعر:

إذا رضـي الحبيـب فـلا أبـالـي ... أقـام الحـيّ أم جـدّ الـرحيـل

---

(١) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (١٤٩ ـ ١٥٢) باختصار.

نداء مؤتمر العالم الإسلامي بمكة المكرمة:

قال علامة الشام محمد بهجة البيطار:

«إن هذا الموضوع بأقسامه الثلاثة: «الزيارة»، و«شدّ الرحال»، و«التوسّل» قد شغل الناس قروناً طويلة، ملأ مئات المصنفات وألوف الصفحات، وكنت قدمت اقتراحاً إلى «مؤتمر العالم الإسلامي» بمكة (١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م)، قرّبت فيه بين المذاهب المختلفة في المسائل الثلاث، ووافق عليه الأعضاء المؤتمرون جميعاً، وخلاصته:

١ ـ إن الزيارة الشرعية للأموات من دون شدّ الرحال، ليس فيها مطعن ولا مقال، وقد كان النبيّ ﷺ يزور سكان البقيع وشهداء أحد.

٢ ـ إن مسألة شدّ الرحال إلى المساجد الثلاثة مفروغ منها، وأن السفر إلى ما عداها من المساجد، أو لمجرد زيارة القبور، لم يعهد في الصدر الأول، ولم يقع من الأئمة الهداة... وأما بالنسبة لقبر النبيّ ﷺ فتكون النيّة موجهة عند شدّ الرحال إلى أداء العبادة في المسجد، ومعها زيارته ﷺ.

٣ ـ إن من استقرأ النصوص، وسبر غورها، ظهر له منها أن التوسّل إليه تعالى بالكلم الطيب، والعمل الصالح هو المشروع، وأنه هو الذي تنال به خيرات الدنيا والآخرة، فربّ الدارين واحد، وحكمته فيها واحدة.

ومن المؤسف جداً، عدم الاهتداء بهدي الأنبياء والصالحين، والاكتفاء بتشييد القبور، وجعلها كالقصور والقلاع، والصلاة عندها، والطواف حولها، ونذر النذور لسدنتها. ويرحم الله الشاعر محمد حافظ إبراهيم (ـ ١٣٥١هـ) القائل:

أحيـاؤنـا لا يُـرْزَقُـون بـدرهـم وبـألـف ألـفٍ تـرزقُ الأمـوات
مـن لـي بحـظ النـائميـن بحضـرة وقامت على أحجارها الصلوات

والواجب يتقاضى علماء الدين الخالص. . . أن يتعاونوا على إنشاء معاهد علمية في الأقطار الشرقية والغربية، تدعو إلى الله على بصيرة، وتصحح العقائد والعوائد، وتزيل المهالك والمفاسد، وتعيد عهد الأئمة، وتجدد معالم الأمة»[1].

• • •

(١) حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للبيطار (٦٦ ـ ٦٧) المكتب الإسلامي ط. ثالثة ١٤٠٧هـ.

التجسيم والحشو



التجسيم والحشو

رمى أهلُ البدع والأهواء خصومهم من أهل الحديث والسنّة، باتهامات كثيرة، ومنها: التجسيم، والتشبيه، والحشو، وما إلى ذلك.

وهذه التهمة قديمة، ورمي بها شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً، لاتباعه منهج السلف الصالح في الأسماء والصفات، ولا نزال نقرؤها في كتب المعاصرين من بقية الجهمية والمعطلة إلى اليوم.

تاريخ هذه التهمة:

قال شيخ الإسلام:

«وقد قيل: أول من قال في الإسلام إن القديم جسم هو: هشام بن الحكم، كما أن أول من أظهر في الإسلام نفي الجسم هو: الجهم بن صفوان.

وكلام السلف والأئمة في ذم الجهمية كثير مشهور، فإن مرض التعطيل شر من مرض التجسيم. وإنما كان السلف يذمون المشبّهة...»[1].

وقال بعدما فصّل الكلام في الجهة والحيّز:

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٣/ ١٥٤).

«فبهذا التفصيل يزول الاشتباه والتضليل، وإلا فكل من نفى شيئاً من الأسماء والصفات، سمى من أثبت ذلك مجسِّماً قائلاً بالتحيّز والجهة»[1].

تهمة التجسيم:

إن كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ مليئة بالرد على المجسمة والنفاة[2]، وبيّن أن الفرقة الناجية ـ أهل السنّة والجماعة ـ وسط في (باب صفات الله) سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة[3].

مع هذا، نرى أن بعض خصومه من معاصريه، وغيرهم يرمونه بالتجسيم، والحشو، والتشبيه، وليس أمرهم إلا كما قال الشاعر:

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا   شـراً أُذِيـعَ وإن لـم يعلمـوا كـذبـوا

* قال التقي السبكي (ـ ٧٥٦هـ) في الدرّة المضية في الرد على ابن تيمية:

«... وشذّ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات المقدسة...»[4].

* وقال شهاب الدين أحمد بن يحيـى الكلابي (ـ ٧٣٣هـ) في رسالته في «نفي الجهة» رداً على شيخ الإسلام:

---

(١) المصدر المذكور (٦/ ٤٠).

(٢) المصدر المذكور (١٧/ ٢٩٦).

(٣) المصدر المذكور (٣/ ١٤١) (العقيدة الواسطية).

(٤) الرسائل السبكية في الرد على ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية» (ص ١٥١) طبعة عالم الكتب بيروت ١٤٠٣هـ. و«التوفيق الرباني» (ص ٩٩).

«. . . مذهب الحشوية في إثبات الجهة مذهب واهٍ ساقط يظهر فساده من مجرد تصوره. . . وهم فريقان:

١ ــ فريق لا يتحاشى في إظهار الحشو.

٢ ــ وفريق يتستّر بمذهب السلف.

ومذهب السلف إنما هو: التوحيد والتنزيه، دون التجسيم والتشبيه والمبتدعة تزعم أنها على مذهب السلف.

وكلٌّ يدعون وصال ليلى ... وليلى لا تقرّ لهم بذاكا[1]

تعليق شيخ الإسلام على تهمة الخصوم:

علّق شيخ الإسلام على مثل قول الكلابي هذا، فقال:

«فهذا الكلام فيه حق وباطل:

فمن الحق الذي فيه: ذمّ من يمثل الله بمخلوقاته، ويجعل صفاته من جنس صفاتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص: ٤]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [سورة مريم: ٦٥].

وقد بسطنا القول في ذلك، وذكرنا الدلالات العقلية التي دل عليها كتاب الله في نفي ذلك، وبيّنا منه ما لم يذكره النفاة الذين يتسمون بالتنزيه، ولا يوجد في كتبهم، ولا يسمع من أئمتهم، بل عامة حججهم التي يذكرونها حجج ضعيفة. لأنهم يقصدون إثبات حق وباطل، فلا يقوم على ذلك حجة مطّردة سليمة من الفساد، بخلاف من اقتصد في قوله، وتحرى القول السديد

(١) التوفيق الرباني (ص ١٦٢)، وراجع فتاوى شيخ الإسلام أيضاً (٤/ ١٤٤).

فإن الله يصلح عمله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

وفيه من الحق: الإشارة إلى الرد على من انتحل مذهب السلف مع الجهل بمقالهم، أو المخالفة لهم بزيادة أو نقصان. فتمثيل الله بخلقه، والكذب على السلف من الأمور المنكرة، سواء سمّى ذلك حشواً أو لم يسمّ.

وهذا يتناول كثيراً من غالية المثبتة، الذين يروون أحاديث موضوعة في الصفات مثل حديث: «عرق الخيل»، و«نزوله عشية عرفة على الجمل الأورق حتى يصافح المشاة ويعانق الركبان»، «وتجلّيه لنبيّه في الأرض» أو «رؤيته له على كرسيّ بين السماء والأرض» أو «رؤيته إياه في الطواف» و«في بعض سكك المدينة» إلى غير ذلك من الأحاديث الموضوعة. . .

فقد رأيت من ذلك أموراً من أعظم المنكرات والكفران، وأحضر لي غير واحد من الناس، من الأجزاء والكتب ما فيه من ذلك ما هو من الافتراء على الله ورسوله. وقد وضع لتلك الأحاديث أسانيد. . .

والمقصود: أن كلامه فيه حق.

وفيه من الباطل أمور:

(أحدها): «لا يتحاشى من الحشو والتجسيم»، ذمّ للناس بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان. . .

أما هذه الألفاظ الثلاثة [أي الحشو، والتشبيه، والتجسيم][1] فليست

---

(١) وكذا: «الحيّز، والجهة» (راجع فتاوى شيخ الإسلام: ٥/٢٩٨).

في كتاب الله، ولا في حديث عن رسول الله، ولا نطق بها أحد من سلف الأمة وأئمتها، لا نفياً ولا إثباتاً.

وأول من ابتدع الذم بها «المعتزلة» الذين فارقوا جماعة المسلمين. فاتباع سبيل المعتزلة دون سبيل سلف الأمة تركٌ للقول السديد الواجب في الدين، واتباعٌ لسبيل المبتدعة الضالين.

وليس فيها ما يوجد عن بعض السلف ذمّه، إلا لفظ «التشبيه»، فلو اقتصر عليه، لكان له قدوة من السلف الصالح...

(**الوجه الثاني**): إن هذا الضرب الذي قلت: «إنه لا يتحاشى من الحشو والتشبيه والتجسيم». إما أن تدخل فيه مثبتة الصفات الخبرية، التي دلّ عليها الكتاب والسنّة، أو لا تدخلهم. فإن أدخلتهم كنت ذاماً لكل من أثبت الصفات الخبرية. ومعلوم أن هذا مذهب عامة السلف، ومذهب أئمة الدين.

بل أئمة المتكلمين يُثبتون الصفات الخبرية في الجملة، وإن كان لهم فيها طرق، كأبي سعيد بن كلاب، وأبي الحسن الأشعري، وأئمة أصحابه... فما من هؤلاء إلا من يثبت من الصفات الخبرية ما شاء الله تعالى. وعماد المذهب عنهم: إثبات كل صفة في القرآن.

وأما الصفات التي في الحديث، فمنهم من يثبتها، ومنهم من لا يثبتها. فإذا كنت تذمّ جميع أهل الإثبات من سلفك وغيرهم، لم يبق معك إلا الجهمية ومن المعتزلة، ومن وافقهم على نفي الصفات الخبرية: من متأخري الأشعرية ونحوهم، ولم تذكر حجة تعتمد.

فأي ذمّ لقول في أنهم لا يتحاشون مما عليه سلف الأمة، وأئمتها، وأئمة الذامّ لهم؟

وإن لم تدخل في اسم «الحشوية» من يثبت الصفات الخبرية، لم ينفعك هذا الكلام، بل قد ذكرت أنت في غير هذا الموضع هذا القول. . .

(الوجه الثالث): قوله: «والآخر يتستّر بمذهب السلف».

إن أردت بالتستّر الاستخفاء بمذهب السلف. فيقال: ليس مذهب السلف مما يتستّر به، إلا في بلاد أهل البدع، مثل بلاد الرافضة والخوارج.

فإن كان هؤلاء في بلد أنت لك فيه سلطان ــ وقد تستروا بمذهب السلف ــ فقد ذممت نفسك. . .

وإن أردت بالتستّر: أنهم يجتنّون به، ويتقون به غيرهم، ويتظاهرون به، حتى إذا خوطب أحدهم قال: أنا على مذهب السلف ــ وهذا الذي أراده والله أعلم ــ فيقال له: لا عيب على من أظهر مذهب السلف، وانتسب إليه، واعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه بالاتفاق. فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقاً. . .

وأما قوله: «مذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التجسيم والتشبيه» فيقال له: لفظ التوحيد، والتنزيه، والتشبيه، والتجسيم، ألفاظ قد دخلها الاشتراك بسبب اختلاف اصطلاحات المتكلمين وغيرهم. وكل طائفة تعني بهذه الأسماء ما لا يعنيه غيرهم. . .

فالجهمية من المعتزلة وغيرهم يريدون «بالتوحيد، والتنزيه» نفي جميع الصفات و«بالتجسيم والتشبيه» إثبات شيء منها. حتى أن من قال: «إن الله يرى» أو «أن له علماً» فهو عندهم مشبّه مجسّم.

وكثير من المتكلّمة الصفاتية يريدون بالتوحيد والتنزيه: نفي الصفات الخبرية أو بعضها، وبالتجسيم والتشبيه إثباتها أو بعضها.

والفلاسفة تعني بالتوحيد: ما تعنيه المعتزلة وزيادة، حتى يقولون: ليس له إلا صفة سلبية، أو إضافية، أو مركبة منهما.

والاتحادية تعني بالتوحيد: أنه هو الوجود المطلق.

ولغير هؤلاء فيه اصطلاحات أخرى.

وأما التوحيد الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، فليس هو متضمناً شيئاً من هذه الاصطلاحات. بل أمر الله عباده أن يعبدوه وحده، لا يشركوا به شيئاً، فلا يكون لغيره نصيب فيما يختص به من العبادة وتوابعها ــ هذا في العمل.

وفي القول: هو الإيمان بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله.

فإن كنت تعني أن مذهب السلف: هو التوحيد بالمعنى الذي جاء به الكتاب والسنّة، فهذا حق، وأهل الصفات الخبرية لا يخالفون هذا.

وإن عنيت أن مذهب السلف: هو التوحيد والتنزيه، الذي يعنيه بعض الطوائف: فهذا يعلم بطلانه كلُّ من تأمل أقوال السلف الثابتة عنهم، الموجودة في كتب آثارهم. فليس في كلام أحد من السلف كلمة توافق ما تختصُّ به هذه الطوائف، ولا كلمة تنفي الصفات الخبرية. . .

وأيضاً فهذا الكلام لو كان حقاً في نفسه، لم يكن مذكوراً بحجة تتبع. وإنما هو مجرد دعوى على وجه الخصومة التي لا يعجز عنها من يستجيز، ويستحسن أن يتكلم بلا علم ولا عدل.

ثم إنه يدل على قلة الخبرة بمقالات الناس من أهل السنّة والبدعة، فإنه قال: «وكذا جميع المبتدعة يزعمون أنهم على مذهب السلف».

فليس الأمر كذلك، بل الطوائف المشهورة بالبدعة: كالخوارج والروافض، لا يدّعون أنهم على مذهب السلف. بل هؤلاء يكفّرون جمهور السلف. . .

(الوجه الرابع): إن هذا الاسم، ليس له ذكر في كتاب الله ولا سنّة رسوله ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين، ولا من أئمة المسلمين، ولا شيخ أو عالم مقبول عند عموم الأمة. . .

فالمقصود هنا: أن المشهورين من الطوائف ـ بين أهل السنّة والجماعة ـ العامة بالبدعة، ليسوا منتحلين للسلف. . . فعلم أن شعار أهل البدع هو: ترك انتحال اتباع السلف.

ولهذا قال الإمام أحمد في رسالة عبدوس بن مالك:

«أصول السنّة عندنا، التمسّك بما كان عليه أصحاب النبيّ ﷺ»[(١)].

كـذب واختـلاق:

بعد هذا البيان الشافي من كلام شيخ الإسلام، لا يشك عاقل أن ما نسب إليه بعض معاصريه ومن بعدهم، من التشبيه والتجسيم ـ كذب واختلاق. وإن شئت أن تعرف نوايا خصومه الخبيثة في كيل الاتهامات والرد عليها، فارجع إلى كتاب «شرح حديث النزول» فإنه مهم جداً في الموضوع.

إن أعداء شيخ الإسلام استغلّوا كلام بعض شانئيه في رميه بالتجسيم، ومنهم:

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٤/ ١٤٤ ـ ١٥٥)، و«منهاج السنّة النبوية (٢/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢، ٥٥٥ ـ ٥٦٠) تحقيق الدكتور رشاد سالم. طبعة جامعة الإمام ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.

* **الرحالة ابن بطوطة:**

قال: شَرَحَ ابن تيمية حديث «ينزل ربنا في الثلث الأخير من الليل». ــ كنزولي هذا. قال ابن بطوطة: «شاهدتُه نزل درجة» من المنبر الذي كان يخطب عليه»[1].

إن تعجب فعجب بهتان ابن بطوطة، حينما تعرف أنه دخل دمشق ١٧ رمضان ٧٢٦هـ، بعد دخول شيخ الإسلام في السجن في المرة الأخيرة في أوائل شعبان من ذاك العام، وتوفي وهو مسجون، فكيف شاهده أنه نزل من المنبر الذي كان يخطب عليه؟

وزد إلى ذلك أن شيخ الإسلام لم يكن خطيباً حتى رآه ابن بطوطة أنه نزل من المنبر، فليعلم الكاذبون أن التاريخ الصادق يفضح الكذابين[2].

* **أبو حيان النحوي:**

قال أبو حيان في شيخ الإسلام حينما لقيه: «ما رأت عيناي مثل ابن تيمية».

ثم مدحه على البديهة في المجلس وقال:

لمّا أتينا تقي الدين لاح لنا داعٍ إلى الله فرد ماله وزر

على محياه من سيما الأولى صحبوا خير البريّة نور دونه القمر

---

(١) التوفيق الرباني (ص ٢٩) ومقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٣٢) عالم الكتب ١٤٠٣هـ. نقلاً عن «فهرس الفهارس» للكتاني (٢٠١/١). راجع «شرح حديث النزول» لابن تيمية وفيه ردّ على مثل هذه الفرى.

(٢) راجع الردّ على فرية ابن بطوطة في كتاب «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» للشيخ محمد بهجة البيطار (٤٣ ــ ٤٩) المكتب الإسلامي ط. ثالثة ١٤٠٧هـ.

إلى أن قال:

كنا نحدّث عن حبرٍ يجيء فها   أنت الإمام الذي قد كان ينتظر

ثم دار بينهما كلام فيه ذكر سيبويه، فقال ابن تيمية فيه كلاماً نافره عليه أبو حيان وقطعه بسببه، ثم عاد من أكثر الناس ذماً له، واتخذه ذنباً لا يغفر».

ـ وقال الشيخ زين الدين ابن رجب في كتابه «الطبقات» (٢/ ٣٩٢) عن هذه الأبيات: ويقال: إن أبا حيان لم يقل أبياتاً خيراً منها ولا أفحل»[(١)].

والموضوع الذي دار بينهما هو:

«أن أبا حيان تكلم مع الشيخ في مسألة النحو، فقطعه فيها وألزمه الحجة فذكر أبو حيان كلام سيبويه. فقال ابن تيمية: يفشر[(٢)] سيبويه، أسيبويه نبيّ النحو أرسله الله به حتى يكون معصوماً؟ سيبويه أخطأ في القرآن في ثمانين موضعاً لا تفهمها أنت ولا هو.

وقد كان ابن تيمية لا تأخذه في الحق لومة لائم، وليس عنده مداهنة، وكان مادحه وذامّه عنده في الحق سواء»[(٣)].

وبعدما حصل هذا التنافر كان أبو حيان ينال من كرامة شيخ الإسلام، وينسب إليه بعض الطامات. قال في تفسيره المسمّى بالنهر في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]:

«وقرأت في كتاب لأحمد بن تيمية ـ هذا الذي عاصرنا، وهو بخطه

---

(١) «الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية» للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي (٣١ ـ ٣٢) دار الفرقان عمان ط. أولى ١٤٠٤هـ.

(٢) يفشر: من الفشار، وهو ما ليس من كلام العرب.

(٣) الردّ الوافر (ص ١١٦) نقلاً عن ابن كثير في «البداية والنهاية».

سمّاه «كتاب العرش»: إن الله تعالى يجلس على الكرسي، وقد أخلى منه مكاناً يقعد فيه معه رسول الله ﷺ. تَحَيَّل عليه التاج محمد بن علي بن عبد الحق البارنباري، وكان أظهر أنه داعية له حتى أخذه منه، وقرأنا ذلك فيه»[1].

إن كتب شيخ الإسلام ابن تيمية مليئة بالرد على مثل هذه الخرافات[2].

ولا يعتمد على كلام أبي حيان هذا، إلا رجل لا يفرق بين اليمين والشمال، أو حقود على شيخ الإسلام أمثال الكوثري، وكمال أبو المنى وغيرهما من الهالكين في النيل من كرامة هذا العالم الجليل، الذي لا يساوون غرزة في نعله.

ـ وذكر الإمام الشوكاني ما دار بينهما فقال: «فكان ذلك سبب مقاطعته إياه، وذكره في تفسيره «البحر» بكل سوء، وكذلك في مختصره «النهر»[3].

إن الأسلوب الذي اختاره أبو حيّان، للافتراء على شيخ الإسلام ينبىء عن دخائله.

ـ قال ابن شيخ الحزاميين:

«ومن براهين الحق: أن يكون عدلاً في مدحه، عدلاً في ذمّه.

---

(١) التوفيق الرباني (ص ٢١) ومقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٢٩) نقلاً عن مخطوط «النهر».

(٢) كما تقدم آنفاً عندما ذكر الأحاديث الموضوعة في هذا الموضوع. وراجع لزاماً «شرح حديث النزول» لابن تيمية تعرف ما هنالك من دخائل خصومه ـ رحمه الله تعالى ـ .

(٣) البدر الطالع (١/ ٧٠).

لا يحمله الهوى ــ عند وجود المراد ــ على الإفراط في المدح. ولا يحمله الهوى ــ عند تعذر المقصود ــ على نسيان الفضائل والمناقب، وتعديد المساوي والمثالب»[١].

فمن يطبّل وراء هذه الدعايات الكاذبة ضد شيخ الإسلام، فليمت غيظاً على وهائها، عند أصحاب العقول الراجحة، والنفوس الشريفة.

* **أبو بكر الحصني الدمشقي:**

من الافتراءات على شيخ الإسلام بقصد التشنيع والتشويه ما يدّعيه أبو بكر الحصني الدمشقي في كتابه «دفع شبه من شبّه وتمرّد، ونسب ذلك إلى الإمام أحمد» من أن ابن تيمية كان يجلس في صحن الجامع الأموي، فذكر ووعظ، ثم قال: «والله قد استوى على عرشه كاستوائي هذا».

ومثل دعواه أيضاً:

«أن ابن تيمية يقول بأن الله ينزل إلى سماء الدنيا إلى مرجة خضراء، وفي رجليه نعالان من ذهب»[٢].

ولله در القائل:

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً　　　وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع

التنابز بالألقاب:

* قال العلامة السيد محمود شكري الآلوسي في رمي الخصوم أهل الهدى بالحشوية والجسمية:

---

(١) «التذكرة والاعتبار» (ص ٥٤).

(٢) «دقائق التفاسير» لابن تيمية (ص ٩١ ــ مقدمة الجليند) نقلاً عن «دفع شبه من شبّه وتمرّد» (٤١ ــ ٤٨).

«وخصوم السلفيين يرمونهم بهذه الألقاب، تنفيراً للناس عن اتباعهم، والأخذ بأقوالهم. . .

والمقصود: أن أهل الباطل من المبتدعة، رموا أهل السنّة والحديث بمثل هذا اللقب الخبيث.

* قال أبو محمد بن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث): إن أصحاب البدع سمّوا أهل الحديث بالحشوية، والمتجبّرة، والجبرية. . .

* وفي غنية الطالبين للشيخ عبد القادر الجيلاني: إن الباطنية تسمّي أهل الحديث حشوية، لقولهم بالأخبار، وتعلّقهم بالآثار.

* وفي «حجة الله البالغة» للشاه ولي الله الدهلوي:

«واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث، وسمّوهم مجسّمة ومشبّهة. وقالوا: هم المتستّرون بالبلكفة. وقد وضح لديّ وضوحاً بيّناً أن استطالتهم هذه ليست بشيء، وأنهم مخطئون في روايتهم رواية ودراية، وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى».

* وقد قال العلامة ابن قيم الجوزية في «الكافية الشافية» في تلقيبهم أهل السنّة بالحشوية:

ومن العجائب قولهم لمن اقتدى ... بالوحي من أثر ومن قرآن

حشوية يعنون حشواً في الوجو ... د وفضلة في أمة الإنسان

ويظنّ جاهلهم بأنهم حشوا ... رب العباد بداخل الأكوان

إلى أن قال:

لا تبهتوا أهل الحديث به فما ... ذا قولهم تباً لذي البهتان

تـدرون مـن سمّـت شيـوخكـم بهٰـ ـذا الاسم في الماضي من الأزمان
سمّـى بـه عمـرو[1] لعبـد الله ذا ك ابـن الخليفـة طـارد الشيطـان
فـورثتُـم عمـرواً كمـا ورثـوا لعبـ ـد الله أنّـى يستـوي الإرثـان
تدرون من أولى بهذا الاسم وهـ ـو منـاسـب أحـوالـه بـوزان
من قد حشى الأوراق والأذهان من بـدع تخـالـف مقتضـى القـرآن
هذا هو الحشويُّ، لا أهل الحديـ ثِ أئمـة الإسـلام والإيمـان»

حاصل هذه الأبيات، أن أعداء الحق وخصوم السنّة، وأضداد الكتاب والسنّة يلقّبون سلف الأئمة المتمسكين بالكتاب والسنّة بلقب الحشوية...

وأعداء الحق في عصرنا هذا، على هذا المسلك الجاهلي. فتراهم يرمون كل من تمسّك بالكتاب والسنّة بكل لقب مذموم بين المسلمين. «والله المستعان على ما تصفون»[2].

وقال شيخ الإسلام رداً على نفاة الصفات:

«وأما ما نفيته فهو ثابت بالشرع والعقل. وتسميتك ذلك تشبيهاً وتجسيماً تمويه على الجهال»[3].

• • •

(١) هو عمرو بن عبيد رأس المعتزلة الذي سمى عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ حشوياً (المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٩٣ ـ طبعة السلفية) وراجع «منهاج السنّة» لابن تيمية (٢/ ٥٢٠) تحقيق محمد رشاد سالم ١٤٠٦هـ.

(٢) راجع «مسائل الجاهلية» للإمام ابن عبد الوهاب مع شرح الآلوسي (٩٤ ـ ٩٩) توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة الطيّبة.

(٣) فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٢٣).

قضيّة

«إمكان حوادث لا أول لها»

عند أئمة السنّة والحديث

قـضـيّـة

«إمكان حوادث لا أول لها»

عنـد أئمـة السنّة والحديث

حصل لغط كثير في قضية «إمكان وجود حوادث لا أول لها» بين الطوائف من المتكلمين والفلاسفة وأهل السنّة والحديث، ويتصل بها قضية التسلسل في الأحداث، وكذلك حدوث العالم وقدمه أيضاً من القضايا التي شرّقوا فيها وغرّبوا.

نظراً إلى أهمية هذه المباحث جلّاها شيخ الإسلام في ضوء الأدلة والبراهين في عدد من كتبه[1]. وبيّن مذهب أهل السنّة والحديث مع الردّ على آراء الفلاسفة والمتكلمين.

ولما خالف شيخ الإسلام ابن تيمية المتكلمين والفلاسفة في هذه الأمور، رماه خصومه منهم بشيء هو باطل عندهم، ولكنه حقّ عنده في ضوء الأدلة من الكتاب والسنّة. وعلى هذا، صدع بالحق ولم يخف في الله لومة لائم.

---

(١) راجع كتاب «الصفدية» و«منهاج السنّة النبوية»، و«درء تعارض العقل والنقل» المجلد الرابع، و«مجموع الفتاوى».

ولما كانت هذه القضية وثيقة الصلة بإثبات صفات الله تعالى، نَسَبَه من نفاها، أو نفى بعضها إلى الكفر والضلال والعياذ بالله ــ . هكذا عدّوا صوابه خطأً، وحقّه باطلاً، لميلهم إلى مذهب أهل الكلام المذموم، وتمسّكهم بآرائهم.

إذا محـــاســـني الــلاتـــي أدلّ بهـــا كانت ذنوباً فقل لي كيف أعتذر

ولا يفوتني أن أذكر أن ما ذهب إليه شيخ الإسلام في هذه القضايا، هو الذي يقرّره صاحب «شرح العقيدة الطحاوية»[١] بكل وضوح.

والآن نذكر من كلام شيخ الإسلام ما يوضّح هذه الأمور توضيحاً بكشف نوايا خصومه من جهة، ويأتي على تهويلاتهم وتمويهاتهم من قواعدها، من جهة أخرى.

الأقوال في وجود حوادث لا أول لها:

قال شيخ الإسلام:

«فإن وجود الحوادث دائماً، بلا ابتداء ولا انتهاء، للناس من المسلمين وغيرهم، فيه ثلاثة أقوال[٢]:

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (١٢٧ ــ ١٤١) المكتب الإسلامي. ط. رابعة ١٣٩١هـ.

(٢) قال صاحب «شرح العقيدة الطحاوية» (١٣٢ ــ ١٣٤) أضعفها: قول من يقول: لا يمكن دوامها لا في الماضي، ولا في المستقبل، كقول جهم والعلاّف.
وثانيها: قول من يقول: يمكن دوامها في المستقبل دون الماضي، كقول كثير من أهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغيرهم.
وثالثها: قول من يقول: يمكن دوامها في الماضي والمستقبل، كما يقوله أئمة الحديث، وهي من المسائل الكبار، ولم يقل أحد: يمكن دوامها في الماضي دون المستقبل. =

* قيل: يجوز مطلقاً. وهذا قول أئمة السنّة والحديث(١)، وأساطين الفلاسفة، ولكن المسلمين وسائر أهل الملل، وجمهور العقلاء، من جميع الطوائف يقولون:

إنّ كل ما سوى الله مخلوق حادث بعد أن لم يكن. وإن قال منهم من قال بدوام الحوادث شيئاً بعد شيء.

* وقيل: لا يجوز، لا في الماضي ولا في المستقبل(٢)، وهو قول الجهم بن صفوان، وأبي الهذيل العلاّف.

* وقيل: يجوز في المستقبل دون الماضي(٣). وهو قول أكثر أتباع جهم، وأبي الهذيل من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية،

= ولا شك أن جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون: إن كل ما سوى الله تعالى مخلوق كائن بعد أن لم يكن. وهذا قول الرسل وأتباعهم، من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم».

(١) هذا أصح الأقوال كما تقدم.

(٢) وهذا أضعف الأقوال.

(٣) قال صاحب «شرح الطحاوية» (ص ١٣٢: «أهل هذا الكلام من الجهمية، فإنهم قالوا: إن دوام الحوادث ممتنع، وأنه يجب أن يكون للحوادث مبدأ، لامتناع حوادث لا أول لها. فيمتنع أن يكون الباري عزّ وجلّ لم يزل فاعلاً متكلّماً بمشيئته، بل يمتنع أن يكون قادراً على ذلك لأن القدرة على الممتنع ممتنعة!

وهذا فاسد، فإنه يدلّ على امتناع حدوث العالم، وهو حادث. والحادث إذا حدث بعد أن لم يكن محدثاً فلا بد أن يكون ممكناً، والإمكان ليس له وقت محدد. وما من وقت يقدّر، وإلا والإمكان ثابت فيه. وليس لإمكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهي إليه. فيجب أنه لم يزل الفعل ممكناً جائزاً صحيحاً، فيلزم أنه لم يزل الربّ قادراً عليه. فيلزم جواز حوادث لا نهاية لأوّلها...».

والـكـرامية، ومـن وافـقهم»[1].

الـدور والتســلسل:

وذكر شيخ الإسلام امتناع تسلسل العلل، والدور الممتنع، ثم قال: الدور نوعان:

(أحدهما): الدور القبلي السبقي. فهذا ممتنع باتفاق العقلاء.

مثل أن يقال: لا يكون هذا إلا بعد ذاك. ولا يكون ذاك إلا بعد هذا. فهذا ممتنع باتفاق العقلاء، ونفس تصوّره يكفي في العلم بامتناعه. فإن الشيء لا يكون قبل كونه، ولا يتأخر كونه عن كونه.

أما الدور المعي الاقتراني: مثل أن يقال: لا يكون هذا إلا مع ذاك لا قبله، ولا بعده، فهذا جائز. كما إذا قيل: لا تكون الأبوّة إلا مع البنوّة.

وقيل: إن صفات الرب اللازمة له لا تكون إلا مع ذاته، وعلمه مع حياته، وقدرته مع علمه، ونحو ذلك»[2].

وذكر شيخ الإسلام جواز التسلسل عند الفلاسفة، وبطلانه عند الرازي وغيره ثم قال:

«وإنما هو محال مطلقاً عند من يقول بامتناع حوادث لا أول لها من أهل الكلام، وليس هو ممتنعاً مطلقاً عند الفلاسفة، بل ولا عند أئمة أهل

---

(١) «كتاب الصفدية» لابن تيمية (١/ ١٠ ــ ١١) تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم. طبعة الرياض ١٣٩٦هـ. ومنهاج السنّة (١/ ٤٣٧ ــ ٤٣٨) تحقيق الدكتور المذكور، طبعة جامعة الإمام ١٤٠٦هـ.

(٢) الصفدية (١/ ١٢)، ومنهاج السنّة (١/ ٤٣٨).

الملل، كالسلف والأئمة الذين يقولون: إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء. ويقولون: إن الفعل من لوازم الحياة، فإن كل حي فعّال...

فلو أن هؤلاء المتكلمين قالوا للفلاسفة: وهب أن هذا يستلزم التسلسل، فالتسلسل جائز عندكم، فالحجة باطلة على أصلكم، لتَبيَّنَ فساد الحجة على أصل الفلاسفة.

لكن الفلاسفة تقول للمتكلمين: التسلسل اللازم هو تسلسل في أصل التأثير، وهو في تمام كون المؤثر مؤثراً. وهذا متفق امتناعه، كالتسلسل في نفس المؤثر.

وفصل الخطاب أن لفظ «التأثير» و«الفعل»، و«الإبداع» ونحو ذلك:

* ــ يراد به في حق الله تأثيره في كل شيء ما سواه، وهو إبداعه لكل ما سواه.
* ــ ويراد به التأثير في شيء معين، وهو خلقه لذلك المعيّن.
* ــ ويراد به مطلق التأثير، وهو كونه مؤثراً في شيء ما.

فإذا أريد بالتأثير التام إبداعه لكل شيء في الأزل، فهذا يمتنع بضرورة الحس والعقل، فإن الحوادث مشهودة. وأيضاً فكون الشيء مبدعاً أزلياً ممتنع.

وإن أريد به التأثير في شيء معين، فمعلوم أيضاً أن مثل هذا التأثير حادث بحدوث أثره. فإحداث الأثر المعين لا يكون إلا حادثاً.

وإن أريد بالتأثير مطلق الفعل، وهو كونه فاعلاً في الجملة، فيقال للفلاسفة: بحثكم إنما ينفي نقيض هذا، وهو أنه يمتنع أن يفعل بعد أن

لا يكون فاعلاً لشيء، لا يمتنع أن يكون فاعلاً لشيء بعد أن كان فاعلاً لشيء آخر. ولا يوجب كونه في الأزل مؤثراً تاماً، بمعنى أنه مستلزم لآثاره في الأزل، بل يوجب أنه لم يزل موصوفاً بمطلق الفاعلية، لا أنه صار فاعلاً بعد أن لم يكن.

وهذا إن صَحَّ دلَّ على أنه لم يزل محدثاً لشيء بعد شيء، لم يدل على أن مفعوله المعيّن قديم أزلي معه. . .».

«وأيضاً فيقال: الذي دلّ على امتناع التسلسل في تمام التأثير هو التأثير المطلق، وذلك لا يدل على قدم شيء من العالم. . .»[1].

---

(١) الصفدية: (١/٥٢ ـ ٥٤). وقسم صاحب «شرح الطحاوية» (ص ١٣٥) التسلسل إلى واجب وممتنع وممكن، فقال:

«فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع بذاته، وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية.

والتسلسل الواجب: ما دلّ عليه العقل والشرع، من دوام أفعال الرب تعالى في الأبد. .

وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف أزل، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر، فإنه لم يزل متكلّماً إذا شاء. . .

وأما التسلسل الممكن: فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف، كما تسلسل في طرف الأبد، فإنه إذا لم يزل حياً قادراً مريداً متكلماً، وذلك من لوازم ذاته، فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن».

القول بإمكان حوادث لا أول لها مبطل للقول بقدم العالم:

لقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية قول الفلاسفة بقدم العالم، أو بقدم شيء منه، وأطال النفس في كتبه[١]، في الرد على هذا الفكر الفلسفي الملحد، وكفّر من قال بقدم العالم بقوله:

«ثم يقال لهؤلاء: إن كنتم تقولون بقدم السماوات والأرض ودوامها، فهذا كفر، وهو قول بقدم العالم، وإنكار انفطار السماوات والأرض وانشقاقهما.

وإن كنتم تقولون بحدوثهما، فكيف كان قبل خلقهما؟ هل كان منتشراً، متفرقاً معدوماً، ثم لما خلقهما صار موجوداً مجتمعاً؟ هل يقول هذا عاقل؟.

فأنتم دائرون بين نوعين من الكفر، مع غاية الجهل والضلال، فاختاروا أيهما شئتم...»[٢].

من الخيانة أن يأتي خصوم[٣] شيخ الإسلام، فينسبوا إليه القول بقدم العالم حقداً وحسداً، وهو الذي كتب في الرد على هذا القول مئات الصفحات في عديد من كتبه وفتاواه، وهي مطبوعة متداولة بين الناس، متوفرة في المكتبات.

---

(١) راجع «مجموع فتاواه» (٣٦/٢٨ ـ ٣٠ ـ الفهارس)، والصفدية (١/٨ ـ ١٣٥)، ومنهاج السنّة (١/١٤٨ ـ ٤٤٦)، ودرء تعارض العقل والنقل.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢/١٨٨).

(٣) راجع «التوفيق الرباني» ومقدمة «الرسائل السبكية» وغيرهما من كتابات أعدائه، تجد فيها من خيانة النقل، وإلزامه بما لا يلزم ما يكفي لكشف مخازيهم عند طلبة العلم من أهل الحق والصدق والأمانة.

وهبنـــي قلـــت إن الصبـــح ليـــل أيعمـــى المبصـــرون عـــن الضيـــاء

إن خصوم شيخ الإسلام قد يلزمونه ـ لأجل قوله بإمكان حوادث لا أول لها ـ بما لا يلزم من القول بقدم العالم، وقد فصّل في هذا الأمر أيّما تفصيل لإبطال هذا الإلزام وقال:

«فتبيّن أنه لو كان شيء من العالم أزلياً قديماً، للزم أن يكون فاعله موجباً بالذات، ولو كان فاعل العالم موجباً بالذات لم يحدث في العالم شيء من الحوادث. والحوادث فيه مشهودة. فامتنع أن يكون فاعل العالم موجباً بذاته، فامتنع أن يكون العالم قديماً كما قاله أولئك الدهرية. بل ويمتنع أيضاً أن يكون المعين الذي هو مفعول الفاعل أزلياً، لا سيما مع العلم بأنه فاعل باختياره يمتنع أن يكون في العالم شيء أزلي على هذا التقدير، الذي هو تقدير إمكان الحوادث ودوامها، وامتناع صدور الحوادث بلا سبب حادث»[1].

وليس شيخ الإسلام وحيداً في تقرير هذا الأمر، بل أيّده صاحب «شرح العقيدة الطحاوية» قائلاً:

«والقول بأن الحوادث لها أول، يلزم منه التعطيل قبل ذلك، وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلاً.

ولا يلزم من ذلك قدم العالم لأن كل ما سوى الله تعالى محدث ممكن الوجود، موجود بإيجاد الله تعالى له، ليس له من نفسه إلا العدم. والفقر والاحتياج وصف ذاتي لازم لكل ما سوى الله تعالى. والله تعالى واجب

---

(١) منهاج السنّة (١/٢٢٣ ـ ٢٢٤). وقال في «الصفدية» (١/٥٤) بعدما قرر هذا الأمر: «وذلك لا يدل على شيء من قدم العالم».

الوجود لذاته، غني لذاته. والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى»[1].

نتائج القول بامتناع حوادث لا أول لها:

بيَّن شيخ الإسلام نتائج القول: بامتناع حوادث لا أول لها ــ وهو بصدد الرد على أقوال الفلاسفة بقدم العالم ــ فقال:

«إنما عظمت حجتهم وقويت شوكتهم على أهل الكلام المحدث والمبتدع الذي ذمّه السلف والأئمة، من الجهمية والمعتزلة، ومن وافقهم من الأشعرية والكرامية والشيعة، ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم.

فإن هؤلاء لما اعتقدوا أن الرب في الأزل كان يمتنع منه الفعل والكلام بمشيئته وقدرته ــ وكان حقيقة قولهم أنه لم يكن قادراً في الأزل على الكلام والفعل بمشيئته وقدرته لكون ذلك ممتنعاً لنفسه، والممتنع لا يدخل تحت المقدور ــ صاروا حزبين:

حزباً قالوا: إنه صار قادراً على الفعل والكلام، بعد أن لم يكن قادراً عليه... وهذا قول المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة...

وحزباً قالوا: صار الفعل ممكناً، بعد أن كان ممتنعاً منه. وأما الكلام فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة، بل هو شيء واحد لازم لذاته، وهو قول ابن كُلّاب والأشعري ومن وافقهما...

وأصل هذا الكلام كان من الجهمية أصحاب جهم بن صفوان وأبي الهذيل العلّاف ونحوهما، قالوا: لأن الدليل قد دلّ على أن دوام

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٣٨).

الحوادث ممتنع، وأنه يجب أن يكون للحادث مبدأ لامتناع حوادث لا أول لها. . .

قالوا: فإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون كل ما تقارنه الحوادث محدثاً، فيمتنع أن يكون الباريء لم يزل فاعلاً متكلماً بمشيئته وقدرته، بل يمتنع أن يكون قادراً على دوام الفعل والكلام بمشيئته وقدرته.

قالوا: وبهذا يعلم حدوث الجسم، لأن الجسم لا يخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.

ولم يفرّق هؤلاء بين ما لا يخلو عن نوع الحوادث، وبين ما لا يخلو عن عين الحوادث[1]، ولا فرّقوا فيما لا يخلو عن الحوادث، وبين أن يكون مفعولاً معلولاً، أو أن يكون فاعلاً واجباً بنفسه[2].

صرّح شيخ الإسلام بالأسباب التي لأجلها وقعوا في هذا الخطأ، فقال:

---

(١) بيّن شيخ الإسلام سبب غلط الفلاسفة والمتكلمين بأنهم لا يفرّقون بين النوع والعين فقال: «وهو فرق صحيح، ولكن يشتبه على كثير من الناس النوع بالعين، كما اشتبه ذلك على كثير من النّاس في الكلام، فلم يفرّقوا بين كون كلامه قديماً بمعنى أنه لم يزل متكلّماً إذا شاء، وبين كون الكلام المعيّن قديماً.
وكذلك لم يفرّقوا بين كون الفعل المعين قديماً، وبين كون نوع الفعل المعين قديماً، كالفلك محدث مخلوق مسبوق بالعدم، وكذلك كل ما سواه. وهذا الذي دلّ عليه الكتاب والسنّة والآثار. وهو الذي تدلّ عليه المعقولات الصريحة الخالصة من الشبه. . .» «مجموع فتاواه»: ١٨/ ٢٤٠ شرح حديث عمران بن حصين).

(٢) منهاج السنّة (١/ ١٥٥ ـ ١٥٨).

* «ومن أعظم أسباب ذلك أنهم نظروا في حقيقة قول الفلاسفة، فوجدوا أنه لم يزل المعقول المعيّن مقارناً للفاعل أزلاً وأبداً، وصريح العقل يقتضي بأنه لا بد أن يتقدم الفاعل على فعله، وأن تقدير مفعول الفاعل مع تقدير أنه لم يزل مقارناً له لم يتقدم الفاعل عليه، بل هو معه ـ أزلاً وأبداً ـ أمر يناقض صريح العقل. وقد استقرّ في الفطر أن كون الشيء المفعول مخلوقاً، يقتضي أنه كان بعد أن لم يكن...

... فوجدوا عقولهم تقصر عما يوجب هذا الإثبات وما يوجب هذا النفي، والجمع بين النقيضين ممتنع، فأوقعهم ذلك في الحيرة والشك.

* ومن أسباب ذلك أنهم لم يعرفوا حقيقة السمع والعقل، فلم يعرفوا ما دلّ عليه الكتاب والسنّة، ولم يميّزوا في المعقولات بين المشتبهات...»[1].

منشأ الخلاف وحديث عمران بن حصين:

اختلفوا في أول هذا العالم بناء على حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. وقد جلّى شيخ الإسلام هذا الأمر في ضوء الكتاب والسنّة بما لا مزيد عليه[2]، قال في «شرح حديث عمران بن حصين»:

«في صحيح البخاري وغيره من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال:

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٨/ ٢٢٥ ـ ٢٢٧).

(٢) راجع «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٨/ ٢١٠ ـ ٢٤٣= شرح حديث عمران بن حصين؛ ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٨) ومجموع الرسائل والمسائل (٥/ ١٧١ ـ ١٩٥)، و«الصفدية» (١/ ١٤ ـ ١٧).

يا بني تميم! اقبلوا البشرى.

قالوا: قد بشَّرْتَنا فأعطنا.

فأقبل على أهل اليمن فقال: يا أهل اليمن! اقبلوا البشرى، إذ لم يقبلها بنو تميم.

فقالوا: قد قبلنا يا رسول الله!

قالوا: جئناك لنتفقه في الدين، لنسألك عن أول هذا الأمر.

فقال: كان الله ولم يكن شيء قبله ــ وفي لفظ «معه»، وفي لفظ «غيره» ــ وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض ــ وفي لفظ: ثم خلق السماوات والأرض ــ ثم جاءني رجل فقال: أدرك ناقتك، فذهبت فإذا السراب ينقطع دونها، فوالله لوددت أني تركتُها ولم أقم»[1].

قوله: «كتب في الذكر» يعني اللوح المحفوظ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥] أي من بعد اللوح المحفوظ، يسمى ما يكتب في الذكر ذكراً، كما يسمى ما يكتب فيه كتاباً كقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [سورة الواقعة: ٧٧ ــ ٧٨].

قولان في هذا الحديث:

والناس في هذا الحديث على قولين:

* منهم من قال: إن مقصود الحديث: إخباره بأن الله كان موجوداً وحده، ثم إنه ابتدأ إحداث جميع الحوادث.

---

(١) البخاري (٦/ ٢٨٦).

وإخباره بأن الحوادث لها ابتداء بجنسها، وأعيانها مسبوقة بالعدم وأن جنس الزمان حادث لا في زمان، وجنس الحركات والمتحركات حادث، وأن الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل، ولا كان الفعل ممكناً.

ثم هؤلاء على قولين:

ـ منهم من يقول: وكذلك صار متكلماً بعد أن لم يكن يتكلم بشيء، بل ولا كان الكلام ممكناً له.

ـ ومنهم من يقول: الكلام أمر يوصف به بأنه يقدر عليه، لا أنه يتكلم بمشيئته وقدرته، بل هو أمر لازم لذاته بدون قدرته ومشيئته.

ثم هؤلاء منهم من يقول:

ـ هو المعنى دون اللفظ المقروء، عبر عنه بكل من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

ومنهم من يقول: بل هو حروف وأصوات لازمة لذاته لم تزل ولا تزال.

* والقول الثاني في معنى الحديث:

إنه ليس مراد الرسول هذا، بل إن الحديث يناقض هذا. ولكن مراده: إخباره عن خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش، كما أخبر القرآن العظيم بذلك في غير موضع، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [سورة هود: ٧].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، عن النبيّ ﷺ أنه قال:

«قدّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشُه على الماء»[١].

فأخبر ﷺ أن تقدير خلق هذا العالم المخلوق في ستة أيام، وكان حينئذ عرشه على الماء، كما أخبر بذلك القرآن والحديث والمتقدم الذي رواه البخاري في صحيحه عن عمران رضي الله عنه:

ومن هذا: الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن عبادة بن الصامت، عن النبيّ ﷺ أنه قال:

«أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب.

قال: وما أكتب؟

قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة»[٢].

فهذا القلم خلقه لما أمره بالتقدير المكتوب قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان مخلوقاً قبل خلق السماوات والأرض. وهو أول ما خلق من هذا العالم، وخلقه بعد العرش، كما دلّت عليه النصوص وهو قول جمهور السلف. كما ذكرتُ أقوال السلف في غير هذا الموضع.

---

(١) مسلم رقم (٢٦٥٣) بلفظ: «كتب الله مقادير الخلائق» والترمذي رقم (٢١٥٦) بلفظ «قدّر الله المقادير». كذا أحمد (٢/ ١٦٩).

(٢) أبو داود رقم (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩) وهو صحيح لغيره إن شاء الله.

والمقصود هنا بيان ما دلّت عليه نصوص الكتاب والسنّة. والدليل على هذا القول الثاني من وجوه...»[1].

ترجيح القول الثاني:

ثم ذكر شيخ الإسلام خمسة عشر وجهاً في تأييد القول الثاني مفصلاً، ولخّصها صاحب «شرح العقيدة الطحاوية» فقال:

«دليل صحة هذا القول الثاني من وجوه:

(أحدها): أن قول أهل اليمن: «جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر» وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود. والأمر هنا بمعنى المأمور، الذي كوّنه الله بأمره.

* وقد أجابهم النبيّ ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود، لا عن جنس المخلوقات، لأنهم لم يسألوه عنه.

* وقد أخبرهم عن خلق السماوات والأرض حال كون عرشه على الماء، ولم يخبرهم عن خلق العرش وهو مخلوق قبل السماوات والأرض.

* وأيضاً، فإنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله» ــ وقد روي «معه» وروي «غيره»، والمجلس كان واحداً ــ فعلم أنه قال أحد الألفاظ، والآخران روي بالمعنى. ولفظ «القبل» ثبت عنه في غير هذا الحديث.

ففي حديث مسلم عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبيّ ﷺ، أنه كان يقول في دعائه: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء»[2] واللفظان

---

(1) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٨/ ٢١٠ ــ ٢١٣).

(2) مسلم رقم (٢٧١٣).

الآخران[1] لم يثبت واحد منهما في موضع آخر.

ولهذا كان كثير من أهل الحديث إنما يرويه بلفظ «القبل» كالحميدي والبغوي وابن الأثير.

وإذا كان كذلك، لم يكن في هذا اللفظ تعرّض لابتداء الحوادث ولا لأوّل مخلوق.

* وأيضاً: فإنه يقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، أو «معه» أو «غيره»، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء».

فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو، وبثُمَّ. فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السماوات والأرض وما بينهما، وهي المخلوقات التي خلقت في ستة أيام، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك. وذكر السماوات والأرض بما يدل على خلقهما، وذكر ما قبلهما بما يدل على كونه ووجوده، ولم يتعرض لابتداء خلقه له.

---

(١) قال شيخ الإسلام: «إنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله. وقد روي: «معه» [رواية «معه» لا توجد في البخاري] وروي «غيره» والألفاظ الثلاثة للبخاري، والمجلس كان واحداً. وسؤالهم وجوابه كان في ذلك المجلس. وعمران الذي روى الحديث لم يقم منه حين انقضى المجلس، بل قام لما أخبر بذهاب راحلته قبل فراغ المجلس، وهو المخبر بلفظ الرسول فدلّ على أنه إنما قال أحد الألفاظ، والآخران روي بالمعنى. وحينئذ فالذي ثبت عنه لفظ «القبل» ـ ثم ذكر حديث أبي هريرة عند مسلم، وقال: ـ وإذا ثبت في هذا الحديث لفظ «القبل» فقد ثبت أن الرسول ﷺ قاله. واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما أبداً. وكان أكثر أهل الحديث إنما يروونه بلفظ «القبل»... وإذا كان إنما قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله» لم يكن في هذا اللفظ تعرّض لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق» (مجموع فتاواه: ١٨/٢١٦).

* أيضاً: فإنه إذا كان الحديث قد ورد بهذا وهذا، فلا يجزم بأحدهما إلا بدليل، فإذا رجح أحدهما، فمن جزم بأن الرسول أراد المعنى الآخر فهو مخطىء قطعاً، ولم يأت في الكتاب ولا في السنّة ما يدلّ على المعنى الآخر، فلا يجوز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث.

ولم يرد «كان الله ولا شيء معه» مجرداً، وإنما ورد على السياق المذكور فلا يظن أن معناه الإخبار بتعطيل الرب تعالى دائماً عن الفعل حتى خلق السماوات والأرض.

* وأيضاً: فقوله ﷺ: «كان الله ولا شيء «قبله»، أو «معه» أو «غيره»، وكان عرشه على الماء» ــ لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلاً، لأن قوله: «وكان عرشه على الماء» يردّ ذلك. فإن هذه الجملة ــ وهي: «وكان عرشه على الماء» إما حالية أو معطوفة.

وعلى كلا التقديرين فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت، فعلم أن المراد: ولم يكن شيء من هذا العالم المشهود»[1].

تقويم القول بجواز حوادث لا أول لها:

يعتبر صاحب «شرح العقيدة الطحاوية» موفّقاً في عرض الأمور الاعتقادية على منهج السلف الصالح، وهو يقرر المسائل في ضوء الكتاب والسنّة، ولأجل هذا نرى أنه يوافق شيخ الإسلام، بل يستفيد من كتاباته كثيراً.

وقد قوّم القول بجواز حوادث لا أول لها فقال:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١٤٠ ــ ١٤١).

«وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها، من القائلين لا آخر لها فأظهر في الصحة من قول من فرّق بينهما[1] فإنه سبحانه لم يزل حياً، والفعل من لوازم الحياة، فلم يزل فاعلاً لما يريد، كما وصف بذلك نفسه حيث يقول: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج: ١٥ ــ ١٦].

والآية تدل على أمور:

(أحدها): أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته.

(الثاني): أنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه وأن ذلك من كماله سبحانه، ولا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال، في وقت من الأوقات وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ١٧] ولما كان من أوصاف كماله، ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

(الثالث): أنه إذا أراد شيئاً فعله. فإن «ما» موصولة عامة، أي يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله.

وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد، فتلك لها شأن آخر. . .

(الرابع): أن فعله وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعل فَعَلَ، وما فَعَلَه فقد أراده، بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريده. فَمَا ثَمَّ فَعَّالٌ لما يريد إلا الله وحده.

(الخامس): إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له

---

(١) أي من قال بجوازه في المستقبل دون الماضي. وأما قول الجهم والعلّاف في منعه مطلقاً في الماضي والمستقبل فهو ظاهر الفساد. كما تقدّم.

إرادة تخصّه. وهذا هو المعقول في الفطر، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام، ويفعل ما يريد.

(السادس): أن كل ما صحّ أن تتعلّق به إرادته جاز فعله. فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري عباده نفسه وأن يتجلّى لهم كيف شاء، ويخاطبهم، ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه ـ لم يمتنع عليه فعله، فإنه تعالى فعال لما يريد.

وإنما يتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر وجب التصديق وكذلك محو ما يشاء، وإثبات ما يشاء، كل يوم هو في شأن سبحانه وتعالى.

والقول بأن الحوادث لها أول، يلزم منه التعطيل قبل ذلك، وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلاً. ولا يلزم من ذلك قِدَم العالم، لأن كل ما سوى الله تعالى محدث ممكن الوجود، موجود بإيجاد الله تعالى له، ليس له من نفسه إلا العدم، والفقر والاحتياج وصف ذاتي لازم لكل ما سوى الله تعالى، والله تعالى واجب الوجود لذاته، غني لذاته، والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى»[1].

نفي حلول الحوادث بين الردّ والقبول:

ماذا يريد أهل الكلام من نفي حلول الحوادث؟ ومتى يكون هذا النفي صحيحاً ومتى يكون باطلاً؟

قد فصّل صاحب «شرح الطحاوية» هذه الأمور فقال:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١٣٧ ـ ١٣٨).

«إن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفاً بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل. ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، فقدها صفة نقص. ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده.

ولا يرد على هذه، صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها:

كالخلق، والتصوير، والإماتة، والإحياء، والقبض، والبسط، والطيّ، والاستواء، والإتيان، والمجيء، والنزول، والغضب، والرضى، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك ــ رضي الله عنه ــ لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤] وغيرها، كيف استوى؟ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»(١).

وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»(٢) لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع. ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن.

ألا ترى أن من تكلم اليوم، وكان متكلماً بالأمس لا يقال: إنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم لأنه لآفةٍ كالصغر والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفةٍ يسمى متكلماً بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء. وفي حال تكلّمه يسمى متكلماً بالفعل.

---

(١) وتتمته: «والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

(٢) البخاري (٦/ ٣٧١)، ومسلم برقم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته الكتابة.

وحلول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنّة. وفيه إجمال:

فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن ــ فهذا نفي صحيح.

وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى ــ لا كأحد من الورى ــ ، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان ــ كما يليق بجلاله وعظمته ــ فهذا نفي باطل.

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفي الحوادث، فيسلّم السنيّ للمتكلم ذلك، على أنه ظن أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله. فإذا سلّم له هذا النفي ألزمه نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل، وهو غير لازم له. وإنما أتى السنّي من تسليم هذا النفي المجمل، وإلا فلو استفسر واستفصل لم ينقطع معه.

وكذلك مسألة الصفة: هل هي زائدة على الذات أم لا؟ لفظها مجمل. وكذلك لفظة «الغير» فيه إجمال. فقد يراد به ما ليس هو إياه، وقد يراد به ما جاز مفارقته له.

. . . إذا كان لفظ «الغير» فيه إجمال، فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها ــ فهذا غير صحيح.

وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة ــ فهذا حق.

ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها. وإنما يفرض الذهن ذاتاً وصفة كلاً وحده، ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة، فإن هذا محال. ولو لم يكن إلا صفة الوجود، فإنها لا تنفك عن الموجود، وإن كان الذهن يفرض ذاتاً ووجوداً، يتصور هذا وحده، وهذا وحده، لكن لا ينفك أحدهما عن الآخر في الخارج»[1].

بعض الشبهات:

* قال الحافظ ابن حجر عند شرح حديث عمران بن حصين:

«وقوله: (كان الله ولم يكن شيء قبله)، تقدم في «بدء الخلق» بلفظ «ولم يكن شيء غيره»، وفي رواية أبي معاوية «كان الله قبل كل شيء»، وهو بمعنى كان الله ولا شيء معه ــ وهي أصرح في الرد على من أثبت حوادث لا أول لها من رواية الباب وهي من مستشنع المسائل المنسوبة لابن تيمية، ووقفت في كلام له على هذا الحديث يرجح الرواية التي في هذا الباب على غيرها، مع أن قضية الجمع بين الروايتين تقتضي حمل هذه على التي في بدء الخلق، لا العكس، والجمع يقدّم على الترجيح بالاتفاق»[2].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١٢٧ ــ ١٣٠).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٤١٠) طبعة السلفية.

(فائدة) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٢٨٩): «وقع في بعض الكتب في هذا الحديث «كان الله ولا شيء معه. وهو الآن على ما عليه كان». وهي زيادة ليست في شيء =

إن شيخ الإسلام ابن تيمية اختار ترجيح رواية «قبله» على غيرها، لأن المجلس كان واحداً، ولم يقل النبيّ ﷺ إلا أحد الألفاظ الثلاثة، وقد ورد «القبل» في رواية مسلم أيضاً، في الدعاء المأثور، فاستأنس به[1].

وعلى هذا لم يكن في هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق، ولا سئل عنه بل كان السؤال عن أول هذا العالم المشهود (جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر) إشارة إلى حاضر مشهود موجود.

وكذلك لم يرد «كان الله ولا شيء معه» مجرداً، وإنما ورد على السياق المذكور فلا يظن أن معناه: الإخبار بتعطيل الرب تعالى دائماً عن الفعل حتى خلق السماوات والأرض. وهو الذي يراد بامتناع حوادث لا أول لها، لأنهم يريدون به نفي الصفات الفعلية والاختيارية[2].

* ذكر بعض خصوم شيخ الإسلام الذين يتأججون عليه حقداً أنه يرى «قيام الحوادث بذات الله تعالى»[3] مستدلين بأقواله في منهاج السنّة وغيره من الكتب.

وقد تقدم أن أهل السنّة يثبتون لله عز وجل صفات الكمال الذاتية والفعلية. وصفات الفعل والصفات الاختيارية تحدث في وقت دون وقت. وهذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن.

= من كتب الحديث نبّه على ذلك العلامة تقي الدين ابن تيمية. وهو مسلّم في قوله «وهو الآن» إلى آخره...».

(١) كما تقدم آنفاً عند ترجيح القول الثاني.

(٢) كما تقدم آنفاً بشيء من التفصيل.

(٣) مقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٦٠)، والتوفيق الرباني (٦٨، ٧٦).

أما أهل الكلام المذموم، فإنهم يريدون بنفي حلول الحوادث، نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء كما يليق بجلاله وعظمته ــ فلا تغتر بقولهم فإنه يؤدي إلى تعطيل الرب عزّ وجلّ.

* قال كمال أبو المنى أحد جهمية عصرنا المشبوه تحت عنوان «حال ابن تيمية عند السبكي» في «التوفيق الرباني» (ص ٣١):

وأما ما وجد في بعض النسخ السقيمة في كتابه «شفاء السقام»[١] عند ذكر ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فلا يدفع هذا النص الصريح في تكفيره، ولا سيما والحال أن من جملة ما اعتمد عليه في تكفيره قوله بحوادث لا أول لها، أي أزلية العالم[٢] فإنه ممن انعقد الإجماع على تكفير قائله.

فكيف يصدر من السبكي بعد هذا، بعد ذكر ابن تيمية ــ رحمه الله ــ ؟[٣].

وكيف يقول عنه ــ رحمه الله ــ ، ويقول عنه:

---

(١) ردّ عليه العلامة ابن عبد الهادي تلميذ شيخ الإسلام في كتابه «الصارم المنكي في الرد على السبكي».

(٢) تقدم أن القول بأن الحوادث لها أول، قول الجهمية والمعتزلة والأشعرية والكرامية، وتقدم أيضاً أنهم يريدون بنفي الحوادث نفي الصفات الاختيارية.
وكذلك تقدم في مبحث مستقل أن القول بإمكان حوادث لا أول لها مبطل للقول بقدم العالم وأزليته. وهكذا صدق على كمال أبو المنى وغيره قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة هود: ١٦].

(٣) راجع ثناء السبكي على شيخ الإسلام ابن تيمية، في الباب الخامس من هذا الكتاب.

يـــرى حـــوادث لا مبـــدأ لأولهـــا   فـــي الله سبحـانـه عمـا يظـنّ بـه[1]

ويزيد ذلك تأييداً قول الحافظ ابن حجر في شرح البخاري ما نصه:

«فقد حكى عياض وغيره الإجماع على تكفير من يقول بقدم العالم[2] وقال ابن دقيق العيد: وقع هنا من يدّعي الحزق في المعقولات، ويميل إلى الفلسفة، وظن أن المخالف في حدوث العالم لا يكفّر، لأنه من قبيل مخالفة الإجماع. وتمسّك بقولنا: إن منكر الإجماع لا يكفّر على الإطلاق حتى يثبت النقل بذلك متواتراً عن صاحب الشرع.

قال: هو تمسّك ساقط، إما عن عمى في البصيرة، أو تعامٍ لأن حدوث العالم من قبيل ما اجتمع فيه الإجماع والتواتر بالنقل»[3].

شيخ الإسلام يردّ على الشبهات:

كان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ رجلاً موسوعياً موهوباً، موفّقاً في مناقشة المسائل في ضوء الأدلة من الكتاب والسنّة، وإذا

---

(١) راجع الأبيات في طبقات الشافعية للتاج السبكي (٦/ ١٦٠). وقد ردّ على هذه الأبيات العلامة أبو المظفر يوسف بن محمد العقيلي السرمريّ، والعلامة أبو عبد الله محمد بن جمال الدين يوسف الشافعي اليمني في القصيدتين الفاخرتين المنشورتين بتحقيق المؤلف.

(٢) تقدم أن كتب شيخ الإسلام مليئة بالرد على قول الفلاسفة بقدم العالم، ونَسَبهم لأجله إلى «الكفر مع غاية الجهل والضلال» (كما تقدم). ولكن خصومه ـ فيما يظهر ـ يصرون على أن القول بوجود حوادث لا أول لها، يؤدي إلى القول بقدم العالم. وما ألزموه ليس بلازم كما تقدم بالتفصيل أيضاً أن هذا القول مبطل لقدم العالم، لا مثبت له.

(٣) فتح الباري شرح البخاري لابن حجر (١٢/ ١٧٠).

بدا له الحق لم يلبث أن يصدع به رضي الناس أم أبوا. وزاحم أعلام الأمة بجدارة وحق في ترجيح المسائل، بدون أن يتأثر بتقليد المقلّدين، وكلام المتكلمين، وفلسفة المتفلسفين.

وكذلك لم يكن يغفل عما نسبه إليه خصومه المتأثرون بالكلام المذموم من «مستشنع المسائل» في نظرهم، وما ألزموه ما لا يلزم من كلامه. وقد ردّ على جميع الشبهات التي أوردت عليه، في كتبه وفتاواه. وهي تكفي لمن يريد الحق، ويبحث عن القول الفصل في المسائل التي حصل فيها لغط كثير بين الناس.

لقد فصّل شيخ الإسلام في قضية «القول بوجود حوادث لا أول لها» بما لا مزيد عليه، وبيّن أسباب خطأ الناس فيها ما يردّ على تلك الشبهات التي نقلها الحافظ ابن حجر عن بعض العلماء. فقال في «شرح حديث عمران بن حصين»:

(الوجه الحادي عشر): أن كثيراً من الناس يجعلون هذا عمدتهم من جهة السمع: أن الحوادث لها ابتداء، وأن جنس الحوادث مسبوق بالعدم، إذ لم يجدوا في الكتاب والسنّة ما ينطق به، مع أنهم يحكون هذا عن المسلمين، واليهود، والنصارى، كما يوجد مثل هذا في كتب أكثر أهل الكلام المبتدع في الإسلام الذي ذمّه السلف، وخالفوا به الشرع والعقل.

وبعضهم يحكيه إجماعاً للمسلمين، وليس معه بذلك نقل، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن الكتاب والسنّة فضلاً عن أن يكون هو قول جميع المسلمين[1].

---

(١) كما ذكر ابن حزم: «باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماع» ثم =

وبعضهم يظن أن من خالف ذلك فقد قال بقدم العالم[1]، ووافق الفلاسفة الدهرية، لأنه نظر في كثير من كتب الكلام فلم يجد فيها إلا قولين:

* قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم إما صورته، وإما مادته، سواء قيل: هو موجود بنفسه، أو معلول لغيره.

وقول من ردّ على هؤلاء من أهل الكلام: الجهمية، والمعتزلة، والكرامية الذين يقولون: إن الرب لم يزل لا يفعل شيئاً ولا يتكلم بشيء، ثم أحدث الكلام والفعل بلا سبب أصلاً.

وطائفة أخرى كالكلابية ومن وافقهم يقولون: بل الكلام قديم العين إما معنى واحد إما أحرف وأصوات قديمة أزلية قديمة الأعيان.

ويقول هؤلاء: إن الرب لم يزل لا يفعل شيئاً، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته، ثم حدث ما يحدث بقدرته ومشيئته، إما قائماً بذاته أو منفصلاً عنه عند من يجوز ذلك، وإما منفصلاً عنه عند من لم يجوّز قيام ذلك بذاته.

= قال: «واتفقوا أن الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له خالق كل شيء غيره، وأنه تعالى لم يزل وحده، ولا شيء غيره معه ثم خلق الأشياء كلها كما شاء...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأعجب من ذلك حكايته الإجماع على كفر من نازع أنه سبحانه لم يزل وحده، ولا شيء غيره معه...» (نقد مراتب الإجماع ص ١٦٨). انتبه لكلام ابن حزم فإنه يؤدي إلى تعطيل الرب تعالى وهو الذي تعجّب منه شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ.

ولكن «كمال أبو المنى» في التوفيق الرباني (ص ٧٦) عدّه ذنباً على شيخ الإسلام، لقلّة معرفته بكلام العلماء وبطره الحق، وغمطه الناس.

(١) كما تقدم من كلام السبكي وغيره، الذي يتشبّث به خصوم شيخ الإسلام، ويلزمونه ما لا يلزم عناداً.

ومعلوم أن هذا القول أشبه بما أخبرت به الرسل من أن الله خالق كل شيء، وأن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

فمن ظن أنه ليس للناس إلا هذان القولان، وكان مؤمناً بأن الرسل لا يقولون إلا حقاً، يظن أن هذا قول الرسل ومن اتبعهم.

ثم إذا طولب بنقل هذا القول عن الرسل لم يمكنه ذلك، ولم يمكن لأحد أن يأتي بآية ولا حديث يدل على ذلك، لا نصاً ولا ظاهراً، بل ولا يمكنه أن ينقل ذلك عن أحد من أصحاب النبيّ ﷺ والتابعين لهم بإحسان.

وقد جعلوا ذلك معنى حدوث العالم الذي هو أول مسائل أصول الدين عندهم[1].

فيبقى أصل الدين الذي هو دين الرسل عندهم، وليس عندهم ما يعلمون به أن الرسول قاله، ولا في العقل ما يدلّ عليه، بل العقل والسمع يدل على خلافه.

ومن كان أصل دينه الذي هو عنده دين الله ورسوله، لا يعلم أن الرسول جاء به كان من أضلّ الناس في دينه.

(الوجه الثاني عشر): إنهم لما اعتقدوا أن هذا هو دين الإسلام أخذوا يحتجون عليه بالحجج العقلية المعروفة لهم. وعمدتهم التي هي أعظم الحجج، مبناها ذلك إثباتاً لحدوث الأجسام، فلزمهم على ذلك نفي صفات الرب عزّ وجلّ، وأنه ليس له علم، ولا قدرة، ولا كلام يقوم به، بل كلامه مخلوق منفصل عنه، كذلك رضاه وغضبه.

---

(١) اهتمامهم بمثل هذه الأمور الكلامية والفلسفية جعل كتبهم في «العقائد» تحتوي على كل شيء غير «العقائد».

والتزموا على ذلك أن الله لا يُرى في الآخرة، وأنه ليس فوق العرش، إلى غير ذلك من اللوازم التي نفوا بها ما أثبته الله ورسوله. وكان حقيقة قولهم تكذيباً لما جاء به الرسول ﷺ. وتسلّط أهل العقول على تلك الحجج التي لهم فبيّنوا فسادها.

وكان ذلك مما سلّط الدهرية القائلين بقدم العالم، لما علموا حقيقة قولهم وأدلتهم ونسوا فساده.

ثم لما ظنوا أن هذا قول الرسول ﷺ واعتقدوا أنه باطل قالوا: إن الرسول لم يبيّن الحقائق سواء علمها أو لم يعلمها، وإنما خاطب الجمهور بما يخيل لهم ما ينتفعون به.

فصار أولئك المتكلمون النفاة مخطئين في السمعيات والعقليات، وصار خطؤهم من أكبر أسباب تسلّط الفلاسفة.

لما ظن أولئك الفلاسفة الدهرية أنه ليس في هذا المطلوب إلا قولان: قول أولئك المتكلمين، وقولهم، وقد رأوا أن قول أولئك باطل، فجعلوا ذلك حجّة في تصحيح قولهم، مع أنه ليس للفلاسفة الدهرية على قولهم بقدم الأفلاك حجة عقلية أصلاً، وكان من أعظم أسباب هذا أنهم لم يحققوا معرفة ما بعث الله به رسوله ﷺ»[1].

بعد هذا البيان الشافي، والكلام المقنع هل يرمى شيخ الإسلام ابن تيمية بما ليس فيه إلا رجل حقود، أو إمعة بليد لا يفرّق بين اليمين والشمال؟

إن كنت لا تدري بأنك لا تدري ... فذاك إذاً جهل مضاف إلى جهل

• • •

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٨/ ٢٢٤ ـ ٢٢٧).

مسألة خلود الجنّة والنار



مسألة خلود الجنّة والنار

نقل شيخ الإسلام في بعض كتاباته ــ كما نقل عنه تلميذه ابن قيم الجوزية[1] ــ القول بفناء النار، مستدلاً عليه ببعض الآيات والأحاديث والآثار ــ مما جعل خصومه يرمونه بخرق الإجماع في هذه المسألة.

وبناءً عليه لم يتأخروا في تبديعه وتضليله، بل وتكفيره أيضاً، شفاءً لغيظهم، وتشويهاً لسمعته عند أذيالهم من سفهاء الأحلام.

والحق أن شيخ الإسلام إن وجد ميلُه في بعض كتاباته إلى القول بفناء النار، فقد وجد قوله الصريح أيضاً بخلودها وعدم فنائها. فلماذا يصرّ خصومه على نسبة القول الأول إليه، مع تغاضيهم عن القول الآخر؟ أم مثلهم كمثل الذين قال فيهم الشاعر:

إذا رأوا هفوة طاروا بها فرحاً   مني ما علموا من صالح دفنوا

---

(١) راجع «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (٣٩٠ ــ ٤٢٤) تحقيق الدكتور السيد الجميلي دار الكتاب العربي. ط. ثانية (١٤٠٦هـ) وقال: «وأما أبدية النار ودوامها، فقال فيها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين...».

أقوال شيخ الإسلام في عدم فناء النار:

نعرض هنا بعض أقواله الصريحة في عدم فناء النار، وما يدل عليه من كلامه، ليعلم الأغرار الذين هلكوا فيه تبعاً لأهواء خصومه: أن هناك قولاً آخر أيضاً لهذا العالم الجليل، يرجى أنه هو الأخير، تبعاً لمذهب سلف الأمة وأئمتها، الذي قضى حياته في تأييده ونصرته، حينما تخاذل معاصروه من فقهاء الدولة وقضاتها.

* «وسئل عن حديث أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ أنه قال: «سبعة لا تموت ولا تفنى، ولا تذوق الفناء: النار، وسكانها، واللوح، والقلم، والكرسي، والعرش» فهل هذا الحديث صحيح أم لا؟.

فأجاب: هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبيّ ﷺ، وإنما هو من كلام بعض العلماء.

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها، وسائر أهل السنّة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية: كالجنّة والنار والعرش وغير ذلك.

ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين...»[1].

* وقال شيخ الإسلام وهو في معرض الإجابة عن التسلسل:

«قالوا: والتسلسل في المستقبل جائز عند جماهير المسلمين وغيرهم من أهل الملل وغير أهل الملل. فإن نعيم الجنّة، وعذاب النار دائمان، مع تجدد الحوادث فيهما. وإنما أنكر ذلك الجهم بن صفوان، فزعم أن الجنّة

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٨/ ٣٠٧).

والنار تفنيان، وأبو الهذيل العلاّف زعم أن حركات أهل الجنة والنار تنقطع، ويبقون في سكون دائم.

وذلك أنهم لما اعتقدوا أن التسلسل في الحوادث ممتنع في الماضي والمستقبل، قالوا هذا القول الذي ضللّهم به أئمة الإسلام...»[1].

* ذكر الإمام أحمد نصوصاً كثيرة في خلود الجنة والنار رداً على الجهمية في كتابه «الردّ على الزنادقة»، وهو من المراجع المعتمدة عند ابن تيمية[2] وغيره. فلا غرابة إذن أن يصرّح ببقاء النار اتباعاً لسلف الأمة وأئمتها[3].

* ذكر الإمام ابن حزم في كتابه «مراتب الإجماع» (ص ١٧٣) إجماع المسلمين فقال:

«... وأن النار حق وأنها دار عذاب لا تفنى، ولا يفنى أهلها أبداً بلا نهاية».

وأقرّه شيخ الإسلام أحمد بن تيمية خلافاً لغيرها من المسائل التي

---

(١) منهاج السنّة (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

(٢) انظر «مجموع فتاواه» (٣/ ٦٦)، (٤/ ٦٩ ـ ٧٠، ٢١٧)، (٦/ ١٥٣)، (٨/ ٣٨٥، ٤٠٩، ٤١٦)، (١٣/ ١٤٤، ٣١٠)، (١٥/ ٢٨٤)، (١٦/ ٢١٣، ٤٠٨، ٤٧٢)، (١٧/ ٣٩١، ٤١٤) من إفادات الشيخ الألباني في مقدمة «رفع الأستار».

(٣) راجع «رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» للصنعاني (١٦ ـ ١٧ مقدمة الألباني) طبعة المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

تعقبه[1] فيها»[2].

الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل:

ذكر العلامة محمد ناصر الدين الألباني بعض المسائل التي رجع عنها شيخ الإسلام ابن تيمية ثم قال:

«ولا غرابة في أن يكون لمثله أكثر من قول واحد في بعض المسائل، وأن يخطىء في بعض آخر، فإن ذلك من الأمور الطبيعية التي لا يخلو منها أحد من العلماء بعد رسول الله ﷺ.

فإن من المعلوم أن أحدهم كلما طال به الزمن في طلب العلم، وتقدم به في ذلك العمر، كلما ازداد به معرفة ونضجاً. وهذا هو السبب في كثرة الأقوال التي تروى في المسألة الواحدة عن بعض الأئمة المتبوعين، وبخاصة منهم الإمامين: أحمد وأبا حنيفة، وتميز الإمام الشافعي من بينهم بمذهبه القديم والجديد.

«وهذا أبو الحسن الأشعري ـ إمام الأشاعرة في العقيدة ـ نشأ في الاعتزال أربعين عاماً يناظر عليه، ثم رجع عن ذلك، وصرّح بتضليل المعتزلة وبالغ في الرد عليهم»[3]...

«وهذا هو السبب الذي يحملني على أن لا أحابي في ذات الله أبا، أو

---

(1) كما تقدم نقلاً عن «نقد مراتب الإجماع» تعقبه على ابن حزم في نقله الإجماع على كفر من نازع أنه سبحانه لم يزل وحده ولا شيء غيره معه. لأنه يلزم منه إنكار الصفات الذي يؤدي إلى تعطيل الربّ سبحانه وتعالى فلينتبه.

(2) رفع الأستار (ص ١٧ ـ مقدمة الألباني).

(3) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٤/ ٧٢).

أداري في دين الله أحداً، فترانا هنا نرد على شيخ الإسلام ابن تيمية قوله بفناء النار، ولا نداريه، مع عظمته في نفوسنا، وجلالته في قلوبنا، فضلاً عن أننا لا نقلّده في ديننا، خلافاً لما عليه عامة المقلّدة الذين يحملهم إجلالهم لإمامهم على تقليده، ونبذ قول كل من خالفه، حتى ولو كان المخالف هو النبيّ محمداً ﷺ، بدل أن يتخذوه وحده قدوةً، ولا يشركوا معه في ذلك أحداً، كما هو الواجب، بل إنهم ليصرحون خلاف ذلك...

وإذا كان هذا موقف المقلّدة من رسول الله ﷺ فماذا يكون موقفهم من المحبين له، المخلصين في الاقتداء به، ولا سيما إذا كان من العلماء العاملين المعروفين بالرد على كل من خالف شرعة رب العالمين، كابن عربي وابن الفارض القائلين بوحدة الوجود، وأن الخالق هو عين المخلوق، وعلى غيرهم من علماء الكلام والمتصوّفة والمقلّدة وسائر الهالكين من الأنام ــ ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فإننا نرى المقلّدة في كل عصر ومصر، يعادونه أشدّ العداء، لا سيما إذا عثروا له قولاً خالف فيه العلماء ــ كمسألتنا هذه ــ فهناك تراهم يصولون ويجولون، ومن عرضه ينالون، وفي دينه يطعنون، بل بالكفر والضلال يصرّحون، كما يفعل الكوثري والحبشي وغيرهما اليوم. وهم ــ مع الأسف ــ كثيرون، ولكنهم غثاء كغثاء السيل لأنهم بالقرآن لا يعملون، بل هم عنه يعدلون إلى تحكيم أهوائهم وإلا فأين هم من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: ٨].

فهل من العدل في شيء أن يتخذوا شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ غرضاً للتكفير والتضليل لقوله هذا ونحوه من الأقاويل، ولا ينبسون ببنت شفة في

حق ابن عربي[1] مثلاً الذي ملأ الدنيا بالكفريات والأضاليل، وهلك بسببه الألوف المؤلفة من خاصة المسلمين فضلاً عن عامتهم المهابيل، فضلّوا جميعاً عن سواء السبيل مع البون الشاسع والفرق اللامع بين الرجلين...

ومالنا نذهب بعيداً فهناك بعض الأئمة المتقدمين ممن يقلدهم اليوم جماهير المسلمين ممن خالف في بعض الأمور لأدلة الكتاب والسنّة الصريحة وأقوال سلف هذه الأمة... فلماذا مع ذلك يعتذر عنه بعض المقلّدين وجمهورهم له يقلّدون، وعن ابن تيمية يزورّون، بل وله يعادون، والحكم واحد فهلا ساقوهما مساقاً واحداً، واعتذروا عنهما كليهما معاً بجامع كونهما من أفاضل العلماء الأتقياء، أم الأمر كما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

ولست بالذي يتتبّع عثرات العلماء، وإنما هي الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون فينصفون ابن تيمية ولا يظلمون...»[2].

رأي الإمام ابن القيم في القول بفناء النار:

كتب الإمام ابن القيم في «حادي الأرواح»[3] مبحثاً طويلاً في الفرق

---

(١) بل يؤولون كلامه، ويتكلفون لتعديله، كما يفعل ابن حجر الهيتمي، في حين ينسب شيخ الإسلام إلى الضلال. ولله در القائل:

فــرصــاص مــن أحببتــه ذهــبٌ كمــا ذَهَبُ الذي لم ترض عنه رصاص

راجع «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» للسيد نعمان الآلوسي (ص ٥٢٦) مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٨١هـ.

(٢) راجع «رفع الأستار (٢٨ ــ ٣١) باختصار.

(٣) حادي الأرواح (٣٩٠ ــ ٤٢٤).

بين دوام الجنة والنار، وعرض أدلة الفريقين في هذه المسألة الخطيرة وقال في آخرها:

«فهذا نهاية أقدام الفريقين في هذه المسألة، ولعلّك لا تظفر به في غير هذا الكتاب.

فإن قيل: فإلى أين انتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن، التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة؟.

قيل: إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ [سورة هود: ١٠٧] وإلى هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فيها، حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنّة، وأهل النار النار، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء وقال: ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء.

بل وإلى هنا انتهت أقدام الخلائق. وما ذكر في هذه المسألة، بل في الكتاب كلّه من صواب فمن الله سبحانه، وهو المانّ به، وما كان من خطأ، فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريء منه، وهو عند لسان كل قائل وقلبه وقصده، والله أعلم»[1].

رأي خبراء كتابات ابن القيم في هذه المسألة:

إذا تتبعنا كتابات الفضلاء الذين لهم اطلاع واسع على كتابات ابن القيم نرى أنهم ينصون فيها في ضوء الأدلة على أنه لم يقطع بالقول بفناء النار، وإن مال إليه، بل ترك الأمر إلى مشيئة الله تعالى.

* قال الشيخ نعمان الآلوسي:

---

(١) المصدر المذكور (ص ٤٢٤).

«واعلم أن الإمام ابن القيم ـ قدّس الله تعالى روحه ـ انتصر لهذا القول انتصاراً عظيماً، ومال إليه ميلاً جسيماً، وذكر له خمسة وعشرين دليلاً، ثم رجع القهقرى، وقال: إن قيل: إلى أين تنتهي قدمك... قيل: إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝﴾ [سورة هود: ١٠٧][(١)].

* وقال الدكتور عبد الله محمد جار النبيّ في مسألة «أبدية النار وفنائها عند ابن القيم»:

«كثر الكلام في هذا الموضوع عند من أرّخوا لابن القيم والسبب في ذلك أنه عندما كان يتعرض للمسألة كان يروي رأي وحجة الفريقين بحيدة تامة، ويعطي لكل فريق أدلّته على رأيه، كما لو كان صاحب الرأي هو الذي يرويها...

ومن هنا ظنّ الكثير عندما رأى شرح ابن القيم لوجهة نظر من يقول بفناء النار، أن ابن القيم يقول بهذا الرأي. ولو كان قرأ الموضوع لنهايته لعرف رأي ابن القيم. فنراه بعد أن ينتهي من عرض رأي الفريقين وحججهم يقول:

«فإن قيل: أن ينتهي قدمكم في هذه المسألة... قيل: إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝﴾.

فابن القيم حين ينهي بحث المسألة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝﴾ يعطينا نصاً على أنه لا يقول بوجوب فناء النار، كما ظنّ البعض.

ولكن رأيه أن المسألة تحت إرادة الله وقدرته، فإن أراد فناءها أفناها، وإن أراد بقاءها أبقاها، بدون وجوب لأحد الطرفين: الفناء والأبدية.

---

(١) جلاء العينين (ص ٤٢١).

فإذا ما انتقلنا من هذا النص ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ الذي يجعل الأمر بإرادة الله وقدرته ـ وهو كل ما عند من ينسب إلى ابن القيم القول بفناء النار ـ إلى نصوص أخرى نجد أنه ينص على أبدية النار، فيقول:

«ولما كان الناس على ثلاث طبقات:

ـ طيب لا يشوبه خبث.

ـ وخبيث لا طيب فيه.

ـ وآخرون فيهم خبث وطيب.

كانت دورهم ثلاثة:

ـ دار الطيب المحض.

ـ ودار الخبث المحض ـ وهاتان الداران لا تفنيان.

ـ ودار لمن معه خبث وطيب، وهي الدار التي تفنى، وهي دار العصاة. فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد، فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار، فأدخلوا الجنّة، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض، ودار الخبث المحض»[1].

بل ويجعل القول بأبدية النار وهو رأي أهل السنّة والجماعة... فيقول ابن القيم حاكياً قول حرب:

«... ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنّة والنار، وقد خلقت الجنّة وما فيها، وخلقت النار وما فيها خلقهما عزّ وجلّ، وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان، ولا يفنى ما فيهما أبداً.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم (ص ٢٠) دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢هـ.

فإذا احتجّ مبتدع أو زنديق بقول الله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص: ٨٨] وبنحو هذا من متشابه القرآن. . .

قيل له: كلّ شيء عليه الفناء والهلاك هالك. والجنّة والنار خلقهما للبقاء، لا للفناء، ولا للهلاك، وهو من الآخرة لا من الدنيا. . .»[١].

يقول ابن القيم معلّقاً على ما ذكره حرب من عقائد أهل السنّة والجماعة ومن بينها مسألة عدم فناء الجنّة والنار:

«قلت: حرب هذا صاحب أحمد وإسحاق، وله عنهما مسائل جليلة، وأخذ عن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي، وهذه الطبقة. وقد حكى هذه المذاهب عنهم واتفاقهم عليها.

ومن تأمل المنقول عن هؤلاء، وأضعاف أضعافهم من أئمة السنّة والحديث وجده مطابقاً لما نقله حرب. . . فهذا مذهب المستحقين لهذه البشرى قولاً وعملاً واعتقاداً. وبالله التوفيق»[٢].

ومن هذا وغيره يتبيّن لنا أن ابن القيم لا يقول بفناء النار. وإنما سبب الاختلاط أنه كان يحكي رأي الذين يقولون بالفناء بأسلوب يشعر القارىء كأنه يناصرهم، كما ذكرنا ذلك سابقاً.

ومما يبعد قضيّة القول بفناء النار عن ابن القيم ما نقرأ قوله بعد ذكر رأي المذاهب في هذه المسألة حيث يقول:

---

(١) حادي الأرواح (ص ٤٤٨).

(٢) المصدر المذكور (ص ٤٥١).

«فهذه نهاية أقدام الفريقين[١] في هذه المسألة»[٢].

* وقال العلامة الألباني بعدما ذكر تصريح شيخ الإسلام بعدم فناء النار:

«ومن العجيب أن هذا القول بعدم فنائها هو مما ذهب إليه ابن القيم ـ رحمه الله ـ كما يدل عليه ظاهر كلامه في كتاب «الروح» (ص ٣٤ ـ طبعة صبيح). بل ذلك ما صرّح به في بعض كتبه:

١ ـ قال في «الكافية الشافية»:

ثمانية حكم البقاء يعمّها ... من الخلق والباقون في حيّز العدم
هي العرش والكرسي ونار وجنة ... وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم[٣]

٢ ـ وأصرح منه ما كنت نقلته عنه في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، في كتابه «الوابل الصيب»[٤].

٣ ـ تصريحه في مقدمة كتابه العظيم: «زاد المعاد في هدي خير العباد» بأن المشرك لا تطهره النار، ولو أخرج منها عاد خبيثاً كما كان، وقد حرّم الله عليه الجنّة»[٥].

---

(١) المصدر المذكور (ص ٤٢٤).

(٢) راجع للتفصيل «ابن قيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف» للدكتور عبد الله جار النبيّ (٥٦٧ ـ ٥٧٥) طبعة مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ١٤٠٦هـ.

(٣) «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم» (١/٩٦). (والبيتان للسيوطي، وعنه في «كشف الأستار» لليماني (ص ٤٤) (من إفادات الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد حفظه الله تعالى)، وعلى هذا لا يتم الاستدلال بهما على المقصود ههنا.

(٤) كما تقدم آنفاً.

(٥) راجع «رفع الأستار» (١٧ ـ ١٨ مقدمة الألباني).

* وقال العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد[1]:

«بحث ابن القيم مسألة أبدية النار وفنائها في كتابيه (حادي الأرواح) و(شفاء العليل)، وفهم كثير من أهل العلم أن ابن القيم يقول بفناء النار، بينما أن رأيه على العكس من ذلك. فقد صرّح في كتابه (الوابل الصيب) أن النار التي لا تفنى وأن التي تفنى نار عصاة الموحدين ـ ثم نقل ما تقدم نقله وقال ـ: «وهذا مبحث عزيز المطلب ذكره استطراداً في كتابه (الوابل الصيب)[2] في شرح حديث[3] أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ»[4].

وأيضاً ذكر الدكتور بكر أبو زيد كتاب «حادي الأرواح» في الثبت التفصيلي لأسماء مؤلفات ابن القيم فقال:

(حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) طبع في مصر مراراً، آخرها طبعة محمد علي صبيح سنة ١٣٨١هـ بتصحيح محمود حسن الربيع. وله تعليقات قليلة، فيها تعقبات هو المتعقّب فيها.

---

(١) فضيلة الدكتور الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ـ حفظه الله ـ يعتبر خبير كتابات ابن القيم ـ رحمه الله ـ لأنه أعدّ فهرساً قيّماً لفقهه من خلال كتبه في أربعة أجزاء، سمّاه: «التقريب لفقه ابن قيم الجوزية». وترجم له في الجزء الأول ترجمة حافلة، أفردها في كتاب مستقل أيضاً، أسماه «ابن قيم الجوزية: حياته وآثاره». فجزاه الله خيراً.

(٢) الوابل الصيب (ص ٢٠).

(٣) هو قوله: «إن النبيّ ﷺ قال: (إن الله سبحانه أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات) الحديث. [صحيح] رواه أحمد في المسند (٤/٢٠٢)، والترمذي في سننه برقم (٢٨٦٧) (أبو زيد).

(٤) ابن قيم الجوزية: حياته وآثاره (٦٤ ـ ٦٥).

من أغاليطه: حمله كلام ابن القيم عن فناء النار أنه يقول بذلك. وهذه مسألة طالما غلط فيها جمّ غفير من أنصاره وخصومه.

فالحق أنه لا يقول بفناء نار الكافرين كما بيّن ذلك في كتابه (الوابل الصيّب). وانظر للتحقيق في هذه المسألة كتاب (ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي) للأستاذ عوض الله حجازي، من ص ٢٩٩ إلى ص ٢٢٠)[١].

ردود العلماء على شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم:

ردّ على شيخ الإسلام في هذه المسألة عديد من العلماء، ومن أبرزهم:

* التقي السبكي في كتابه «الاعتبار ببقاء الجنّة والنار»[٢].

* والأمير الصنعاني في كتابه «رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار»[٣].

---

(١) المصدر المذكور (ص ١٤٨)، و«التقريب لفقه ابن قيم الجوزية» (١/ ١٩٩) مع التعليق.

(٢) وهو مطبوع ضمن «الرسائل السبكية» وفي «التوفيق الرباني»، وفيه تحاملات كثيرة على شيخ الإسلام، لما كان بينه وبين التقي السبكي من عداوة وشحناء. والعجيب أنه لم يذكر فيه قوله الآخر بخلود النار.

(٣) مطبوع بتحقيق الشيخ الألباني. ردّ فيه الصنعاني على شيخ الإسلام مع الاعتراف بفضله وعلمه. والذي يؤاخذ على المؤلف الصنعاني أنه يعزو كل دليل ذكره ابن القيم في «حادي الأرواح» إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، مع أنه غير مصرّح بأنه من قوله. نبّه على ذلك الألباني في تعليقات على الكتاب، راجع على سبيل المثال (ص ٧٥ ت ٣١؛ ص ٧٨ ت ٣٧؛ ص ٨١ ت ٤٠؛ ص ٨٥ ت ٥١؛ ص ٨٦ ت ٥٢؛ ص ٩٠ ت ٦٠؛ ص ١١٣ ت ٩٨؛ ص ١١٥ ت ٩٩؛ ص ١١٦ ت ١٠٠؛ ص ١٢٦ ت ١٢١؛ ص ١٢٩ ت ١٢٨؛ ص ١٣٦ ت ١٣٦؛ ص ١٤٣ ت ١٤٧).

وكذلك لم ينتصر أحد من أنصار شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم لقولهما بفناء النار، مع جلالة قدرهما في العلم والفضل، والزهد والتقوى، لأن الحق أحقّ أن يتّبع.

قال العلامة الألباني:

«ولعل من ألطاف الله تعالى بالشيخين ـ رحمهما الله تعالى ـ أننا لم نر أحداً ـ فيما اطلعنا ـ تبعهما على ذلك القول بالفناء.

فهذا شارح العقيدة الطحاوية مثلاً ـ فإنه مع كونه لا يكاد يخرج فيه عما ذهب إليه ابن تيمية ـ ـ رحمه الله ـ فإنه ذكر أدلة هذا القول. ثم ذكر أدلة القول الآخر، وهي ملخصة من كلام ابن القيم، ولم يرجّح شيئاً منهما. ذكر ذلك تحت قول الطحاوي المتقدم: «والجنّة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان»[1].

وأما العلامة السفاريني، فقد رأيته تعرّض للموضوع في كتابه «شرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية»، ونقل فيه طرفاً من بحث ابن القيم، ولكنه صرّح بمخالفته. فإنه ذكر بعض الآيات المستلزمة لدوام العذاب، وحديث ذبح الموت... ثم قال (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥):

«فثبت بما ذكرنا من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة خلود أهل الدارين خلوداً مؤبداً، كل بما فيه من نعيم وعذاب أليم. وعلى هذا إجماع أهل السنّة والجماعة. فأجمعوا أن عذاب الكفار لا ينقطع، كما أن نعيم أهل الجنّة لا ينقطع. وقد ألف العلامة المرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي[2]

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٤٧٦ ـ ٤٨٨).

(٢) وهو صاحب كتاب «الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية» (مطبوع).

رسالة سمّاها (توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين)[1].

الأقوال في أبدية النار ودوامها:

قال شارح العقيدة الطحاوية:

«وأما أبدية النار ودوامها، فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

(أحدها): أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد. وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

(الثاني): أن أهلها يعذّبون فيها، ثمّ تنقلب طبيعتهم، وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم. وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي!!.

(الثالث): أن أهلها يعذّبون فيها إلى وقت محدود. ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون. وهذا القول حكاه اليهود للنبيّ ﷺ. . .

(الرابع): يخرجون منها، وتبقى على حالها وليس فيها أحد.

(الخامس): أنها تفنى بنفسها، لأنها حادثة، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه. هذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنّة والنار.

(السادس): تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً، ولا يحسّون بألم. وهذا قول أبي الهذيل العلاّف.

(السابع): أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم

---

(١) رفع الأستار (ص ٣٤ ـ مقدمة الألباني).

يبقيها شيئاً، ثم يفنيها فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه[١].

(الثامن): أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنّة، ويبقى فيها الكفّار بقاءً لا انقضاء له كما قال الشيخ [أي الطحاوي] ـ رحمه الله ـ.

وما عدا هذين القولين[٢] الأخيرين ظاهر البطلان»[٣].

ثم ذكر أدلة هذين القولين الأخيرين، ولم يرجح أياً منهما على الآخر.

شبهات الخصوم:

قال الإمام ابن القيم بعدما ذكر حديث ذبح الموت بين الجنّة والنار:

«وهذا موضع اختلف فيه المتأخرون على ثلاثة أقوال:

(أحدها): أن الجنّة والنار فانيتان غير أبديتين، بل كما هما حادثتان فهما فانيتان[٤].

(القول الثاني): أنهما باقيتان دائمتان لا تفنيان أبداً[٥].

(والقول الثالث): أن الجنّة باقية أبدية، والنار فانية[٦].

---

(١) من القول الأول إلى القول السابع منقول من «حادي الأرواح» لابن القيم (٣٩٠ ـ ٣٩٣).

(٢) قال ابن القيم في «الحادي» (ص ٣٩٠): «وأما أبدية النار ودوامها فقال فيها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين...».

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» (٤٨٣ ـ ٤٨٤).

(٤) هذا هو القول الخامس الذي قاله جهم بن صفوان.

(٥) هذا هو القول الثامن.

(٦) وهذا هو القول السابع الذي نُسِبَ إلى شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم. وقد وجد لهما من الأقوال ما يخالفه، ويؤيّد بقاءهما وخلودهما كما تقدم.

ونحن نذكر هذه الأقوال وما قابلها وما احتجّ به أرباب كل قولٍ، ونردّ ما خالف كتاب الله وسنّة رسوله.

* فأما القول بفنائهما، فهو قول قاله جهم بن صفوان إمام المعطلة الجهمية... ذكر عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «السنّة» عن خارجة بن مصعب أنه قال:

كُفِّرَت الجهميةُ بثلاث آياتٍ من كتاب الله عز وجلّ:

ـ بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [سورة الرعد: ٣٥].

وهم يقولون: لا يدوم.

ـ وبقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ [سورة ص: ٥٤].

وهم يقولون: ينفد.

ـ وبقول الله عزّ وجلّ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: ٩٦].

قال شيخ الإسلام: وهذا ما قاله جهم لأصله الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وهو عمدة أهل الكلام التي استدلّوا بها على حدوث الأجسام وحدوث ما لم يخلُ من الحوادث...

* وأما أبدية النار ودوامها، فقال فيها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين...

والذين قطعوا بدوام النار لهم ستّ طرق...

ثم ذكر كلام أصحاب الفناء على هذه الطرق، وبين الفرق بين دوام

الجنّة والنار شرعاً وعقلاً من خمسة وعشرين وجهاً»[1].

نظراً إلى ميل شيخ الإسلام في بعض أقواله إلى القول بفناء النار، ردّ عليه التقي السبكي في كتابه «الاعتبار ببقاء الجنّة والنار»، فجال فيه وصال، وجهّل وفسّق، بل بدّع وكفّر ولم يرقب فيه إلاًّ ولا ذمة، ولم يشر إلى تصريحه ببقاء النار. هكذا تكون الأمانة عند خصوم شيخ الإسلام.

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا   شـراً أذيـع وإن لـم يعلمـوا كـذبـوا

قال السبكي في آخر كتابه:

«فإن قلت: قد نقل عن جهم وأصحابه أنهم قالوا بفناء الجنّة والنار، وأن أئمة الإسلام كفّروهم بذلك...

قلتُ: من قال بفناء الجنّة والنار، أو أحدهما فهو كافر»[2].

معروف أنه لم يقل أحد ببقاء النار دون الجنّة، بخلاف العكس، لأن القول ببقاء الجنّة دون النار نسبه شارح الطحاوية إلى أهل السنّة أيضاً فقال بعدما سردَ الأقوال الثمانية في أبدية النار ودوامها:

«وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان.

وهذان القولان لأهل السنّة ينظر في أدلتهما:

فمن أدلّة القول الأول[3]:

---

(1) «حادي الأرواح» (386 ـ 403).

(2) «الرسائل السبكية» (ص 208 ـ طبعة عالم الكتب 1403هـ) و«التوفيق الرباني» (ص 157).

(3) وهو القول السابع المتقدم آنفاً بأن الله تعالى يخرج من النار من يشاء كما ورد في الحديث ثم يبقيها شيئاً، ثم يفنيها. فإنه جعل لها أمداً «تنتهي إليه».

* قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٢٨].

* وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة هود: ١٠٦ ـ ١٠٧].

لم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنّة وهو قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة هود: ١٠٨].

* وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النبأ: ٢٣].

وهذا القول ـ أعني القول بفناء النار دون الجنّة ـ منقول عن عمر وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد وغيرهم.

* وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال:

«لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه»(١).

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النبأ: ٢٣].

* قالوا: والنار موجب غضبه، والجنّة موجب رحمته. وقد قال ﷺ:

---

(١) قال الألباني: ضعيف، لأنه من روايته عن الحسن، والحسن لم يدرك عمر رضي الله عنه (شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٨٤).

«لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[1].

ــ إلى أن قال ــ:

* قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام: كله حقّ مسلّم، لا نزاع فيه وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية. وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد.

ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبسٌ على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه»[2].

هذه بعض أدلة القائلين بفناء النار، الذي نُسِبَ إلى شيخ الإسلام، ومال إليه تلميذه ابن القيم، مع وجود تصريحهما ببقائها أيضاً.

إن القول بفناء النار قول ضعيف، وهو أحد قولي أهل السنّة[3]. فالتسوية[4] بين هذا القول وبين قول جهم بفناء الجنّة والنار إجحاف. وتكفير القائلين به ــ مع أنهم استدلوا عليه بظواهر الآيات، وبعض الأحاديث والآثار ــ وفيها ضعف ــ اجتهاداً ــ تسرّع مرفوض وأسلوب منكور.

---

(١) متفق عليه.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٨٤).

(٣) المصدر المذكور (ص ٤٨٤).

(٤) كما أصرّ عليه السبكي وتبعه غيره من خصوم شيخ الإسلام القدامى والمعاصرين، ومنهم سلامة العزامي الحلولي في كتابه «فرقان القرآن» (ص ١٣٥) دار إحياء التراث العربي بيروت.

قال العلامة الألباني بعد ذكر حديث الرجل الذي أمر بتحريقه بعد موته خوفاً من عذاب الله:

«فما أشبه ابن تيمية به من حيث أنه غفل عن المعلوم يقيناً أيضاً، وهو أن النار باقية لا تفنى ــ إلا أن الحامل له على ذلك إنما كان ثقته البالغة ــ في رحمة ربه وعفوه، وإنها وسعت كل شيء دون ما استثناء. . .

وساعده على ذلك ظواهر بعض الآيات والأحاديث التي لم يمعن النظر فيها، فلم يتبيّن له خطأ استدلاله بها. . .»[1].

وقال السبكي رداً على شيخ الإسلام في قوله المتقدم[2]:

«فإن قلتَ: قد قال هذا المصنِّف: «إن هذا قاله جهم لأصله الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وهو عمدة أهل الكلام استدلّوا به على حدوث الأجسام، وحدوث ما لا يخلو من الحوادث».

قلتُ: في هذا دسيسة يشبه أن يكون هذا المصنِّف قصد به التطرق إلى حلول الحوادث بذات الباري تعالى وتنزّه. . .»[3].

* * *

تقدّم في مبحث «إمكان وجود حوادث لا أول لها» ماله وما عليه مفصّلاً، وردّ شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ على شبهات خصومه في هذا الموضوع[4] بما لا مزيد عليه.

---

(١) رفع الأستار (ص ٢٢ ــ مقدمة الألباني).

(٢) راجع حادي الأرواح (ص ٤٠٣).

(٣) الرسائل السبكية (ص ٢٠٨)، والتوفيق الرباني (ص ١٥٧) «الاعتبار ببقاء الجنة والنار».

(٤) راجع «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٨/ ٢٢٤ ــ ٢٢٧).

وكذلك تقدم الردّ على قول التقي السبكي[1]:

يــرى حــوادث لا مبــدأ لأوّلهــا ... فــي الله سبحــانــه عمــا يظــن بــه

أثار التقي السبكي في قوله المتقدم مسألة نفي حلول الحوادث بذات الباري تعالى وتنزّه. وقد تقدّم الرد على هذه الدسيسة أيضاً[2].

ولكني هنا أريد أن أجمل الردّ عليه لتنكشف الغيوم الملبّدة السوداء من التهويلات والمغالطات مرة أخرى.

قال شارح العقيدة الطحاوية كأنه يردّ على مغالطات السبكي وغيره:

«حلول الحوادث بالرب تعالى المنفي في علم الكلام المذموم لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنّة.

فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو يحدث له وصف متجدد لم يكن ــ فهذا نفي صحيح.

وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى ــ لا كأحد من الورى ــ ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء، والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته ــ فهذا نفي باطل[3].

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفي حلول الحوادث، فيسلّم السنّي للمتكلّم ذلك، على ظنّ أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله.

---

(١) راجع مبحث «كشف الشبهات، والرد عليها».

(٢) تحت عنوان «نفي حلول الحوادث بين الردّ والقبول».

(٣) هذا «النفي الباطل» هو الذي أراده السبكي في كلامه المتقدم اتباعاً لمذهب أهل الكلام المذموم.

فإذا سلّم له هذا النفي ألزمه نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل وهو غير لازم له. وإنما أتى السنّي من تسليم هذا النفي المجمل، وإلا فلو استفسر واستفصل لم ينقطع معه»[1].

من الظرافة بمكان، أن التقي السبكي رمى شيخ الإسلام بأنه «قصد التطرق إلى حلول الحوادث بذات الباري تعالى»، والحق أنه هو الذي قصد بنفي الحلول نفي الصفات الاختيارية والفعلية، الذي يؤدي إلى تعطيل الرّب عزّ وجلّ. صحيح قيل: «رمتني بدائها وانسلّت».

على القارىء النبيه أن ينتبه لخطورة مثل هذا الكلام، ولا يغترّ بالنفي المجمل، لأنهم يريدون وراءه شيئاً آخر.

فَٱحْفَظْ وُقِيتَ فَتَحْتَ رِجلكَ هُوَّةٌ ... كَـمْ قَـدْ هَـوَى فِيهَـا مِـنَ الإِنْسَـانِ

ملخص القول إن ما حيك ضده من الاتهام بالتطرق إلى حلول الحوادث، فقد رُدّ كيده على خصومه. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة هود: ١٦].

نهاية المطاف في دفع الطعن عن شيخ الإسلام في مسألة فناء النار:

قال العلامة الألباني:

«مما يمنع توجيه الطعن في ابن تيمية لقوله بفناء النار علاوة على ما ذكرنا آنفاً أن له قولاً آخر في المسألة، وهو عدم فنائها كما سبق بيانه بالنقل عنه.

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١٢٨ ـ ١٢٩).

وإذا كنا لا نعلم أي القولين هو المتأخر، فمن البدهي أن الطاعن لا بد له من الجزم بأنه هو الأول، ودون هذا خرط القتاد.

وأما نحن، فإن حسن الظن الذي أمرنا به يقتضينا بأن نقول: لعلّه القول الآخر، لأنه موافق للإجماع الذي نقله هو نفسه، فضلاً عن غيره كما تقدم.

وقد يؤيّد هذا أن ابن القيم نقله أيضاً كما سبق في قصيدته «الكافية الشافية»[1]. فالظاهر أنه مات على ذلك لأنها قرئت عليه في آخر حياته، فقد ترجمه الحافظ ابن رجب الحنبلي في «طبقاته»، وذكر في آخرها ما يشعرنا بذلك فقال (٢/٤٤٨):

«ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنّة، وأشياء من تصانيفه وغيرها».

أقول: فإذا صحَ ظَنُّنا هذا، فالحمد لله.

وإلاَّ فأسوأ ما يمكن أن يقال: إنه خطأ مغفور لهما بإذن الله تعالى، لأنه صدر عن اجتهاد صادق منهما.

ومعلوم أن المجتهد مأجور ولو أخطأ، كما جاء في الحديث الصحيح: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»[2].

وقد تقرر في الأصول، أن الخطأ مغفور، ولو في المسائل العلمية، كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه وفتاويه[3].

---

(١) راجع رأي الألباني في مبحث «خبراء كتابات ابن قيم الجوزية».

(٢) متفق عليه.

(٣) انظر «مجموع الفتاوى» (١٩/٤٠٣ ـ ٤٢٧؛ ٢٠/١٩ ـ ٣٦).

هذا بالإضافة إلى ما لهما من الجهاد والبلاء الحسن في الدعوة إلى العمل بالكتاب والسنّة، والرد على المبتدعة والفرق الضالّة، وتقديم الإسلام إلى المسلمين صافياً نقياً على منهج السلف الصالح، وإن ما نراه اليوم في العالم الإسلامي من نهضة فكرية وعلمية، ودعوة سنيّة سلفية، فهو ثمرة من ثمار جهادهما وصبرهما، جزاهما الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خيراً»[1].

• • •

(١) رفع الأستار (٣٢ ـ ٣٣ مقدمة الألباني).

مسـألة الطَّـلاق



مسـألة الطَّـلاق

اختار شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في ضوء الأدلة والبراهين بعض ما لم يكن مألوفاً في المذاهب الفقهية من المسائل، ودفعه إليه اجتهاده البالغ، ونظره الثاقب، وبصيرته الواعية في فهم نصوص الكتاب والسنّة.

اختياراته في مسألة الطلاق:

ذكر العلامة ابن عبد الهادي اختيارات شيخ الإسلام الفقهية، فقال:

«ومن أقواله المعروفة المشهورة التي جرى بسبب الإفتاء بها محن وقلاقل:

قوله «بالتكفير في الحلف بالطلاق».

وأن «الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة».

وأن «الطلاق المحرّم لا يقع».

وله في ذلك مصنفات ومؤلفات كثيرة، ومنها:

* «تحقيق الفرقان بين التطليق والأيمان».
* «الفرق المبين بين الطلاق واليمين».
* «قاعدة في أن جميع أيمان المسلمين مكفّرة».
* «قاعدة في تقرير أن الحلف بالطلاق من الأيمان حقيقة».

* «التفصيل بين التكفير والتحليل».
* «قاعدة سمّاها (اللمعة)»[1].

لا أريد هنا سرد أدلّة هذه المسائل، لأنها مبثوثة في كتبه وفتاواه[2] بتفصيل لا مزيد عليه، وهي مطبوعة، وتحت متناول أيدي الطلبة والباحثين.

كذلك تلميذه الصنديد، وحامل لوائه شمس الدين ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله ـ تناول هذه المسائل في كتبه[3] بالبحث والمناقشة، والتوضيح والتبيين بكل بسط وتفصيل.

---

(١) هذه الكتب والرسائل وغيرها من القواعد والأجوبة توضّح مذهب شيخ الإسلام في مسائل الطلاق المذكورة في ضوء الأدلة من جهة، وتردّ على شبهات معاصريه حولها من جهة أخرى.
والعجيب أن خصومه لا يكلفون أنفسهم لمراجعة كتاباته في هذا الموضوع، بل يعتمدون في ردّهم على كتابات معاصريه المليئة بالمغالطات الكلامية، مثل: «الدرة المضية في الردّ على ابن تيمية»، و«نقد الاجتماع والافتراق في مسائل الأيمان والطلاق»، و«النظر المحقق في الحلف بالطلاق المعلّق» كلها للتقي السبكي.
ومن الطامات أن كل من هبّ ودبّ من الحاقدين على شيخ الإسلام إلى يومنا هذا، يرميه بالشذوذ في مثل هذه المسائل، ويشفي غيظه منه تكفيراً وتضليلاً، أمثال محمد زاهد الكوثري، وسلامة القضاعي الحلولي، وكمال أبو المنى أحد جهمية عصرنا. ولله في خلقه شؤون.
سيأتي بيان أن المحاكم الشرعية في عديد من البلدان العربية رجعت إلى القضاء الشرعي الذي لأجله حبس شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) راجع «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (المجلد الثالث والثلاثون= الطلاق)، وأيضاً (٣٧/ ٣٠٦ ـ ٣٢٤= الفهارس) لكشف المواضع التي تكلم فيها حول هذه المسائل.

(٣) راجع مبحث «الطلاق الثلاث بلفظ واحد» في: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٨٣ ـ ٣٢٨)، و«إعلام الموقعين» (٣/ ٤١ ـ ٦٣)، و«زاد المعاد» (٤/ ٥١ ـ ٦٥).

قال الأستاذ الفاضل بكر بن عبد الله أبو زيد:

«ووجه البسط والتكرار المقتضي لها من أوضح الأشياء وأبينها، ويكفي عذراً له في ذلك أنه حبس لأجلها، وامتحن، وأوذي في ذلك.

لأن الفتوى بجعل الطلاق الثلاث بلفظ واحد إنما هو طلقة واحدة، أمر مستنكر لدى الأجلّة من العلماء فضلاً عن طلاب العلم وعامة الخلق، إذ هم يكادون أن يطبقوا على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد: يقع ثلاثاً لا واحدة، فلا تنقيص إذاً ولا ملامة إذ رأينا ابن القيم يكرّر الحديث عن هذا المبحث ويزيده في البسط والبيان ليظهر ما يعتقده ديناً وشرعاً، مؤيداً له بشتى وجوه الأدلّة من الكتاب والسنّة، والمعنى واللغة.

وهكذا يجد له القارىء عذراً في المسائل التي أضفى عليها جمالاً بالتكرار والإعادة في مواضع من مؤلّفاته. والله أعلم»[١].

مع التقي السبكي:

كان التقي السبكي يقع في شيخ الإسلام لما كان بينهما من شحناء، فعتب عليه شيخه الإمام الذهبي في صنيعه هذا حتى اعتذر مما صدر منه معترفاً بفضله في العلم والعمل، والزهد والتقوى[٢].

---

(١) ابن قيم الجوزية: حياته وآثاره (٧٧ ــ ٧٨).

(٢) الرد الوافر (ص ٩٦) قال التقي السبكي: «أما قول سيدي في الشيخ فالمملوك يتحقق كبر قدره، وزخارة بحره، وتوسّعه في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف. والمملوك يقول ذلك دائماً. وقدره في نفسي أعظم من ذلك وأجلّ، مع ما جمع الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه، لا نعرض سواه، وجريه على سنن السلف =

ومما ردّ التقي السبكي على شيخ الإسلام: قصيدته التي أبدى فيها بعض ملاحظاته حول «منهاج السنّة النبوية» فقال:

لـو كـان حيـاً يـرى قـولـي ويسمعـه ... رددتُ[1] مـا قـال رداً غيـر مشتبـه

كمـــا رددتُ عليـــه فـــي الطـــلاق ... وفي ترك الزيارة أقفو إثر سببه

فرد عليه أبو المظفر العقيلي السرمريّ قائلاً:

فضحتَ نفسك في هذا المقال ولم ... تشعر وعجتَ عن المرعى وأخصبه

عرّفتنا أن ما قد قلت ليس لوجـ ... ـه الله بـل للمـرا أقبـح بمنصبـه

إذ لـو أردت بيـان الحـق قلـت بـه ... في محضر الخصم أما في مغيبه

ما ذاك صدّك بل خوف الجواب كما ... أُجِبْـتَ قبـل بسهـم مـن مصـوّبـه

إلى أن قال:

عبت الذي قال فيه الخلاف من إيـ ... ـقـاع الثـلاث ولـو أفتـى بـأغـربـه

وقلـتَ تنكـح زوجـاً غيـره ونكـا ... حها مع الخلاف باق في تذبذبه

وكيف تنكح من لم تبر عصمتها ... بـلا خـلاف لشخـص مـع تجنّبـه

مـا أنـت إلا كمـا قـد قيـل فـي مثـل ... خـالـف لتعـرف مشهـور لضـرّبـه

المفاسد المترتبة على توسيع باب الطلاق وتضييق دائرة النكاح:

بيَّن شيخ الإسلام المفاسد والحيل التي ترتبت على توسيع باب الطلاق فقال:

= وأخذه من ذلك بالمأخذ الأولى، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل من أزمان» وراجع أيضاً «شذرات الذهب» (٦/ ٨٣).

(١) رَدَّ عليه محمد بن يوسف الشافعي فقال:

فـــابـــرز ورُدَّ تَـــرَ والله أجـــوبـــةً ... مثـل الصـواعق تـردى من تمرّ بـه

«ومن تدبّر نصوص الكتاب والسنّة وجدها مفسّرة لأمر النكاح، لا يشترط فيه ما تشترطه طائفة من الفقهاء.

كما اشترط بعضهم: ألاّ يكون إلا بلفظ الإنكاح والتزويج.

واشترط بعضهم: أن يكون بالعربية.

واشترط هؤلاء وطائفة: ألا يكون إلا بحضرة شاهدين، ثم إنهم مع هذا صححوا النكاح مع نفي المهر. ثم صاروا طائفتين:

طائفة: تصحح «نكاح الشغار»، لأنه لا مفسد له إلا نفي المهر، وذلك ليس بمفسد عندهم.

وطائفة: تبطله، وتعلل ذلك بعلل فاسدة، كما قد بسطناه في مواضع[1]. وصححوا «نكاح المحلّل» الذي يقصد التحليل.

فكان قول أهل الحديث وأهل المدينة الذين لم يشترطوا لفظاً معيناً في النكاح، ولا إشهاد شاهدين مع إعلانه وإظهاره، وأبطلوا نكاح الشغار، وكل نكاح نفي فيه المهر، وأبطلوا نكاح المحلّل... أشبه بالكتاب والسنّة وآثار الصحابة.

ثم إن كثيراً من أهل الرأي الحجازي والعراقي وسّعوا «باب الطلاق»، فأوقعوا طلاق السكران، والطلاق المحلوف به، وأوقع هؤلاء طلاق المكره، وهؤلاء طلاق المشكوك فيه فيما حلف به، وجعلوا الفرقة البائنة طلاقاً محسوباً من الثلاث إلى أمور أخرى، وسّعوا بها الطلاق الذي يحرّم الحلال، وضيّقوا النكاح الحلال.

---

(١) راجع «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣٧/ ٢٩٠ ـ الفهارس).

ثم لما وسّعوا الطلاق صار هؤلاء يوسّعون في الاحتيال في عود المرأة إلى زوجها، وهؤلاء لا سبيل عندهم إلى ردّها. فكان هؤلاء في آصار وأغلال. وهؤلاء في خداع واحتيال.

ومن تأمل الكتاب والسنّة وآثار الصحابة تبيّن له أن الله أغنى عن هذا، وأن الله بعث محمداً بالحنيفية السمحة التي أمر فيها بالمعروف ونهى عن المنكر، وأحل الطيبات، وحرّم الخبائث. والله سبحانه أعلم. . .»[1].

وقال أيضاً:

«ولكن بعض علمائنا لما ظنوا أن من الأيمان ما لا مخرج لصاحبه منه، بل يلزمه ما التزمه. فظنّوا أن شرعنا في هذا الموضع كشرع بني إسرائيل احتاجوا إلى الاحتيال في الأيمان: إما في لفظ اليمين، وإما بخلع اليمين، وإما بدور الطلاق، وإما بجعل النكاح فاسداً فلا يقع فيه الطلاق.

وإن غلبوا عن هذا كله دخلوا في «التحليل». وذلك لعدم العلم بما بعث الله به محمداً ﷺ في هذا الموضع من الحنيفية السمحة، وما وضع الله به الآصار والأغلال. كما قال تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦ ــ ١٥٧].

---

(١) المصدر المذكور (٣٢/ ١٣٣ ــ ١٣٤).

وصار ما شرعه النبيّ ﷺ لأمته هو الحق في نفس الأمر. وما أحدث غيره غايته: أن يكون بمنزلة شرع من قبله مع شرعه، وإن كان الذين قالوه باجتهادهم لهم سعي مشكور وعمل مبرور. وهم مأجورون على ذلك مثابون عليه.

فإنما كلما كان من مسائل النزاع التي تنازعت فيه الأمة فأصوب القولين فيه ما وافق الكتاب وسنّة رسوله، ومن أصاب هذا القول فله أجران.

ومن لم يؤده اجتهاده إلاّ إلى القول الآخر كان له أجر واحد. والقول الموافق لسنّته مع القول الآخر بمنزلة طريق سهل مخصب، يوصل إلى المقصود وتلك الأقوال فيها بعد، وفيها وعورة، وفيها حدوثة. فصاحبها يحصل له من التعب والجهد أكثر مما في الطريقة الشرعية.

ولهذا أذاعوا ما دلّ عليه الكتاب والسنّة على تلك الطريقة التي تتضمّن من لزوم ما يبغضه الله ورسوله: من القطيعة، والفرقة، وتشتيت الشمل، وتخريب الديار؛ وما يحبه الشيطان والسحرة من التفريق بين الزوجين، وما يظهر ما فيها من الفساد لكل عاقل.

ثم إما أن يلزموا هذا الشر العظيم، ويدخلوا في الآصار والأغلال. وإما أن يدخلوا في منكرات أهل الاحتيال. وقد نزّه الله النبيّ وأصحابه من كلا الفريقين بما أغناهم به من الحلال.

فالطرق ثلاثة:

إما الطريقة الشرعية المحضة الموافقة للكتاب والسنّة، وهي طريقة أفاضل السابقين الأولين، وتابعيهم بإحسان.

وإما طريقة «الآصار والأغلال»، و«المكر والاحتيال»، وإن كان من

سلكها من سادات أهل العلم والإيمان، وهم مطيعون لله ورسوله فيما أتوا به من الاجتهاد المأمور به. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

وهذا كالمجتهد في القبلة إذا أدّى اجتهاد كل فرقة إلى جهة من الجهات الأربع، فكلهم مطيعون لله ورسوله، ومقيمون للصلاة. لكن الذي أصاب القبلة في نفس الأمر له أجران. والعلماء ورثة الأنبياء. وقال تعالى:

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [سورة الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩].

وكل مجتهد مصيب بمعنى أنه مطيع لله. ولكن الحق في نفس الأمر واحد»[1].

الطلاق الثلاث أحد سببي ترفض الملك «خدابنده» المغولي:

زالت الدولة العباسية بمؤامرة داخلية دنيئة نسج خيوطها الوزير ابن العلقمي لحنقه الشديد على أهل السنّة ودولتهم، وأعانه عليها النصير الطوسي وزير «هلاكو» شماتة بالمسلمين وتمّ الانتصار العسكري على بغداد وما تلاه من الغزو الفكري أشدّ وأنكى.

تتوارث الشرور والأحقاد كما تتوارث الحسنات والفضائل. لما وجدت هذه الطغمة الضالة المضلة طريقاً إلى مناصب الدولة بدأت تبيض وتفرخ، وكانت دائماً بالمرصاد لتتصيّد سفهاء الأحلام والرعاع الطغام ليقدّموا خدمة لدعاة الشر والفساد والإباحية والانحلال.

---

(١) المصدر المذكور (٣٣/١٤٨ ـ ١٥٠).

شرعت هذه الشراذم الباغية في الغزو الفكري لهذه المناطق الإسلامية بعدما حصلت لها الانتصارات العسكرية، وسنحت فرصةٌ سانحة لتلميذ[1] النصير الطوسي الباطني: جمال الدين ابن المطهر الحلي الرافضي (٦٤٨ ـ ٧٢٦هـ) (أحد رموز الدعوة إلى الرفض والتشيع) للتقرب إلى الملك (خدابنده) بن أرغون بن أبغا بن هلاكو بن طلو بن جنكيز خان المغولي، فأفرغ جهده في إضلاله بتقوّلاته إلى أن نجح في مهمته وترفَّض الملك[2].

* * *

كيف انطلى مذهبه الفاسد على هذا الملك المائع[3] في عقيدته ودينه؟.

---

(١) وقد كانت صلة ابن المطهر الحلي بالنصير الطوسي وثيقة، وكان له أعمق الاحترام والتقدير، فهو يقول عنه في نسخة إجازته الكبيرة لسادات بني زهرة: «وكان هذا الشيخ أفضل أهل عصره في العلوم العقلية... وكان أشرف من شاهدناه في الأخلاق قرأت عليه إلهيات «الشفاء» لابن سينا..» (منهاج السنّة: ١/ ٩٢ مقدمة المحقق) نقلاً عن «روضات الجنات (ص ٥٧٨)، والبداية والنهاية (١٤/ ٧٧)، والدرر الكامنة لابن حجر (٢/ ٧١).

(٢) قال ابن كثير: «أظهر الزفض، أقام سنة على السنّة ثم تحول إلى الرفض... أقام شعائره في بلاده ولم يزل على هذا المذهب الفاسد إلى أن مات في هذه السنة (أي ٦١٦هـ). وقد جرت في أيامه فتن كبار ومصائب عظام، فأراح الله منه العباد والبلاد. وقام في الملك بعده ولده أبو سعيد... ولعب كثير من الناس به في أول دولته ثم عدل إلى العدل وإقامة السنّة وأمر بإقامة الخطبة بالترضي عن الشيخين... ففرح الناس بذلك وسكنت بذلك الفتن والشرور (البداية والنهاية: ١٤/ ٧٧).

(٣) نقل الدكتور محمد رشاد سالم في مقدمته على «منهاج السنّة» (١/ ٩٦) عن بعض الكتاب: أن (خدابنده) نشأ مسيحياً إذ عمد بأمر أمه «أروك خاتون»، وسمّي «نيقولا»، ثم اعتنق الإسلام على رغبة زوجته» ثم ارتد عن الإسلام برغبة ابن المطهر الحلي الرافضي.

ولماذا؟ .

فيه روايتان:

١ ــ اهتم السلطان بمعرفة مذهب الإمامية، وانعقدت المناظرة بين السنّة والشيعة فغلب ابن المطهر الحلّي بحجته على خصمه فترفّض الملك (خدابنده).

٢ ــ أن السلطان غضب يوماً من امرأته فطلّقها ثلاثاً ثم ندم وجمع العلماء فقالوا: لا بد من محلِّل.

فقال أحد وزرائه: إن عالماً بالحلّة يقول ببطلان هذا الطلاق، فبعث الملك إلى ابن المطهر الحلّي فأفتاه بأن الطلاق الذي أوقعه باطل، لأنه لم تتحقق شروطه، ومنها وجود شاهدين عدلين.

قال الخوانساري:

«ثم شرع في البحث مع العلماء حتى ألزمهم جميعاً فتشيّع الملك، وبعث إلى البلاد والأقاليم حتى يخطبوا بالأئمة الاثني عشر، ويضربوا السكك على أسمائهم وينقشوها على أطراف المساجد والمشاهد منهم...»[1].

---

(١) منهاج السنّة (١/ ٩٧ مقدمة التحقيق) نقلاً عن «روضات الجنان» (ص ١٧٥) وقال ابن كثير: «وفيها (أي في سنة ٧٠٩هـ) أظهر ملك التتر (خدابنده) الرفض في بلاده، وأمر الخطباء أولاً أن لا يذكروا في خطبتهم إلا علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ وأهل بيته، ولما وصل خطيب بلاد الأزج إلى هذا الموضع من خطبته بكى بكاء وبكى الناس معه ونزل ولم يتمكن من إتمام الخطبة، فأقيم من أتمها عنه، وصلّى بالناس وظهر على الناس بتلك البلاد من أهل السنّة أهل البدعة. فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولم يحج فيها أحد من أهل الشام بسبب تخبيط الدولة وكثرة الخلاف. (البداية والنهاية: ١٤/ ٥٦).

وقد ارتفعت منزلة ابن المطهر بعد ذلك عند (خدابنده) حتى فاقت منزلة سائر العلماء المتصلين به. وكان يحرص على أن يلازمه على الدوام حتى أنه ــ كما روى الخوانساري ــ أمر بإقامة مدرسة سيّارة له ــ ذات حجرات من الخيام ــ كانت تحمل مع موكب السلطان أينما ذهب[1].

وقال ابن كثير:

«وحظي عنده جمال الدين ابن المطهر الحليّ تلميذ النصير الطوسي وأقطعه عدة بلاد...»[2].

* * *

لقد استغلّ الحلّي حظوته عند الملك ووجاهته عند أعيان الدولة في ترويج مذهبه الفاسد.

وما كان له أن يصل إلى ما وصل إليه من المنزلة عند الملك، لو لم يكن جمود المتفقهة في مسألة الطلاق المذكورة على الرأي المذهبي الذي ألحق بالأمة الإسلامية خسارة فادحة تتقاصر دونها كارثة زوال بغداد، ودفع تلك المنطقة إلى هوة الرفض والتشيع.

أما كان لهؤلاء المتفقهة وفي هذا الموقف الحرج أن يرجعوا إلى ما كان عليه الأمر في زمن النبيّ ﷺ، وخلافة أبي بكر، وصدر من خلافة عمر ــ رضي الله عنهما ــ وهو أن الطلاق الثلاث في مجلس واحد طلقة واحدة[3].

---

(١) المصدر المذكور (١/ ٩٨) عن «روضات الجنات» (١٧٥ ــ ١٧٦).

(٢) البداية والنهاية (١٤/ ٧٧، ١٢٥).

(٣) راجع «صحيح مسلم» (كتاب الطلاق)، ومسند أحمد (١/ ٣١٤).

أما كان لهم أن يتعقلوا مؤامرة ابن المطهر الحلّي ضدهم بتطييب خاطر الملك بحل شيعي في مسألة الطلاق هذه، وعندهم حل نبوي مهجور؟!.

كان لهم أن يتفطّنوا لهذا وذاك ولكن التعصب والجمود والعناد...

لا أرى موجة هذه الردة إلا نتيجة لمخالفتهم سنّة النبيّ ﷺ:

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة النور: ٦٣].

«الإشفاق على حكم الطلاق» للكوثري:

كان محمد زاهد الكوثري الجركسي (١٢٩٦ ـ ١٣٧١هـ) حامل لواء التجهم وألدُّ أعداء السنّة ودعاتها في العصر الحاضر ـ معروفاً بعدائه السافر لعلماء الأمة الأعلام، خاصة لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وما من كلمة نابية أو شتيمة مهجورة إلا واستعملها في حقّه وحق تلميذه ابن القيم الجوزية، وإمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب وغيرهم من علماء السنّة المتقدمين والمتأخرين.

لما رأى هذا المخلوق المتأجج حقداً وحنقاً على شيخ الإسلام أنه وُفِّق توفيقاً عجيباً في رده على ابن المطهر الحلي، وشرذمته الضالة، لم يتأخر في مسخ الحقيقة وتشويه التاريخ، وحاول بكل وقاحته أن يغيّر فضيلة برذيلة يكذّبها التاريخ والواقع، ولكن المهم يشفي بها غيظه بدون حياء، رضي الناس أم أبوا.

لقد انبرى علامة الشام محمد بهجة البيطار لهذا التشويه فكتب تحت عنوان:

«كذب مفضوح في كتاب مطبوع»

«لو كان هذا الرجل ــ الكوثري ــ ممن يتقي الله ويبالي خزي الدنيا ويوم الحساب، لما رضي لنفسه هذا الموقف الشاذ الذي وقفه من حملة القرآن، ودعاة السنّة وحماتها، ولما استباح لنفسه الكذب في التاريخ والتجنّي على أئمة الدين ومفاخر المسلمين في كل العصور.

لا أطيل القول عليك أيها القارىء الكريم، إنما أنقل لك جملة مما قال في كتابه الأخير الذي سمّاه «الإشفاق على أحكام الطلاق». . .

فقد عرض في كتابه هذا لنابغة الإسلام الإمام ابن تيمية كدأبه في عامة ما يكتب، ولكن هذه الكتابة من أفضح ما كتب وأخزاه، قال ــ هداه الله ــ (٧٢):

«ولولا شدّة ابن تيميّة في ردّه على ابن المطهر الحلي في منهاجه،إلى أن بلغ به الأمر أن يتعرض لعلي بن أبي طالب ــ كرّم الله وجهه ــ على الوجه الذي تراه في أوائل الجزء الثالث منه، بطريق يأباه كثير من أقحاح الخوارج مع توهين الأحاديث الجيدة في هذا السبيل ــ لما قامت دولة الغلاة من الشيعة في بلاد الفرس والعراق وشرقي الأسيا (كذا) الصغرى وأذربيجان من عهد الملك المغولي خدابنده.

وابن المطهر لما وصل إليه كتاب ابن تيمية هذا، قال: كنت أجاوبه لو كان يفهم كلامي، ولكن جوابي يكون بالفعل، حتى سعى سعياً إلى أن تمكن من قلب الدولة السنيّة من تلك الأقطار، إلى دولة غالية في التشيع بحمل خدابنده الملك الشعوب على التمذهب بمذهب ابن المطهر، ولم يزل الغلو في التشيع في تلك البلاد منذ عمل ابن تيمية هذا، ولو كان يسعى بحكمة لما

بعدت شقة الخلاف بين الإخوان المسلمين على الوجه الذي تراه. اهـ.

أقول: كلامه هذا صريح في أن الإمام ابن تيمية هو الذي أثار ثائرة الشيعة بتعصبه عليهم وطعنه فيهم وتنقيصه علياً بما يأبى مثله الخوارج، وأنه هو الذي حمل ابن المطهر على هذا الغلو في التشيع، والسعي في نشر المذهب من عهد الملك المغولي خدابنده الذي تشيع وقلب دولته شيعية بسعي ابن المطهر الحلي هذا، وأن «منهاج السنّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» لشيخ الإسلام هو الذي زاد النار ضراماً. الخ.

سبحان الله! ما أجرأ هذا الرجل على تشويه الحقائق وإفساد التاريخ! فهو ممّن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً وإليك الجواب عن هذا الكذب الصريح:

١ ــ إن شيخ الإسلام لم يؤلف كتابه ابتداء، ولكنه ألّف رداً على كتاب الحلي الشيعي... قد أحضر إليه كتاب الشيعي ولم يكن رآه، وطلب منه أهل السنّة والجماعة ردّ مفترياته على أهل السنّة، وهو شيخهم بل شيخ الإسلام، ومن أولى منه ببيان الحق وأقدر منه عليه؟.

٢ ــ إن الملك المغولي خدابنده ترفض أو تشيع على يد ابن المطهر الحلّي قبل صدور ردّ شيخ الإسلام عليه... [لأنه ترفض حوالي سنة ٧٠٩هـ، وعلى قول الخوانساري سنة ٧٠٧هـ، وألّف الحلّي «منهاج الكرامة» حوالي هذه المدة، وعلى هذا يكون شيخ الإسلام قد ألف «منهاج السنّة» بعد ذلك أي حوالي سنة ٧١٠هـ].

٣ ــ إن أقصى ما يكون في كلام شيخ الإسلام هو الدعوة إلى الاعتدال في الأقوال والأعمال، وتخفيف غلو الغالين في العقائد، وتقليص ظلّ

عصبيات أهل البدع والأهواء، ودفع أكاذيبهم وأباطيلهم، والغرض من ذلك كله تنوير العقول، وتقريب القلوب. . .

هذه نبذة صغيرة من كلام شيخ الإسلام مصدّقة لما ذكرناه:

قال ــ رحمه الله ــ : «وأما الرافضي فإذا قدح في معاوية بأنه كان باغياً ظالماً. قال له الناصبي: وعلي أيضاً كان باغياً ظالماً لما قاتل المسلمين على إمارته وبدأهم بالقتال. . ــ إلى أن قال ــ : «فالخوارج والمروانية وكثير من المعتزلة وغيرهم يقدحون في عليّ ــ رضي الله عنه ــ وكلهم مخطئون في ذلك ضالّون مبتدعون» اهـ.

فأنت ترى شيخ الإسلام يحكي كلام الروافض والنواصب والخوارج، ولكنه لا يحكم لفريق على فريق، بل يحكم بأنهم مخطئون مبتدعة ضالون، خلافاً لما يزعمه الكوثري، المقلّد الغبي، من انتقاص مقام عليّ، فما أضيع البرهان عند المقلّد![1]

٤ ــ وأوضح وأفضح مما تقدّم. . . دعواه أن ابن تيمية هو سبب الغلو في التشيّع، وبسط سلطانه في الأرض، ويوهم كلامه أو يفهم أن السلطان خدابنده ترفّض ونشر مذهب ابن المطهر بسبب ابن تيمية. . .

ونحن ننقل لك بعد هذا الكلام ما ذكره الشيعة الإمامية أنفسهم في سبب ترفض الملك خدابنده، ليعلم مبلغ هذا الرجل من تحريف التاريخ، وقلب الحقائق الواقعية بكل وقاحة أو صفاقة، ونسجل عليه حقده وتعصبه على رجال الإسلام العظام وافتراءه عليهم الكذب الصريح. [ثم نقل كلام

---

(١) سيأتي هذا النوع من الأمثلة في مبحث «فضائح كمال أبو المنى» إن شاء الله.

الخوانساري في «روضات الجنان» الذي تقدّم في مسألة الطلاق ـ إلى أن قال ـ:]

«ثم قال [أي الخوانساري]:

هذه اليد العظمى والمنة الكبرى التي له [أي لابن المطهر] على أهل الحق [أي الرافضة] مما لم ينكره أحد من المخالفين والموافقين، حتى في بعض تواريخ العامة [أي أهل السنّة] رأيت التعبير عن هذه الحكاية بمثل هذه الصورة ومن سوانح سنة سبع وسبعمائة، وأظهر خدابنده شعار التشيع بإضلال ابن المطهر. اهـ.

أَعَلِمْتَ الآن أيها القارىء الكريم السبب الذي من أجله ترفض هذا الجاهل الأعجمي المغولي وأنه مسألة شخصية، لا دخل فيها لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولا لكتاب منهاج السنّة النبوية، وهو كونه طلّق زوجته ثلاثاً وهو غضبان، واستفتى أمثال الكوثري من علماء عصره فأفتوه بالمحلل. وقال الملك لهم: عندكم في كل مسألة أقاويل مختلفة، أوليس لكم هنا اختلاف؟ قالوا: لا، لا بد من المحلل ـ أي الملعون بلسان الرسول ﷺ هو والمحلل له، فاستنكف الملك عن هذا التحليل الذي هو زنا صريح. ولو أخذوا بما كان عليه الطلاق الثلاث في عهده ﷺ وعهد صاحبيه، لخرجوا من جحر الضب الذي أوقعوا الملك معهم فيه ولو اهتدى إلى شيخ الإسلام لوجد لمسألته عنده حلاً نبوياً سنياً غير شيعيٍّ، ولكن الكوثري يلبس شيخ الإسلام ذنب غيره، فعليه ما يستحق من ربه.

لماذا تسكت أيها الكوثري عمن أحرجوا الملك فأخرجوه من

بينهم، وتطعن في دين من يردّه وقومه إلى حظيرة السنّة؟ أكان بالله إثماً أن يؤلف ابن تيمية كتاب «منهاج السنّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية»، ويردّ به ضلالات ابن المطهر الحلي. والكوثري السنيّ فيما يزعم، يتبجح بقول الحلي الشيعي لإمام السنّة: كنتُ أجاوبه لو كان يفهم كلامي!... [ثم ذكر ما روى الخوانساري عن تذكرة الشيخ نور الدين علي بن عراق المصري أن ابن المطهر كتب إلى ابن تيمية بهذه الأبيات:

لو كنت تعلمُ كل ما علم الورى ... طرّاً لصرتَ صديق كلّ العالم
لكن جهلتَ فقلتَ إن جميع من ... يهوى خلاف هواك ليس بعالم

فكتب الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي في جوابه هذه القطعة وأرسلها إليه:

يا من يموّه في السؤال مسفسطاً ... إن الذي ألزمتَ ليس بلازم
هذا رسول الله يعلم كل ما ... علموا وقد عاداه جل العالم

وترى الكوثري ينوّه بكلمة ابن المطهر الحمقاء التي أخذها من شعره [بل ذكرها الحافظ في «لسان الميزان»: ٢/٣١٧] ولكنه لم يذكر جوابها السديد لبعض علماء السنّة، ويمكنك أن تقف مما أوردناه لك على دخيلته، وتعرف حقيقة نحلته وخبيئته.

وجملة القول: أن هذا الرجل لا يعتد بعقله ولا بنقله ولا بعلمه ولا بدينه. ومن يراجع تعليقاته يتحقق صدق ما قلناه فيه، على أنا أوردنا شواهد منها دلّت على سائرها، وعرّفتنا حقيقة قائلها. فمن بقي له شك فيها فليرجع إليها، ليرى كيف أن التعصب يُعْمِي

ويُصِمّ، والله عليم بذات الصدور»[1].

قصيدة «المطلقة»، في الانتصار لمذهب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم:

قال علامة الشام محمد بهجة البيطار ــ رحمه الله ــ :

وبعد فهذه مقتطفات من قصيدة (المطلقة) للشاعر الشهير [معروف بن عبد الغني] الرصافي (ـ ١٣٦٤هـ) في الانتصار لمذهب ابن القيم وشيخه عليهما الرحمة والرضوان، وقد نشرت في آخر «إغاثة اللفهان في حكم طلاق الغضبان».

ومطلعها:

بدتْ كالشمس يحضنها الغروب ... فتاة راع نضرتها الشحوب
منزهة عن الفحشاء خود ... من الخضرات آنسة عروب

ومنها:

حليلة طيّب الأعراق زالت ... به عنها، وعنه بها الكروب
رعى ورعت فلم تَرَ قطّ منه ... ولَمْ ير قطّ منها ما يريب

(١) الكوثري وتعليقاته للعلامة البيطار (١/ ٨٧ ــ ٩٢ مع «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل»، المكتب الإسلامي ط. ثانية ١٤٠٦هـ).
وراجع لمزيد من التفصيل عن الكوثري وحقده وحنقه على الأئمة الأعلام كتاب «المقابلة بين الهدى والضلال» للعلامة الشيخ عبد الرزاق حمزة، مع مقدمة الشيخ عبد الله بن صالح المدني عليه، و«مقدمة العلامة المحدث الألباني على «شرح العقيدة الطحاوية» طبع المكتب الإسلامي؛ و«براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» للعلامة الفاضل بكر بن عبد الله أبو زيد؛ و«زوابع في وجه السنّة قديماً وحديثاً».

ومنها:

فغاضب زوجها الخلطاء يوماً ... بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لها يميناً ... وتلك أَلِيَّة خطأ وحوب
وطلّقها على جهلٍ ثلاثاً ... كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طلاق بتٍّ ... ذوو فتيا تعصّبهم عصيب
فبانت منه لم تأتِ الدنايا ... ولم يعلق بها الذم المعيب
فظلّت وهي باكية تنادي ... بصوت منه ترتجف القلوب
لماذا يا نجيب صرمت حَبْلي ... وهل أذنبت عندك يا نجيب

ومنها:

فأطرق رأسه خجلاً وأغضى وقال ... دمع عينيه سكوب
نجيبة أقصري عني فإني ... كفاني من لظى الندم اللهيب
وما والله هجرك باختياري ... ولكن هكذا جرت الخطوب

وقد ختمها بقوله:

ألا قُل في الطلاق لموقعيه ... بما في الشرع ليس له وجوب
غلوتم في ديانتكم غُلُواً ... يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيسيراً وأنتم ... من التعسير عندكم ضروب
وقد حلّت بأمتكم كروب ... لكم فيهن ـ لا لهم ـ الذنوب
وَهَى حَبْل الزواجِ وَرَقَّ حتى ... يكادُ إذا نفختَ له يذوب
كخيط من لعاب الشمس أدلت ... به في الحقّ هاجرة حلوب
يمزّقه من الأفواه نفث ... ويقطعه من النسم الهبوب
فدى ابن القيم الفقهاء كم قد ... دعاهم للصواب فلم يجيبوا

ففـي «إعـلامـه» للنـاس رشـد ومـزدجـر لمـن هـو مستـريـب
نحـا فيمـا أتـاه طـريـق علـم نحـاهـا شيخـه[1] الحبـر الأديـب
وبيّـن حكـم ديـن الله لكـن مـن الغـاليـن لـم تعـه القلـوب
لعـلّ الله يحـدث بعـد أمـراً لنـا فيخيـب منـه مـن يخيـب

رجوع المحاكم المصرية إلى الطلاق الشرعي:

قال الأستاذ محمد رشيد رضا في «مناره»:

«وأطال ابن القيم في تخريج أحاديث الباب والكلام عليها، وأثبته بالكتاب والسنّة، واللغة والعرف، وعمل أكثر الصحابة. ثم قال:

واقترح بعض الفقهاء والعقلاء على حكومتنا المصرية الرجوع فيها إلى أصل الكتاب والسنّة، الذي كان أوّل من بسط دلائله شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم في كتبه: «إعلام الموقعين»، و«إغاثة اللهفان» و«زاد المعاد» ووافقهما وأيّدهما من أعلام السنّة وفقهاء الحديث بعدهما: الإمام الشوكاني، والسيد صديق حسن، وصاحبا شرح سنن أبي داود، وحاشية سنن الدارقطني من متأخري علماء الهند الأعلام»[2].

ونقف عند هذا الحد من الكلام في يسر الإسلام، وسماحته في أمر الطلاق، وحماية الأسرة ورعايتها، وأن ابن تيمية لم يتخطّ هذه الدائرة من أقواله، بل جميع ما أتى به مؤيّد بالكتاب والسنّة، وما كان عليه أعلام هذه الأمة.

---

(١) هو شيخ الإسلام ابن تيمية.
(٢) المنار (ص ٦٨٣ ج٩، م٢٨).

ونختم هذا البحث بما جاء في القانون المصري[1] للمحاكم الشرعية، وهو المعروف بقانون (٢٥ المؤرخ ١٠ مارس سنة ١٩٢٩م) تحت عنوان «الطلاق» ما نصّه:

١ ـ لا يقع طلاق السكران والمكره.

٢ ـ لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه، لا غيره.

٣ ـ الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة لا يقع إلا واحدة[2].

٤ ـ كنايات الطلاق ـ وهي ما تحتمل الطلاق وغيره ـ لا يقع بها الطلاق إلا بالنيّة.

٥ ـ كل طلاق يقع رجعياً إلا المكمل للثلاث، والطلاق قبل الدخول، والطلاق على مال، وما نص على كونه بائناً في هذا القانون، والقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠م.

قلت: وهذا القانون المشار إليه سنة ١٩٢٠م هو ما اتفقت عليه اللجنة المؤلفة من حضرات: شيخ الجامع الأزهر، وشيخ المالكية، ورئيس المحكمة العليا الشرعية، ومفتي الديار المصرية، ونائب السادة المالكية، وغيرهم من العلماء.

---

(١) ثم عملت به كل البلاد العربية تقريباً.

(٢) «وجاء في المذكرة التفسيرية للمشروع: أن الداعي لاختيار القول بالوقوع واحدة الحرص على سعادة الأسرة، والأخذ بالناس عن مسألة المحلل التي صارت وصمة في جبين الشريعة المطهرة، مع أن الدين براء منها. فقد لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له. وكذلك الأخذ بهم من طرق الحيل التي يتلمسونها للتخلص من الطلاق الثلاث، وما هي بمنطبقة على أصول الدين». («فقه السنّة» للسيد سابق ٢/ ٢٧١).

وإنك لتجد في المذكرة الإيضاحية لهذه الأحكام الخمسة بياناً وافياً عنها واحدة واحدة. ومَن من أئمة السلف وعلماء الحديث وفقهاء المذاهب أخذ بها. وهذه المقررات منطبقة تمام الانطباق على ما قدمنا من مذهب الشيخين: ابن تيمية، وابن القيم، والله أعلم»[1].

لقد أوذي شيخ الإسلام كثيراً، وحبس لأجل إفتائه في مسائل الطلاق في عصره، وصدر مرسوم على مرسوم لمنعه من الفتوى فيها، بمؤامرة من قضاة الدولة وفقهائها. ولكن أراد الله عزّ وجلّ نشر مذهبه في الطلاق، الذي ينبني على الكتاب والسنّة وفقه الصحابة وتابعيهم بإحسان، وصار متبعاً فيما بعد في بلاد المسلمين رغم أنوف مخالفيه. ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١١٩].

والآن كلما يغيظهم انتشار منهجه بين المثقفين من المسلمين، يقومون بطبع الرسائل السبكية والكلابية في الردّ عليه للنيل من كرامته وتشويه سمعته بين الأغرار، ما جعل الأذكياء من الباحثين والمحققين يندفعون إلى الاطلاع على كتاباته في مجالات مختلفة، ليجدوا فيها بغيتهم المنشودة، وضالتهم

(١) حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للبيطار (٥٧ ــ ٦٠) المكتب الإسلامي ١٤٠٧هـ.
والسبب الذي من أجله ترفض خدابنده الملك المغولي، وهو كونه طلّق زوجته ثلاثاً وهو غضبان، فأفتوه بالمحلل، فاستنكف الملك عن هذا التحليل الذي هو زنا صريح، فبعث الملك إلى ابن المطهر الشيعي فأفتاه بأن الطلاق الذي أوقعه باطل فتشيع الملك ولو اهتدى إلى شيخ الإسلام ابن تيمية لوجد لمسألته عنده حلاً نبوياً سنياً غير شيعي (الكوثري وتعليقاته للعلامة محمد بهجة البيطار ١/٩١ مع التنكيل للمعلمي ط. ثانية ١٤٠٦هـ). وراجع تقديمنا لقصيدة «الحمية الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية» للسرمري.

المفقـودة، ويسلّمـوا علـى مـا كـانوا عليـه مـن تهـويـل وتمويـه، واغتـرار وانحراف.

وإذا أراد الله نشـــــر فضيلـــــةٍ طُـوِيَـتْ أَتَـاحَ لهـا لســانَ حسـودِ

وقال عزّ من قائل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [سورة الأنفال: ٣٠].

* * *

هذه هي أهم الاتهامات التي وجهت إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، وجعلها خصومه تكأة يتكئون عليها في تشويه سمعته بين الرعاع من الناس، ويصيدون بها سفهاء الأحلام والأغرار.

وهذه أجوبة عنها في ضوء كتاباته ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [سورة الأنفال: ٤٢].

وأما الشبهات الأخرى التي يثيرها أصحاب لوامع الأسماء والألقاب من أهل الأهواء في عصرنا هذا، فتجدها مردودةً عليها في رسائله وكتبه وفتاواه. وهو عالم موسوعيّ موفّق في إبراز معالم الإسلام، والدفاع عن حياضه من دون أن يخاف في الله لومة لائم، والرد على خصومه من غير المحاباة والمداهنة.

أرجو من الباحثين عن الحق أن يعيروا اهتمامهم بمراجعة كتب شيخ الإسلام، ليروا ما هنالك من النفائس والدرر، التي جُعِلَتْ رصاصاً في كتابات خصومه حقداً وعناداً. وصحيحاً قيل:

فـرصـاصُ مـن أحببتَـه ذهـبٌ كمـا ذَهَبُ الذي لم ترضَ عنه رصاصُ

من الغطرسة في مجال العلم والتحقيق أن يُحْكَمَ على رجل من أعلام الأمة، من خلال كتابات خصومه، وشهاداتهم المغرضة ـ بدون أن يُطَّلَعَ على آرائه وأقواله المدوّنة في كتاباته ـ مهما ادّعوا التجرّد والموضوعية، والخير والنصح للمسلمين.

فما كُلُّ ذي لبٍّ بمؤتيك نصحه   ولا كُلُّ مؤتٍ نصحَه بلبيبِ

وما تقدّم في الصفحات الماضية من أمثلة الخيانات باسم العلم والتحقيق، ورمي البريء بما ليس فيه عناداً، أدلّ دليلٍ على ما قلتُ. ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد. ونسأل الله السلامة والإيمان.

● ● ●

«النصيحـة الذهبيـة»

(أسلوب آخر للتشويه)

«النصيحـة الذهبيـة»

(أسلوب آخر للتشويه)

من أساليب التشويه القديمة أن يتخذ أحد الأعلام تكأة للنيل من كرامة أي شخصية بارزة زوراً وبهتاناً، لتحقيق الغاية الخبيثة التي يرجوها الوضاعون والكذابون.

ونرى أن أصحاب المطامع الشخصية والسياسية والمذهبية، والزنادقة والملاحدة لم يتأخروا في وضع الأحاديث على النبيّ ﷺ مع ورود الوعيد الشديد في هذا الأمر في حديث: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1] فكيف بمن غيره من أمته من العلماء؟!.

لما رأى خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية أنه جبل العلم والحفظ، وحامي الكتاب والسنّة، ولا يمكن إزالته من مكانه بالرد والمناقشة، والمناظرة والمباحثة، اختاروا أسلوب مشايخهم القدماء في تشويه سمعته. وهو أن أحدهم وضع[2] نصيحة على الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ الذي هو

---

(١) حديث متواتر.

(٢) أسلوب الوضع للتشويه قد اختاره الإخنائي أيضاً في حق شيخ الإسلام كما ذكره ابن عبد الهادي (الفتاوى ٢٧/ ١٨٢)، وذكره شيخ الإسلام بنفسه فقال: «وكان ينبغي له أن يحكي لفظ المجيب بعينه ويبيّن ما فيه من الفساد، وإن ذكر معناه، فيسلك طريق الهدى والسداد، فأما أن يذكر عنه ما ليس فيه، ولا يذكر ما فيه، فهذا خروج عن الصدق والعدل إلى الكذب والظلم» (الرد على الإخنائي ص ١٢).

من أبرّ تلاميذ شيخ الإسلام في حياته وبعد مماته، موجّهة إليه. وفيها النيل من كرامته، والوقيعة فيه، بأسلوب حاقد عجيب.

والجدير بالذكر أن محتويات هذه النصيحة المنكرة لا توجد في أي كتاب من كتب الإمام الذهبي التي تحفظ الثناء البالغ على شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ في حياته وبعد وفاته. ولا يذكرها أحد ممن ترجم له، وهم كثيرون[1].

ولا يفوتني أن أذكر أن الإمام السخاوي أشار إلى أن الذهبي كتب رسالة لابن تيمية وقال: «هي لدفع نسبته لمزيد تعصبه مفيدة»[2].

ومعلوم أن مجرد هذا الذكر لا يعني صحة نسبتها إلى الذهبي في حقيقة الأمر، وكذلك بعد ذكر هذه الرسالة لم ينقل السخاوي من محتوياتها شيئاً بل نقل من كتابه «زغل العلم والطلب» فلم لا يكون هذا الكتاب هو المراد من الرسالة المذكورة[3].

واستغل الكوثري إشارة السخاوي إلى هذه «الرسالة» لإثبات نسبتها إلى الذهبي. وأنّى له ذلك؟

ومن يعرف الذهبي وأسلوبه من ناحية، وحبّه لشيخ الإسلام، وثناءه

---

(١) ذكر الأستاذ محمد إبراهيم الشيباني في «التوضيح الجلي في الرد على النصيحة الذهبية المنحولة على الإمام الذهبي» (١٩ ــ ٢٢) أسماء تسعين عالماً ومؤرخاً ممن ترجموا لشيخ الإسلام ولم يذكر أحد منهم هذه النصيحة في ترجمته له.

(٢) راجع «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ».

(٣) زغل العلم (ص ٣٨) وسيأتي توضيح القول والردّ عليه في أواخر الرد على «كمال أبي المنى» إن شاء الله.

العاطر عليه من أخرى، لا يصعب عليه أن يحكم على هذه النصيحة المنكورة بأنها موضوعة ومنحولة، لأن الخطاب يقرأ من عنوانه: «يكاد المريب أن يقول خذوني».

وهناك ظروف وملابسات أخرى لا يمكن التغاضي عنها عند الكلام في هذه الرسالة المنحولة[1].

وإليكم نص هذه النصيحة مع مقارنتها بأقوال الإمام الذهبي في التعليقات، لتعرفوا مدى الحقد المتوارث على شيخ الإسلام ودعوته السلفية في ضوء الكتاب والسنّة:

• • •

---

(١) قال الشيخ بكر أبو زيد: «هنا فائدة مهمة، وهي أن هذه الرسالة هي بخط ابن قاضي شهبة، وهو خصم لدّ لابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ وله فيه كلمات سيئة، فهي إذاً بخط خصم له، وشهادة الخصم على خصمه شهادة مردودة شرعاً، بل إن قاضي شهبة هو منشىء الخصومة الباطلة فانقضّ على ابن تيمية مباشرة، وبواسطة كما في انتحاله هذه الرسالة للذهبي. وللجامع بين الشيخين: «الذهبي وابن قاضي شهبة بالتمذهب للإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ أراد أن يكسب بها أمرين: الطعن بابن تيمية، وتعاطفه مع الذهبي للتشفع، والسخاوي ـ رحمه الله تعالى ـ هو الثالث شافعي المذهب، وله كلام نجس في حق ابن تيمية وروّاد مدرسته مع جلالة قدر هذا الحافظ الجامع السخاوي. ولكن لله الأمر من قبل ومن بعد. والإمام الذهبي في دينه وخلقه وورعه يرتفع قدره عن مثل هذه الرسالة التي تنادي عباراتها على بطلانها، لا سيما رميه ابن تيمية بقوله: (عليم اللسان)، وكلها أن يرمي شيخه الذي نجح على يديه بهذه الفرية بلا مرية» (التوضيح الجلي للشيباني ص ٧).

نصّ «النصيحة الذهبية»[1]

«رسالة كتبها الشيخ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية.

كتبتُها من خط قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة رحمه الله[2].

وكتبها هو من خطّ الشيخ الحافظ أبي سعيد العلائي[3].

---

(١) «ونسختها الخطية الموجودة في دار الكتب المصرية، هي بخط ابن قاضي شهبة وهو معروف بعدائه السافر لشيخ الإسلام ابن تيمية، فلعلها من وضعه، وإلا فإن العداوة مانعة من قبول الشهادة» (من إفادات الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد حفظه الله تعالى). وما ذهب إليه د. صلاح الدين المنجد، ود. بشار عوّاد من إثبات نسبتها إلى الذهبي ـ فلا دليل فيه على ذلك.

(٢) هو الإمام المحدث أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحيم بن جماعة الكناني الشافعي (ـ ٧٩٠هـ) كان من الموقّرين لشيخ الإسلام ابن تيمية (الرد الوافر ص ١٤٩) فادعاء نقل هذه النصيحة من خطه، أمر فيه نظر، كما سيأتي إن شاء الله.

(٣) هو الإمام العلامة صلاح الدين خليل بن الأمير سيف الدين العلائي (ـ ٧٦١هـ). كان من المحبين لشيخ الإسلام ابن تيمية والموقرين له جداً. روى العلائي عنه، فقال:

«أخبرنا شيخنا وسيدنا شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن =

وهو كتبها من خطّ مرسلها الشيخ شمس الدين[1].

= عبد السلام ابن تيمية، وأخوه لأمه الإمام بدر الدين أبو القاسم محمد بن القاسم الحرّاني، ونسيبهما عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد اللطيف بن عبد العزيز ابن تيمية، والعلامة كمال الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر الشريشي... ذكر غيرهم، ثم قال: كلهم ــ خلا الشريشي ــ أخبرنا أبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي... وذكر أحاديث انتقاها الحافظ صلاح الدين العلائي المذكور من «جزء ابن عرفة» (الرد الوافر ص ١٦٣ ــ ١٦٤).

قال الأستاذ زهير الشاويش بمناسبة ثناء العلائي على شيخ الإسلام:

«... ما نسب للعلائي من عداوةٍ لشيخ الإسلام ابن تيمية، وزعم بأنه نقل النصيحة الذهبية، وأنت تراه هنا معظماً له، ولأخيه ولأمه، ولقريبه أيضاً. وما كان العلائي متزلّفاً، منافقاً، وإنما الكذب والافتراء والتدليس من غيره». (المصدر المذكور ص ١٦٤).

(١) ستقارن الآن بين ما نسب إلى الإمام الذهبي في هذه «النصيحة» ــ ومحتواها لا يوجد في مكان آخر من كتبه ــ وبين ما كتبه عن شيخ الإسلام في حياته وبعد مماته ــ وهو يوجد في كتبه المعروفة المتداولة بين الناس ــ فتجد أن أسلوب هذه النصيحة صوفيّ متحامل حاقد على شيخ الإسلام.

ومن المؤسف أن الذي وضع هذه النصيحة على الإمام الذهبي حاول أولاً أن ينال من كرامته، وينسبه إلى النفاق والتملّق، قبل أن يحط من قدر شيخ الإسلام، لأنه أثنى عليه في كتبه ثناءً لا مزيد عليه في حياته وبعد مماته، حتى ألّف كتاباً في سيرته أسماه «الدرة اليتيمية في سيرة التيمية». ورثاه بعد موته فقال:

يا موت خذ من أردت أو فدع ... محوت رسم العلوم والورع
أخذت شيخ الإسلام وانفصمت ... عُرى التقى واشتفى أولوا البدع

إذا كان الذهبي يرى في شيخ الإسلام هذا الرأي الموجود في هذه النصيحة، فما الذي حمله على هذا الثناء البالغ بعد وفاته؟. إن الإمام الذهبي أورع وأرفع من هذا التناقض، والنفاق والتملق. فليمت الحاقدون غيظاً.

«الحمد لله على ذلّتي يا ربّ، يا ربّ ارحمني وأقلني عثرتي. واحفظ عليّ إيماني. واحزناه على قلّة حزني. واأسفاه على سنّة وذهاب أهلها. واشوقاه إلى إخوان مؤمنين يعاونونني على البكاء. واحزناه على فَقْدِ أناس كانوا مصابيح العلم وأهل التقوى وكنوز الخيرات. آه على وجود درهم حلال وأخ مؤنس[1].

طوبى لمن شغله عيبه من عيوب الناس، وتباً لمن شغله عيوب الناس عن عيبه. إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك؟[2].

---

(١) ليس في مطلع هذه «النصيحة» إلا شكوى بثّها متعبّد صوفي في محرابه، ومناجاة غائب عن معنى ما يقول».
وهل يمكن أن ينعي الإمام الذهبي على السنّة وأهلها لأجل شيخ الإسلام ابن تيمية، مع أنه هو الذي قال فيه: «ولقد نصر السنّة المحضة، والطريقة السلفية، واحتجّ لها ببراهين ومقدمات، وأمور لم يسبق إليها...» (العقود الدرية ص ١٧٦، والرد الوافر ص ٧٠، والشهادة الزكية ص ٤١). ومعروف من كلام الذهبي نفسه أنه كان قانعاً باليسير، أما كون شيخ الإسلام أخاً مؤنساً فليس هناك أدل على ذلك مما قاله ابن القيم ــ رحمه الله ــ في «الوابل الصيب» (ص ٤٥): «علم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه مع ما كان فيه من ضيق العيش والرفاهية، وكنا إذا اشتدّ بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كلّه، وينقلب انشراحاً وقوة وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه...» هذا، فعلى ما الشكوى من «وجود درهم حلال وأخ مؤنس» في رسالة إلى شيخ الإسلام، فتدبر.

(٢) هل الكشف عن فضائح أهل البدع والأهواء يعتبر من الشغل بعيوب الناس؟
وهل يقول هذا الكلام الذهبي في شيخ الإسلام وقد ألّف كتابه القيم الشهير «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»؟!.

إلى كم تمدح[١] نفسك، وشقاشقك وعباراتك، وتذمّ العلماء، وتتبع عورات الناس، مع علمك بنهي الرسول ﷺ: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا»[٢].

بلى أعرف أنك تقول لي لتنصر[٣] نفسك: إنما الوقيعة في هؤلاء الذين ما شمّوا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمد ﷺ، وهو جهاد.

بلى والله عرفوا خيراً مما إذا عمل به العبد فقد فاز، وجهلوا شيئاً كثيراً مما لا يعنيهم و(من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[٤].

---

(١) مدح الذهبي شيخ الإسلام بما لا مزيد عليه، قال: «وهو أكبر من أن ينبّه مثلي على نعوته، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، ولا رأى هو مثل نفسه في العلم» ــ فكيف يقول الذهبي بعد هذا: إلى كم تمدح نفسك»؟

(٢) صحيح رواه النسائي عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٣) ولم يكن الانتصار للنفس من شيمة شيخ الإسلام ابن تيمية، وذلك بشهادة أحد خصومه ــ وهو القاضي ابن مخلوف المالكي ــ أنه قال: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية لم نبق ممكناً للسعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا» (البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤).

(٤) صحيح (رواه الترمذي وغيره)، يرى واضع هذه النصيحة أن كلام شيخ الإسلام في أهل البدع والأهواء، والحلول والاتحاد من الوقيعة فيهم. ولأجل هذا يتململ غيظاً وحنقاً عليه، ويرميه بالنفاق (معاذ الله) ويدافع عنهم بكل ما عنده من أساليب التمويه والتهويل.

حاشا أن يرميه الذهبي بالنفاق وبتتبعه عورات الناس، وبمدحه نفسه وعباراته، مع أنه هو الذي مدحه في كتبه، وأثنى عليه ثناءً بالغاً، يغيظ خصومه، حتى دافع عنه في حطّه على الناس فقال: «وغالب حطّه على الفضلاء والمتزهدة فبحقّ، وفي بعضه هو مجتهد. ومذهبه توسعة العذر للخلق. ولا يكفّر أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه» (ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٤). =

يا رجل بالله عليك كفّ عنا، فإنك محجاج عليم اللسان لا تقرّ ولا تنام. إياكم والأغلوطات في الدين. كره نبيّك ﷺ وعابها، ونهى عن كثرة السؤال وقال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان»[1].

وكثرة الكلام بغير زلل تقسي القلب إذا كان في الحلال والحرام، فكيف إذا كان في العبارات اليونسية، والفلاسفة، وتلك الكفريات التي تعمي القلوب؟

والله قد صرنا ضحكة في الوجود. فإلى كم تنبش دقائق الكفريات الفلسفية، لنردّ عليها بعقولنا. يا رجل قد بلعتَ سموم الفلاسفة، ومصنّفاتهم مرات. وبكثرة استعمال السموم يدمن عليها الجسم، وتكمن والله في البدن[2].

= نعم، إن كشف فضائح الفرق الضالّة من الجهاد في سبيل الله. ولأجل هذا أشاد الإمام عماد الدين الواسطي بجهود شيخ الإسلام وأنصاره في هذا المجال فقال:
«فأنتم ـ بحمد الله ـ تجاهدون هذا الصنف أيضاً، كما تجاهدون من سبق. حفظتم من دين الله ما أضاعوه، وعرفتم ما جهلوه، تقوّمون من الدين ما عوّجوه، وتصلحون منه ما أفسدوه» (التذكرة والاعتبار ص ٣٨).
لكشف فضائح الرافضة قام الإمام الذهبي أيضاً بتلخيص «منهاج السنّة النبوية» لشيخ الإسلام في كتابه «المنتقى لمنهاج الاعتدال».
مع هذا، كيف يمكن أن يقال إن الذهبي يمنعه من الوقيعة في أهل البدع والأهواء. وهو الذي ألّف كتابه القيم «ميزان الاعتدال في نقد الرجال».

(١) صحيح رواه أحمد عن عمر رضي الله عنه.

(٢) بالله عليكم: هل تصدق هذه الأوصاف على شيخ الإسلام ابن تيمية؟
العالم الذي قضى حياته في الدعوة إلى الكتاب والسنّة المحضة، وفي الردّ على =

واشوقاه إلى مجلس فيه تلاوة بتدبّر، وخشية بتذكّر، وصمت بتفكّر[1]، وآهاً لمجلس يذكر فيه الأبرار، فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، لا عند ذكر الصالحين[2] يذكرون بالإزدراء واللعنة. كان سيف الحجاج

= الأغلوطات في الدين، وكشف فضائح الفلاسفة والمتكلمين في ضوء الأدلة والبراهين، وأوقفهم عند حدّهم!! وهل يمكن أن يصدر هذا من الإمام الذهبي، الذي قال في حق شيخ الإسلام: «وإن سمّى المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة: فَلَّهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم...» (العقود الدرية ص ٣٩ ــ ٤٠، والشهادة الزكية ص ٤٢ ــ ٤٣)

وأما ما ذكره واضع «النصيحة» من ردّه على «اليونسية»، فهو واجب على كل عالم غيور على دينه، أن يردّ عليها وعلى «العربية»، و«الصدرية» و«السبعينية» و«التلمسانية». فكل هؤلاء بدّلوا دين الله تعالى، وقلّبوه، وأعرضوا عن شريعة رسول الله ﷺ» (التذكرة والاعتبار ص ٣٩ ــ ٤١).

فإذا ردّ على هؤلاء الضلال، وبالغ في الردّ عليهم دفعاً لشرهم، لئلا يقع في حبائلهم المسلمون، حصل ماذا؟!.

(١) قال الإمام الذهبي: «فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقعات شامية ومصرية. وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجّيه الله تعالى، فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قويّ التوكّل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية» (العقود الدرية ص ١٢، والرد الوافر ص ٧١).

وقال العلامة مرعي بن يوسف الحنبلي: «ولقد كان الزهد شعاره، والدرع وقاره، والذكر أنيسه، والفكر جليسه» (الشهادة الزكية ص ٨٩).

وعلى هذا، لا يصدق هذا الوصف على شيخ الإسلام ومجلسه. فلينتبه.

(٢) لعلّ واضع النصيحة يريد بالصالحين رؤوس الحلول والاتحاد والزندقة أمثال ابن عربي، وابن سبعين وابن الفارض وغيرهم. وإلا فكتب شيخ الإسلام مملوءة بإشادة الصالحين والاستدلال بأقوالهم.

ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتُهما[1]. بالله خلونا من ذكر بدعة الخميس وأكل الحبوب، وجدوا في ذكر بدع كنا نعدها رأساً من الضلال، قد صارت هي محض السنّة، وأساس التوحيد، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار، ومن لم يكفّر فهو أكفر من فرعون، وتعدّ النصارى مثلنا[2].

---

(١) ولا ريب أن شيخ الإسلام استعمل سيف الحجاج في قتال التتار، وردع الكسروانية الذين كانوا يقطعون طريق المسلمين في الجبال. وقد صَعُب موقفه هذا جداً على الموالين للتتار من ملاحدة الصوفية، والزنادقة. فلم يرقبوا فيه إلاًّ ولا ذمة. وهذا من مآثره التي لا تنسى، شاء خصومه أم أبوا.
أما لسان ابن حزم فشيخ الإسلام نفسه يتبرأ من وقيعته في الأكابر (الفتاوى ١٩/٤).
وعلى هذا، رميه بمواخاة سيف الحجاج ولسان ابن حزم، فيه حق وباطل والحق أنه كان سيفاً مسلولاً ضد التتار ألدّ أعداء المسلمين في عصرهم. والباطل أن يُرمى أنه كان يقع في الصالحين.
وأما إذا كان عدم المداهنة وعدم المحاباة يعدّ عندهم من الوقيعة، فهذا شيء آخر خارج عن نطاق بحثنا.
ولقد أثنى الإمام الذهبي على شجاعته في الحق بدون مداهنة ولا محاباة، فقال: «وأطلق عبارات أحجم عنها الأوّلون والآخرون، وهابوا وجَسَرَ هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدّعوه، وناظروه، وكاتبوه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أدّاه إليه اجتهاده، وحدّة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال مع ما اشتهر منه في الورع، وكمال الفكر، وسعة الإدراك، والخوف من الله العظيم، والتعظيم لحرمات الله» (العقود ص ١٧٦، والرد الوافر ص ٧٠ ــ ٧١).

(٢) تقدم عن الذهبي قوله في شيخ الإسلام آنفاً: «إنه نصر السنّة المحضة والطريقة السلفية» فكيف يمكن للإمام الذهبي أن يناقض قوله بقوله؟ حاشا أن يصدر هذا منه.
نعم، من تدبّر في قول ملاحدة الصوفية علم أنه أعظم من كفر اليهود والنصارى... =

والله في القلوب شكوك. إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد. يا خيبة من اتبعك فإنه معرض للزندقة والانحلال[1]. ولا سيما إذا كان قليل العلم والدين باطولياً شهوانياً، لكنه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفي الباطن عدّو لك بحاله وقلبه. فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل، أو عامي كذاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوي المكر، أو ناشف صالح عديم الفهم. فإن لم تصدقني ففتّشهم وزنهم بالعدل[2].

= وكان عبد الله بن المبارك يقول: «إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام «الجهمية». وهؤلاء شرّ من «الجهمية» (الشهادة الزكية ص ٩٥، نقلاً عن شيخ الإسلام في جواب سؤال عن الفصوص لابن عربي).

أما تكفير المسلم فقال فيه شيخ الإسلام: «... وكذلك التكفير حق الله، فلا يكفَّر إلا من كفّره الله ورسوله» (الرد على البكري: ٢٥٦ ــ ٢٦٠). راجع «مبحث رأي شيخ الإسلام في تكفير المسلم» من هذا الكتاب.

(١) قال الحافظ ابن حجر: «لا يحفظ من أحد منهم أنه أفتى بزندقته، ولا حكم بسفك دمه» (الرد الوافر ص ٢٣٠) وقال العلامة العيني: «فمن قال هو كافر، فهو كافر حقيق، ومن نسبه إلى الزندقة، فهو زنديق» (المصدر المذكور ص ٢٤٥).

وهل يمكن صدور مثل هذه العظائم من الذهبي في حق شيخ الإسلام، وكان هو من أكبر أتباعه؟.

(٢) هنا بلغ الحقد بواضع النصيحة إلى المستوى المتدني من الأخلاق والآداب. وأفرغ كل ما كان عنده من الفحش والبذاءة شفاءً لغيظه منه ومن أصحابه وتلاميذه، والإمام الذهبي من أبرزهم. وهل يمكن صدور مثل هذا الهراء من الذهبي؟ وهو الذي ألّف كتاباً مستقلاً في تلاميذه وأصحابه، وأسماه (القبان في أصحاب التقي ابن تيمية» (الإعلان للسخاوي ص ٦٧٥).

وقد فتّشنا أتباعه وأنصاره فوجدناهم فطاحل وفحولاً في التفسير والحديث والسير والتراجم، والتأريخ وغيرها من العلوم الإسلامية، وأما دعوتهم إلى الاعتصام =

يا مسلم، أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك، إلى كم تصادقها وتعادي الأخيار؟

إلى كم تصدقها وتزدري بالأبرار؟ إلى كم تعظّمها وتصغّر العباد؟

إلى متى تخاللها وتمقت الزهاد؟ إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح بها والله أحاديث الصحيحين، يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك، بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف، والإهدار، أو بالتأويل والإنكار[1].

= بالكتاب والسنّة، وتنقية العقيدة من أكدار الشرك والوثنية والإلحاد فأقضت، ولا تزال تقضّ أهل البدع والأهواء والزندقة والانحلال في مضاجعهم. فجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين!.

(١) حَاوَلَ واضعُ «النصيحة» محاولة خبيثة أن ينتقم منه لمشايخه من أهل الحلول والاتحاد الذين سمّاهم بالزهّاد والأخيار والأبرار. هلا سمّى هذا الواضع أولئك العباد الزهاد الأخيار الذين عاداهم شيخ الإسلام؟

ثم انظر كيف تسلّل لواذاً ليشوّه الحقائق باستغلال مشاعر المسلمين نحو الصحيحين. وهو لا يستطيع أن يقدّر حب شيخ الإسلام للشيخين وصحيحيهما. كم هو يعتمد عليهما؟

أما ذكر كلام العلماء في بعض رواة الصحيحين، فهو كالناقل عنهم، وليس بالمنشيء وأنّى له ذلك؟ وهذا القدر لا يعاب عليه العالم إذا أراد التحقيق، والبحث عن بعض المسائل.

هذا الإمام الذهبي الذي نسبتْ إليه هذه النصيحة، قال في «خالد بن مخلد» الذي روى عنه البخاري حديث: «من عادى لي وليّاً فقد آذنني بالحرب»:

«فهذا حديث غريب جداً، لولا هيبة الجامع الصحيح لعدّوه [وفي نسخة: لعددتُه] =

أما آن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟[1].

= في منكرات خالد بن مخلد، وذلك لغرابة لفظه، ولأنه مما ينفرد به شريك، وليس بالحافظ. ولم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد، ولا خرّجه من عدا البخاري. ولا أظنه في مسند أحمد. . .» (ميزان الاعتدال ١/ ٦٤١ ـ ٦٤٢).

علّق عليه الحافظ ابن حجر قائلاً: «قلت: ليس هو في مسند أحمد جَزْماً، وإطلاق أنه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود، ومع ذلك فشريك شيخ شيخ خالد فيه مقال أيضاً. وهو راوي حديث المعراج الذي زاد فيه ونقص، وقدّم وأخّر، وتفرّد فيه بأشياء لم يتابع عليها ولكن للحديث طرق أخرى يدلّ مجموعها على أن له أصلاً. . .» (فتح الباري ١١/ ٣٤١ ـ طبعة السلفية).

رأيت أنه كيف حصل الأخذ والعطاء بين هذين الإمامين في الحديث والرجال في بعض رواة الصحيح؟ وعلى هذا لا يمكن للإمام الذهبي أن يرمي شيخ الإسلام بما وقع هو فيه، تحقيقاً للأمر، واجتهاداً في المسألة.

وقال الذهبي في شيخ الإسلام: «وكان محافظاً على الصلاة والصوم، معظماً للشرائع ظاهراً وباطناً لا يؤتى من سوء فهم، فإن له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم فإنه بحر زخار، ولا كان متلاعباً بالدين، ولا ينفرد بمسائله بالتشهي، ولا يلقن لسانه بما اتفق، بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس، ويبرهن ويناظر أسوة بمن تقدّمه من الأئمة، فله أجر على أخطائه، وأجران على إصابته» (التوضيح الجلي ص ٥٨)، أين هذا الكلام من تلك النصيحة المنحولة؟!

(١) أظهر «الواضع» أن الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ وجّه هذه النصيحة إلى شيخ الإسلام في آخر حياته، وصحيحاً قيل: «إن الكذب من غوائل العلم» ونسي «الواضع» أن الذهبي قال أبياتاً حين سمع بوفاة شيخ الإسلام ما يدلّ على حبّه له حياً وميتاً.

يا موت خذ من أردت أو فدع | محوت من رسم العلوم والورع =

بلى والله، ما أذكر أنك تذكر الموت، بل تزدري بمن يذكر الموت[1] .

= أخـــذت شيـــخ الإســـلام وانفصمـــت عـرى التقـى واشتفـى أولـو البـدع

وستأتي القصيدة بكاملها إن شاء الله.

(١) قولة عظيمة قالها واضع هذه النصيحة بلا علم وبرهان، بل حلف عليها لتأكيدها وإثباتها.

ولا ريب أن التوبة والإنابة إلى الله تعالى، وذكر الموت والآخرة أمور بين الله تعالى وبين عبده، لا يطلع عليها غيره سبحانه وتعالى. فكيف ينبغي لمسلم أن يتألّى على غيره في نفيها عنه. وفي الحقيقة أنه لمن العظائم التي لا يخوض فيها من يتقي الله تعالى في نفسه. قال النبيّ ﷺ: «بحسب امرىء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم» (رواه مسلم) وقال ﷺ أيضاً: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله عزّ وجلّ: من ذا الذي يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان. إني قد غفرت له وأحبطتُ عملك» (رواه مسلم).

أعود فأقول: كيف يمكن صدور هذا التألي من الإمام الذهبي في شيخه ابن تيمية ــ رحمهما الله ــ وهو الذي وصفه بأنه كان دائم الابتهال، كثير الاستغاثة. وله أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية» (العقود ص ١٢).

وقال أيضاً: «وهو أعظم من تصفه كلمي، وينبّه على شأوه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته: يحتمل أن توضع في مجلّدين، فالله تعالى يغفر له، ويسكنه أعلى جنّته، فإنه كان ربّاني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين. . . » (الشهادة الزكية ص ٤٣).

وقال أيضاً: «نشأ في تصوف تام، وعفاف، وتألّه، واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً براً بوالديه، تقياً ورعاً عابداً ناسكاً، صوّاماً قوّاماً، ذاكراً الله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجاعاً إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، وآمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر» (القول الجلي ص ٧٢). =

فما أظنك تقبل على قولي، ولا تصغي إلى وعظي. بل لك همّة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلدات. وتقطع لي أذناب الكلام. ولا تزال تنتصر حتى أقول لك: ليته سكت.

= بيّن الإمام ابن قيم الجوزية حالة شيخ الإسلام في الذكر والعبادة فقال في (الوابل الصيب ص ٤٤ ــ ٤٥): «والإقبال على الله تعالى، والإنابة إليه، والرضا به وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل، وجنّة وعيش، لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنّة من لم يدخلها لا يدخل جنّة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني. إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة...

وكان يقول في سجوده ــ وهو محبوس: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله» وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربّه تعالى. والمأسور من أسره هواه...

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه، مع ما كان فيه من ضيق العيش والرفاهية... وكنا إذا اشتدّ بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه. فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كلّه. وينقلب انشراحاً وقوة وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه...».

وقال ابن كثير في وصف حالة شيخ الإسلام عند موته: «وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن: أنه قرأ هو والشيخ منذ دخلا القلعة ثمانين ختمة، وشرعا في الحادية والثمانين فانتهيا فيها إلى آخر «اقترب الساعة» ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾ [القمر: ٥٤ ــ ٥٥] (البداية والنهاية ١٤/ ١٣٢ ــ ١٣٨) هل كل هذا يدلّ على عدم الإقبال على الله، والإنابة إليه، وعدم ذكر الموت؟!.

فإذا كان حالك عندي وأنا الشفوق المحبّ الواد[1]، فكيف يكون حالك عند أعدائك ــ وأعداؤك فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة ووعور وبقر[2]. قد رضيت منك أن تسبّني علانية، وتنتفع بمقالتي سراً (رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي).

---

(١) لا وألف لا، بل أنت الحقود المبغض القوّاد. إذا كان ابن تيمية على هذه الصفات البغيضة، فلماذا هذه الشفقة والحب والوداد؟ أليس هذا من التزلّف والتملّق والنفاق؟ هذا التناقض يزيد يقيناً بأن هذه النصيحة موضوعة على الإمام الذهبي ــ رحمه الله تعالى ــ وهو بريء منها إن شاء الله تعالى.

(٢) هل يعقل أن الإمام الذهبي يصف شيخ الإسلام ابن تيمية وأنصاره بهذه الخصال البشعة وهو منهم. ثم يكتب كتاباً مستقلاً في شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذا مستقلاً في أصحابه.

في الحقيقة أن واضع هذه النصيحة كان غبياً جداً في نسبتها إلى الإمام الذهبي الذي عرف بنصرة منهج شيخ الإسلام في حياته وبعد مماته.

وكذلك من الحماقة الظاهرة أنه حوّل صفات مشايخه وكبرائه إلى أولياء شيخ الإسلام وأنصاره. قال ابن فضل الله العمري في قصيدة طويلة رثى بها شيخ الإسلام، ومنها:

كم من فتىً جاهل غرّ أبنْتَ له ... رُشدَ المقال فزال الجهل والغَرَرُ

مَا أنكروا منك إلا أنهم جهلوا ... عظيم قدرك لكن ساعد القدرُ

قالوا بأنك قد أخطأت واحدة ... وقد يكون، فهلا منك تغتفرُ

ومن يكون على التحقيق مجتهداً ... له الثوابُ على الحالين لا الوزرُ

ألم تكن بأحاديث النبيّ إذا ... سئلتَ تعرف ما تأتي ولا تذرُ

حاشاك من شُبَهٍ فيها ومن شَبَهٍ ... كلاهما منك لا يبقى له أثر

عليك بالبحث أن تبدي غوامضه ... وما عليك إذا لم تفهم البقرُ

قدّمتَ لله ما قدّمت من عملٍ ... وماعليك بهم ذمّوك أو شَكَروا

(الشهادة الزكية ص ٦٧ ــ ٦٨).

فإني كثير العيوب غزير الذنوب. الويل لي إن أنا لا أتوب، ووافضيحتي من علاّم العيوب. ودوائي عفو الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته.

والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين». انتهى.

* * *

تصريح بوضع هذه النصيحة:

تقدّمت المقارنة بين محتويات هذه النصيحة المنكرة وبين أقوال الإمام الذهبي المحفوظة في الثناء على شيخ الإسلام حياً وميتاً. وفيها كفاية لمن أراد الله له الهداية.

ولكن من أعمى الله بصيرته قبل بصارته، وأراد إضلال الناس عن الحق الصريح: تشبث بها من دون تحقيق وتثّبث، وتناقلها أمثالهم من الجهلة والوعور والبقر.

وطبعاً، لا اعتداد بهم، ولا اعتماد عليهم لأنهم سفهاء الأنام[1]، ورعاع اللئام، وغوغاء العوام، ويعدّون أنفسهم من البشر، وهم من الأنعام، وما هم إلا على حدّ قول الأعشى:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعِلُ

إن العلماء العارفين بأسلوب الإمام الذهبي، وصلته القوية بشيخ الإسلام وكتاباته وأفكاره في حياته وبعد مماته، استبعدوا أن تصدر هذه النصيحة المنكورة منه في حقه. بل صرّح عديد من فضلاء الكتّاب والباحثين بوضعها على الإمام الذهبي.

---

(١) كما قال العلامة مرعي بن يوسف في «الشهادة الزكية» (ص ٧١) بتصرف.

* علّق الأستاذ زهير الشاويش على ثناء الذهبي البالغ على شيخ الإسلام فقال:

«وهـذه شهـادة الذهبـي في ابن تيمية، فأين موضعه ما سمّى بـ«النصيحة الذهبية»!! زعموا!! وسوف يمرّ بك مثله وأعظم منه في هذا الكتاب، وترى فيه الإنصاف والاعتدال، والتماس العذر للمخالف في الرأي والمذهب.

غير أن الكوثري لم يترك مناسبةً إلا وحطَّ وتهجَّم فيها على الإمام الذهبي باللوم والتقريع. وأحياناً بالتكفير والتضليل، ولم يسلم من لسانه إلا فيما سمّي بـ«النصيحة الذهبية» بل ويمدحه، وذلك ليصل به إلى الطعن بابن تيمية.

ولا تصح نسبة «النصيحة الذهبية» للإمام الذهبي، وهو المدافع عن ابن تيمية طوال حياته وبعد مماته. والزعم بأنه من خطّ العلائي مردود كذلك (وانظر كلمات العلائي في الصفحة (١٦٤ ــ الرد الوافر).

وكذلك نسبتها للبرهان ابن جماعة أمر فيه نظر!! (وانظر قول البرهان الآتي في ترجمته رقم ٤٥ ــ الرد الوافر).

وكذلك الزعم بأنها نقلت من خط الذهبي. فقد كان معروفاً أن طلاّب العلم كانوا يقلّدون خط الذهبي، ويكتبون على طريقته. ومنهم ابن ناصر الدين، كما في «ذيول تذكرة الحفاظ»(ص ٣٧٨).

وإن من ينظر في نقد هذه المسألة المسمّاة بـ«النصيحة الذهبية» يعلم أنها لا تصدر عن عالم بليغ أديب، مثل الإمام الذهبي، وأن مطلعها ليس فيه إلا شكوى يبثها متعبد صوفي في محرابه، ومناجاة غائب عن معنى ما يقول.

وإلا فهل يعقل أن يكون الذلّ محموداً، وأن يحزن إنسان عاقل على قلّة الحزن، ويطلب بشوق وحرقة من يعاونه على البكاء؟؟!.

وإن صَحّ منه أسفه على ذهاب أهل السنّة، فهو الدليل على أنها لم توجّه إلى ابن تيمية، فإنه كان أكبر من ينصر السنّة في رأي الإمام الذهبي[1].

وفي الواقع ونفس الأمر: ثم إن من ينظر في تراجم أصحاب ابن تيمية لا يجد فيهم من تنطبق عليه تلك الأوصاف المذكورة في «النصيحة الذهبية».

وانظر كلام الكوثري في الطعن بالإمام الذهبي، والرد عليه في رسالة الشيخ ناصر الدين الألباني «كشف النقاب عما في «كلمات» أبي غدة من الأباطيل والافتراءات» الصفحة ٣٦ من الطبعة الأولى، وفي الصفحة ٧٠ من الطبعة الثانية»[2].

* وقال الشيخ عبد الله بن صالح المدني: «... ودون إثبات رسالة الذهبي خرط القتاد»[3].

---

(١) كما تقدم آنفاً، نقلاً عن (العقود ص ١٢٦، والشهادة ص ٤١).

(٢) الرد الوافر (ص ٦٩ ــ ٧٠)، تعليق الأستاذ زهير الشاويش.

وقال عبد الله بن صالح المدني:

«هنا يرد الكوثري كلام الذهبي ويسقط منزلته بين أهل الفهم والدراية، وكذلك جميع كلامه في مدح شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن إن جاء إلى الرسالة المزعومة جعل يكيل المدح للذهبي!! ودون إثبات رسالة الذهبي خرط القتاد».

«المقابلة بين الهدى والضلال» للشيخ عبد الرزاق حمزة (ص ١/١٣٧) تعليقاً مع التنكيل ط. ١٤٠٦هـ.

(٣) راجع التعليق السابق.

* وصرح الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد بوضع هذه الرسالة على الذهبي[1].

* وألّف الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني رسالة مستقلّة أسماها «التوضيح الجلي في الرد على (النصيحة الذهبية) المنحولة على الإمام الذهبي»[2].

وأما من[3] حاول إثبات نسبة هذه النصيحة إلى الإمام الذهبي فنقول له: «. . . دون إثبات رسالة الذهبي خرط القتاد».

فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ثناء الإمام الذهبي على شيخ الإسلام:

وقد ترجم الذهبي ابن تيمية في عدة مواضع. وأثنى عليه ثناء عاطراً وأشاد بذكر آثاره ومآثره إشادة بالغة، حتى قال العلامة ابن ناصر الدين الدمشقي:

«وترجمة أبي عبد الله الذهبي للشيخ تقي الدين بشيخ الإسلام أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر»[4].

قال الذهبي: «هو أكبر من أن ينبّه مثلي على نعوته، فلو حُلِّفْتُ بين

---

(1) كما تقدم.

(2) طبعة مركز المخطوطات والتراث والوثائق ـ الكويت ١٩٩٣م.

(3) كالكوثري وأتباعه من الحاقدين على شيخ الإسلام، كالدكتور صلاح الدين المنجد، والدكتور بشار عواد وغيرهم.

(4) الرد الوافر (ص ٧٢).

الركن والمقام لحلفت أني ما رأيتُ بعيني مثله، ولا ــ والله ــ رأى هو مثل نفسه في العلم»[1].

ثناء الذهبي على شيخ الإسلام لا ينكره إلا مكابر عنيد أو جاهل بليد، وهو موجود في كتب الذهبي، ونقل عنه المؤرخون الثقات بعده كما هو. ولم يذكر أحد منهم أن له رسالة في البراءة من شيخ الإسلام. وما ذكره السخاوي لا يدل على صحة نسبته إلى الذهبي. ولكن تشبّث به الكوثري وغيره من الشانئين.

يهمني هنا أن أذكر ثناء الذهبي على شيخ الإسلام بعد وفاته، ليتيقّن القارىء بوضع «النصيحة» المذكورة. لأن الذهبي ــ رحمه الله تعالى ــ لم يكن متزلّفاً ولا منافقاً حتى يقال: إنه تبرّأ من شيخ الإسلام لأمور ذكرت في تلك النصيحة في حياته، ثم رجع إلى ما كان عليه من قبل. وإذا اعتقدنا هذا في الذهبي كان الطعن فيه أولى، من الطعن في شيخ الإسلام. وحاشا أن يصدر هذا التناقض من هذا الإمام الجليل في شيخه المبجّل.

قال الإمام الذهبي في شيخ الإسلام بعد وفاته، كما يدلّ عليه سياق الكلام:

«وكان ــ يعني ابن تيمية ــ آية من الذكاء، وسرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنّة والاختلاف، بحراً في النقليات.

هو في زمانه فريد عصره: علماً وزهداً وشجاعة وسخاءً، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وكثرة تصانيف.

---

(١) المصدر المذكور (ص ٧٢)، والشهادة الزكية (ص ٤٢).

وقرأ وحصّل، وبدع في الحديث والفقه، وتأهّل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة. وتقدم في علم التفسير والأصول، وجميع علوم الإسلام أصولها وفروعها، ودقّها وجلّها.

فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عدّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ: نَطَقَ وخرسوا، وسرَدَ وأُبْلِسُوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمي المتكلمون: فهو فردهم، وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يَقْدِمُ الفلاسفة: فَلَّهم وهتكَ أستارهم وكشف عوارهم.

وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة. وهو أعظم من أن تصفه كلمي، وينبّه ـ على شأوه ـ قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه، ومحنه وتنقّلاته يحتمل أن توضع في مجلّدين، فالله تعالى يغفر له ويسكنه أعلى جنّته، فإنه كان ربّاني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين، رأساً في العلم، يبالغ في أمر قيامه بالحق والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ مبالغة ما رأيتُها، ولا شاهدتُها من أحد، ولا لحظتُها من فقيه»[1].

ونختم نقد هذه «النصيحة» المنكرة بما رثاه الإمام الذهبي بعد موته. وفي ثناياه تكذيب لما وضع عليه، وفضيحة لخصوم شيخ الإسلام. قال:

يـــا مـــوتُ خـــذْ مـــن أردتَّ أو فَـــدَع
محـــوتَ رَسْـــمَ العلـــومِ والـــورعِ

أخـــذتَ بشيـــخ الإســـلام وانفصَمَـــتْ
عُـــرَى التُّقـــىٰ واشتفـــى أولـــوا البـــدعِ

(١) الشهادة الزكية (٤٢ ـ ٤٣)، والعقود الدرية (٣٩ ـ ٤٠).

غيَّبْــــتَ بحـــراً مفسِّـــراً جَبَـــلاً — حَبْـــراً تَقِيــاً مجــانِــبَ الشيــعِ

فــإن تحـــدَّثَ فمسلــــمٌ ثقـــةٌ — وإن ينــاظــر فصــاحــب[1] اللُّمَــعِ

وإن يخُـضْ نحـو سيبـويـه يَفِـهِ — بكــلّ معنــى مــن الفــنّ مُخْتَــرِعِ

وصـار عـالـي الإسنـادِ حـافظـه — كشعبـــة أو سعيـــد الضُّبَعِـــي

والفقـــه فيـــه فكـــان مجتهـــداً — وذا جهـــادِ عـــارٍ مـــن الجَـــزِعِ

وجـــودُه «الحـــاتِمِـــيُّ» مشتهِـــرٌ — وزهـــده «القـــادري» فـــي الطَّمَـــعِ

أسكنـــــه الله فــــي الجنــــان ولا — زال عليّـــاً فـــي أجمـــل الخلـــعِ

مـــع مـــالـــك والإمـــام أحمـــدَ والنّـــ — ـعمـــانِ والشـــافعـــيّ والخلعِـــي

مضـــي ابـــن تيميـــة ومَـــوْعِـــدُهُ — مـــع خصمـــه يـــوم نَفْخَـــةِ[2] الفَـــزَعِ

بعد هذه القصيدة الرائعة في رثاء شيخ الإسلام مع ما تقدّم من ثناءٍ ومدح وإشادةٍ من الإمام الذهبي في حقه بعد وفاته، لا ينسب هذه «النصيحة» إليه إلا حاقد مجنون. نسأل الله تعالى الإيمان والسلامة!!.

حبّ الرئاسة باب هلاك الناس في الناس:

قيّض الله عزّ وجلّ شيخ الإسلام ابن تيمية لإحياء ما اندرس من معالم الدين الحقيقي في ذلك العصر الذي انقلبت فيه الموازين، واختلت المعايير، وعمّ الجهل بالعقيدة الصحيحة، وران التقليد على القلوب: تقليد المذاهب

---

(١) صاحب «اللمع في أصول الفقه» هو الإمام إبراهيم بن علي الشيرازي (ــ ٤٧٦هـ)، والحاتم هو الطائي: الجوّاد المشهور. و«القادري» نسبة إلى عبد القادر الجيلاني (ــ ٥٦١هـ)، و«الخلعي» هو علي بن الحسين (ــ ٤٩٢هـ) مسند الديار المصرية. وفي «العقود» (٤٣٣) «النخعي» بدل «الخلعي».

(٢) الرد الوافر (٧٢ ــ ٧٣)، والعقود الدرية (٤٣٣)، والشهادة الزكية (٤٣ ــ ٤٤).

الفقهية، وتقليد الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة من أصحاب البدع والأهواء على السواء. وأصبح التمسّك بالأدلة خلاف الآراء المدوّنة في الكتب الفقهية نوعاً من الجريمة. هكذا صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

ولا غرو في هذه الظروف الدقيقة أن يرمى شيخ الإسلام الذي دعا إلى اتباع الدليل في العقائد والأحكام، بأنواع من الاتهامات الباطلة، وتحاك ضدّه المؤامرات مرة تلو الأخرى، ويتربص به الدوائر طول حياته، ويزجّ في السجون والمعتقلات مظلوماً حتى يموت ــ رحمه الله تعالى ــ وهو مسجون.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

إن المؤامرات التي حيكت ضد شيخ الإسلام من قبل كبار قضاة الدولة وفقهائها، تشير إلى نجاح دعوته في ذلك المناخ المقلّد المكفهرّ، وإلى انتشارها في أوساط المسلمين المختلفة مثل النار في الهشيم.

حتى كان الملوك والأمراء، والجنود والتجار يحبونه، ويحضرون دروسه وكان تلاميذه يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويضايقون أهل الشر والفساد وأهل الشعوذة والهرطقة. كم كانوا يتوبون على يده من هؤلاء وأولئك.

كانت شخصية شيخ الإسلام محل الإعجاب والتقدير في الأوساط المختلفة لما كان يقوم به من النصح لهم ليلاً ونهاراً، والتبصير بدينهم، والدعوة إلى الحق الصريح، والتحذير من جميع مظاهر الشرك والوثنية والكفر والإلحاد، والعادات والتقاليد التي كانت تسود المجتمع.

كل هذه الجهود كانت تثمر، وتؤتي أكلها، مع أنه لم يكن له منصب في الدولة، ولا وظيفة في الحكم.

ومن هنا تجندت مؤامرات ثلاثية[١] لوقف هذا المد الإسلامي القوي، ولصدّ هذا التيار العقدي الخالص.

* مؤامرة الأقران من أصحاب المناصب في الدولة.
* ومؤامرة أصحاب البدع والأهواء.
* ومؤامرة الملوك والأمراء.

إذا لم تكن هذه المؤامرات متعددة الجوانب ضد شيخ الإسلام: فما معنى أن القضاة أحياناً لم يجدوا عليه ممسكاً في محاكمته شخصياً، أو خلال كتاباته، ولكن في نفس الوقت يصرّ بعضهم عدواناً، على أن في كلامه سوء أدب، فيحكم عليه بالسجن؟!.

وما معنى أن الصوفية الموالين للتتار وشوا به إلى السلطان، وأرادوا أن يؤثروا عليه بدخولهم في النار إظهاراً لدجلهم، فتحدّاهم شيخ الإسلام فانخنسوا قائلين: نحن أحوالنا لا تتفق إلا مع التتار. ثم يسجن لأجل كشف ضلالات ابن عربي وغيره من أهل الحلول والاتحاد؟!.

وما معنى قول بعض القضاة في بعض المواقف: ولو أنه لم يثبت عليه شيء، ولكن السلطان لا يرضى إلا بمسمى الحبس، فيحبس ظلماً.

كل هذا حصل في حق هذا الإمام الجليل بإشارة من قضاة الدولة وفقهائها.

والله در القائل:

لم أر هالكاً في الناس إلّا ... وسبب هلاكه حبّ الرئاسة

(١) راجع مبحث «أسباب حقيقية لابتلاءاته» في الباب الأول من هذا الكتاب.

وما وقع بين شيخ الإسلام وبين غيره من علماء عصره من الاختلاف في بعض أمور العقائد والأحكام مع أن الحق كان معه لم يكن أمراً غريباً. فكلّ يؤخذ من قوله ويرد إلا النبيّ ﷺ.

ولكن الأمر كان أدهى من ذلك وأمرّ، فقد حسده بعضهم، فلم يرقبوا فيه إلاًّ ولا ذمّة. وأرادوا القضاء عليه، وعلى دعوته. ولكن أبى الله أن ينقطع عمله. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [سورة الأنفال: ٣٠].

أصحاب لوامع الأسماء والألقاب من معاصري شيخ الإسلام:

إذا ألقينا نظرة خاطفة على قائمة معاصري شيخ الإسلام الذين ناظروه، أو كتبوا رداً عليه، أو حكموا عليه بالسجن، وجدنا فيها الأسماء اللامعة والألقاب الفخمة، من أصحاب المناصب في الدولة، ومن أهمهم.

* ـ مظفر الدين بيبرس الجاشنكير الجركسي (ـ ٧٠٩هـ): كان أستاذ دار السلطان، وتغلغل في الحكم واحتال وتسلطن. ثم خذل وقتل على يد الملك الناصر محمد بن قلاوون. أوذي شيخ الإسلام في زمنه كثيراً، بإشارة من نصر بن المنبجي الحلولي حامل لواء وحدة الوجود وأحد أعداء شيخ الإسلام. وكان الجاشنكير يغالي في حب ابن المنبجي.

* ـ صفي الدين محمد بن عبد الرحيم الهندي الشافعي (ـ ٧١٥هـ) شيخ المشايخ. المفتي المتكلّم من أعلم الناس بمذهب الأشعري، وأدراهم بأسراره.

عُيِّن الصفي الهندي مناظراً لشيخ الإسلام في اعتقاده بسبب رسالته (الحموية) ولم يستطع مقاومته. فتقدم كمال الدين الزملكاني.

«وكذلك صدر الدين ابن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره»[1].

* ــ صدر الدين محمد بن عمر الشافعي المعروف بابن المرجل، وابن الوكيل (ــ ٧١٦هـ): كان أحد الأذكياء، خالط النائب أفش الأفرم. وهذا الوحيد الذي ثبت في مناظرة الشيخ. وجرت له أمور. ولما بلغت وفاته ابن تيمية قال: «أحسن الله عزاء المسلمين فيك يا صدر الدين»[2].

* ــ زين الدين علي بن مخلوف المالكي (ــ ٧١٨هـ): قاضي المالكية بمصر. وكانت ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة.

* ــ نصر بن سليمان المنبجي المقري الحلولي الوحدوي (ــ ٧١٩هـ): كان يزوره الأعيان، وتلاعب بعقل الجاشنكير الجركسي فكان يتغالى في حبه.

---

(١) هكذا قال الحافظ ابن حجر (الرد الوافر ص ٢٣١ ــ ملحق السماعات والإجازات، والتقريظات) ولكن التاج السبكي لم يعجبه موقف شيخ الإسلام هذا المشرّف في إفحام الصفي الهندي فأراد أن يغطي على هذه الحقيقة فبيّن سبب تغيير الصفي الهندي في المناظرة بأنه كان طويل النفس، وابن تيمية كان يتعجل عليه. فأخّروه (طبقات الشافعية: ٥/ ٢٤٠).

ووافق هذا التوجيه هوى «كمال أبو المنى» فنقله في (التوفيق ص ٣٤) عن التاج السبكي إظهاراً لعجز شيخ الإسلام عن مناظرة الصفي الهندي. ولكن تصريح الحافظ ابن حجر بأنه لم يثبت لمناظرته غير ابن الوكيل، صدمة كبيرة لمثل هؤلاء الخصوم الذين يغيّرون الحقائق التاريخية اتباعاً لهواهم، وشفاءً لغيظهم.

(٢) شذرات الذهب (٦/ ٤٢).

* ـ نجم الدين أحمد بن صصرى الشافعي (ـ ٧٢٣هـ): قاضي القضاة، ولي القضاء واستمر عليه حتى مات. أوذي شيخ الإسلام وتلاميذه وأنصاره في زمنه إيذاءً كثيراً.

* ـ فخر الدين محمد بن محمد المعروف بابن المعلّم القرشي (ـ ٧٢٥هـ): ردّ على شيخ الإسلام في كتابه «نجم المهتدي ودفع المعتدي». والحق أنه هو المعتدي على المهتدي. فسبحان قاسم العقول.

* ـ كمال الدين محمد بن علي المعروف بابن الزملكاني (ـ ٧٢٨هـ): ولّي قضاء حلب بغير رضاه. ومن مصنفاته الرد على ابن تيمية في مسألة «الزيارة»، ومسألة «الطلاق».

وناظر شيخ الإسلام بعدما انهار أمامه الصفي الهندي سنة ٦٩٨هـ. وأخيراً بالغ في مدح شيخ الإسلام جداً[١].

* ـ برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري الشافعي (ـ ٧٢٩هـ): عرض عليه القضاء فامتنع. وانتهت إليه معرفة المذهب. أفتى بتكفير شيخ الإسلام في مسألة «شدّ الرحال».

* ـ شمس الدين محمد بن عثمان الجرير الحنفي (ـ ٧٢٩هـ): كان قاضي القضاة بمصر، أفتى بحبس شيخ الإسلام في مسألة شدّ الرحال جزماً مطلقاً.

---

(١) كما سيأتي في «الباب الخامس». وراجع الرد الوافر (ص ١٠٣)، والشهادة الزكية (ص ٣٥). قال: «لم ير من خمسمائة سنة. . . أحفظ منه».

* ــ علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي الشافعي (ــ ٧٢٩هـ) قاضي القضاة وشيخ الشيوخ. له كتاب في حياة الأنبياء عليهم السلام في قبورهم.

* ــ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن جهبل الشافعي (ــ ٧٣٣هـ): باشر مشيخة دار الحديث الظاهرية، وله رسالة في «نفي الجهة» في الرد على ابن تيمية. وأفتى بتكفيره في مسألة شدّ الرحال.

* ــ محمد بن محمد العبدري الفاسي الشهير بابن الحاج (ــ ٧٣٧هـ): ردّ على شيخ الإسلام في كتابه «المدخل في زيارة القبور».

* ــ بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الشافعي (ــ ٧٣٣هـ): الأشعري الفاضل، قاضي القضاة، حاكم الإقليمين مصر وشاماً. ضلّل شيخ الإسلام وبدّعه في مسألة «شد الرحال». وأفتى بحبسه.

* ــ تاج الدين عمر بن أبي اليمن الفاكهاني (ــ ٧٣٤هـ) ردّ على شيخ الإسلام في كتابه «التحفة المختارة في الردّ على منكر الزيارة».

* ــ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي (ــ ٧٣٩هـ): قاضي قضاة الإقليمين. شهد القزويني بأن ابن تيمية له فتوى يقطع فيها أن زيارة قبر النبيّ ﷺ وقبور الأنبياء معصية بالإجماع مقطوع بها. فسجن سنة ٧٢٦هـ.

أمثال هؤلاء «الأفاضل» لم يتهيّأوا أن يفهموا الفرق بين زيارة قبر النبيّ ﷺ وبين شدّ الرحال. فالأول مستحب، والثاني منهي عنه في الحديث كما قرره شيخ الإسلام.

* ـ عيسى أبو الروح الزاوي القاهري (ـ ٧٤٣هـ) ردّ على شيخ الإسلام في مسألة «الطلاق».

* ـ تقي الدين محمد بن أبي بكر الإخنائي المالكي (ـ ٧٥٠هـ) قاضي القضاة. ردّ على شيخ الإسلام في كتابه «المقالة المرضية في الردّ على من ينكر الزيارة المحمدية».

ورِدّ عليه شيخ الإسلام في كتابه «الرد على الإخنائي».

وأفتى الإخنائي بحبس شيخ الإسلام والمبالغة في زجره سنة ٧٢٦هـ.

* ـ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ـ ٧٥٦هـ): قاضي الشافعية. توفي بمصر بعد أن قدم إليها. وسأل أن يولي القضاء مكانه ولده التاج السبكي، فأجيب إلى ذلك.

وردّ على شيخ الإسلام في الطلاق، وفي مسألة شدّ الرحال. وردّ عليه شيخ الإسلام أيضاً. وكذا ردّ عليه ابن عبد الهادي في كتابه «الصارم المنكي في الردّ على السبكي» فأجاد وأفاد.

* ـ صلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي الشافعي (ـ ٧٦٤هـ): كتب في «عيون التاريخ» ما فيه تحامل سافر على شيخ الإسلام. وهو يخالف الحقائق التاريخية التي أثبتها غيره من الكتاب والمؤرخين، بل يخالف ما كتبه هو نفسه في «فوات الوفيات».

يحتوي هذا الكشف لخصوم شيخ الإسلام على أصحاب المناصب في الدولة، وقضاة البلاد، وفقهاء المذاهب، وشيوخ المشايخ، وأهل البدع والأهواء من الكتّاب والمؤرخين، وغيرهم من لوامع الأسماء والألقاب.

فمنهم من كان يتأجج حنقاً عليه، بدون أن يتفاهم معه في البحث والمناظرة، ومنهم من كان يستغل منصبه في الدولة لزجّه في السجون، ومنهم من كان معترفاً بعلمه وفضله، وزهده وتقواه، ومعظّماً له ومكرّماً، مع اختلافه معه في الرأي[1].

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

مهما يكن من الأمر، ولكن لا تعزب عن البال تلك الحقيقة التي سجّلها الإمام عماد الدين الواسطي المعروف بابن شيخ الحزاميين (ـ ٧١١هـ) قائلاً:

«وفي الجملة ــ أيّدكم الله ــ إذا رأيتم طاعناً على صاحبكم فافتقدوه في عقله أولاً، ثم في فهمه، ثم في صدقه، ثم في سنه.

فإذا وجدتم الاضطراب في عقله، دلكم على جهله بصاحبكم، وما يقول فيه وعنه. ومثله قلة الفهم، ومثله عدم الصدق أو قصوره، لأن نقصان الفهم يؤدي إلى نقصان الصدق بحسب ما غاب عقله عنه.

ومثله العلوّ في السن، فإنه يشيخ فيه الرأي والعقل، كما تشيخ فيه القوى الظاهرة الحسية، فاتهموا مثل هذا الشخص، واحذروه، وأعرضوا عنه إعراض مداراة بلا جدل ولا خصومة. . .»[2].

«ولقد صدق العلاّمة الإمام، قاضي قضاة الإسلام بهاء الدين أبو البقاء

---

(١) كما تقدم قول ابن مخلوف المالكي: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نبق ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا» (العقود الدرية ص ٢٨٣) وسيأتي كلام الزملكاني، والتقي السبكي في «الباب الخامس» من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(٢) التذكرة والاعتبار للواسطي (ص ٥٦).

محمد بن عبد البر بن يحيى السبكي الشافعي (ـ ٧٧٧هـ) ـ رحمه الله ـ حيث يقول لبعض من ذكر له الكلام في ابن تيمية:

«والله يا فلان! ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل، أو صاحب هوى فالجاهل ما يدري ما يقول. وصاحب الهوى يصدّه هواه عن الحق بعد معرفته به»[1].

● ● ●

(١) الرد الوافر (٥٥، ٩٥).

العالم العربي الحديث

العالم العربي الحديث

كان شيخ الإسلام رجلاً موسوعياً حباه الله تعالى من العلم والفهم والإدراك ما لا ينكره إلا جاهل عنيد أو غبي بليد. واعترف بعلمه وفضله، وزهده وتقواه المخالفون والمؤالفون على السواء[١]. ومن شذّ منهم ممن أعماه التقليد وأصمه عن القول المفيد واتبع هواه في بطر الحق وغمط الناس كبراً، وبغضاً وحسداً، فلا يلتفت إليه. وهذا حاصل لكل من علا نجمه من العلماء وطار صيته في الآفاق، وكل ذي فضل محسود.

إن العرانين تلقاها محسدة ولم تجدْ للئام الناس حُسَّاداً

إن ما كتبه شيخ الإسلام ينمّ عن تبحّره في العلوم، ورسوخ قدمه في فهم الكتاب والسنّة على منهج السلف الصالح. فإذا وصل إلى الحق في ضوء الأدلة، صدع به ولم يحابِ حاكماً ولا قاضياً في ذلك. ولأجل هذا أوذي إيذاءً يتقاصر دونه أبطال الدعاة.

ولما أثيرت الشبهات من قبل خصومه ضدّ بعض المسائل الاعتقادية والفقهية، جلّاها في كتاباته في ضوء الكتاب والسنّة، وأقوال السلف الصالح

(١) راجع «الباب الخامس» من هذا الكتاب.

واختار منهجه كثير من تلامذته وأعوانه في تجلية الحقائق أمام مغالطات أهل البدع والأهواء.

وفي كتاباته الموسوعية التي تزدان بها مكتبات العالم كفايةٌ للباحثين عن الحق، وللمنصفين الفضلاء الذين يحترمون الدين والعلم والأمانة.

قال الحافظ ابن حجر ــ رحمه الله ــ:

«فالواجب على من تلبّس بالعلم، وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشتهرة أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل. فيفرد من ذلك ما ينكر فيحذّر منه على قصد النصح، ويثني عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك كدأب غيره من العلماء»[1].

ولكن الروافض، والجهمية، والصوفية، والحلولية من أهل الأهواء أنى لهم الدين والعلم والأمانة، وقد تعوّدوا على العيش في الظلام مثل الخفافيش، وبرعوا في الصيد في الماء العكر؟.

هؤلاء لا يتعبون أنفسهم للرجوع إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ليعلموا ما لها وما عليها، ويردّوا الحق إلى نصابه، ويتوبوا إلى الله ليعفو عنهم ما قد سلف. بل بلغ بهم الحقد والكراهية إلى أنهم يتبعون كل ناعق في عداء شيخ الإسلام، ويردّدون ما نسب إليه بعضُ معاصريه من العظائم كذباً وزوراً، ويضخّمونه أشدّ تضخيم، ويختارون منه أشنع الأقوال في تجهيله وتفسيقه وتبديعه وتكفيره.

وفي مقابل ذلك ينسجون حول خصومه هالةً من التبجيل تمهيداً

---

(١) الرد الوافر (ص ٢٣١).

لإضلال الناس بتقوّلاتهم. ولكن فضلاء المذاهب انتبهوا لخطورة هذا الأسلوب، فنسفوا ما بنوه على شفا جرف هار، وحذّروهم من مغبّة العار والشنار.

قال العلامة بدر الدين العيني ــ رحمه الله ــ :

«فمن قال: هو كافر، فهو كافر حقيق. ومن نسبه إلى الزندقة فهو زنديق، وكيف ذاك، وقد سارت تصانيفه في الآفاق، وليس فيها شيء مما يدل على الزيغ والشقاق...»[1].

توارث الأحقاد:

إن الأحقاد توارثت، فالذي افتراه عليه معاصروه، هو الذي يجترّه الحاقدون عليه بعدهم، مع زيادة البذاءة والفجور. ونرى ظواهر هذا الظلم والغش في كتابات بعضهم، كما فعل ذلك:

* ــ تقي الدين أبو بكر بن محمد الحصني (ــ ٨٢٩هـ) في «دفع شبه من شبّه وتمرّد ونسب ذلك إلى الإمام أحمد».

* ــ وجلال الدين محمد بن أسعد الدواني (ــ ٩١٨هـ) في «شرح العضدية».

* ــ ومحمد بن علي بن طولون الحنفي (ــ ٩٥٣هـ) في «ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر».

* ــ وأحمد بن حجر الهيتمي (ــ ٩٧٤هـ) في «فتاواه الحديثية» و«الجوهر المنظم في زيارة القبر المعظم».

(١) المصدر المذكور (ص ٢٤٥).

وغيرهم من الكتاب والمؤلفين في كتبهم ورسائلهم.

* * *

أما تحاملات تاج الدين السبكي (ـ ٧٧١هـ) على شيخ الإسلام وتلاميذه البررة أمثال: المزي، والذهبي، والبرزالي، وعلى كل من ليس أشعرياً، فحدّث عنها ولا حرج. وما مثل من تكلّم في هؤلاء الجبال في العلم والفضل إلا كما قال الشاعر:

يا ناطحَ الجبلِ العالي ليَكْلَمَهُ أشفق على الرأس لا تُشْفِقْ على الجبل

لِغلوّه في نقد السنّة المحضة، والطريقة السلفية وعلمائها، ولإطرائه في «الأشعرية» والأشاعرة وصفه العز الكناني بقوله: «هو رجل قليل الأدب، عديم الإنصاف، جاهل بأهل السنّة ورتبهم، يدلّك على ذلك كلامه»[1].

ومن كان هذا شأنه لا يعتمد عليه في شكر أشعري، وذم سلفيٍّ، كما رمى شيخه الإمام الذهبي بما ليس فيه فقال:

«وهذا شيخنا الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ من هذا القبيل، له علم وديانة، وعنده على أهل السنّة تحامل مفرط، فلا يجوز أن يعتمد عليه»[2].

---

(١) الإعلان بالتوبيخ (ص ١٠١).

(٢) «قاعدة في الجرح والتعديل»(٣٢ ـ ٣٦).

(فائدة) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة (١/١٣ ـ ١٤. طبعة ثانية) ما ملخصه: «ليس المقصود هنا ذكر البدع الظاهرة... كبدعة الخوارج والروافض، ولكن المقصود التنبيه على ما وقع من ذلك في أخص الطوائف بالسنّة... كالمنتسبين إلى الحديث مثل مالك والشافعي وأحمد، فإنه لا ريب أن هؤلاء أعظم اتباعاً للسّنة وذماً للبدعة من غيرهم. والأئمة... يذكرون من ذمّ المبتدعة =

ومن قلة إنصافه مع شيخ الإسلام أنه كلما يذكره ـ بمناسبة أو من دون مناسبة ـ ينسب إليه نقيصة من النقائص، حتى أتى بفاقرة عظيمة فقال:

«اعلم أن هذه الرفقة ـ المزي والذهبي والبرزالي، وكثير من أتباعهم ـ أضرّ بهم أبو العباس ابن تيمية إضراراً بيّناً، وحملهم من عظائم الأمور أمراً ليس هيناً وجرّهم إلى ما كان التباعد عنه أولى بهم، وأوقفهم في دكادك من نار...»[1].

كل هذا لما كان بين شيخ الإسلام وأبيه التقي السبكي من ردود ومناقشات. ولا ريب أن التاج السبكي وقع في هوّة ساحقة لأجل إفراطه وتفريطه في حق علماء الإسلام.

في حين أنه يبخس حق هؤلاء، يأتي ويقول في حق أبيه التقي السبكي:

«اعلم أن باب مباحثه بحر لا ساحل له بحيث سمعت بعض الفضلاء يقول: أنا أعتقد أن كل بحث يقع اليوم على وجه الأرض فهو له، أو مستمدّ

= وهجرانهم وعقوبتهم ما شاء الله تعالى. هذه الأقوال سمعها طوائف ممن اتبعهم وقلّدهم. ثم إنهم يخلطون في مواضع كثيرة السنّة والبدعة، حتى قد يبدّلون الأمر فيجعلون البدعة التي ذمها أولئك هي السنّة، والسنّة التي حمدها أولئك هي البدعة، ويحكمون بموجب ذلك حتى يقعوا في البدع والمعاداة لطريق أئمتهم السنيّة وهؤلاء بالعكس يسبّون المبتدعة ويعنون غيرهم ويكونون هم المبتدعة كالذي يلعن الظالمين ويكون هو الظالم أو أحد الظالمين. وهذا كله من باب قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [سورة فاطر: ٨].

(١) طبقات الشافعية (٦/ ٢٥٤).

من كلامه، وتقريراته التي طبقت الأرض...»[1].

إن تعجب فعجب أمر التاج السبكي أنه قد نسب إلى أبيه محالاً ــ وما هي بأول قارورة كسرت ــ، ولعله عرف بأن العقلاء لا يصدّقون في أبيه مثل هذه المبالغات فقال:

«وأنا أعرف أن الناظرين في هذه الترجمة على قسمين:

قسم عرف الشيخ كمعرفتي، وخالطه كمخالطتي فهو يحسبني قصّرت في حقه!

وقسم مقابله فهو يحسبني بالغت فيه، والله المستعان»[2].

لا تغل في شيء من الأمر واقتصد　　　كلا طرفي قصد الأمور ذميم

* * *

إن التحاملات على شيخ الإسلام قديمة قدم تراثه، وكانت الفرصة مؤاتية لخصومه من أهل الأهواء، أن ينسبوا إليه ما يحلو لهم، حسداً من نشاطه في إيضاح الحق، وتقليلاً من أهميته في أعين الناس. فعدّوا حسناته ذنوباً، وخيراته حوباً.

كضرائر الحسناء قلن لوجهها　　　حسداً وبغضاً: إنه لدميم

ومن جاء بعدهم، ولم يعرف دخائلهم فحذا حذوهم، واعتمد على قولهم، وكلّ يؤاخذ على نياته: «إنما الأعمال بالنيّات»[3].

---

(١) المصدر المذكور (٦/ ١٩٩).

(٢) المصدر المذكور (٦/ ١٧٩).

(٣) متفق عليه، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولكن الآن طبع من تراث شيخ الإسلام الشيء النافع الكثير في أفخر الطبعات وأنصع الحروف، وتناقلت بتعريفه الجرائد والمجلّات، وعرفت كنوزه العلمية المكنونة ما يثلج صدور أهل السنّة، ويغيظ أهل البدعة والفتنة. ووزّعت كتبه بالآلاف المؤلفة، وتداولها المسلمون في القارات الخمس، وقرأوها بكل لهفة وشوق، فوجدوا فيها بغيتهم المنشودة، وضالتهم المفقودة ـ الأمر الذي جعل جهمية عصرنا تعضّ على يدها حسرة وندامة، وتغيظ به أكثر، وتتأجج عليه حقداً وحنقاً.

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه والقوم أعداء له وخصوم

هؤلاء القوم ـ أيضاً ـ قاموا بطبع ما كتبه خصوم شيخ الإسلام في فترات مختلفة، مع الدعاية الخبيثة المغرضة التي تنفر العامة، وكثيراً من المثقفين أيضاً، الذين لا يفرّقون بين الغث والسمين لضعف ثقافتهم الدينية، تبعاً لأهواء كبرائهم.

سمّوه حامضاً وهو خلّ مثل من لم يصل إلى العنقود

ومن الجهل المضاف إلى الجهل أنهم يسمون تراث ابن تيمية «موسوعة بدع» لينفر عنه أتباعهم كحمر مستنفرة، خوفاً أن يقع في يد أحدهم فيستنير به في الظلام، ويهتدي به إلى سواء السبيل.

وهكذا ضيّعوا على أنفسهم، وعلى سفهاء الأحلام من أتباعهم فرصة الخروج من متاهات البدع والخرافات، ومن غياهب الضلالات والجهالات. وهكذا صدّوهم عن سبيل الرشاد والحق والصواب. وهذا هو دأب أهل الباطل دائماً، كما حكى الله سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام قوله:

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ﴾ [سورة نوح: ٧].

أساليب لتشويه تراث السلف:

كلما تأخر الزمن قلّت الأمانة وزادت الفتن، وتوارثت الأحقاد المتأصلة في قلوب أهل البدع والأهواء جيلاً بعد جيل، واستخدموا أساليب مختلفة في تشويه سمعة العلماء الأعلام الذين قاموا بالقضاء على البدع والأوهام التي كانت تسود أوساط المسلمين في مختلف العصور والأزمان.

استخدم مبتدعة عصرنا ـ أيضاً ـ عدة أساليب لتأصيل هذا الحقد في قلوب الناشئة، على حين غفلة من أهل الحق ومنها:

* ـ قيامهم بطبع كتب السلف، والتعليق عليها بدون حق، ابتغاء تشويهها، والتقليل من أهميتها في أعين الناس.

* ـ ومنها إعداد الرسائل العلمية التي تخدم اتجاههم بأسلوب باطني، وتشحن بالغض من أعلام السلف، وبالثناء على أعدائهم والتعريف بأعمالهم بكل أهمية.

* ـ ومنها كتب مستقلة في الرد على شيخ الإسلام وتلاميذه وأعوانه وأنصاره.

* ـ ومنها استغلال المناصب والمراكز في المعاهد والكليات والجامعات لنفث سمومهم في أوساط الطلبة، ضد هؤلاء الأعلام.

نماذج للحقد المتوارث في العصر الحديث:

إن هذا الاتجاه المشبوه مهمته الأولى والأخيرة هي إساءة الأدب مع علماء السلف، والغض من كبارهم، والحطّ من أقدارهم. ونماذج التحامل الخبيث، والحقد المتوارث لا تعدّ ولا تحصى. ولكن ترى من الأهواء ما يكفيك عن المزيد، في الكتب التالية:

* ــ شمس الحقيقة والبداية على أهل الضلالة والغواية: للمدعو أحمد علي بدر.

* ــ وتطهير الفؤاد من دنس الاعتقاد: لمحمد نجيب المطيعي (ــ ١٣٥٤هـ).

* ــ والبراهين الساطعة في ردّ بعض البدع الشائعة: لسلامة العزامي الحلولي (ــ ١٣٧٩هـ).

* ــ وفرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان: له أيضاً.

* ــ وكتابات المدعو محمد أمين الكردي.

* ــ وكتابات محمد زاهد الكوثري (ــ ١٣٧١هـ)، وتلاميذه وأنصاره في العالم العربي والإسلامي، التي لا ترقب في علماء السلف ــ بدءاً من بعض الصحابة فمن بعدهم من الأئمة المتبوعين وأصحاب الكتب الستّة حتى عصرنا هذا ــ إلاًّ وذمّة. ووقيعة الكوثري في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه وصمة عار في جبينه، لا تحتاج إلى بيان.

* ــ ومقدّمة «الرسائل السبكية»: لكمال أبو المنى (الشخص المشبوه).

* ــ و«التوفيق الرباني» في الردّ على ابن تيمية الحرّاني: له أيضاً.

* ـ وبعض كتابات محمد أبو زهرة، يظلم فيها علماء لسلف، ودعوتهم، ويردّ على عقائدهم.
* ـ وكتابات محمد سعيد رمضان البوطي كاللامذهبية، و«السلفية مرحلة زمنية لا مذهب إسلامي».
* ـ وكتابات محمد الغزالي المعاصر، خاصة الأخيرة منها، مليئة بالتهجم على دعاة السنّة، في حين يمجّد فيها الروافض وأعوانهم.

كتابات هؤلاء وأشكالهم في النيل من كرامة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه وأعوانه هي التكأة التي يتكيء عليها الشانئون من سفهاء الأحلام في زماننا هذا، وفيها من المغالات والتهويلات ما يندى له جبين التعصب والخيانة، ويكون وصمة في أصحابها، وفي من يتشبّث بهم بسوء إلى يوم الدين، حتى يجتمع الخصوم عند رب العالمين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة السجدة: ٢٥].

مخلوق يتأجّج حقداً:

من الصعوبة أن تكشف في هذه العجالة خبايا هؤلاء القوم المتصفين بالعلم كلهم.

لو كُلّ كلبٍ عوى ألقمته حجراً ... لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

ولكن أختار مخلوقاً منهم، يتأجج حقداً وغيظاً وحنقاً على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه وأنصاره، بل على كل من ليس بحنفي، وجمع في شخصه برضاه ورغبته بدع القدامى وأهواء المتأخرين، ألا وهو: محمد زاهد الكوثري الحنفي الجركسي، ألدّ أعداء السنّة، وحامل لواء التجهم في العصر الحديث.

ابتلي شيخ الإسلام باثنين من الجراكسة:

(أحدهما): هو الجاشنكير الجركسي الظالم الغشوم الذي تسلطن ثم أهين وقتل. وكان يغالي في حب نصر المنبجي الحلولي الاتحادي، وقد أوذي شيخ الإسلام في زمنه كثيراً بمؤامرة هذا الحلولي، وأودع في السجن.

(والثاني): هو جركسي عصرنا ــ وكان يتعصّب كثيراً للجراكسة ــ حتى قال حسام الدين القدسي ناشر كتبه وتعليقاته بعدما عرف دخائله ضد أعلام الإسلام:

«وهو يشدّ من عصبيّته في الأكثر بكل من يحسب أن يتصل بدم جركسي سواء أكان حنفياً أم غير حنفي، فيخلق لهم من المحاسن والدفاع ما لا يكون على تصديقه التاريخ ــ ويعلن بمساوىء غيرهم ــ ولو قيلت للنيل منهم والوقيعة فيهم»[(١)].

صديقك لا يثني عليك بطائل فماذا ترى فيك العدوّ يقول

* ذكر الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد أن الكوثري نبز ابن القيم الجوزية بلقب «ابن زفيل» كذباً ووضعاً فقال:

«وهو أمر غير بعيد على مخلوق يتأجج غيظاً وحنقاً على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذ مدرسته السلفيين كابن قيم الجوزية، فإنه نسب نفسه، وكدّ قلمه وفكره في محاربة هذين الإمامين، وإثارة الشغب عليهما، ورميهما بالزندقة والكفر، والنفاق والضلال[(٢)] وإذا سكن جأشه توسع في السباب

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر (ص ٣ ــ كلمة الناشر).

(٢) قال العلامة بدر الدين العيني الحنفي ــ الذي يفضّله الكوثري على ابن حجر ــ: «فمن قال هو كافر فهو كافر حقيق، ومن نسبه إلى الزندقة فهو زنديق»(الرد الوافر ص ٢٤٤).

واللعن وكيل القذائف مما لا يتصور خروجه إلا من رجل مقضيّ عليه في دينه وعقله. وكتبه ورسائله شاهدة بذلك. . .»[1].

قال الكوثري في كتابه «الإشفاق في مسألة الطلاق» (ص ٨٩):

«إن كان ابن تيمية لا يزال يعدّ شيخ الإسلام فعلى الإسلام السلام»[2].

وقال أيضاً:

«والأغرب من هذا وذاك أن يرفع دعاة الإصلاح العصري عقيرتهم بالدعوة إلى تقلّد مذهب من يكون بهذه السخافة في بداهة العقول، والإعلان عنه وعن شيخه. . . أنهما أكبر مصلح تتطلبه حاجة العصر. فإن كان هذا هو الإصلاح فعلى الإسلام السلام»[3].

هكذا سلّم الكوثري على إسلامه مراراً، في مواضع أخرى من كتاباته، في عداوة شيخ الإسلام وتلميذه ابن قيم الجوزية ــ رحمهما الله تعالى ــ.

وقال أيضاً في الإشفاق (ص ٨٦):

«ولو قلنا: لم يبل الإسلام في الأدوار الأخيرة بمن هو أضرّ من ابن تيمية في تفريق كلمة المسلمين لما كنا مبالغين في ذلك، وهو سهل متسامح مع اليهود والنصارى»[4].

---

(١) «ابن قيم الجوزية» (ص ١٨).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٨ ــ مقدمة الألباني) المكتب الإسلامي ط. رابعة ١٣٩١هـ بيروت.

(٣) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر (ص ٣٩٣ ــ تعليقاً) دار الكتاب العربي بيروت.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٩ ــ مقدمة الألباني).

* وقال العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه الله تعالى ـ :

«. . . المدعو زاهد الكوثري، الذي كان ـ والحق يقال ـ على حظّ وافر من العلم بالحديث ورجاله، ولكنه ـ مع الأسف ـ كان علمه حجة عليه ووبالاً، لأنه لم يزدد به هدى ونوراً، لا في الفروع ولا في الأصول، فهو جهميّ معطّل، حنفيّ هالك في التعصب، شديد الطعن والتحامل على أهل الحديث قاطبة، المتقدّمين منهم والمتأخرين.

فهو في العقيدة يتّهمهُم بالتشبيه والتجسيم، ويلقّبهم. . . بالحشوية السخفاء. ويقول في كتاب «التوحيد» للإمام ابن خزيمة: «إنه كتاب الشرك» ويرمي نفس الإمام بأنه مجسّم جاهل بأصول الدين!

وفي الفقه يرميهم بالجمود، وقلة الفهم، وأنهم حملة أسفار!.

وفي الحديث طعن في نحو ثلاثمائة من الرواة أكثرهم ثقات. وفيهم نحو تسعين حافظاً وجماعة من الأئمة الفقهاء، كمالك والشافعي وأحمد. . .

وهو إلى ذلك يضعّف من الحديث ما اتفقوا على تصحيحه. . . وعلى العكس من ذلك فهو يصحّح انتصاراً لعصبيته المذهبية مايشهد كل عارف بهذا العلم أنه ضعيف بل موضوع، مثل حديث: «أبو حنيفة سراج أمتي»! إلى غير ذلك من الأمور التي لا مجال لسردها، وبسط القول فيها الآن.

وقد ردّ عليه وفصّل القول فيها بطريقة علمية سامية، وبحث منطقي نزيه العلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني في كتابه «طليعة التنكيل» ثم في كتابه الفذّ العظيم «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل». فليراجعهما من شاء الوقوف على حقيقة ما ذكرنا، فإنه سيجد الأمر

فوق ما وصفنا، والله المستعان»[1].

عدوان الكوثري على الأئمة الأعلام:

إن الكلام في جانب الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ يدلّ على خذلان فاعله. وهذا المتجري رمى أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ خادم النبيّ ﷺ بالخرف والوهم، لأن روايته خالفت هواه. فنعوذ بالله من الخذلان.

وأما كلامه في الأئمة الأعلام، والنيل من كرامتهم لأجل الدفاع عن الحنفية فحدّث عنه ولا حرج[2].

«فليس للشافعي عنده ميزة... سوى قرشية فيها خلاف، وليس لمالك مزيّة سوى سكنى المدينة في وقت لا فضل في سكناها، وليس لأحمد بن حنبل فضل سوى كثرة الحديث من غير تمحيص ولا غوص فهي قليلة الجدوى»[3].

«وهو لا يرى شيئاً غير أبي حنيفة، ولذلك لقّبه أحمد الغماري بقوله: «مجنون أبي حنيفة»[4].

وتجنّى على أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري ــ رحمه الله ــ فقال:

---

(١) المصدر المذكور (٤٥ ــ ٤٦).

(٢) راجع كشف مخازيه في العلماء الأعلام في «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» للعلامة عبد الرحمن يحيى المعلمي اليماني ــ رحمه الله تعالى ــ.

(٣) «المقابلة بين الهدى والضلال» للشيخ عبد الرزاق حمزة (ص ٦٩).

(٤) ابن قيم الجوزية للدكتور أبو زيد (ص ٢١) نقلاً عن «بدع التفاسير» للغماري (ص ١٨٠).

«ومن الغريب أن بعض من يعدّونه من أمراء المؤمنين في الحديث يتبجّح قائلاً: إني لم أخرج في كتابي عمن لا يرى أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، مع أنه أخرج عن غلاة الخوارج ونحوهم في كتابه، وهو يدري أن الحديث القائل بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص غير ثابت عند النقّاد. ولا التفات إلى المتساهلين، ممن لا يفرّقون بين الشمال واليمين»[1].

ووافق تلميذه الوفيّ عبد الفتاح أبو غدّة على هذا التجنّي أيضاً، مع موافقته على إرجائه فقال:

«وبعد هذا البيان الشافي الذي أفاده شيخنا الكوثري ـ رحمه الله تعالى ـ يتجلّى لك حسن ما قاله الإمام الأعظم أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ . . . »[2].

موافقة تلميذه على عدوانه:

قال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد بعدما نقل عدوانه على أئمة الحديث:

«وهكذا يتعالج بقرض الأعراض، والتمضض بالاعتراض، وسحب أذيال البغض على كل من ليس «حنفياً، أشعرياً، صوفياً، قبورياً» مع مهارة بالغة في التقوّل، وتحريف النقول، والتصرف في نصوص المؤلفين، كما فعل في «الانتقاء» لابن عبد البر، وتداركه القدسي إلى آخر ما هنالك من الصيال والتصاول، وأسباب الخذلان والتخاذل. ولم نره في شيء مما تقدّم ندم على ما قدّم.

---

(١) تأنيب الخطيب (٤٤ ـ ٤٥).

(٢) قواعد في علوم الحديث للتهانوي (ص ٢٣٨ ـ تعليقاً).

وفي كتابـي «التنكيل» و«طليعته» للعلاّمة المعلمي ــ رحمه الله تعالى ــ من الردود الموثقة الأمينة من غير سرف ولا مخيلة، ما يكشف مخازي هذا المبتلي، وأنها ــ كما قال المعلمي في موضع من كتابه ــ أصبحت: «كضرطة عير في الفلا».

ومع هذا:

فهذا التلميذ الوفي لتلكم المشارب الكدرة: يزنه بميزان علماء السلف، مع ما رأته عينك الباصرة في هذه النماذج من فحش القول وقبحه، والتبرقع بالصفاقة والحماقة، وبثّ الريب، وتنزيل السباب والشتائم.

وهذا التلميذ لم نعلمه يتعقبه فيما كتب ولو مرة واحدة في دفع هذه الخبائث من صريح كذبه، أو عدوانه؟.

وهذا التلميذ أثقل رسائله وتعليقاته بالنقل عنه بما يزيد عن مائة وعشرين مرة ــ بما يمثل مجموعة مجلدة مستقلّة مستغفلاً لعباد الله، كأنه يصيح بها في واد لا ينبت إلا أغفالاً شربوا من تلك الأرض، من عمل جِلِّق[1].

كل هذا يسوقه بقلم الحفاوة والرضا. أليس هذا هو عين المساوقة في الاعتقاد والرضا؟.

وهذا التلميذ صار من أجله «سَمَرياً» يجمع ما يحسبه ناهضاً لمشاربه الكدرة، وجلّ الاستدلالات منها كأحاديث السُّمَّار، لا يهم السامر صدقاً

---

(١) جِلِّق: بكسرتين وتشديد اللام ــ اسم لكورة الغوطة كلها. وقيل: قرية من قراها. وقيل: دمشق نفسها. . . «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين البغدادي (١/ ٣٤٢) دار المعرفة بيروت.

كانت أم كذباً، وعند التحقيق فالذي يسوقه: نصف ليس له، ونصف عليه. فبماذا يتسلى المفلسون؟.

والمسكين بقدر ما احترق في «الكوثري» تهالك في مشاربه.

لكن الشيخ ينشرها عن طريق الفظاظة والمجاهرة والسرف والمناكدة، لأنه في إقليم يسمح له بذلك. والتلميذ تحت وطأة الإقليم والعيش الرغيد ينشرها بكلمات يلفّ حبلها على غاربها عن طريق النقل المجرّد، وترك النص بلا تعليق ومسلك التشذيب لمدرسة أهل الحديث، بالشدّ على مسلك مدرسة الرأي في القديم والحديث.

فهو في المحاماة عن شيخه وكيل جَلْد.

إنه بهذا الرضا الفضفاض، وهذه الحفاوة البالغة، وحال الرجل كما أشرت، وفوق ما وصفت في اتجاهاته العقدية والمذهبية، والتلميذ مثقّل بهذا العناء وحمله ونشره.

فإن حواشيه «زاملة هذه المشارب» تحمل مخاطر عظيمة ــ على أصول الحديث ومصطلحه، مكدّرة صفوها مائلة بها إلى مسار مدرسة معينة؟.

وهذا إخسار في الميزان، والله تعالى يقول: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾ [سورة الرحمن: ٩] ولن يبلغ السادرون في العصبية مأربهم، وإن أكل البغض قلوبهم. والله من ورائهم محيط».

ثم حذّر الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد من العزو إلى كتابات هؤلاء، وقال:

«وبعد: فكيف يسوغ لعبد يتّبع الدليل، ويرفض التعطيل والتشبيه والتأويل وينابذ الإشراك والبدع في الدين أن يتكفكف في مهيع هذا:

القِذّيف، الشغّاب السبّاب الطعّان، والشَتَّام ضارباً في مجاهل شبهاته ومشتبهاته، يحرث كتبه حرثاً، ويحييها قراءة وبحثاً، وينشر عصارتها في صفوف القراء والدارسين، رافعاً لها على كاهل الرضا والقبول، ناصباً نفسه له ظهيراً، ولها نصيراً.

وهي محل التزوّد والإمداد بأصول النقض لمدرسة السلف في نواقض أربعة:

١ ــ انتصابه للتقليد الأصم في عصبية سادرة.

٢ ــ وثبتُه إلى التمشعر غالياً جافياً.

٣ ــ انفلات وكاء عقيدته، في عجم دلائل توحيد الله في عبادته إلى قبورية زائفة.

٤ ــ ثمّ انساب قلمه في التكفير والقذف للأبرياء، والتنقّص للأوفياء، لكل ناج من تلك المشارب الثلاثة.

وهذه الأربع جرّت التلميذ إلى أربع:

١ ــ تنكر لعلماء السلف.

٢ ــ غلائل التقديس المصبغة.

٣ ــ احتضان المبتدعة.

٤ ــ الدنيّة بالدين.

فانظر كيف التقت حلقة البطان، إذ هما يرميان، عن قوس واحدة لغاية واحدة، فيقبل الأستاذ بأربع، ويدبر متابعه بثمان، منثورة في صدور الطلّاب، وأفئدتهم وأفكارهم. والقلوب ضعيفة، والشبه خطّافة، وليس في «الرّبع» حراك.

قال أبو تمام:

مساوٍ لو قُسِمْنَ على الغواني　　لما أُمْهِرْنَ إلا بالطَّلاقِ[1]

يكفي لإدانة التلميذ:

لا يستغرب صدور هذه الكلمات الإجرامية، وظهور هذه الضغائن المتأصلة ضد علماء الأمة الثقات من الكوثري لأنه كما قال الشاعر:

من يَهُنْ يسهل الهوانُ عليه　　ما لجرح بميّتِ إيلام

ولكن الغريب انسياق «التلميذ» وراء مخازيه، واستدلاله بها على مراميه، وشحنه تعليقاته بغمزاته ولمزاته، ونسجه هالة من التبجيل حوله تمهيداً للإضلال بتقوّلاته، حتى يلقّبه بـ:

«أستاذ المحققين الحجة المحدث الفقيه الأصولي المتكلم النظّار المؤرخ النقّادة الإمام محمد زاهد الكوثري...»[2].

مجرد هذا التبجيل لهذا الحقود على الأئمة الأعلام يكفي لإدانة التلميذ فضلاً عن مخالفاته الأخرى في تعليقاته التي يمجّد فيها كل من يناوىء منهج أهل الحديث قديماً وحديثاً. وهذا لا ينكره إلا مكابر.

وما الغي إلا أن تصاحب غاوياً　　وما الرشد إلا أن تصاحب من رشد

ولن يصحب الإنسان إلا نظيره　　وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد

---

(١) «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» (٣٠ ــ ٣٥).

(٢) كلمة الإهداء في «الأجوبة الفاضلة» للكنوي.

غضبة للحق:

يعرف علامة الجزيرة الإمام الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المفتي العام للمملكة العربية السعودية، والرئيس العام لإدارات البحوث الإسلامية والإفتاء والدعوة والإرشاد) بالورع البالغ، واللسان العفيف والقول النزيه، لا تكاد تسمع منه كلمة مشوبة بالشدة. وهو عالم متّبع هيّن لين سهل قريب. ولا أزكي على الله أحداً.

إن هذا العالم الجليل ــ حفظه الله وتولّاه ــ لما اطلع على كتاب «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة»[1] للعلامة الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد ــ حفظه الله ــ الذي يكشف عن بعض مخازي الكوثري وتلميذه ــ غضب غضبة للحق، ووجه رسالة إلى صاحب الكتاب تأييداً له، وأداءً لأمانة الكلمة. فكتب ما نصه:

«من عبد العزيز بن عبد الله بن باز

إلى حضرة الأخ المكرّم صاحب الفضيلة العلّامة الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، وكيل وزارة العدل ــ لا زال مسدّداً في أقواله وأعماله، نائلاً من ربّه جزيل نواله، آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد:

فقد اطلعت على الرسالة التي كتبتم بعنوان «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة»، وفضحتم فيها المجرم الآثم محمد زاهد الكوثري بنقل ما كتبه من السبّ والشتم والقذف لأهل العلم والإيمان، واستطالته في

---

(١) راجع التعريف بكتاب «براءة أهل السنّة» بقلم كاتب هذه السطور، في مجلة الجامعة السلفية (ج١٩ عدد ٩).

أعراضهم، وانتقاده لكتبهم إلى آخر ما فاه به ذلك الأفّاك الأثيم ــ عليه من الله ما يستحق ــ.

كما أوضحتم ــ أثابكم الله ــ تعلّق تلميذه الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة به، وولاءه له، وتبجّحه باستطالة شيخه المذكور في أعراض أهل العلم والتقى، ومشاركته له في الهمز واللمز.

وقد سبق أن نصحناه بالتبرؤ منه، وإعلان عدم موافقته له على ما صدر منه، وألححنا عليه في ذلك، ولكنه أصرّ على موالاته له، هداه الله للرجوع إلى الحق، وكفى المسلمين شرّه وأمثاله.

وإنا لنشكركم على ما كتبتم في هذا الموضوع أن يجزيكم عن ذلك خير الجزاء، وأفضل المثوبة، لتنبيه إخوانكم إلى المواضع التي زلّت فيها قدم هذا المفتون ــ أعني محمد زاهد الكوثري ــ كما نسأله سبحانه أن يجعلنا وإياكم دعاة الهدى، وأنصار الحق، إنه خير مسؤول، وأكرم مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الرئيس العام

لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الختم[١].

امتيازات الكوثري:

تقدّم أن الكوثري سلّم على إسلامه عدة مرات في عداوة شيخ الإسلام الذي يعتبر نصيراً لمذهب السلف. ومن ذهب في الحنق على أئمة الأمة وعلمائها هذا المذهب الردي، وتعصّب «لكل من يحسب أنه يتصل بدم

---

(١) مطبوع مع «براءة أهل السنّة» (٣ ــ ٤) ط. ثانية في الرياض ١٤٠٨ ــ ١٩٨٧م.

جركسي»[1]، لا يستبعد أن يكون مندساً في صفوف المسلمين من قبل أعدائهم[2].

يمتاز الكوثري على غيره، في عداوة مذهب السلف الصالح، بأمور عديدة. ومن أهمها:

* الافتراء والكذب:

كان الكوثري «يرتجل الكذب ويغالط»، وينسب إلى بعض العلماء والرواة ما لا يوجد في الكتب، للتشكيك في رواياتهم، تحقيقاً لهدفه، وشفاءً لغيظه منهم. وإليكم بعض الأمثلة:

١ ــ افترى على الحافظ «أبي محمد العسّال» أنه ضعّف «أبا الشيخ الأصبهاني»، بدون أن يذكر مصدراً لهذا الكلام. فلما راجعه فضيلة الشيخ سليمان الصنيع (عضو مجلس الشورى، ومدير مكتبة الحرم المكي سابقاً) في داره بمصر، وسأله عن ذلك، فلم يحصل على نتيجة منه. فقال الشيخ الصنيع:

«ولو كان صادقاً فيما نسبه إلى «أبي أحمد العسّال» لأوضحه لي حين سؤالي له، والذي يظهر لي أن الرجل يرتجل الكذب ويغالط...»[3].

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر (ص ٣ ــ كلمة الناشر القدسي).

(٢) أشار إلى ذلك العلامة محب الدين الخطيب في مقاله «عدوان على علماء الإسلام يجب أن يكون له حد يقف عنده» المطبوع في مجلة الزهراء (ج٦ ص ٤٣٣).

(٣) طليعة التنكيل للمعلمي (١/ ٣٤).

٢ ــ من كذبه وافترائه أنه نبز الإمام ابن قيم الجوزية بلقب «ابن زفيل» زاعماً أن «زفيلاً» اسماً لجدّه من قبل أمه. وأراد بنبزه هذا تحقيره على عادة العرب. كما قال المشركون في حق النبيّ ﷺ: «أمر أمر ابن أبي كبشة»، وهو جدّ النبيّ ﷺ من قبل أمه.

ولما سأله الشيخ أبو الفيض أحمد الغماري: «أين وجدت أن ذلك اسم لجدّ ابن القيم لأمّه فلم يجب بإيجاب»[1].

٣ ــ من افترائه واجترائه على الكذب أنه ذكر في «ذيول تذكرة الحفاظ» (ص ١٨٥ ــ بتحقيقه) في ترجمة الشيخ المفيد شمس الدين محمد بن خليل المنصفي الحنبلي الحريري (ــ ٨٠٣هـ) بعض مخازيه ثم قال:

«وهذا الشيخ الحرّاني ــ يعني ابن تيمية ــ مع كونه ألّف في إبطال الحيل تراه، وأتباعه من أكبر المجترئين على تحليل المحرّم، وأنهم كانوا يتقاضون ممن وقع في مأزق من أمر النكاح والطلاق نحو خمسة دراهم، فيفتون له»[2].

* **الخيانة:**

اشتهر الكوثري بالخيانة في النقل عند أهل العلم الفضلاء. وهذا أمر مفروغ منه لا يحتاج إلى مراجعة.

---

(١) ابن قيم الجوزية للدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد (١٨ ــ ١٩) سمّى الكوثري ردّ السبكي على ابن القيم «السيف الصقيل في الردّ على ابن زفيل» ونبزه بهذا اللقب سلامة العزامي الحلولي تبعاً للكوثري في كتاب «فرقان القرآن» (١٣٥، ١٣٧).

(٢) راجع الرد الوافر (ص ٨٤ ــ تعليق زهير الشاويش).

قال العلامة المعلمي:

ومن فواقره: تقطيع نصوص أئمة الجرح والتعديل، يختزل منها القطعة التي توافق غرضه، وقد يكون فيما يَدَعُه من النص ما يبيّن أن معنى ما يقتطعه غير المتبادر منه عند انفراده...»[1].

وقال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد:

«وقد فضح في هذا من أهل العلم، بل من أصدقائه وخاصته، منهم حسام الدين القدسي في مقدمة (الانتقاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء). ومنهم أحمد وعبد الله ابنا الصديق الغماري. وهو لا يرى شيئاً غير أبي حنيفة. ولذلك لقّبه أحمد الغماري في كتاب «بدع التفاسير» (ص ١٨٠) بقوله: «مجنون أبي حنيفة»[2].

* **الغدر والخداع:**

من بلغ به الجنون إلى هذا المستوى المتدني كيف ينجو من الغدر والخداع؟!.

وقد غدر الكوثري، صاحب الفضل الكبير عليه حينما خالف بعض تعصباته الباردة ألا وهو «شيخ الإسلام مصطفى صبري» (آخر مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية). فكيف بمن غيره[3].

أما خداعه السيد حسام الدين القدسي (ناشر كتبه وتعليقاته وحواشيه)، فأشهر من أن يذكر. ولمّا اطلع على «دخلة في علمه وعمله» أعلن براءته من تعليقاته الحاقدة على أئمة الإسلام قائلاً:

---

(١) راجع الأمثلة على ذلك في «طليعة التنكيل» (ص ٥١).

(٢) راجع «ابن قيم الجوزية» (٢٠ ــ ٢١) مفصّلاً.

(٣) «المقابلة بين الهدى والضلال» (ص ٨٦ ــ تعليقاً).

«خيفةً أن أشاركه في الإثم، إذ أنا سكتُّ عن جهله بعد علمه، سقتُ هذه الكلمة الموجزة معلناً براءتي مما كان من هذا القبيل»[1].

فحذارِ حذارِ من تعليقات الكوثري على الكتب، التي تغيّر التاريخ، وتشوّه الحقائق بكل خسّة ودسيسة.

* الفجــور:

فجور الكوثري مع خصومه، ووقوعه فيهم فحدّث عنه ولا حرج. وما تقدّم من مخازيه في هذا الأمر يكفي لمن يتعظ ويعتبر[2].

قال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد:

«فالكوثري خصم ملدّ ليس لابن القيم فحسب، بل لكل من ليس حنفياً. ومن أراد كشف ذلك فلينظر كتاب «التنكيل» للمعلمي، وغيره من كتب العلماء، التي أبانت عن تحامله وطيشه وتجاسره على علماء السلف من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ فمن بعدهم...»[3].

* التمادي في الباطل:

ما تقدّم من الشائنات كفى لمعرفة هذا الرجل، ومن حذا حذوه في عداوة علماء السلف عامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية خاصة. فكيف بالزوائد[4] التي هي أشدّ خطراً على دين الإنسان وعلمه.

---

(١) الانتقاء (ص ٣ ــ مقدمة القدسي).

(٢) ومن يريد الزيادة فليراجع «براءة أهل السنّة» للدكتور بكر بن عبد الله، يجد هنالك الخطوط العريضة لعواهنه وعواقره ومخازيه.

(٣) ابن قيم الجوزية (ص ٢٠).

(٤) مثل البدعة، واتباع الهوى، والحقد، والحسد، وغيرها من العظائم.

إن هؤلاء القوم قد بلغ بهم التمادي في الباطل إلى أن أحدهم لو حمل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ على محمل حسن، يرمى بعدم الفهم، وقلة الإدراك، وحسن الظن به الذي لا يستحقه!!.

والكتاب الذي توجد فيه كلمة الترحم على اسم شيخ الإسلام يعتبر نسخة سقيمة، لا يعبأ بها، ولا يعتمد عليها.

اقرأ بعض مظاهر هذا الحقد المتوارث في السطور الآتية:

* رفع المدعو (أحمد علي بدر) صاحب كتاب «شمس الحقيقة والهداية» سؤالاً إلى (سليم البشري) يسأل فيه عن ابن تيمية، وبعض الأمور الاعتقادية من إثبات الفوقية، والجهة، والتجسيم وما إلى ذلك.

فذكر سليم البشري أن هذه الأمور نسبت إلى ابن تيمية، وشنّع عليه معاصروه بل البعض منهم كفّروه، ثم قال:

«وقد انتدب بعض تلامذته للذبّ عنه وتبرئته مما نسب إليه، وساق له عبارات أوضح معناها، وأبان غلط الناس في فهم مراده، وأنه لم يخرج عما عليه الإجماع. وذلك هو المظنون بالرجل لجلالة قدره ورسوخ قدمه».

هذا القول من سليم البشري لم يعجب سلامة العزامي فقال:

«وقول الشيخ ــ رضي الله عنه ــ: «وذلك هو المظنون بالرجل لجلالة قدره ورسوخ قدمه»، وهو حسن ظنٍ من الشيخ حمله عليه قول هذا التلميذ. والذي يطيل النظر في كتبه، وكتب تلميذه ابن القيم ــ كما فعلنا نحن[1] ــ لا يرتاب في قوله بالتجسيم، والجهة،

---

(١) ولله در القائل:

ما ضرّ شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

والتشبيه[١]، ولكنه يتبرأ من اسمه»[٢].

* لم ينته حنقهم على شيخ الإسلام إلى هنا. بل قال «كمال أبو المنى»:

«وأما ما وجد في بعض النسخ السقيمة في كتابه (أي السبكي) «شفاء السقام» عند ذكر ابن تيمية: «رحمه الله»، فلا يدفع هنا النص الصريح في تكفيره. ولا سيما والحال أن من جملة ما اعتمد عليه في تكفيره قوله «بحوادث لا أول لها...»[٣].

هكذا تأجج «كمال أبو المنى» غيظاً على شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ. وفضائحه في مقدمة «الرسائل السبكية»، و«التوفيق الرباني» لم تسمح له أن يظهر أمام الناس باسمه الحقيقي، فانتحل لنفسه هذا الاسم المشبوه، وأثبته في «الرسائل السبكية».

ولكنه أزال هذا الاسم أيضاً عندما طبع «الرسائل السبكية» باسم «التوفيق الرباني» بشيء من الحذف والزيادة. وتستّر بلقب «ناصح شفوق» ليغرّر به الأغرار، وصدق من قال:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

• • •

(١) تقدّم الردّ على هذه الشبهات كلها. فلعنة الله على الظالمين.

(٢) «فرقان القرآن» للعزامي (٧٢ ـ ٧٧).

(٣) «التوفيق الرباني» (ص ٣١).

فضائح «كمال أبو المنى»

فــي

تقديمه للتوفيق الربّاني و«الرسائل السبكية»



فضائح «كمال أبو المنى»

كلما يتضايق أهل الأهواء من متأخري الجهمية، وغلاة المقلّدة والصوفية، وأصحاب الحلول والاتحاد ـ من كتابات شيخ الإسلام الهادفة ودورها الفّعال في إنعاش الحركات الإسلامية على منهج السلف الصالح ـ ينشرون بعض ردود التقي السبكي وغيره عليه، شفاءً لغيظهم منه، وتنفيراً للناس من دعوته التي عمّت القارات الخمس كالنار في الهشيم، لملاءمتها مع الكتاب والسنّة الصحيحة.

وقد ردّ شيخ الإسلام نفسه ـ وكذلك تلاميذه وأنصاره ـ على الشبهات التي أثارها التقي السبكي وغيره من معاصريه في كتبهم ورسائلهم[١]، رداً وافياً مفحماً، حتى لا يرجى أن يجتري على نشرها الآن إلا المغرضون الهالكون في البدعة والضلال، والتعصب والهوى، ممن أعماهم التقليد والعناد، وأصمّهم الشر والفساد.

---

(١) تقدم الردّ على الشبهات التي أثارها خصوم شيخ الإسلام، ومن أهمها: «التوسل»، و«شدّ الرحال»، و«التجسيم والتشبيه والحشو والجهة»، و«حوادث لا أول لها»، و«قدم العالم وأزليته»، و«دوام النار وأبديتها»، و«مسألة الطلاق»، و«النصيحة الذهبية المنحولة» وغيرها من الأمور. وهذه القضايا هي محتويات «الرسائل السبكية» و«التوفيق الرباني».

تقديمه للتوفيق الربّاني و«الرسائل السبكية»:

من هؤلاء الحانقين على شيخ الإسلام ــ رحمه الله تعالى ــ رجل مجهول مشبوه يدعى (كمال أبو المنى) الذي قدّم على «الرسائل السبكية في الرد على ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية» بمقدّمة نال فيها من كرامة شيخ الإسلام، وتلاميذه وأنصاره، وفضح بها نفسه في الأوساط العلمية والدينية، ولم يستطع فيما بعد أن يواجه الناس بهذا الاسم المشبوه[1].

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنَه الوعلُ

وقد نصب نفسه في هذه المقدمة المشبوهة «بشيراً ونذيراً» للأغرار والبسطاء من الناس، وقال:

«لقد ابتلي المسلمون بكثير من الفرق الضالة الضارة سلفاً وخلفاً فكانوا وصمة في المسلمين وعضواً فاسداً. فلذلك وجب التحذير منهم لما انتشر من فسادهم. نسأل الله تعالى أن يحمينا من الفساد والضلال.

ومن هؤلاء ابن تيمية الذي ألّف كتاباً، وابتدع ما خرق به إجماع المسلمين وخالف فيه الكتاب والسنّة الصريحة، والسلف الصالح[2]. واسترسل معه عقله الفاسد ظناً منه أن ما قاله حق. ومن أين يكون حقاً وقد اتبع من لا يوثق بقوله من أهل الأهواء والأغراض.

ولما أن تظاهر قوم في هذا العصر بتقليد ابن تيمية في عقائده الكاسدة،

---

(١) والدليل على ذلك أنه حذف اسمه المزعوم حينما طبع «الرسائل السبكية» باسم «التوفيق الرباني» بشيء من الحذف والزيادة.

(٢) لعله يريد بهم: ابن عربي، وابن الفارض، وابن السبعين، والرفاعي، والشاذلي وغيرهم من أصحاب الحلول والاتحاد والزندقة.

وأقواله الفاسدة، وبثّها بين العامة والخاصة، واستعانوا على ذلك بطبع مؤلفاته، ومؤلفات تلميذه ابن قيم الجوزية[1]. . . فأيقظوا فتنة كانت نائمة، وانكشفت حقيقة شيخيهما(؟) انكشافاً تاماً لكل من سلم من داء التعصب، وتستّروا بألقاب ضخمة ليصطادوا العامة والبسطاء من طلبة العلم. . .

فقياماً بما يجب[2] عليّ أردت التحذير من هؤلاء، لكي لا يقع المسلمون بواسطة ابن تيمية، ومن هم على شاكلته في مهواة الضلال والهلاك. . .

---

(١) وكتب على ظهر غلاف «التوفيق الرباني» ـ وهو يتأجج حقداً على شيخ الإسلام ـ قائلاً:

«تدفقت كتب ابن تيمية على البلاد، وكان لها من يوزّعها بالمجان في أفخر الطبعات، وأنصع الحروف، وقد افتتن بها كثير من الناس من العامة، ومن المثقفين ثقافة دينية غير متينة. وأصغى لها البعض. فلما طالعتُ في فتاويه وفي غيرها من مؤلفاته مما وقع تحت يدي فوجدتها موسوعة بدع لم تكن تدع بدعة إلا أتت بها، ونصرتها فوجدت نفسي مضطراً أن أبيّن للقراء طرفاً من حقيقة أمره. . .».

أقول لهذا الظالم المغرور: مت بغيظك أنت ومن معك من الرعاع. فقد تدفقت كتب شيخ الإسلام على القارات الخمس كلها. واهتدى بها إلى الحق جم غفير، وخلق كثير في كل البلاد من مشارق الأرض ومغاربها. ولو عرف الأغرار الذين خدعتهم بكتابك هذا حقيقة الأمر لضربوك بالجريد والنعال.

(٢) قال في «التوفيق» (ص ٦): «فقياماً بالواجب الذي عليّ رأيتُ أن أجمع في هذا الكتاب رسائل الإمام المجتهد السبكي وغيره من المعاصرين لابن تيمية، وضعتُ له مقدمة في كشف حاله. فإن هذا ليس أكلاً للحوم العلماء ـ كما يدعي الجهلة ـ إنما هو نصرة لهذا الدين. . »

ولو لبس الحمار لباس خزٍ　　　لقال الناس يا لك من حمار

وأخيراً هذه نصيحتنا نقدّمها إليكم يا معشر المسلمين لتحذروا من الوقوع في شرك الضالين، فاسمعوا وأنيبوا إلى ربكم. وإياكم أن تغتروا بزخرف القول الذي لا يقصد به وجه الله، والذي هو مخالف للكتاب والسنّة...»[1].

هكذا زُيِّنَ لهذا الظالم سُوء عمله فيرى الدفاع عن بدعة «جهم»، وحلول «ابن عربـي»، وزندقة «الشاذلي» من الواجب عليه. ويقع في أعلام هذه الأمة ـ الذين قضوا حياتهم في الدعوة إلى الكتاب والسنّة المحضة، وإنقاذ الناس من غياهب الشرك والوثنية، والردّ على تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين ـ أمثال شيخ الإسلام وتلاميذه البررة، وأنصاره الكرام. رحمهم الله تعالى أجمعين.

ويقدّم إلى معشر المسلمين «نصيحته الغالية» تمهيداً لإضلالهم بقوله المخبول، وكلامه المعسول متستّراً بالنصح والشفقة. ولله در القائل:

فما كُلّ ذي لبٍّ بمؤتيك نصحه   ولا كُلُّ مؤتٍ نصحه بلبيبِ

حاول هذا الكاتب الظالم بكلّ ما عنده من أساليب الدجل والخداع، والمكر والتمويه أن يصدّ الناس عن الاستفادة من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، لما رأى أنها تنسف ما بناه هو وغيره من الضالّين، من قصور البدع والأوهام، وتُجَلِّي الحقائق المطمورة تحت صخور المغالطات والتمويهات.

ومن هنا رأى هذا الكاتب المموّه من الواجب عليه أن يقطع كل طريق يؤدي إلى فهم المسائل في ضوء الكتاب والسنّة الصحيحة على منهج السلف الصالح.

---

(١) مقدمة «الرسائل السبكية» لكمال أبو المنى (٧ ـ ٨) طبعة عالم الكتب ١٤٠٣هـ.

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

لم يرقب هذا الغشوم في شيخ الإسلام إلاًّ ولا ذمّة لإغواء البسطاء من الناس، وعَدَّ حسناته ذنوباً، ورماه بالفسق والبدعة، والضلال والكفر، والزيغ والخبث[١]. فلعنة الله على الظالمين.

أقول له: قف! هذا مبلغك من العلم، اخسأ لن تعدو قدرك! لأن معرفة الخبيث والطيب ليست من اختصاص أمثالك من الرعاع المتصفين بالعلم الذين مسخت الشياطين فطرتهم، فرأوا الطيب خبيثاً، والمستقيم زائغاً والسنيّ مبتدعاً، والمهتدي ضالاً، والمؤمن كافراً.

وهبنـي قلـت: إن الصبـح ليـل   أيعمـى المبصـرون عـن الضيـاء

«التوفيق الرباني» أم التوفيق الشيطاني:

لما رأى (كمال أبو المنى) الكاتب المشبوه أن شخصية شيخ الإسلام العملاقة حالت دون بلوغ مناه في تضليل الطبقة الذكية من المسلمين، وأن تجارته خسرت وبضاعته كسدت. ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة طه: ١١١]، فاحتال حيلة أخرى ليغوي «الجهلاء الهمج الرعاع» من شيعته، الذين «يتبعون كل ناعقٍ» من أهل البدع والأهواء.

وهي أنه غيّر اسم الكتاب من «الرسائل السبكية» إلى «التوفيق الربّاني في الردّ على ابن تيمية الحرّاني». وحذف منه رسالة السبكي في الردّ على نونية الإمام ابن قيم الجوزية. وزاد فيه رسالة أحمد الكلابـي في «نفي الجهة» في الردّ على ابن تيمية.

---

(١) راجع مقدمة «التوفيق» وهي مليئة بمثل هذه المهاترات.

وكذلك قام بتغييرات طفيفة في المقدمة أيضاً. فحذف منها بعض الفضائل وأودعها بعض الرذائل، حتى جعل محتوى «التوفيق الرباني» أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب[1]. وما أحسن تسميته بـ«التوفيق الشيطاني في الردّ على ابن تيمية الحرّاني» الله أعلم به وبما اشتمل عليه من غيظ وحنقٍ على شيخ الإسلام ــ رحمه الله تعالى ــ وتلاميذه وأنصاره.

ذكر في هذا الكتاب من الآراء أوهنها، ومن الأقوال أبشعها، ومن السباب أشنعها. وبرهن بذلك على نفسه أن الذباب لا يهوى العيش إلا على أكوام القاذورات.

مــن يهــن يسهــل الهــوان عليــه ــــــ مــــا لجـــرح بميِّـــتٍ إيـــلام

محتويات «التوفيق الرباني» والرد عليها:

يحتوي هذا الكتاب على ست رسائل في الرد على شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ .

* ــ **الرسالة الأولى:** «الدرة المضية في الردّ على ابن تيمية» للتقي السبكي.
* ــ **الرسالة الثانية:** «نقد الاجتماع والافتراق في مسائل الأيمان والطلاق» له أيضاً.
* ــ **الرسالة الثالثة:** «النظر المحقق في الحلف بالطلاق المعلّق» له أيضاً.
* ــ **الرسالة الرابعة:** «الاعتبار ببقاء الجنّة والنار» له أيضاً.
* ــ **الرسالة الخامسة:** «رسالة في نفي الجهة» لشهاب الدين أحمد بن جهبل الكلابي.

---

(١) هذا التعبير مأخوذ من «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٤/ ٧٣ ــ ٧٤).

* ــ الرسالة السادسة: «النصيحة الذهبية» (رسالة منحولة إلى الإمام الذهبي).

تقدم الرد على محتويات هذه الرسائل باختصار. ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد. وللعاقل تكفيه الإشارة، و«أن اللبيب بالإشارة يفهم».

وأما العنيد البليد الذي يبطر الحق ويغمط الناس، فلو سودت له صحائف الدنيا، لقال في الأخير بكل حمق ــ وهو داء لا علاج له ــ كما حكى الله تعالى عن الكفار قولهم: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢].

مقدمة «التوفيق»:

طبع «التوفيق الرباني». ولا يوجد فيه أي إشارة إلى اسم المطبعة ومكان الطبع وتاريخه.

وكذلك (كمال أبو المنى) حذف اسمه المشبوه أيضاً من المقدمة راجياً أن يروج الكتاب، واكتفى بوصف نفسه «كتبه ناصح شفوق»[1]. وبالأحرى أنه«منافق خلوق» تستّر بالنصح والشفقة، لأنه لم يستطع أن يواجه الناس بمخازيه، ومثله كمثل الخفّاش الذي رأى النور يؤذيه فاختفى، وخرج في الظلام الدامس يضلّل سفهاء الأحلام.

خطوط عريضة لعواقر هذه المقدمة:

كان الكوثري يرتجل الكذب ويغالط أحياناً، ولم يكن يحيل الكلام إلى مصدر. ولكن صاحب مقدمتي «التوفيق» و«الرسائل السبكية» فاقه في بعض

(١) «التوفيق» (ص ٦).

المغالطات والتمويهات. فإنه يحيل الكلام إلى بعض الكتب مع ذكر الجزء والصفحة وإذا راجعتها وجدت خيانته في النقل واضحة. إما بتشويه العبارة بنقل جزء منها، وترك الآخر، وإما بصرف معانيها إلى ما لا يفهم منها، ولا يتبادر إليه الذهن، وإما بالتشبث ببعض الكلام المجمل، وترك المفصّل، وإما بالنقل عن مؤلف ما أشنع الرأيين والتغاضي عن رأيه الآخر الموافق للآخرين.

* قال في «التوفيق» (ص ٧)، ومقدمة «الرسائل السبكية» (ص ١٥):

«جمهور الأمة الإسلامية على تنزيه الله عن مشابهة الحوادث».

قلت: يريد بهذا التنزيه تعطيل الرب عز وجل عما وصف به نفسه، ووصف به رسوله ﷺ من العلو، والاستواء، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء إلى يوم القيامة كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى بدون تشبيه ولا تعطيل، وبدون تأويل ولا تحريف.

إن كتب شيخ الإسلام ابن تيمية مليئة بإثبات ما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ، مع نفي تشبيه صفاته عزّ وجلّ بصفات المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى: ١١].

وأما ما رماه به أبو حيان، وابن بطوطة، والتقي الحصني، من التشبيه بالمخلوقين فقد تقدم[1] الرد عليه بأن منشأه إما المعاصرة، وإما سوء الفهم، وإما العداء المتوارث. ولا يؤخذ كلامهم في شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ.

---

(١) راجع مبحث التجسيم.

* نقل في «التوفيق» (ص ٨) ومقدمة الرسائل السبكية (ص ١٧: «صورة مرسوم ابن قلاوون في ابن تيمية».

قلت: مثل هذه المراسيم الصادرة من الملوك والسلاطين ضد العلماء العاملين في كل حقبة من التاريخ لم تكن إلا مؤامرة من قضاة الدولة وفقهائها، للتزلف إلى الحكام، والتربع على مناصب القضاء والتدريس لئلا ينافسهم أحد على ذلك.

إن موت الإمام أبـي حنيفة في السجن، وإيذاء الإمام مالك، وحمل الإمام الشافعي إلى بغداد، ومحنة الإمام أحمد، ونفي الإمام البخاري ليس إلا حلقة من اضطهادات الملوك والسلاطين للعلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

فحصل ماذا لو سجن شيخ الإسلام ابن تيمية لأجل ردّه على الفرق الضالّة، ودفاعه عن الكتاب والسنّة في أمور العقائد والأحكام؟!.

* قال في «التوفيق» (ص ١٣)، ومقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٢٢): «اتفاق الحذّاق من جميع المذاهب على سوء فهمه».

قلت: هذه كذبة صلعاء لا تحتاج إلى مناقشة. على طلبة الحق أن يراجعوا «الردّ الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي، فإنه ذكر «أن الحذّاق من جميع المذاهب» أجمعوا على ذكاء شيخ الإسلام النادر، وفهمه الثاقب، واستنباطه العجيب من نصوص الكتاب والسنّة ما جعله يلقَّب بحق بشيخ الإسلام، ويزاحم في الذكاء والفهم، العلماء الأعلام.

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله　　وإن سكتوا أثنت عليك الحقائب

وزد إلى ذلك أنه لم يثبت الصفي الهندي في مناظرته مع شيخ الإسلام، وكان أستاذ الحاضرين من القضاة والفقهاء جميعاً. والذي ثبت لمناظرته هو الصدر ابن الوكيل. وكان أحد الأذكياء[1]. وما علل به التاج السبكي[2] تأخير الصفي الهندي عن مناظرة شيخ الإسلام تعليل مغرض لا يعول عليه ولأجل هذا تلقَّفه في «التوفيق» (ص ٣٤) فليمت غيظاً.

* نقل في (١٤ ــ ٢١) عن ابن شاكر في «عيون التاريخ» ــ وهو مخطوط ــ بعض التفاصيل عن مناظرات شيخ الإسلام مع كبار قضاة الدولة وفقهائها، وعن إيداعهم إياه في السجن مرة تلو الأخرى ــ مع انحياز زائد وتحامل واضح.

وترك النقل عن ابن شاكر الكتبـي في كتابه «فوات الوفيات» الذي هو معروف ومتداول بين الناس. وانتهى[3] من تأليفه سنة ٧٥٣هـ. أي بعد وفاة شيخ الإسلام بحوالي خمس وعشرين سنة.

قال فيه ابن شاكر عن شيخ الإسلام:

«. . . وصار من أئمة النقد وعلماء الأثر مع التديّن والذكر والصيام، والنزاهة عن حطام هذه الدار.

ثم أقبل على الفقه ودقائقه. وغاص على مباحثه.

---

(١) قاله ابن حجر. راجع «الرد الوافر» (ص ٢٣١ ــ ملحق التقريظات) وقال البدر العيني في شيخ الإسلام في المصدر المذكور (٢٤٦): «كان سريع الإدراك يتوقد ذكاء وفطنة».

(٢) أي في طبقات الشافعية (٥/ ٢٤٠) ترجمة الصفي الهندي.

(٣) فوات الوفيات (١/ ٥ ــ مقدمة المحقق إحسان عباس) دار صادر بيروت.

أما أصول الدين ومعرفة أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمبتدعة، فكان لا يشق فيها غباره، مع ما كان عليه من الكرم الذي لم يشاهد مثله، والشجاعة المفرطة، والفراغ من ملاذ النفس، من اللباس الجميل، والمأكل الطيّب، والراحة الدنيوية. . .».

ثم ذكر حكاية زهده في الطعام، وحكاية في شجاعته مع قطلوبك الكبير المعروف بالجبروت واغتصاب الأموال.

وبعد ذلك نقل عن الإمام الذهبي قوله في شيخ الإسلام:

«. . . وكان قوّالاً بالحق، نهاءً عن المنكر، ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة»[1].

بعد هذه الإشادة بذكر شيخ الإسلام في «فوات الوفيات» لو كتب ابن شاكر الكتبي في «عيون التاريخ» ما يخالفه، كان هو أولى بالطعن من شيخ الإسلام، ودخل في خطاب الآية: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ [سورة النحل: ٩٢].

ثم أين الدليل على أن «عيون التاريخ» كتبه ابن شاكر بعد «فوات الوفيات»؟ مهما يكن من الأمر أن القضية تحتاج إلى مراجعة «عيون التاريخ» أيضاً، لأن الاعتماد على نقل صاحب «التوفيق»[2] ــ بعدما ثبت تلاعبه بالمصادر ــ لا يخلو من الندامة فيما بعد. والتغاضي عن «فوات الوفيات» ــ وهو مطبوع متداول ــ واعتماده على «عيون التاريخ» ــ وهو مخطوط ــ فيما أحسب لا يخلو من الريبة: «يكاد المريب أن يقول خذوني».

---

(١) المصدر المذكور (١/ ٧٤ ــ ٨٠).

(٢) وكذا نقله في مقدمة «الرسائل السبكية» (٢٢).

* قال في (ص ٢٩): «ذكر مسائل من شذوذه».

ذكر تحت هذا العنوان «قضية فناء النار» و«حوادث لا أول لها»[(١)].

قلت: تقدم توضيح الأمرين بشيء من التفصيل فلا يحتاج إلى إعادة.

أما فناء النار، فله قول صريح آخر بأبديتها ودوامها، لا يتغاضى عنه إلا معاند مكابر. وأما «امتناع حوادث لا أول لها» فهم يريدون بذلك تعطيل الرب عزّ وجلّ، فلينتبه لهذا فإنه خطير.

* قال في «التوفيق»(ص ٢٩ ــ ٣٠) ومقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٣٢): «حال ابن تيمية في «فهرس الفهارس» للكتاني:

ذكر تحت هذا العنوان قولة ابن بطوطة التي نسبها إلى شيخ الإسلام (وقد تقدم الرد عليه).

وذكر مناظرة ابني التلمساني مع شيخ الإسلام نقلاً عن «نظم اللآلي في سلوك الأمالي» لأبي عبد الله المقري، وعن «أزهار الرياض» لأبي العباس المقري. وفيهما ذكر لحديث النزول، وقضية شدّ الرحال.

وقال الكتاني من أشنع ما نقل عن ابن تيمية أيضاً قوله في حق (شفاء القاضي عياض).

«غلا هذا المغيربي».

---

(١) راجع مقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٣١) وزاد فيها أمراً ثالثاً وهو: «تكذيبه (ابن تيمية) النبيّ ﷺ فيما أخبر به عن نبوّته من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قالوا: يا رسول الله: متى وجبت لك النبوّة؟ قال عليه الصلاة والسلام: (وآدم بين الروح والجسد) وفي رواية: (وأن آدم لمجندل في طينته).

ثم ذكر هجاء ابن عرفة التونسي لشيخ الإسلام لأجل قوله المتقدم.

وأنهي صاحب «التوفيق» كلامه بقوله: «انتهى كلام الكتاني».

قلت: صدق الكتاني وكذب كمال أبو المنى كذبة صلعاء. لأن كلام الكتاني لم ينته بعد. قال الكتاني في شيخ الإسلام: «هو من الأفراد الذين كثر الخلط في شأنهم بين مكفّر وبين ذاهب بهم إلى منزلة المعصومين. والإنصاف فيه قول الحافظ ابن كثير:

«كان من كبار العلماء، وممن يخطي ويصيب ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه، كنقطة في بحر لجّي وخطأه أيضاً مغفور له، كما في الصحيح. اهـ».

وقال الحافظ الذهبـي في حقه في «تذكرة الحفاظ» بعدما أطراه:

«رؤيت له بعد موته منامات حسنة. وقد انفرد بفتاوى نيل له من عرضه لأجلها، وهي مغمورة في بحر علمه. فالله يسامحه ويرضى عنه. فما رأيت مثله وكل واحد يؤخذ من قوله ويترك، فكان ماذا»اهـ. وهو الإنصاف فيه».

ثم نقل الكتاني ما تقدم ذكره من كلام ابن بطوطة، وأبـي عبد الله المقرىء، وأبـي العباس المقرىء، وابن عرفة التونسي.

وفي الأخير نقل كلام مكفّره «زروق»[1]: «وهو (أي ابن تيمية) مطعون عليه في العقائد. وذكر غيره أنه ظاهري يقول بالتجسيم»[2].

---

(١) هو: أحمد بن أحمد الفاسي المالكي الشهير بزروق (٨٤٦ ـ ٨٩٩) وكان صوفياً شاذلياً (معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة: ١/ ١٥٥). وهل يرجى من مثل هؤلاء غير ما قالوا في شيخ الإسلام؟.

(٢) نقله في «التوفيق» (ص ٩٢)، ومقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٧٦).

ثم قال الكتاني: «إنما نقلنا لك هذا تصديقاً لما أشرنا له سابقاً من أن الناس غلوا فيه بين مكفّر ومنبىء. وخير الأمور الوسط. فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك. وترجمته واسعة في «طبقات الحنابلة» للحافظ ابن رجب نحو كراستين، وبها ختم»[1]. هنا انتهى كلام الكتاني.

هذه هي «حال ابن تيمية في فهرس الفهارس» للكتاني. وأين كلامه من كلام هذا الكاتب الظالم المغرور، الذي غيّر الحقيقة رأساً على عقب شفاءً لغيظه من شيخ الإسلام؟.

إن لم يخشَ هذا الشانىء البليد من الله العليم، فكانَ له أن يخاف من الناس أنهم ماذا يظنون به إذا راجعوا ما أحال إليه كذباً وزوراً، وحاول إقناعهم به؟ ولكن:

إذا لم تَصُنْ عِرْضاً ولم تخش خالقاً وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع

* وقال في «التوفيق» (ص ٣٠): «حال ابن تيمية عند الحافظ المجتهد السبكي».

قلت: إن كلام التقي السبكي (الأب)، والتاج السبكي (الابن) لا يقبل في حق شيخ الإسلام، لما كان بين التقي السبكي وبينه من شحناء. و«الحب والعداوة يتوارثان»[2].

وكذلك تقدم نقض كلام السبكي في رسائله في الرد على شيخ الإسلام. فما بعد الحق إلا الضلال[3].

---

(١) «فهرس الفهارس» للشيخ عبد الحي الكتاني (١/ ٢٠١ ــ ٢٠٢) دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤٠٢هـ بتحقيق إحسان عباس.

(٢) جلاء العينين للآلوسي (ص ٢٢٢).

(٣) راجع ثناء التقي السبكي على شيخ الإسلام في «الرد الوافر» (ص ٩٦).

* وقال في «التوفيق» (ص ٣٢): «حال ابن تيمية عند الحافظ ولي الدين العراقي وقوله بأن ابن تيمية خرق الإجماع بنحو ستين مسألة».

(نقل كلام ولي الدين العراقي هذا من «مخطوط» في الظاهرية).

قلت: لا شك أن لشيخ الإسلام اختياراتٍ في المسائل، له فيها سلف من فضلاء هذه الأمة.

أما تشويه سمعة شيخ الإسلام بنقل مثل هذا الكلام فليس جديداً. قال الحافظ سبط ابن العجمي أبو الوفاء الحلبي (ـ ٨٤١هـ) في شيخ الإسلام:

«وقد أخبرني بعض مشايخي أن بعض الأمراء الكبار كان يحبّه. فوقع في يده الردّ على المترجم أنه قد خرق الإجماع في خمسين مسألة، انفرد بها عن الأمة، فذكر ذلك لبعض مشايخنا.

فأجابه شيخنا: بأنه لم ينفرد بها. بل كل ما قاله له فيه سلف، وإن أحببتَ أيها الأمير أكتب هذه المسائل؟.

فقال الأمير: لا، بل أعرف أنه كلام متحمّل على الشيخ!!»[1].

* قال في «التوفيق» (٣٣ ـ ٣٥) ومقدمة «الرسائل السبكية (٣٣ ـ ٣٥): «حال ابن تيمية في «الدرر الكامنة» لابن حجر الحافظ».

قلت: ما نقله عن الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (١/ ١٤٤) من تخطئة شيخ الإسلام ابن تيمية: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب فهو كلام مختزل، ومجرّد اتهام وشبهة يكبّرها هذا الشانيء لدخلة في صدره ضد شيخ الإسلام.

---

(١) الرد الوافر (٢٦٢ ـ ملحق التقريظات).

هل يقال هذا الكلام في ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الذي ألّف «منهاج السنّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» دفاعاً عن أصحاب النبيّ ﷺ وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم أجمعين.

وقد نسب ابن حجر الهيتمي أيضاً إلى شيخ الإسلام مثل هذا الكلام. فردّ عليه الآلوسي وقال:

«كان ينبغي من ابن حجر أن يعزو الكلام إلى الكتاب الذي نقله منه، ونسبه إلى ابن تيمية. ثم انظر بعين التدبّر والإنصاف إليه على تقدير صحّته بهذه العبارة فهل يقتضي هذا التهور العظيم والطعن الوخيم»(١).

* * *

وأما قول الحافظ ابن حجر: «ونسبه قوم إلى السعي في الإمامة الكبرى لأنه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه...».

فيظهر أن خصوم ابن تيمية كانوا يضحكون على الناس برميهم إياه بالعظام، ويتلاعبون بعقولهم استخفافاً بها، لأن من اطلع على كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية يرى أنه يردّ على ابن تومرت وعلى كتابه «المرشدة» بشدة عجيبة، ويفنّد عقائده وأعماله بكل قوة(٢).

وبعد هذا، إذا نسبه قوم إلى السعي في الإمامة الكبرى بذكر ابن تومرت، دلّ على سوء قصدهم وخبث طويتهم.

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً وللناس قالٌ بالظنون وقيل

* * *

---

(١) جلاء العينين (ص ٥٧).

(٢) راجع على سبيل المثال «مجموع فتاواه» (١١/ ٤٧٦؛ ٣٥/ ١٤٢؛ ٣٦/ ٢٠٩).

قال الحافظ ابن حجر ــ رحمه الله تعالى ــ في لسان الميزان (٦/ ٣١٩) في ترجمة ابن المطهر الحلي:

«... ولابن تيمية ردّ عليه أيّ الردّ واستيفاء أجوبة. لكنا نذكر بقية الأبيات في ما يعاب به ابن تيمية من العقيدة[1].

طالعت الردّ المذكور، فوجدته، كما قال السبكي في الاستيفاء. ولكنه كثير التحامل إلى الغاية في ردّ الأحاديث التي يوردها ابن المطهر، وإن كان معظم ذلك من الموضوعات والواهيات. لكنه ردّ في ردّه كثيراً من الأحاديث الجياد التي لم يستحضر حالة التصنيف مظانها لأنه كان لاتساعه في الحفظ يتكل على ما في صدره. والإنسان عامد للنسيان وكم من مبالغة لتوهين كلام الرافضي أدّتْه أحياناً إلى تنقيص عليّ رضي الله عنه»[2].

قلت: كلام الحافظ ابن حجر هذا يحتوي على ثلاث نقاط:

(الأولى): أبيات السبكي فيما يعاب به ابن تيمية من العقيدة. وتقدّم الرد عليها فلا يحتاج إلى مزيد بيانٍ مرة أخرى.

(الثانية): تحامله في ردّ الأحاديث.

«ومفاد كلام الحافظ ابن حجر أن هذا التحامل حصل في أحاديث المنهاج التي معظمها بتصريح منه من قبيل الموضوعات والواهيات. وقد ثبت بعد التحقيق أن رأي شيخ الإسلام هو السديد في الغالب، وأقرّه الحافظ الذهبي في «المنتقى».

---

(١) يريد قصيدة السبكي ومنها: «يرى حوادث لا مبدأ لأولها». وتقدم الرد عليه. وتقدم توضيح كلام الحافظ ابن حجر أيضاً في مبحث «إمكان حوادث لا أول لها» مع ردّ شيخ الإسلام على شبهات الخصوم هناك.

(٢) لسان الميزان (٦/ ٣١٩).

وأما ما يتعقّبه المتساهلون، أو من عنده نوع من الميل إلى نصرة مذاهب الناس فلا يلتفت إليهم. . .»[1].

(الثالثة): «إنما الأعمال بالنيّات» المبالغة في توهين كلام الرافضي كانت موضوع الساعة، لأجل أثره السيء في المجتمع المسلم حينئذ. وهي لا تؤدي إلى تنقيص عليٍّ ــ رضي الله عنه ــ أبداً، لأن مناقبه معروفة، وهي لا تحتاج في ثبوتها إلى كلام هذا الرافضي وغيره من الرافضة.

اختار شيخ الإسلام ابن تيمية في ردّ كلام الرافضي أسلوباً إلزامياً أيضاً، مثلاً:

أورد الرافضي إشكالاتٍ، وأثار شبهاتٍ على أعمال الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان، وغيرهم من الصحابة، وزيّفها بكل حماقة.

فيكون ردّ شيخ الإسلام في مثل هذه المواضع على الرافضي بأنه إن كانت هذه الأعمال يعاب بها أبو بكر وعمر وعثمان ــ رضي الله عنهم ــ، فقد عملها عليّ ــ رضي الله عنه ــ أيضاً، وأنكر عليه. فما يعتذر به عن عليّ فيما أنكر عليه يعتذر به أو بأقوى منه عنهم ــ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ــ[2].

ولا أعتقد أن في هذا الأسلوب تنقيصاً لعليّ ــ رضي الله عنه ــ، بل بالعكس فيه دفاع عنه، وعن إخوانه من الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. والله تعالى أعلم.

---

(١) راجع مجلة «صوت الأمة» (ص ٢٨ ج١ ع٣) ومبحث «شبه القارة الهندية» الآتي عند ذكر كلام التهانوي في شيخ الإسلام.

(٢) راجع هذا الأسلوب الإلزامي على سبيل المثال في «منهاج السنّة» (٣/ ١٧٥) طبعة الأميرية ١٣٢١هـ.

* قال في «التوفيق» (ص ٣٦)، ومقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٣٥): «كلام التقي الحصني أيضاً عن ابن تيمية».

نقل تحت هذا العنوان عن الحصني في كتابه «دفع شُبَهِ من شبَّه وتمرَّدَ» أن ابن تيمية «كان يردّ الزوجة إلى زوجها في كل واقعة بخمسة دراهم».

قلت: كان التقي الحصني يقع في شيخ الإسلام ابن تيمية بشتى الوسائل[1] ويصرّح بكفره. ومن هنا هانَ عليه أن ينسب إليه ما شاء. ومهّد السبيل أمام الحاقدين على ابن تيمية للنيل منه بذكر هذه الاتهامات التي لا دليل عليها. فتراهم يتناقلونها في كتابهم لتشويه سمعته. ولكن العارفين بأساليب هؤلاء القوم لا يكونون فريسةً لأهوائهم، والذين يقعون في شباك مكرهم وخداعهم هم الأغرار فقط.

قال الأستاذ زهير الشاويش في ترجمة أبي الوفاء سبط ابن العجمي (ـ ٨٤١هـ):

«ومن جميل ما يروى عنه: أن التقي الحصني الذي كان يطعن بابن تيمية من غير حجّة ناهضة. زار حلب واجتمعا.

فسأله أبو الوفاء عن شيوخه؟

فسمّاهم الحصني له.

فقال سبط ابن العجمي: إن شيوخك الذين سمَّيتَهم، هم عبيد ابن تيمية، أو عبيد من أخذ عنه!! فما بالك تحطُّ أنت عليه؟!.

---

(١) تقدم رميه ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ بالتجسيم والتشبيه بما لا يشك ذو عقل في كذبه. راجع مبحث التجسيم والحشو.

فما وسع الحصني إلا أن يأخذ نعله وينصرف. ولم يردّ بكلمة».

وكان الحصني يصرّح بكفر ابن تيمية، فأهانه الحنابلة والقضاة، وأهالي دمشق إهانات كثيرة، واحتقروه»[1].

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٥٨].

* قال في «التوفيق» (٣٦ ـ ٣٧): «كلام السخاوي ورأي الذهبي في ابن تيمية».

ونقل عن الحافظ السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ» (ص ٧٧) بعد الكلام على الذهبي ما نصه:

«وقد رأيت له عقيدة مجيدة ورسالة[2] كتبها لابن تيمية، هي لدفع نسبته لمزيد تعصبه مفيدة...».

ثم نقل عن الإمام الذهبي في «بيان زغل العلم والطلب» نقلاً مشوّهاً. وإليكم ما كتبه الذهبي في شيخ الإسلام بنصه:

«فوالله ما رمقت عيني أوسع علماً، ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال له

---

(١) الرد الوافر (٢٦١ ـ ملحق التقريظات) تعليقاً. راجع ترجمة الحصني في «الضوء اللامع» للسخاوي (١/ ١٤٥)، والبدر الطالع للشوكاني (١/ ٢٨).

(٢) زعم الكوثري لدخلة في صدره أن الرسالة المشار إليها هنا هي «النصيحة الذهبية». وقد تقدم بالأدلة أنها منحولة ومختلقة على الإمام الذهبي، وضعت عليه للنيل من كرامة شيخ الإسلام ابن تيمية أولاً، ثم لإظهار أن الذهبي تبرأ من ابن تيمية ثانياً ليخلو المجال أمام أهل الأهواء أن يقعوا فيه مستدلاً بكلامه. ولكن أسلوب واضع هذه «النصيحة» مريب للغاية. «يكاد المريب أن يقول خذوني».

«ابن تيمية» مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن. وقد تعبتُ في وزنه وفتشه حتى مللت في سنين متطاولة، فما وجدت قد أخّره بين أهل مصر والشام، ومقتته نفوسهم، وازدروا به، وكذّبوه، وكفّروه إلا الكبر والعجب، وفرط الغرام في رئاسة المشيخة، والازدراء بالكبار[1].

فانظر كيف وبال الدعاوى ومحبّة الظهور نسأل الله تعالى المسامحة. فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه، ولا أعلم منه، ولا أزهد منه، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم. وما سلّطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم بل بذنوبه. وما دفعه الله عنه وعن أصحابه أكثر[2] وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون فلا تكن في ريب من ذلك»[3].

ثم نقل عن السخاوي في «الإعلان» كلام الذهبي، وهو لا يوجد في «زغل العلم والطلب ولا في «النصيحة الذهبية» المنحولة إلى الذهبي.

---

(١) هذه الأوصاف ليست لشيخ الإسلام، بل لخصومه فتدبّر.

(٢) ذكر الإمام الذهبي ابتلاء الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ وثباته فيه ورفعته وعلوّه، وسمّو مكانته عند الناس بعد الابتلاء ثم قال:
«هذا ثمرة المحنة المحمودة، أنها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكل حال فهي بما كسبت أيدينا، ويعفو الله عن كثير [قال النبيّ ﷺ]: «من يرد الله به خيراً يصب منه» [صحيح البخاري ١٠/١٠٣] وقال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة محمد: ٣١]. فالمؤمن إذا امتحن وصبر، واتّعظ واستغفر، ولم يتشاغل بذم من انتقم منه، فالله حكم مُقْسِطٌ، ثم يحمد الله على سلامة دينه، ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخير له» (سير أعلام النبلاء: ٨/٨١) باختصار.

(٣) «زغل العلم والطلب» للذهبي (ص ٣٨) تحقيق محمد بن ناصر العجمي. مكتبة الصحوة بالكويت.

جعل هذا الشانىء هذا الكلام تكأة يتكىء عليها في رميه إياه ببلع سموم الفلسفة، وربطه ببعض العبارات الواردة في «النصيحة الذهبية». ثم قال: «هذا كلام الذهبي الذي قال لابن تيمية «وأنا الشفوق المحبّ الواد»[1] فراجع النصيحة بتمعنٍ وتفكّرٍ».

قلت: راجعنا «النصيحة» بمتعنٍ وتفكّرٍ. فوجدناها تفوح منها رائحة كريهة من الاختلاق والوضع والكذب الذي لا يمكن صدوره من الإمام الذهبي في حق شيخ الإسلام، وإن سلّمنا صدورها منه فهي في حق غيره يقيناً، ولكن الأيدي العابثة حوّلتها إلى شيخ الإسلام ظلماً وبغياً. وهذا لا يستبعد من الظالمين الذين نسبوا إليه بدون حجة ناهضة ما هو أشدّ منه وأنكى[2].

* قال في «التوفيق» (ص ٥٤)، ومقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٤٧):

«لا تناقض عند أبي حيان في مدحه لابن تيمية أولاً، وذمّه له ثانياً».

قلت: تقدم بشيء من التفصيل مدحه لشيخ الإسلام، ثم ذمّه بما لم يثبت عنه ــ رحمه الله تعالى ــ[3].

واختلاقه على شيخ الإسلام بيّن من أسلوبه الذي ينمّ عن دخائله.

فمن يطبّل وراء هذه الدعايات الكاذبة ضد شيخ الإسلام فليمت غيظاً على وهائها عند أصحاب العقول الراجحة.

---

(١) وردت هذه الجملة في «النصيحة الذهبية» (التوفيق ص ٢٠٦، والرسائل السبكية ص ٢١٣).

(٢) راجع ما تقدم من الكلام في نقد «النصيحة الذهبية». وفيه كفاية لمن له دراية.

(٣) راجع مبحث «التجسيم».

* قال في «التوفيق» (ص ٥٤)، ومقدمة «الرسائل السبكية» (ص ٤٧):

«قول ابن حجر الهيتمي في ابن تيمية:

سئل عن فتاواه الحديثية (ص ١١٤) فأجاب بقوله:

«ابن تيمية عبد خذله الله تعالى، وأضله وأعماه، وأصمه وأذله.

وبذلك صرّح الأئمة الذين بيّنوا فساد أحواله، وكذب أقواله، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد «أبي الحسن السبكي»، وولده التاج، والشيخ الإمام العز بن جماعة، وأهل عصره وغيرهم من الشافعية والمالكية».

قلت: إن كلام خصوم شيخ الإسلام أمثال التقي السبكي وولده التاج والعز بن جماعة لا يقبل فيه لداء المعاصرة والاختلاف في العقيدة.

كم يسهل على هؤلاء القوم أن يرموه بالضلال والكفر، وينسون أنفسهم؟ ومن منهم نجا من التكفير والتضليل، والتفسيق والتبديع؟.

ـ هذا التقي السبكي فقد قال فيه ابن عبد الهادي:

«ورأيت مؤلف هذا الكتاب (أي شفاء السقام) رجلاً ممارياً معجباً برأيه متبعاً لهواه...»[1].

وقال أيضاً: «... إنه ألّف هذا الكتاب ليتقرّب به إلى القاضي، ويحظى لديه، فخاب أمله، ولم ينفق عنده. وقد كان هذا القاضي (وهو ابن مخلوف المالكي) الذي جمع المعترض (السبكي) كتابه هذا لأجله، من أعداء

---

(١) الصارم المنكي (ص ١٩).

الشيخ المشهورين»[1].

ـ وسأل التقي السبكي أن يولّي القضاء مكانه ولده التاج فأجيب إلى ذلك. وجرى على التاج السبكي من المحن والشدائد ما لم يجر على قاضٍ مثله.

«رماه أهل زمانه بالكفر، واستحلال شرب الخمر، والزنا، وأنه كان يلبس الغيار والزنّار بالليل ويخلعها بالنهار، وتحزّبوا عليه، وأتوا به مقيّداً مغلولاً من الشام إلى مصر. جاء معه خلائق من الشام يشهدون عليه. ثم تداركه اللطف على يد الشيخ جمال الدين الأسنوي»[2].

ـ «وكذلك وقع أيضاً للشيخ عز الدين بن جماعة[3] من رمى أهل زمانه له بالكفر من أجل كلمة قالها في عقيدته، وحرّفوا السلطان عليه، ثم تداركه الله تعالى بلطفه»[4].

أما ابن حجر الهيتمي الذي رمى شيخ الإسلام بالعظائم، فلا يرجى منه غير ذلك، لأنه من أنصار «ابن عربي» الذي كشف فضائحه شيخ الإسلام فأودع في السجن بمؤامرات أصحاب الحلول والاتحاد، فكأنه آلى على نفسه أن ينتقم منه لشيخه بتضليله وتكفيره، وهو يتأجج حقداً وحنقاً على شيخ الإسلام في كتاباته.

---

(١) المصدر المذكور (ص ٢١).

(٢) جلاء العينين (٢٤ ـ ٢٥).

(٣) وهو الذي يصف من يخالفه في مسألة (القرآن كلام الله) بالبدعة والتجسيم والتشبيه. ويفتي بالحكم عليه بالحبس والضرب والتعزير. (التوفيق ص ٦٩، ومقدمة الرسائل السبكية ص ٦١).

(٤) جلاء العينين (ص ٥٣) (وفيه: ابن عبد السلام وهو خطأ).

لما رأى العلامة نعمان بن محمود خير الدين الآلوسي هذه المهاترات في بعض كتب أحمد بن حجر الهيتمي ضد شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية قام بالمقارنة بينهما ليجلو الحق ويزهق الباطل، وألّف كتابه القيّم «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»، بيّن فيه سوء نيّته وخبث طويته في مذهب السلف الصالح، ودفاعه عن مذهب ابن عربي رأس الحلولية والاتحادية.

قال الآلوسي:

«قد ظهر لك من جميع ما تقدم أن الشيخ ابن حجر نسب إلى شيخ الإسلام كثيراً من الأقوال التي لا أصل لها، ولا سند في نقلها، بخلاف إذا ذكر عن... محيي الدين (ابن عربي) أو غيره من المتصوّفين قولاً، ليس لهم به مستمسك في الدين، ولا قاله أحد غيرهم من علماء المسلمين فيأخذ حينئذ بتأويله، ويتكلّف بتعديله، ولله در القائل:

فرصاص من أحبتَه ذَهَبٌ كما ... ذَهَبُ الذي لم تَرْضَ عنه رصاص

فمن ذلك ما قاله في «الزواجر» في بحث الإجماع على كفر فرعون بما نصه:

«فإنا، وإن نعتقد بجلالة الشيخ محيي الدين، فقوله بإيمانه مردود، فإن العصمة ليست إلا للأنبياء عليهم السلام، مع أنه نقل عن بعض كتبه أنه صرّح فيها بأن فرعون مع هامان وقارون في النار.

وإذا اختلف كلام إمام فيؤخذ بما يوافق الأدلّة الظاهرة، ويعرض عما خالفها» (باختصار).

فليت شعري لِمَ لم يجعل كثيراً من كلام الشيخ ابن تيمية ــ إن صَحّ ــ من هذا القبيل، ويدرأ عنه سوء الظن وباطل الأقاويل. لكن كما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا»[1]

* ذكر في «التوفيق» (٥٧ ــ ٧٧)، ومقدمة «الرسائل السبكية» (٥٠ ــ ٦٧) تسع عشرة مسألة، استخرجها من بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وفهمَها على ما يريد فهماً مغرضاً، ثم أجبر الناس على قبول فهمه بتعليقاته المشوّهة.

وعلى هذا الأساس رمى شيخ الإسلام بما يحلو له من التشبيه، والتجسيم، وحلول الحوادث، وغيرها من الأمور اتباعاً لمذهب شيوخه من أهل الكلام، وأصحاب الحلول والاتحاد. ثم قال: «هذه تسعة عشر مسألة(؟) بينتُ مواضعها دالة على جهله بأصول الدين، وفساد عقيدته فيه ومن عميت بصيرته فافتتن به كالسرمريّ، واليافعي اللذين هجوا الإمام السبكي».

قلت: هذه المسائل التي ذكرها هذا الكتاب الشانىء، كلها تقريباً، تتعلق بإثبات ما أثبته الله عز وجل لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ، على منهج السلف الصالح. ولكن حقده على شيخ الإسلام «نصير مذهب السلف» ــ الذي ران على قلبه لا يسمح له أن يراجع نفسه بتمعن وتفكّر ــ وهو الذي ينصح للآخرين بذلك ــ، وأن يعترف بالحق لأنه خير من التمادي في الباطل. بل عدّ حسناته حوباً لا يغتفر، كما قال الشاعر:

إذا محاسني اللاتي أدلّ بها ... كانت ذنوباً فقل لي كيف أعتذر

زد إلى ذلك ما وصف به العلامة أبا المظفر يوسف بن محمد العبادي

---

(١) المصدر المذكور للآلوسي (٥٢٦ ــ ٥٢٧.

السرمري، والإمام أبا عبد الله محمد بن يوسف اليافعي الشافعي اليمني، من العمى في البصيرة بغضاً ولؤماً، لأنهما عارضا قصيدة التقي السبكي في الردّ على شيخ الإسلام في «منهاج السنّة» بحقّ وأمانة بقصيدتين[1] لهما في غاية الروعة والجمال، والأدب والاستدلال، والقوة والبلاغة.

انظر إلى جهل هذا المغرور المفتون الذي يزيّف عقيدة السلف، ويقع في علماء هذه الأمة الأخيار بكل وقاحة. ثم إنه يمنح لعقائده الكاسدة وأقواله الفاسدة حق الحصانة الدبلوماسية، وأن لا مساس، ويريد أن يطبّق قانون «اتجاه واحد» من قوانين المرور على البحوث الدينية والانتقادات العلمية. صحيحاً قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

* نقل في «التوفيق» (٧٧ ـ ٨٠) ومقدمة «الرسائل السبكية» (٦٧ ـ ٧٠) عن البدر الزركشي، والجلال الدواني، وأبي سعيد العلائي، والبياضي، وابن طولون الحنفي كلاماً متحاملاً على شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ، من دون أن يراجع كتاباته في تلك المسائل ليرى أدلّته، ثم يحكم عليها بما شاء.

ولكنه لا يريد الاهتداء إلى الحق، بل يريد إضلال الأغرار بتشويه الحقائق، ويعرض عضلاته من دون مقابل لإقناع سفهاء الأحلام بأسلوب جبان.

كذا الجبانُ خلا في البرِّ صَاحَ أَلَا   مبارزٌ وتغالىٰ في تَوَثُّبِهِ

---

(١) نشرت هاتان القصيدتان بشيء من الشرح والتوضيح بتحقيقي، فالحمد لله تعالى.

* نقل في «التوفيق»(٨٥ ــ ٨٩) تحت عنوان «افتراؤه على الإمام عليّ» عن الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (١/ ١١٤) النص الذي تقدم الرد عليه.

ثم نقل عدة نقول من «منهاج السنّة» لشيخ الإسلام، يستدلّ بها حسب زعمه ــ على أنه يفتري على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. فلعنة الله على الظالمين.

الآن آن الأوان أن نرى خيانة هذا الشانىء، نهاراً وجهاراً، وكيف يختزل عبارات شيخ الإسلام ويشوّهها. ثم يقدّمها أمام القراء ناصحاً ومشفقاً؟.

١ ــ قال في (ص ٨٩):

««وراجع كلام ابن تيمية في «منهاجه» ص ٢٠٢ من الجزء الثاني يقول فيها:

«عليّ رضي الله عنه كان عاجزاً عن قهر الظلمة من العسكرين. ولم تكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به، وأعوان معاوية يوافقونه. وكان يرى أن القتال يحصل به المطلوب... إلى أن قال: فأئمة السنّة يعلمون أنه ما كان القتال مأموراً به، ولا واجباً، ولا مستحباً. ولكن يعذرون من اجتهد فأخطأ».

٢ ــ وقال في (ص ٨٥):

«وقد ذكر ابن تيمية في حق عليّ في كتابه «منهاج السنّة» (٢/ ٢٠٣) ما نصه: «وليس علينا أن نبايع عاجزاً عن العدل علينا، ولا تاركاً له. فأئمة السنّة يسلّمون أنه ما كان القتال مأموراً به ولا واجباً ولا مستحباً».

٣ ـ وقال في (ص ٨٩):

«وانظر الصحيفة ٢٠٤ من الكتاب السابق يقول فيها: «فإن قال الذابّ عن عليّ: هؤلاء الذين قاتلهم عليّ كانوا بغاة، فقد ثبت في الصحيح أن النبيّ ﷺ قال لعمّار رضي الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»، وهم قتلوا عماراً.

فههنا للناس أقوال:

ـ منهم من قدح في حديث عمَّار.

ـ ومنهم من تأوّله على أن الباغي الطالب[1]، وهو تأويل ضعيف.

ـ وأما السلف والأئمة، فيقول أكثرهم كأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم لم يوجد شرط قتال الطائفة الباغية»اهـ.

أقول (أي الظالم المغرور): السؤال في هذا الكلام صحيح منطبق على مذهب أهل الحق، أما جوابه ـ أي ابن تيمية ـ عنه فههنا للناس أقوال إلى آخره(؟) فاسد وكذب فهل يسمّي لنا القادحين[2] في حديث عمار.

---

(١) قال شيخ الإسلام في المنهاج (٢/ ٢١٠ ـ ٢١١): «وأما تأويل من تأوله أن علياً وأصحابه قتلوه، وأن الباغية الطالبة بدم عثمان. فهذا من التأويلات الظاهرة الفساد، التي يظهر فسادها للعامة والخاصة».

(٢) قال شيخ الإسلام في منهاج السنّة (٢/ ٢١١): «والحديث ثابت في الصحيحين. وقد صححه أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة. وإن كان قد روي عنه أنه ضعّفه فآخر الأمرين منه أنه صححه... وسئل أحمد عن هذا الحديث في عمار، فقال: قتلته الفئة الباغية كما قال النبيّ ﷺ. وقال: في هذا غير حديث صحيح عن النبيّ ﷺ. وكره أن يتكلم في هذا بأكثر من هذا».

وقال شيخ الإسلام في المصدر السابق (٢/ ٢١١): «فطائفة ضعّفته لما روى بأسانيد ليست ثابتة عندهم ولكن رواه أهل الصحيح البخاري ومسلم...» «أيضاً: وقد روي =

٤ ــ وقال في (ص ٨٥):

«وذكر في نفس المصدر السابق (٣/ ١٥٦) بعد كلام ما نصه: فلا رأى أعظم ذماً من رأي أريق به دم ألوف مؤلفة من المسلمين، ولم يحصل بقتلهم مصلحة للمسلمين، لا في دينهم، ولا في دنياهم. بل نقص الخير كما كان، وزاد الشر على ما كان...».

ثم نقل هذا الكاتب المموّه نصوصاً عن بعض العلماء في إثبات أن الذين خالفوا علياً كانوا بغاة، وأفرغ ما كان عنده من الحقد والحسد، والبغض واللؤم على شيخ الإسلام فقال (ص ٨٩):

«مرادنا من هذا الكلام تبيّن أن علياً هو الخليفة الواجب الطاعة، وأن مخالفوه(؟) بغاة. فكيف يقول هذا السخيف [أي ابن تيمية] أنه ما كان القتال مأموراً به، ولا واجباً، ولا مستحباً، وأنه لم يحصل للمسلمين فيه مصلحة لا في دينهم ولا في دنياهم. فهذا فيه مخالفة للأحاديث التي أوردناها، أليس هذا ذماً بعليّ».

قلت: على القارىء الكريم أن يقارن ما نقله هذا الظالم المفتون مع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ ليرى خيانته في النقل مع ادعائه أنه نقل كلامه نصاً وحرفاً.

راجع النصوص الثلاثة الأولى المجذوذة المختزلة ثم اقرأ ما كتبه شيخ الإسلام رداً على ابن المطهر الحلي الرافضي بنصه:

= من وجوه أخرى واهية وفي الصحيح ما يغني عن غيره» هذا الرأي هو الذي يشير إليه شيخ الإسلام من قوله: «منهم من قدح في حديث عمار» الذي ذكره الشانىء ههنا. وتحدّى أن يسمّي له القادحين في هذا الحديث.

* «. . . وعسكر معاوية يعلمون أن علياً أفضل وأحقّ بالأمر منه. ولا ينكر ذلك منهم إلا معاند، أو من أعمى الهوى قلبه.

ولم يكن معاوية قبل تحكيم الحكمين يدعي الأمر لنفسه. ولا يتسمى بأمير المؤمنين. وإنما ادّعى ذلك بعد حكم الحكمين. وكان غير واحد من عسكر معاوية يقول له: لماذا نقاتل معك علياً، وليس لك سابقته وفضله ولا صهره، وهو أولى بالأمر منك؟ فيعترف لهم معاوية بذلك.

ولكن قاتلوا مع معاوية لظنهم أن عسكر عليّ فيهم ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان، وأنهم يقاتلونهم دفعاً لصيالهم عليهم، وقتال الصائل جائز. ولهذا لم يبدأهم بالقتال حتى بدأهم أولئك ولهذا قال الأشتر النخعي: إنهم ينصرون علينا، لأنا نحن بدأناهم بالقتال. وعلي ــ رضي الله عنه ــ كان عاجزاً[1] عن قهر الظلمة من العسكرين، ولم تكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به، وأعون معاوية يوافقونه. وكان يرى أن القتال يحصل به المطلوب فما حصل به إلا ضد المطلوب.

وكان في عسكر معاوية من يتهم علياً بأشياء من الظلم هو بريء منها. وطالب الحق من عسكر معاوية يقول: لا يمكننا أن نبايع إلاَّ من يعدل علينا ولا يظلمنا، ونحن إذا بايعنا علياً ظَلَمنا عسكره، كما ظلموا عثمان. وعليّ إما عاجز عن العدل علينا أو غير فاعل لذلك. وليس علينا أن نبايع[2] عاجزاً

(١) هذه خلاصة رأي عسكر معاوية رضي الله عنه. ولكن الظالم اللئيم حاول إيهام القارىء بأنه من رأي شيخ الإسلام ابن تيمية. راجع «النص الأول» المتقدم.

(٢) هذا من كلام «عسكر معاوية». ولكن الظالم الحقود على شيخ الإسلام أوهم القارىء بل خدعه بأنه من كلام ابن تيمية. راجع «النص الثاني» المتقدم.

عن العدل علينا ولا تاركاً له. فأئمة السنّة يعلمون أنه ما كان القتال مأموراً به لا واجباً ولا مستحباً، ولكن يعذرون من اجتهد فأخطأ»[1].

* وقال شيخ الإسلام:

(وقوله (أي الرافضي): وقاتل (أي معاوية) علياً وهو عندهم رابع الخلفاء إمام حق، وكل من قاتل إمام حق فهو باغٍ ظالم).

فيقال له أولاً: الباغي قد يكون متأوّلاً معتقداً أنه على حق، وقد يكون متعمداً يعلم أنه باغ، وقد يكون بغيه من شبهة أو شهوة وهو الغالب.

وعلى كل تقدير، فهذا لا يقدح فيما عليه أهل السنّة. فإنهم لا ينزهون معاوية، ولا من هو أفضل منه من الذنوب، فضلاً عن تنزيههم عن الخطأ في الاجتهاد. بل يقولون: إن الذنوب لها أسباب تدفع عقوبتها من التوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفّرة، وغير ذلك. وهذا أمر يعم الصحابة وغيرهم... إلى أن قال:

أما الرافضي فإذا قدح في معاوية ــ رضي الله عنه ــ بأنه كان باغياً ظالماً. قال له الناصبي: وعليّ أيضاً كان باغياً ظالماً، قاتل المسلمين على إمارته، وبدأهم بالقتال، وصال عليهم، وسفك دماء الأمة بغير فائدة لا في دينهم ولا في دنياهم. وكان السيف في خلافته مسلولاً على أهل الملّة، ومكفوفاً عن الكفار.

والقادحون في عليّ طوائف... وكلهم مخطئون في ذلك ضالّون مبتدعون. وخطأ الشيعة في القدح في أبي بكر وعمر أعظم خطأ من أولئك في عليّ.

---

(١) منهاج السنّة (٢/ ٢٠٢ ــ ٢٠٣).

فإن قال الذابّ عن عليّ: هؤلاء الذين قاتلهم عليّ كانوا بغاة...، وأما السلف والأئمة، فيقول أكثرهم كأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم: لم يوجد شرط القتال الطائفة الباغية، فإن الله لم يأمر بقتالها ابتداء، بل أمر إذا اقتتلت طائفتان أن يصلح بينهما، ثم إن بغت إحداهما على الأخرى، قوتلت التي تبغي. وهؤلاء قوتلوا ابتداءً قبل أن يبدأوا بقتال.

ومذهب أبي حنيفة وأحمد وغيرهما أن مانعي الزكاة إذا قالوا: نحن نؤديها بأنفسنا ولا ندفعها إلى الإمام، لم يكن له قتالهم.

ولهذا كان هذا القتال عند أحمد وغيره كمالك قتال فتنة، وأبو حنيفة يقول: لا يجوز قتال البغاة حتى يبدأوا بقتال الإمام. وهؤلاء لم يبدأوا، بل الخوارج بدؤا به. وقتال الخوارج ثابت بالنص والإجماع...»[1].

هذا نص شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ردّ به على افتراءات الرافضي الحلي. وقارنه مع «النص الثالث» المتقدم الذي نقله عنه هذا الشانىء مجذوذاً مختزلاً، ليثبت أنه كان يذمّ علياً ــ رضي الله عنه ــ، ويشوّه بذلك سمعته عند الأغرار.

* قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(قال الرافضي: وقال (أي عمر ــ رضي الله عنه ــ) بالرأي والحدس والظن) والجواب: أن القول بالرأي لم يختص به عمر ــ رضي الله عنه ــ، بل عليّ كان من أقولهم بالرأي. وكذلك أبو بكر وعثمان وزيد وابن مسعود وغيرهم من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ كانوا يقولون بالرأي.

(١) منهاج السنّة (٢/٢٠٣ ــ ٢٠٥).

وكان رأي عليّ في دماء أهل القبلة من الأمور العظام، كما في سنن أبي داود وغيره عن الحسن، عن قيس بن عباد، قال، قلت لعليّ: أخبرنا عن مسيرك هذا، أعهد عهده إليك رسول الله ﷺ، أم رأي رأيته.

قال: ما عهد النبيّ ﷺ إليّ شيئاً. ولكنه رأي رأيته»[1].

وهذا أمر ثابت. ولهذا لم يرو عليّ ـ رضي الله عنه ـ في قتال الجمل وصفين شيئاً، كما رواه في قتل الخوارج. بل روى الأحاديث الصحيحة هو غيره من الصحابة في قتال الخوارج المارقين.

وأما قتال الجمل وصفين، فلم يرو أحد منهم فيه نصاً إلا القاعدون، فإنهم رووا الأحاديث في ترك القتال في الفتنة.

وأما الحديث الذي يروى أنه أمر بقتل الناكثين، والقاسطين، والمارقين، فهو حديث موضوع على النبيّ ﷺ.

ومعلوم أن الرأي إن لم يكن مذموماً، فلا لوم على من قال به، وإن كان مذموماً فلا رأي أعظم ذماً من رأي أريق به دم ألوف مؤلفة من المسلمين، ولم يحصل بقتلهم مصلحة للمسلمين لا في دينهم ولا في دنياهم، بل نقص الخير عما كان، وزاد الشر على ما كان.

فإذا كان مثل هذا الرأي لا يعاب به فرأي عمر وغيره في مسائل الفرائض والطلاق أولى أن لا يعاب، مع أن علياً شركهم في هذا الرأي، وامتاز برأيه في الدماء. وقد كان ابنه الحسن وأكثر السابقين الأوّلين، لا يرون القتال مصلحة، وكان هذا الرأي أصلح من رأي القتال بالدلائل الكثيرة...»[2].

---

(١) سنن أبي داود، كتاب السنّة (رقم ٤٦٥٨) تصوير طبعة الهند.

(٢) منهاج السنّة (٣/١٥٦).

وقد ردّ شيخ الإسلام على ابن المطهر الحلي الرافضي حينما عاب عمر ـ رضي الله عنه ـ بالرأي والحدس والظن. ولكن هذا الشانىء الظالم كيف تلاعب بالنص ونقله مقطوعاً عما قبله وبعده، كما تقدم في «النص الرابع».

حاول هذا الكاتب الظالم محاولةً خبيثة لتنفير الناس عن شيخ الإسلام، بعدما نقل عنه نقلاً مشوهاً، واستدلّ به على ذم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ . وغير خافٍ على من له إلمام بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية أنها مليئة بالدفاع عن آل بيت النبيّ ﷺ، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ .

أذكر لكم نصاً من نصوص شيخ الإسلام في فضل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يجعل هذا الشانىء المموّه مفضوحاً مخذولاً أمام الأشهاد.

قال شيخ الإسلام رداً على الرافضي:

«والرافضة لا يمكنهم أن يثبتوا وجوب موالاته (أي عليّ) كما يمكن أهل السنّة. وأهل السنّة متفقون على ذمّ الخوارج الذين هم أشدّ بغضاً له وعداوة من غيرهم. وأهل السنّة متفقون على وجوب قتالهم.

فكيف يفتري المفتري عليهم بأن مدح هذا (أي معاوية) لبغضه علياً، وذم هذا لمحبة عليّ، مع أنه ليس من أهل السنّة من يجعل بغض عليّ طاعة ولا حسنة، ولا يأمر بذلك، ولا من يجعل مجرد حبّه سيئة ولا معصية ولا ينهى عن ذلك. وكُتُب أهل السنّة من جميع الطوائف مملوءة بذكر فضائله ومناقبه، وبذمّ الذين يظلمونه من جميع الفرق، وهم ينكرون على من سبّه، وكارهون لذلك.

وما جرى من التسابّ والتلاعب بين العسكرين من جنس ما جرى من

القتال، وهم من أشدّ الناس بغضاً وكراهة لأن يتعرض له بقتال أو سبّ، بل هم كلهم متفقون على أنه أجل قدراً، وأحق بالإمامة، وأفضل عند الله، وعند رسوله، وعند المؤمنين من معاوية، وأبيه، وأخيه الذي كان خيراً منه، وعليّ أفضل ممن هو أفضل من معاوية ــ رضي الله عنه ــ .

فالسابقون الأوّلون الذين بايعوا تحت الشجرة كلهم أفضل من الذين أسلموا عام الفتح، وفي هؤلاء خلق كثير أفضل من معاوية. وأهل الشجرة أفضل من هؤلاء كلهم، وعليّ أفضل جمهور الذين بايعوا تحت الشجرة، بل هو أفضل منهم كلهم إلا الثلاثة. فليس في أهل السنّة من يقدّم عليه أحداً غير الثلاثة...»[1].

هذه هي مكانة عليّ ــ رضي الله عنه ــ في كتابات شيخ الإسلام، بل في كتابات جميع علماء أهل السنّة. ولكن هذا الكاتب الغشوم تضامناً مع الرفض والرافضة، يرى الحق باطلاً، والمعروف منكراً، كما تقدّم من خيانته في النقل، وارتجاله الكذب اتباعاً لهواه.

إنه لوصمة عارٍ في جبين هذا الكاتب المغرور أن يغيّر الحقائق التاريخية بالخيانة في النقل، إن لم يخش الله العزيز الحكيم، كان له أن يستحيي من الناس، وأنهم ماذا يظنون به إذا راجعوا المواضع المشار إليها في منهاج السنّة، ووجدوا الأمر عكس ما أراد تحقيقه ظلماً وعدواناً.

ولكنه مطمئن بأن الرعاع المهابيل من شيعته الذين ينطلي عليهم كل كذب، وينعقون وراء كل ناعق لا يتبيّنون في الأمر، بل يعتقدونه صحيحاً، ويروّجونه بين الناس، لتنويمهم على ما هم عليه من الانحراف في العقائد

---

(١) المصدر السابق (٢/٢٠٦).

والأعمال، حتى لا ينتبهوا من سباتهم العميق فيعرفوا الحق من خلال كتب شيخ الإسلام التي ملأت الدنيا، علماً ونوراً وبصيرة وهدى.

لقد رأيتَ كلام شيخ الإسلام في هذا الموضوع، وعرفتَ تلاعب هذا الكاتب المموّه بعباراته، وقارنت بين الصدق والكذب، والحق والباطل. فيالله العجب، كيف اجترأ هذا المخادع على تشويه الحقائق حقداً ولؤماً، وذَرَّ الرماد في أعين الناس. ومثله مثل الذين قال فيهم الشاعر:

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا   شراً أذيع وإن لم يعلموا كذبوا

* قال في «التوفيق» (٩٠ ــ ٩١)، ومقدمة «الرسائل السبكية» (٧٤ ــ ٧٥):

«بعض العلماء الرادّين على ابن تيمية والمناظرين له».

قلت: تقدّم[1] ذكر أمثال «هؤلاء العلماء» الذين ردّوا على شيخ الإسلام وناظروه، واستغلّوا مناصبهم في إيذائه، وإيداعه السجن مرة بعد أخرى.

* قال في «التوفيق» (٩٢ ــ ٩٣)، ومقدمة «الرسائل السبكية» (٧٦ ــ ٧٧):

«الردّ على من قال: لعلها دسّاً عليه»:

«قلتّ: تقدم أن خصوم شيخ الإسلام لم يتأخروا في الكذب عليه في بعض الأمور، ونسبوا إليه ما هو بريء منه، كما حصل التزوير والكذب في مسألة «شدّ الرحال» بأن زادوا في فتواه ما لم يقله. وقد ردّ شيخ الإسلام على هذا الاختلاق بنفسه.

---

(١) راجع مبحث «حب الرياسة باب هلاك الناس في الناس».

«نظراً إلى هذه التزويرات قال الشيخ حامد الفقي ـ رحمه الله ـ:

«هذا دس على الشيخ، فلِمَ تثبتونها في حق ابن تيمية، وتبرؤون ابن عربي مع أن كتبه الموجودة مليئة بالكفر والحلول والاتحاد».

لأجل هذا الكلام صبّ اللوم على الشيخ الفقي. ثم شمّر عن ساق الجد للدفاع عن شيخه ابن عربي بكل ما عنده من أساليب التمويه والتهويل، ما جعلنا نعتقد أن هذا الكاتب الجهمي وكيل جلد لمذهب الحلول والاتحاد، متهالك في حبّ ابن عربي الذي ملأ كتبه بالضلال الصراح والكفر البواح، مبغض لأئمة الهدى، وأعلام الدعوة إلى الله على منهج السلف الصالح.

* كتب في «التوفيق» (٩٤ ـ ٩٥): «نصيحة».

وقال: «وأخيراً أوّجه هذه الأسطر إلى كلّ من تشرّب حب هذا الرجل في قلبه، وعميت بصيرته عن قبول الحق أقول: ليس الحق يعرف بالرجال، ولكن الرجال يعرفون بالحق»[١].

ثم قال: «وقد رأيت لمصريّ في عصرنا هذا كلاماً يفنّد فيه ما قاله الذهبي في ابن تيمية من تأنيب لابن تيمية. نفى هذا المصري ثبوت هذ الشيء

---

(١) قال الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي لمثل هذا الكاتب: «فإن كنتَ تعرف الحق عرفت أهله، أو تدري ما الفضل أدركت فضله إلا أن تكون ذا عصبية وحميّة، فتجحد بالهوى فضائل ابن تيمية، وتعمى عن لمعان أنواره البهية.

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة ... فلا غرو أن يرتاب والصبح مُسْفِرُ
ومن يتبع لهواه أعمى بصيرة ... ومن كان أعمى في الدجى كيف يُبْصِرُ

الشهادة الزكية ص ٨٨).

على أن ابن تيمية متكبّر ومزدرٍ بالأكابر، حتى قال: «وما جرى عليه وعلى أتباعه إلا بعض ما يستحقون...».

قلت: إن شياطين الإنس أتعس بكثير من شياطين الجن لأجل أساليبهم الملتوية في إغواء الناس وإضلالهم.

قد يأتي الشيطان إلى الإنسان ناصحاً شفوقاً، وقد يأتي إليه مبشّراً ونذيراً، وقد يأتي إليه متستّراً بالتحقيق والتجرد والموضوعية.

اختار هذا الكاتب المموّه خلال كتاباته ضد شيخ الإسلام ابن تيمية كل هذه الأساليب، تمهيداً لإضلال شيعته عن طريق الحق والصواب.

ولا ينتهي عجبك أنه بدأ كتابه بالنصيحة، وأنهاه بالنصيحة فرهّب ورغّب، وأنذر وبشّر، وضلّل وكفّر اتباعاً لشيخه الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [سورة الأعراف: ٢١].

وأما ما نقله عن الذهبي في «بيان زغل العلم والطلب» فقد تقدّم توضيحه[١]. وليس فيه أن ابن تيمية متكبر ومزدرٍ بالأكابر، بل نسب الذهبي الازدراء والتكبر إلى خصومه، ولكن حقد هذا الكاتب اللئيم أعمى بصيرته، وطمس على فهمه، فلم يفهم إلا ما اتفق هواه على غير مراد الذهبي.

أيها الأخ القارىء أنقل لك كلام الذهبي مرة أخرى لتتأكد من صحة ما قلت، بدون تعليق. قال الإمام الذهبي في شيخ الإسلام بعد ما ذكر تطاول الناس عليه بدون حق:

---

(١) وسيأتي أيضاً شيء من ذلك إن شاء الله.

«فوالله ما رمقتْ عيني أوسع علماً، ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له «ابن تيمية»، مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن. وقد تعبتُ في وزنه وفتشه حتى مللت في سنين متطاولة، فما وجدت قد أخّره بين أهل مصر والشام، ومقتته نفوسهم، وازدروا به، وكذّبوه وكفّروه إلا الكبر والعجب، وفرط الغرام في رئاسة المشيخة، والازدراء بالكبار.

فانظر كيف وبال الدعاوى ومحبة الظهور، نسأل الله تعالى المسامحة. فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه، ولا أعلم منه، ولا أزهد منه، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم، وآثام أصدقائهم، ولم يسلّطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم، بل بذنوبه، وما دفعه الله عنه وعن أصحابه أكثر. وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون. فلا تكن في ريب من ذلك»[1].

ثناء الإمام الذهبي هذا البالغ على شيخ الإسلام ــ بأن خصومه أخّروه، ومقتوه، وازدروا به، وكفروه، لأجل كبرهم وعجبهم، فرط غرامهم لرياسة المشيخة وازدرائهم بالكبار ــ حوله هذا الكاتب المموه الكاذب إلى ذمّه وتأنيبه.

ومن كان هذا القدر مبلغ علمه ... فليستتر بالصمت والكتمان

(١) «زغل العلم والطلب» (ص ٣٨) وقال الذهبي في شيخ الإسلام أيضاً: «حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه. وبدّعوه وناظروه وكاتبوه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أدّاه إليه اجتهاده...» (الشهادة الزكية ص ٤١) هذه العبارة أيضاً تساعد على توضيح ما تقدم من عبارة الذهبي في «زغل العلم».

وتشبّث في الأخير بعبارة «وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون» ليزيد دليلاً آخر على نقص فهمه بعبارات العلماء.

واستعمل الإمام الذهبي مثل هذه العبارة[1] في ترجمة الإمام مالك ــ رحمه الله ــ وهي تساعد على بيان مراده. قال:

هذا ثمرة المحنة المحمودة، أنها ترفع العبد عند المؤمنين. وبكل حال فهي بما كسبت أيدينا. ويعفو الله عن كثير. و«من يرد الله به خيراً يصيب منه»[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة محمد: ٣١] فالمؤمن إذا امتحن وصبر، واتّعظ واستغفر، ولم يتشاغل بذمّ من انتقم منه فالله حكم مُقْسِطٌ. ثم يحمد الله على سلامة دينه، ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخير له»[3].

بعد توضيح الذهبي هذا، لا يفهم أحد من كلامه السابق: «وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون» ما فهمه هذا الكاتب الجاهل بأسلوب العلماء في مثل هذه المناسبات التي تستوجب الصبر والشكر والامتنان والرضا بما قدّر الله تعالى ــ ثم أصرّ عليه واستكبر جهلاً وعناداً.

أهذا هو التحقيق، والتجرّد، والموضوعية، والأمانة، والعلم؟ وإذا كان الأمر كذلك:

فدع عنك الكتابة لستَ منها ... ولو لطّختَ وجهَك بالمداد

* * *

(١) كما تقدم ضمن الرد على «التوفيق» (ص ٣٦ ــ ٣٧)، وسيأتي شيء منه باختصار.

(٢) رواه البخاري (١٠/ ١٠٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٨١).

هذه هي خطوط عريضة لنقد مقدّمتي «الرسائل السبكية» و«التوفيق الرباني» اللتين حشاهما صاحبهما المشبوه بفضائحه ومخازيه.

وهذه هي بعض نقائص المدعو «كمال أبو المنى» التي حاول بها تحقيق مناه بكل لؤم وخبث، وأنّى له ذلك؟

مني إن تكن صدقاً فأحسن المنى وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رغداً

* * *

لقد كشفت دعوة شيخ الإسلام فضائح الفرق الضالة ومخازيها في عصرها، ولا تزال تقضّ عليها مضاجعها إلى عصرنا هذا.

وكما أن شيخ الإسلام أوذي من قبل أهل البدع والأهواء كثيراً في حياته، كذلك بعد مماته حتى الآن لا يرقب فيه أعداؤه إلاًّ ولا ذمّة، ولا يألون جهداً في الغض منه، والحطّ من قدره، والنيل من كرامته، وتشويه أفكاره، وتقليل أهميته في أعين السذّج الرعاع من الناس.

ولقد رأينا بعض النماذج من مخازي أعدائه قديماً وحديثاً، ما يوجب على كل رجل يدعي نصرة الالتزام بالكتاب والسنّة، أن يكشفها بدون أن يخاف في الله لومة لائم.

راجياً المولى العلي القدير الأجر والثوابَ، ثم دفاعاً عن دعوة السلف الصالح وأنصارها ـ وشيخ الإسلام أحد جنودها ـ كتبت هذه السطور.

أحبّ الصالحين ولستُ منهم لعلّ الله يرزقني صلاحاً

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

• • •

شبه القارة الهندية



شبه القارة الهندية

أثمرت دعوة الشاه ولي الله الدهلوي (ـ ١١٧٤هـ) إلى العمل بالكتاب والسنّة، وتبناها بعده أولاده وتلاميذه. وكان التعَاون قائماً بين العاملين بالحديث والحنفية على أحسن ما يرام.

وإذا أردنا أن نضع حداً فاصلاً لتمييز الصف بين أهل الحديث، والحنفية في الهند، نرجع إلى سنة ١٢٤٦هـ، التي وقعت فيها معركة «بالاكوت» مع السيخ، وانتهت باستشهاد المجاهدين الإمامين: السيد أحمد بن عرفان البريلوي، والشاه إسماعيل الدهلوي فيها.

ثم انتقلت قيادة هذه الحركة الجهادية الإصلاحية، بعدهما إلى الشيخين «ولايت علي» و«عنايت علي» من أسرة «صادقفور» السلفية، لكفاءتهما لتولي هذا المنصب الحساس بكل همة وجدارة[١].

---

(١) راجع مبحث «حركة أهل الحديث في شبه القارة الهندية» في الباب الثاني من هذا الكتاب، وكذلك كتابنا «أهل الحديث بين المعارضة والتأييد» (أواخر الفصل الثالث).

الديوبندية سلف «جماعة التبليغ»:

من هنا ظهر تحول ملموس في موقف الحنفية من حركة الجهاد، وضعفت علاقاتهم بأهل الحديث، وبدأ التعصب المذهبي يزداد.

ولكنهم ـ مع هذا وذاك ـ كانوا يحترمون أئمة الحديث، ومؤلفي دواوين السنّة، ويشيدون بجهودهم الجبارة في خدمة الإسلام ـ إلى أن أنشأ الشيخ محمد قاسم النانوتوي (ـ ١٢٩٧هـ) «دار العلوم» ببلدة «ديوبند» سنة ١٢٨٣هـ= ١٨٦٧م وفي السنة نفسها أسس الشيخ أحمد علي السهارنفوري (ـ ١٢٩٧هـ) مدرسة «مظاهر علوم» ببلدة «سهارنفور».

واختاروا منهج التدريس في هاتين المدرستين على طريقة أهل الرأي لتأييد المذهب الحنفي[1]، وبالتالي فُتِحَ باب التأويل في الحديث على مصراعيه لترجيح المذهب على غيره من المذاهب، ما جعل الجمود الفقهي يرجع إلى سيرته الأولى، وبدأ التعصب المذهبـي يبيض ويفرّخ. وقلّت هيبة أحاديث النبيّ ﷺ في أعين المشايخ فكيف بتلاميذهم، حتى رفضوا العمل بكثير من أحاديث الصحيحين، لأنها تخالف المذهب الحنفي، فجعلوا المذهب عياراً على الأحاديث والسنن في كثير من المسائل.

ومع هذا، كان الأمر إذ ذاك أهون مما هو عليه الآن، إلى أن تأثرت حنفية القارة الهندية بتحاملات الشيخ محمد زاهد الكوثري (ـ ١٣٧١هـ) على المحدثين، وبمعاداته المكشوفة ضد السنّة وأهلها، فغلوا في إساءة القول مع أهل الحديث والأثر، ونصبوهم أعداء لمذهبهم، واعتبروهم مغرضين ومتبعي الهوى في روايتهم للأحاديث التي تخالف الحنفية. فنسأل

---

(١) راجع «جهود مخلصة في خدمة السنّة المطهّرة» للفريوائي (١٣٠).

الله السلامة والإيمان[1].

لقد ظهرت ملامح هذه الانطباعات المتعصبة في كتابات عديد من تلاميذ الكوثري وشيعته في شبه القارة الهندية، وعلى رأسهم: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، والشيخ أحمد رضا البجنوري، والشيخ محمد يوسف البنوري، والشيخ بدر عالم الميرتهي، والشيخ ظفر أحمد التهانوي، وغيرهم من غلاة الحنفية في العصر الحاضر.

مسلك «دار العلوم» بديوبند:

«إن دار العلوم مسلم ديناً، وأهل السنّة والجماعة فرقة، حنفي مذهباً، صوفي مشرباً، أشعري عقيدة، جشتي سلوكاً، بل جامع السلاسل، ولي الله فكرة، قاسمي أصولاً، رشيدي فروعاً»[2].

---

(١) قال العلامة محمد إسماعيل السلفي (ـ ١٣٨٧هـ): «والحقيقة أننا لا نشكو اليوم من «البريلوية» كما نشكو من أهل «ديوبند» والمؤلفات التي تنشرها طائفة من الشبان الديوبنديين في باكستان، والتي تنشر من ديوبند نفسها لا تزيد أكابر ديوبند كرامة، ولا تزن بشيء في ميزان العلم والأمانة، فإنها تنطوي على بغض أهل الحديث.
ومن المعلوم أن الخلاف بين أئمة الحديث وبين فقهاء المذاهب هو خلاف في الفهم، وتقديمه للناس في المجالس الشعبية في صورة التنافر والمعاداة فيما بينهم ليس من المنطق في شيء، ولا أنه يأتي بنتيجة محمودة» (حركة الانطلاق الفكري ص ١٩٧).

(٢) «جماعة التبليغ» للأستاذ محمد أسلم (ص ٦) نقلاً عن كتاب «العشرون من كبار المسلمين» ص ٣٣. وقال الشيخ خليل حمد السهارنفوري في كتابه «المهنّد على المفنّد» (ص ٢٩ ـ ٣٠) «ليعلم أولاً قبل أن نشرع في الجواب أنا بحمد الله ومشايخنا ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وجميع طائفتنا وجماعتنا مقلّدون لقدوة =

«إن الغرض الأساسي لدار العلوم ديوبند هو تأييد الحنفية».

* قال الشيخ أنظر شاه بن أنور شاه الكشميري:

«إن هذه المادة المهمة [أي تأييد الحنفية] قد بقيت غير منصوصة وغير مؤكدة من دروس الشاه ولي الله الدهلوي بالقدر المطلوب، فإن الشاه الدهلوي مع اتفاقه بالمدرسة الحنفية لم تنتفع الحنفية من غزارة علمه حسبما كان يتوقع منه، لأنه كان يدّعي الاجتهاد[1]».

ولكن سدّت «دار العلوم» هذه الثغرة بأحسن طريق، فقام حضرات: (قاسم) النانوتوي، و(رشيد أحمد) الكنكوهي، وشيخ الهند (محمود الحسن) بدور منقطع النظير لتأييد الحنفية بدروسهم ومؤلفاتهم.

ولكن لا يتأمل في إظهار هذه الحقيقة أن الإمام (محمد أنور) الكشميري قد صرف عبقريته الخاصة لهذا الغرض النبيل، فهو يقول بنفسه:

= الأنام وذروة الإسلام، الإمام الهمام الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ــ رضي الله تعالى عنه ــ في الفروع، ومتبعون للإمام الهمام أبي الحسن الأشعري، والإمام الهمام أبي منصور الماتريدي ــ رضي الله عنهما ــ في الاعتقاد والأصول، ومنتسبون من طرق الصوفية إلى الطريقة العلية المنسوبة إلى السادة النقشبندية، والطريقة الزكية المنسوبة إلى السادة الجشتية، وإلى الطريقة البهية المنسوبة إلى السادة القادرية، وإلى الطريقة المرضية المنسوبة إلى السادة السهروردية ــ رضي الله عنهم أجمعين ــ».

(ملاحظة): كتاب «المهنّد على المفنّد» ألّف لبيان عقيدة علماء الديوبندية، رداً على كتاب «حسام الحرمين» لأحمد رضا البريلوي رأس الطائفة البريلوية. والأسف أنه في كثير من الأمور العقدية لا يوجد كبير فرق بين الديوبندية والبريلوية. وكما هو ظاهر من «المهنّد على المفنّد».

(١) منقبته هذه عدوها تقصيراً، لأجل التعصب الأعمى. راجع مبحث «استياء الحنفية من موقف الدهلوي من المحدثين» في الباب الثاني من هذا الكتاب.

«إني أحكمت الحنفية إحكاماً لن يتضعضع بنيانه إلى مائة سنة إن شاء الله».

وقال أيضاً:

«إن الله خلقني في هذا العصر لإحكام الحنفية وإرساء قواعدها»[(١)].

* وقال الشيخ محمد زكريا (ـ ١٤٠٢هـ) صاحب «تبليغي نصاب» [المقرر التبليغي] والمشرف الأعلى لجماعة التبليغ سابقاً، وكان من كبار علماء ديوبند:

«وبالجملة، فنحن من حيث الجماعة نرى التقليد شيئاً لازماً في هذا العصر... وكذلك نرى أن التصوف الشرعي الصحيح أقرب طريق إلى الصلة بالله...

إذن، فأي شخص أو جماعة يخالفنا في هذين الأمرين، فإنه معتزل عن جماعتنا. وإن هذين الأمرين من الأهمية بمكان عند مسلك علماء ديوبند...»[(٢)].

هذا هو مسلك علماء ديوبند. وهل يمكن في هذا المحيط المتعصب للتقليد، والتصوف أن تروج كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قضى حياته في الذود عن منهل الإسلام الصافي، والدفاع عن العقيدة الإسلامية الخالصة، والردّ على جميع مظاهر الشرك والوثنية، والعادات والتقاليد، والخرافات والأباطيل التي ملئت بها كتب بعض هؤلاء القوم.

---

(١) «جهود مخلصة» (١٢٨) نقلاً عن مجلة «الرشيد» (عدد خاص بدار العلوم ص ٢١٤ ـ ٢١٥).

(٢) «الأستاذ المودودي ونتائج بحوثه وأفكاره» للشيخ محمد زكريا (ص ٩٣).

ومن يحب شيخ الإسلام في هذا المحيط الآن؟ وقد حُبِسَ في عصره مرة تلو الأخرى بمؤامرات أهل البدع والأهواء، حتى توفي في السجن ـ رحمه الله تعالى ـ! .

شيخ الإسلام في نظر الديوبندية وكبار جماعة التبليغ:

لقد ألّف متأخرو الديوبندية كتباً متحاملة على أئمة الحديث، ولم ينج من أقلامهم وألسنتهم حتى أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري (ـ٢٥٦هـ)[١]، فكيف بشيخ الإسلام ابن تيمية الذي يخالفهم في عقيدتهم الأشعرية، ومذهبم الحنفي، وطريقتهم الصوفية. ويدعو إلى العمل بالكتاب والسنّة واتباع الدليل، ويردّ على التقليد الجامد، ويدعو إلى الاجتهاد في المسائل.

نكتفي هنا ببعض الأمثلة من وقيعة كبار علماء ديوبند، وشيوخ جماعة التبليغ في شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

* قال الشيخ محمد أنور شاه الكشميري (ـ ١٣٨٧هـ) صاحب «فيض الباري» في مسألة «زيادة الإيمان ونقصانه»:

«أما الحافظ ابن تيمية، فإنه وإن نسب الزيادة والنقصان إلى إمامنا ـ رحمه الله ـ ولكن في طبعه سورة وحدة. فإذا عطفَ إلى جانبٍ عطفَ ولا يبالي، وإذا تصدّى على أحدٍ تصدّى ولا يحاشي. ولا يؤمن مثله من الإفراط والتفريط. فالتردد لنقله هذا، وإن كان حافظاً متبحّراً»[٢].

---

(١) راجع مثلاً «مقدمة أنوار الباري على شرح البخاري» لأحمد رضا البجنوري (بالأردية)، تجد فيها تحاملات صريحة وتعصبات باردة على المحدثين. وقد رد عليها الأستاذ محمد رئيس الندوي أستاذ الجامعة السلفية بالهند في كتابه «اللمحات إلى ما في أنوار الباري من الظلمات» فأجاد وأفاد.

(٢) فيض الباري (١/ ٥٩).

علّق العلامة محمد إسماعيل السلفي على قول الكشميري هذا، فقال:

«فلينظر العاقل العارف بأحوال الرجال، هل لرأيه هذا قيمة علمية. لعل الشيخ... لم يعلم أن نقده هذا على ابن تيمية، قد أسقط رتبته العلمية في أعين أهل المعرفة... يطعن على ابن تيمية بالسورة. والحق أنه السائر والثائر عليه... إن لم تؤمن بنقله فالعالم كله يؤمن بنقله...

وهل هذا، إلا سورة منك ــ رحمك الله ــ نشأت بين العصبية المنتنة والبغض الشديد بأهل التوحيد والسنّة، المتمسكين بالسلفية. كأنك ــ رحمك الله ــ كوثري أوانك وتركماني زمانك، لا تخاف في مؤمن إلاًّ ولا ذمة.

أيش تقول: «إن محمد بن عبد الوهاب بليد، قليل العلم»[1] و«تقوية الإيمان»[2] لشدته لم تفد شيئاً، و«ابن تيمية» لسورته لا يعتمد عليه.

---

(١) وقع الكشميري في الإمام ابن عبد الوهاب فقال:
«أما محمد بن عبد الوهاب النجدي، فإنه كان رجلاً بليداً، قليل العلم، فكان يتسارع إلى الحكم بالكفر، ولا ينبغي أن يقتحم في هذا الوادي، إلا من يكون متيّقظاً متقناً عارفاً بوجوه الكفر وأسبابه» (فيض الباري ١/ ١٧١).
مع هذا، يصفه الدكتور عبد الفتاح أبو غدة بـ«شيخ شيخنا الإمام الكشميري» ويصف كتابه بأنه «الكتاب العظيم» (قواعد في علوم الحديث للتهانوي ص ٢٣٥، ٣١٢ تعليقاً).

(٢) «تقوية الإيمان» للشاه إسماعيل الدهلوي بالأردية، كتاب مهم في العقيدة، مثل كتاب «التوحيد» للإمام ابن عبد الوهاب في العربية. وقد أدى هذا الكتاب في شبه القارة الهندية دوراً فعّالاً في فهم العقيدة الصحيحة، وإزالة الأوهام والخرافات السائدة في أوساط المسلمين على السواء. قال الكشميري في كتاب الدهلوي هذا:
«وكتابه «تقوية الإيمان» فيه شدة، فقلّ نفعه، حتى أن بعض الجهلة رموه بالكفر من أجل هذا الكتاب» (فيض الباري ١/ ١٧٠).

أهذا علمك وذكاؤك ــ رحمك الله ــ ألا ترى أن التوحيد الخالص القرآني قد عمّ أقطار البلاد بمساعي هؤلاء الأئمة ــ رحمهم الله ــ. صدق المجرّبون: «إن الخفّاش لا يفيده ضوء الشمس وإن كان نصف النهار»[1].

وقال الشاعر:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

* ذكر الشيخ محمد حسن السنبهلي (ــ ١٣٠٥هـ) في حاشيته «نظم الفرائد على شرح العقائد للنسفي» عقيدة التفويض نقلاً عن الإمام الشوكاني فقال بهتاناً:

«خلفاء هذه الملة أربعة: ابن تيمية، وابن القيم، والشوكاني. فيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم.

وإذا انضمّ إليهم ابن حزم، وداود الظاهري بأن صاروا ستة. ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب.

وخاتم المكلّبين مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، وإن تتركه يلهث، يشنع على أهل الحق في التنزيه»[2].

ألا يعلم أمثال هؤلاء الحاقدين أن مثل هذا الكلام يدلّ على انحطاط تربيتهم. «وهل يضرّ السحاب نباح الكلاب».

---

(١) مقدمة على «شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي» بقلم العلامة محمد إسماعيل السلفي (ص ١٥).

(٢) «حركة الانطلاق الفكري» للسلفي (١٩٥ ــ ١٩٦).

ويلاحظ أن السنبهلي كان حنفياً محترقاً[1]، شديد التعصب على أهل الحديث والسنّة، وكان يتأجج حنقاً ـ مثل شيخه عبد الحي اللكنوي (ـ ١٣٠٤هـ) ـ على النواب صديق حسن خان البوفالي، لأنه كان ينتصر لمذهب المحدثين في كتاباته.

قال العلامة السلفي معلّقاً على هراء السنبهلي:

«وإني لا أجد قدرة لترجمة هذه الشتائم التي وجهت إلى ابن تيمية، وابن القيم، والشوكاني، وابن حزم، وداود الظاهري، والنواب صديق حسن خان...

وإني أؤكد بناءً على تجاربي أن أعراض أهل العلم، ومكانتهم لن تصان ما وجد التقليد الشخصي بين الناس... وليس ذلك إلا أن التقليد يؤدي إلى الإفراط والغلوّ في الحب. ولا يخفى تأثير ذلك على الغير»[2].

---

(١) لعل هذا هو السبب الوجيه الذي لأجله عرّفه عبد الفتاح أبو غدّة بما يأتي:
«... وهو العلامة المحقق الشيخ السنبهلي... عصري الشيخ عبد الحي اللكنوي، وصديقه ومشابهه في كثرة التآليف العديدة، وتنوّعها، مع قصر العمر أيضاً فقد ولد ١٢٦٤هـ، وتوفي سنة ١٣٠٥هـ وله نحو مئة مؤلّف أو يزيد. وصاحب بحث وجولات منصورة في كتبه رحمه الله تعالى... وكتابه «تنسيق النظام في مسند الإمام» كتاب عظيم جداً للغاية، ومقدمته حشيت أغلى الدرر والنفائس فعليك به...» (قواعد في علوم الحديث ص ١٠٩ تعليقاً).

(٢) حركة الانطلاق الفكري (ص ١٩٦).

جزى الله تعالى العلامة محمد إسماعيل السلفي ـ رحمه الله تعالى ـ على أنه وقف حياته للدفاع عن علماء السنّة والحديث. وكشف في كتاباته عن نوايا كثير من الحاقدين. لو كان حيّاً لقلت له:

لو كلّ كلبٍ عوى ألقمتَه حجراً ... لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

* قال الشيخ ظفر أحمد التهانوي[1] (ـ ١٣٩٤هـ):

«قلت[2]: مما ردّه ابن تيمية من الأحاديث الجياد في كتابه «منهاج

---

(١) هو تلميذ (الشيخ أشرف علي التهانوي (ـ ١٣٦٢هـ) الذي أنشئت جماعة التبليغ لنشر أفكاره) وصاحب «قواعد في علوم الحديث» الذي حققه تلميذه عبد الفتاح أبو غدّة، وقدّم له الكوثري. هذا يكفي لمعرفة ما هنالك من الدخائل.

(٢) ذكر التهانوي في «قواعد في علوم الحديث» (ص ٤٤٠ ـ ٤٤١) مبحثاً تحت عنوان «يرجع في كل علم إلى أهله ورجاله» نقل فيه كلاماً عن ابن تيمية في «منهاج السنّة» (٤/ ١٠ ـ ١١)، مفاده: «يرجع في كل علم إلى رجال يعرفون به».
من هنا، مهّد التهانوي للكلام على ابن تيمية. واستغلّ قول الحافظ ابن حجر فيه أيضاً بهذه المناسبة. قال التهانوي:
«لا شك في صحة هذا الكلام: أن لكل علم رجالاً يعرفون به، وأن المرجع في معرفة الحديث إلى المحدثين، ولكن منهم من هو متعنّت، أو متشدد، أو متعصب. ومنهم من هو منصف معتدل في الجرح والتعديل، فهذا ابن تيمية نفسه متشدّد في الجرح، فقد قال الحافظ في «لسان الميزان» (٦/ ٣١٩):
«وجدته كثير التحامل إلى الغاية في ردّ الأحاديث التي يوردها ابن المطهر (الحلي الرافضي مصنف كتاب في فضائل علي رضي الله عنه)، وإن كان معظم ذلك من الموضوعات والواهيات. ولكنه ردّ في ردّه كثيراً من الأحاديث الجياد، التي لم يستحضر مظانها حالة التصنيف، لأنه كان لاتساعه في الحفظ يتكل على ما في صدره، والإنسان عائد للنسيان، وكم من مبالغة لتوهين كلام الرافضي أدّته أحياناً إلى تنقيص عليّ رضي الله عنه [وقد تقدم توضيح كلام ابن حجر وابن تيمية بالأمثلة قريباً]. (ثم قال التهانوي: قلت: ومما رده ابن تيمية. .).
قال الدكتور عبد الرحمن الفريوائي: «مفاد كلام الحافظ ابن حجر أن هذا التحامل حصل في أحاديث المنهاج التي معظمها بتصريح منه من قبيل الموضوعات والواهيات. وقد ثبت بعد التحقيق أن رأي شيخ الإسلام، هو السديد في الغالب، =

السنّة»[1] حديث «ردّ الشمس لعليّ ــ رضي الله عنه ــ».

= وأقرّه الحافظ الذهبي في المنتقى. وأما ما يتعقبه المتساهلون، أو من عنده نوع من الميل إلى نصرة مذاهب الناس فلا يلتفت إليهم.

ثم إذا كان العمدة على ما قاله الحافظ فكلامه خاص بالمنهاج فلا يصح أن يعمم.

ثم إذا كان هذا ناتجاً عن اعتماد شيخ الإسلام على الحفظ والذاكرة... فكيف يحمل قوله هذا على التشدد» راجع مقال «السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية» المنشور في «صوت الأمة» (ص ٢٨ ج١ ع٣) فإنه مهم جداً في هذا الموضوع.

(١) راجع «المنهاج» (٤/ ١٨٥ ــ ١٩٥)، تجد هنالك نفائس ودرراً لا تجدها في غير ذلك الموضع في هذا الموضوع. قال شيخ الإسلام: «... فضل علي، وولايته لله وعلو منزلته عند الله معلوم ــ ولله الحمد ــ من طرق ثابتة، أفادتنا العلم اليقيني لا يحتاج معها إلى كذب، ولا إلى ما لا يعلم صدقه.

وحديث «ردّ الشمس له» قد ذكره طائفة، كالطحاوي والقاضي عياض وغيرهما، وعدوا ذلك من معجزات النبيّ ﷺ، ولكن المحققين من أهل العلم والمعرفة بالحديث يعلمون أن هذا الحديث كذب موضوع كما ذكره ابن الجوزي في كتاب الموضوعات [١/ ٣٥٥ ــ ٣٥٧]... وقال: هذا حديث موضوع بلا شك وقد اضطرب الرواة فيه. وقال في رواية ابن شاهين: وهذا حديث باطل».

وذكر شيخ الإسلام أن أبا القاسم عبد الله بن عبد الله الحكاني صنّف في هذا الحديث مصنّفاً سمّاه «مسألة في تصحيح ردّ الشمس». ثم ناقش شيخ الإسلام طرق هذا الحديث في ضوء أقوال أئمة الفن في رواتها، وبيّن اضطرابه في السند والمتن وقال:

«قلت: فهذا اللفظ الخامس يناقض تلك الألفاظ المتناقضة، ويزيد الناظر بياناً في أنها مكذوبة مختلقة، فإنه ذكر فيها أنها ردّت إلى موضعها وقت العصر، وفي الذي قبله إلى نصف النهار، وفي الأخرى حتى ظهرت على رؤوس الجبال، وفي هذه أنه كان مسنده إلى صدره، وفي ذلك أنه كان رأسه في حجره».

وقال أيضاً: «وقد صنّف جماعة من علماء الحديث في فضائل عليّ، كما صنّف =

. . . .

= الإمام أحمد فضائله، وصنّف أبو نعيم في فضائله، وذكر فيها أحاديث كثيرة ضعيفة، ولم يذكر هذا، لأن الكذب ظاهر عليه بخلاف غيره. وكذلك لم يذكره الترمذي مع أنه جمع في فضائل عليّ أحاديث، كثير منها ضعيف. وكذلك النسائي، وأبو عمر ابن عبد البر، وجمع النسائي مصنّفاً في خصائص علي».

وقال أيضاً: «وهذا الحديث ليس في شيء من كتب الحديث المعتمدة، بل اتفقوا على تركه. فكيف يكون مثل هذه الواقعة العظيمة التي هي لو كانت حقاً، من أعظم المعجزات المشهورة الظاهرة، ولم يروها أهل الصحاح والمسانيد. . .»

وقد بيّن وضع هذا الحديث شرعاً وعقلاً أيضاً، مع بيان وضعه سنداً، فقال:

«فإن قيل: فهذه الأمة أفضل من بني إسرائيل، فإذا كانت قد ردّت ليوشع فما المانع أن تردّ لفضلاء هذه الأمة ــ فيقال: يوشع لم ترد له الشمس، ولكن تأخّر غروبها، وطوّل له النهار، وهذا قد لا يظهر للناس. ونحن إنما علمنا وقوفها ليوشع بخبر النبيّ ﷺ. وأيضاً لا مانع من طول ذلك، لو شاء الله لفعل ذلك، لكن يوشع كان محتاجاً إلى ذلك، لأن القتال كان محرّماً عليه بعد غروب الشمس.

وأما أمة محمد فلا حاجة لهم إلى ذلك، فإن الذي فاتته العصر إن كان مفرّطاً لم يسقط ذنبه إلا بالتوبة، ومع التوبة لا يحتاج إلى ردّ. وإن لم يكن مفرّطاً كالنائم والناسي، فلا ملام عليه في الصلاة بعد الغروب.

وأيضاً فبنفس غروب الشمس خرج الوقت المضروب للصلاة، فالمصلي بعد ذلك لا يكون مصلياً في الوقت الشرعي ولو عادت الشمس. . وأيضاً فالنبيّ ﷺ فاتته العصر يوم الخندق فصلاّها قضاء هو وكثير من أصحابه. ولم يسأل الله ردّ الشمس. فإن كانت الصلاة بعد الغروب لا تجزي، كان رسول الله ﷺ أولى بردّ الشمس. وإن كانت كاملة مجزئة فلا حاجة إلى ردّها.

وأيضاً فمثل هذه القضية من الأمور العظام الخارجة عن العادة التي تتوفر الهمم والدواعي على نقلها، فإذا لم ينقلها إلا واحد والاثنان علم بيان كذبهم في ذلك. . .

والحديث ليس له إسناد مشهور، فإن هذا يوجب العلم اليقيني بأنه كذب لم يقع». =

ولما رأى الطحاوي قد حسّنه وأثبته، جعل يجرح الطحاوي بلسان ذَلْقٍ وكلام طَلْقٍ.

وأيم الله إن درجة الطحاوي في علم الحديث فوق آلاف من مثل ابن تيمية، وأين لابن تيمية أن يكون كتراب نعليه!.

فمثل هؤلاء المتشددين لا يحتجُّ بقولهم إلا بعد التثبت والتأمل. والله تعالى أعلم. (التهانوي)(١).

= فحول علماء الحديث الذين يعتمد على قولهم ردوا هذا الحديث. قال الإمام أحمد: «لا أصل له» وتبعه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٥٥)، وابن القيم في «المنار المنيف» (٥٧ ــ ٥٨)، والذهبي كما في «تنزيه الشريعة» لابن عراق (١/ ٣٧٩)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٣٢٣) وغيرهم من جهابذة فن الحديث في كتبهم.

والذين صححوه، صححوا تبعاً للآخرين الذين لم يجمعوا طرقه وألفاظه التي تدل من وجوه كثيرة على كذبه، كالإمام الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٨ ــ ١١) وغيره من كبار العلماء.

(١) إن عداء التهانوي لأئمة الحديث وانتقاصه لهم لا يحتاج إلى دليل. ولكن إن تعجب فعجب وقوعه في شيخ الإسلام بهذه الكلمات السافلة، لا حباً في علي، بل حباً في الإمام الطحاوي ــ رحمه الله ــ لأجل حنفيته. وإليك ملخص ما قاله شيخ الإسلام في الطحاوي: «قال المصنف [أي أبو القاسم الحكاني] وقد حكى أبو جعفر الطحاوي عن علي بن عبد الرحمن عن أحمد بن صالح المصري: «أنه كان يقول: ينبغي لمن كان سبيله العلم عن حفظ حديث أسماء في رد الشمس، لأنه من علامات النبوّة.

قلت: أحمد بن صالح رواه من الطريق الأول، ولم يجمع طرقه وألفاظه التي تدل من وجوه كثيرة على أنه كذب، وتلك الطريق راويها مجهول عنده، وليس معلوم =

قال عبد الفتاح: قولة شيخنا المؤلف في حق الإمام ابن تيمية بالنسبة للإمام الطحاوي رحمهما الله تعالى: «وأين لابن تيمية أن يكون كتراب نعليه؟».

هي من كلمات علماء الهند ولهجتهم، كما سمعتها منهم مراراً، يقولونها في بيان التفاوت بين شخصين فاضل وأفضل. ولا يقصدون بها الإزراء بالمفضل عليه ولا الانتقاص له، كما يتبادر لفهمنا نحن معشر العرب في الشام ومصر وغيرهما.

= الكذب عنده، فلم يظهر له كذبه.

والطحاوي ليست عادته نقد الحديث كنقد أهل العلم. ولهذا روى في «شرح معاني الآثار» الأحاديث المختلفة. وإنما يرجح ما يرجحه منها في الغالب من جهة القياس الذي رآه حجة، ويكون أكثرها مجروحاً من جهة الإسناد، لا يثبت، ولا يتعرض لذلك، فإنه لم تكن معرفته بالإسناد كمعرفة أهل العلم به، وإن كان كثير الحديث فقيهاً عالماً».

ذكر شيخ الإسلام أيضاً أن الحكاني قال: روى أبو العباس بن عقدة [وكان رافضياً يحدّث بمثالب الصحابة] بإسناده إلى بشار بن دراع قال: لقي أبو حنيفة محمدَ بن النعمان فقال: عمن رويت حديث ردّ الشمس، فقال عن غير الذي رويت عنه حديث «يا سارية الجبل» ــ ثم قال شيخ الإسلام : هذا أبو حنيفة أحد الأئمة المشاهير، وهو لا يتهم على عليّ، مع هذا أنكر هذا الحديث على محمد بن النعمان. وأبو حنيفة أعلم وأفقه من الطحاوي وأمثاله، ولم يجبه ابن النعمان بجواب صحيح...» (المنهاج ٤/ ١٩٤). هذا هو قول شيخ الإسلام في الطحاوي الذي لأجله وقع فيه التهانوي. وإذا كان المقصود الدفاع عن هذا الحديث، كان وقوعه في إمامه أولى، لأنه أنكره على ابن النعمان. «ولكن عين السخط تبدي المساويا».

الآن قولوا لي بالله! من الذي تكلّم بلسان ذلِقٍ وكلام طلْق، شيخ الإسلام ابن تيمية أم التهانوي؟!.

وسيأتي في المقطع ـ ١٢ ـ ص ٤٦١ من هذا الفصل [أي في «قواعد في علوم الحديث»]: قول شيخنا المؤلف حفظه الله تعالى، عن نفسه في جانب بيان فضل ابن القيم تلميذ الشيخ ابن تيمية: «فوالله لأن نصير تراب نعليه أرفع لمرتبتنا» انتهى.

وانظر عبارة شيخنا هناك، فإنها أتم وضوحاً في الوجه الذي قلته، ومع معرفتي بعبارة علماء الهند، وقصدهم من هذا التعبير كتبتُ إلى شيخنا المؤلف سلّمه الله تعالى، من (المعتقل) بوساطة بعض أصحابي الذين زاروني فيه، بشأن كلمته هذه في الشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فكتب إليّ رعاه الله بخط يده ما يلي:

«وقد كنت أمرتُ بعض أصحابي أن يضربوا على هذه العبارة في حق الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ، ولكنه نسي وأنساني الشيطان أن أذكره، فاضربوا أنتم على هذه العبارة، واكتبوا في الهامش: إن المؤلف قد رجع عن تلك العبارة، وكانت من هفوات القلم. وهو يستغفر الله ويتوب إليه، من سوء الأدب في حق أئمة الإسلام، ومنهم: الإمام ابن تيمية الحرّاني شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ وأدخله وإيانا دار السلام»[1].

هكذا انتهت هذه اللعبة وما كان لي أن أذكرها، بعدما رجع عنها التهانوي. ولكن ذكرتها مفصلاً ليعرف القارىء النبيه مدى نشاط تلميذه عبد الفتاح لتزييف الحقائق، وتمويه الكذب هل في الدنيا عاقل ـ غير عبد الفتاح أبو غدّة ـ أن يقول إن قولة التهانوي: «وأيم الله إن درجة

---

(١) قواعد في علوم الحديث (٤٤١ ـ ٤٤٢).

الطحاوي في علم الحديث فوق آلاف من مثل ابن تيمية، وأين لابن تيمية أن يكون كتراب نعليه. . .» ليس فيها انتقاص لابن تيمية؟ ولو كان أبو غدة صادقاً جداً في استنكاره هذا على شيخه فلماذا أبقاه ونشره بعد أن أمره شيخه بحذفه فإما أن يكون غبياً في إبقائه، وإما مستهزءاً مستخفاً بعقول القراء يظنهم أغبياء.

التهانوي يعتبره من «هفوات القلم» ويستغفر من «سوء الأدب». ووكيله الجلد يقول: لا يقصد به الإزراء ولا الانتقاص صحيحاً قيل: «الشاهد نشيط والمدّعي كسلان».

نعم! تستعمل هذه الكلمات للتواضع والتفاضل أيضاً. ولكن استعمالها هنا بعد هذه التأكيدات، وفي هذا السياق ليس إلا للاحتقار والانتقاص لمن قيلت فيه. واعتذار التلميذ هنا أقبح من ذنب شيخه. وهذا واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

معروف أن الشيخ عبد الفتاح ينقل في تعليقاته كلام شيخه الكوثري الذي كان يقع في شيخ الإسلام ابن تيمية أشدّ وقيعة، وسلّم على إسلامه مراراً في عداوته. ولكنه لم يعلّق على مخازيه، ولم ينته من وصفه «بالإمام العلامة المحقق»[1]، وهنا أشفق على شيخ الإسلام وراجع شيخه التهانوي

---

(١) قال علامة الجزيرة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ حفظه الله ـ في رسالته إلى العلامة الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد: «. . . كما أوضحتم ـ أثابكم الله تعلّق تلميذه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة به [أي بالمجرم الآثم محمد زاهد الكوثري]، وولاءه له، وتبجّحه باستطالة شيخه المذكور في أعراض أهل العلم والتقى، ومشاركته له في الهمز واللمز، وقد سبق أن نصحناه بالتبرؤ منه، وإعلان عدم موافقته له، على ما صدر منه، وألحجنا عليه في ذلك، ولكنه أصرّ على موالاته له، هداه الله للرجوع إلى الحق، وكفى المسلمين شرّه وأمثاله» («براءة أهل السنّة» ص ٣).

في شـأن قـولته هـذه. فلماذا تفريقه هذا بين شيخيه: الهندي والجركسي؟!.

وفي غمرة هذه التهويلات ضيّع الشيخ عبد الفتاح قضية علمية مهمة، تأجج شيخه التهانوي لأجلها غضباً على شيخ الإسلام ابن تيمية، وهي الحكم على حديث «ردّ الشمس لعليّ ــ رضي الله عنه ــ». الذي هو موضوع سنداً وعقلاً وشرعاً وأيّد شيخه فيها بسكوته(١).

ملخص القول: إن الكلمات الخسيسة التي تستعمل في حق شيخ الإسلام من قبل الكتاب الحاقدين، والمؤلفين القاصرين الذين لا يساوون غرزة في نعله ــ تكون من هفوات أقلامهم، أو اعتقاد قلوبهم، لا تضيره شيئاً. بل تدلّ على كمال علمه وفضله، وقلّة دينهم ونقص تربيتهم.

وإذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في أمثال هؤلاء الشانئين:

«إن مجرد قول الخصم في خصمه لا يوجب القدح في واحد منهما، وكذلك كلام المتشاجرين في الآخر.

---

(١) نعم، ذكر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة من نفى هذا الحديث ومن أثبته في تعليقه على «المنار المنيف»، ثم قال:

«وهذا الخبر ــ على فرض صحته من حيث الصناعة الحديثية، يبقى حكمه حكم الآحاد الصحيحة في المطالب العلمية، فلا بد من تأويل الخبر في قولنا بصحته، على أن الذي يقف على كلام الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى يجزم بوضع الحديث، والله تعالى أعلم»(المنار ص ٥٨).

وهل لهذا القول قيمة علمية بعدما تقدم من الكلام على هذا الحديث سنداً، وعقلاً وشرعاً؟!.

ثم يقال بتقدير أن يكون الطاعن طعن على خصمه، فليس ذلك قدحاً في خصمه بأولى من جعله قدحاً في نفس الطاعن»[1].

هذه بعض النماذج لوقيعة كبار الديوبندية من الأحناف في شيخ الإسلام، التي تدل على ثقافتهم في التعصب للمذهب، وفي بطر الحق وغمط الناس لأجله. لو كان لهم من الأمر شيء لأحرقوا كتب ابن تيمية، وابن القيم، وابن عبد الوهاب وغيرهم من أئمة الدعوة، لأنهم يرونها مفسدة لعقول المسلمين وعقائدهم[2]. نعوذ بالله من الخذلان.

إن المحيط الذي يرى وجوب التقليد، ولزوم التصوف، ويرى بعض كباره حياة النبيّ ﷺ حياة دنيوية، وتحضير الأرواح، وحياة الخضر، والكشف، والمراقبة عند القبور، والاستلهام من أصحابها، وتأثيرهم على المجاورين لها وما شاكله من العقائد البدعية ـ هل يرجى منه غير ما حصل؟! ولكن:

إذا كان بيتك من زجاج ... فلا ترمِ الناس بالحجارة

ولله در القائل:

لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فكلّك عورات وللناس ألسنُ
وعينك إن أبدت إليك مساويا ... فصُنْها وقل يا عينُ للناسِ أعينُ

• • •

---

(١) منهاج السنّة (٣/ ١٩١).

(٢) راجع «القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ» للتويجري (٤٤، ٥٢، ٧٥، ١٠٦).

البريلوية

البريلوية

كانت عاطفة الجهاد ضد الاستعمار البريطاني في شبه القارة الهندية تنشأ حيناً لآخر، وكانت فلول المجاهدين من حركة السيد أحمد بن عرفان والشاه إسماعيل الدهلوي، تلحق بالإنجليز خسائر فادحة في عملياتها البطولية، وتقضّ عليهم مضاجعهم بين الفينة والأخرى.

تيقّن الاستعمار خطورة هذه العمليات الجريئة، التي كانت تنبعث من حب الجهاد في سبيل الله، فخاف من تصعيدها ضد المصالح الإنجليزية، وبحث عن عملاء لتفريق كلمة المسلمين، وتمزيق صفوفهم، فأفتوا بالسمع والطاعة للسادة الإنجليز وبإلغاء الجهاد ضدهم من جهة.

ومن جهة أخرى كفّروا أهل التوحيد الذين قاموا بنشر العقيدة الصحيحة، والقضاء على البدع والتقاليد، والخرافات والأوهام، وأطلقوا عليهم اسم «الوهابية» تنفيراً للسذج من المسلمين منهم، ليخلو لسدنة القبور هؤلاء، مجال لأكل أموالهم بالباطل بكل سهولة.

رأس الفرقة:

ومن أبرز هؤلاء العملاء لسادتهم الإنجليز المدعو: أحمد رضا

البريلوي (١٢٧٢ ــ ١٣٤٠هـ) حامل لواء التكفير والتفريق بين المسلمين في شبه القارة الهندية، ورأس الفرقة البريلوية.

* قال فيه العلامة عبد الحي الحسني:

«كان متشدداً في المسائل الفقهية الكلامية، متوسعاً ومسارعاً في التكفير، وقد حمل لواء التكفير والتفريق في الديار الهندية في العصر الأخير، وتولّى كبره، وأصبح زعيم هذه الطائفة [أي البريلوية]، تنتصر له، وتنتسب إليه»[1].

* وقال العلامة محمد إسماعيل السلفي:

«فقد ولد المولوي أحمد رضا خان عام ١٢٧٢هـ... وجلس بإذن والده على كرسي الإفتاء. وما لبث أن بدأ يؤيد البدع ويحمي الشرك، فوقف حياته للاستدلال على الشرك وتنظيم صفوف المبتدعين، وحاول أن يجد دليلاً لجميع ما يوجد في العامة من سوء العمل والابتداع الشنيع، وشجّع العامة على المعاصي، وحاول أن يجعل كل بدعة حلالاً.

ولو نظرنا إلى مؤلفات أحمد رضا خان لوجدنا أنها تهدف إلى الفساد في سبيل الله، ولا تجد منها مؤلفاً يهدف إلى تغيير حالة المسلمين من الناحية الدينية أو السياسية أو الاقتصادية. وإنه لم يساهم مدة عمره في حركة سياسية أو علمية. نعم كتاباته قد كفّرت ألوفاً من المسلمين، وكانت يد الإنجليز العطوف تؤيد وتنصر المولوي أحمد رضا خان في جميع هذه الجهود»[2].

---

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للحسني (٨/ ٣٩).

(٢) (حركة الانطلاق، ص ٣٨٢ ط. ثانية).

عقائد البريلوية:

انحرفت «البريلوية» ــ وهي شريكة «الديوبندية» و«جماعة التبليغ» في المذهب الفقهي ــ تماماً عن الصراط المستقيم في الأمور العقائدية. وقد كفّر «البريلوي» علماء «ديوبند» أيضاً، فضلاً عن «أهل الحديث» الذين ينبزهم بالوهابية. فهم ــ عنده ــ أكفر من اليهود والنصارى والهندوس. ومن يشكّ في كفرهم فهو كافر. وبلغ به الجنون إلى أنه كفّر نفسه بنفسه مراراً.

مهمة هذه الطائفة المبتدعة: هي تكفير كل من يخالفها في عقائدها الضالة عموماً، وأهل التوحيد والحديث خصوصاً. ثم البحث عن الدليل عن كل بدعة يمارسها العامة من الناس باسم الدين:

كاعتقاد حياة النبيّ ﷺ حياة دنيوية، وأنه لم يكن «بشراً»، بل كان نوراً، ولم يكن لشخصه ﷺ ظلّ، وأنه يعلم الغيب، و«حاضر وناظر» في كل مكان، ويحضر مجالس المواليد التي تقام في أنحاء العالم، وأن الله تعالى فوّض التصرف في الكون إلى أوليائه (معاذ الله)، وما إلى ذلك من الخرافات المأخوذة من اليهودية والنصرانية، والهندوسية والبوذية، وغيرها من الملل والنحل.

وأما التوسل بالأنبياء والصالحين، والاستغاثة بالأموات، والذبح لغير الله، وتجصيص القبور، وإضاءة السرج عليها، والتمسح بها، والسجود لها، وتقديم النذور إليها، فهي ــ عندهم ــ من الأساسيات الدينية المفروغ منها التي لا تحتاج إلى مراجعة. ومن عارضهم في هذه المهلكات فهو كافر مرتدّ لا يحب الأنبياء والأولياء.

يـا نـاعـي الإسـلام قـم وانعـه   قـد زال معـروف وبـدا منكـر

لماذا هذه الانحرافات؟

وقد أفصح أحمد رضا البريلوي في «بدر الأنوار في التبرك والآداب للآثار» عما لأجله روّج البدع والخرافات قائلاً:

«ويستحب للزائر أن يقدّم النذور إلى من يأتي بهذه الآثار الشريفة للنبيّ ﷺ، أو للولي المكرّم المعظم، فيثاب المهدي والآخذ لإعانة المسلمين حيث أعان المزوّر الزائرين بزيارة هذه الآثار. وأعان الزوار المزوّر بتقديم النذور إليه مصداق قول الرسول عليه السلام: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه».

وقال ﷺ: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» وخاصة حينما يكون أصحاب الآثار والتبركات من الأشراف الكرام، لأن خدمتهم سبب لحصول الأجر والبركات»[1].

ولو لبس الحمار لباس خزّ ... لقال الناس يا لك من حمار

كلام البريلوي هذا يكفي لفهم عقيدته التي يريد أن يربّي عليها طائفته. وبشاعة استدلاله بالكتاب والسنّة على ترويج الشرك والوثنية بين المسلمين ـ بدون حياء ـ تشير إلى ما يكنّه من النوايا الخبيثة لاستئصال قواعد الإسلام الصلبة، وهدم بنائه الشامخ، وتشويه عقائده الصافية من أكدار الشرك والوثنية.

---

(١) «البريلوية: عقائد وتاريخ» للشيخ إحسان إلهي ظهير ـ رحمه الله ـ (ص ١٤٢)، وقال: «انظر الاستدلال الركيك على جواز النذور. ولو جاز مثل هذه الاستدلالات لكثر البغي والفحشاء لحصول المنفعة للطرفين، وأعاذنا الله والمسلمين منها».

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الصف: ٨].

حقيقة انتساب البريلوية إلى الفقه الحنفي:

وضَّح العلامة محمد إسماعيل السلفي ــ رحمه الله تعالى ــ حقيقة انتساب البريلوية إلى الفقه الحنفي مع بيان عقيدتها الفاسدة، فقال:

«ومجلة «الرضوان» تمثّل الحنفية الرضاخانية. وهؤلاء يعتمدون في فهم المسائل على منهج الشيخ أحمد رضا خان البريلوي أكثر من اعتمادهم على الفقه الحنفي. وارتباطهم بهذا الفقه لتدعيم ملتهم بالعامة من الناس، لا لأنهم مهتمّون بفقه الإمام أبي حنيفة.

وماذا تكون قيمة منهج الإمام حيث يطغى الاجتهاد، فتثبت العقائد بالقياس، وتردّ النصوص القطعية؟.

وكيف تضمّ الفوضى والإسراف في المقاييس والأوهام إلى الموقف الذي يحتاط في إثبات العقائد بالظن، وفي النصوص الموجبة للعمل مثل أخبار الآحاد؟ ــ رضي الله عنه، وعن سائر الأئمة المجتهدين والفقهاء والمحدثين الذين هم قادة الدين ــ .

وكيف ينتسب إلى الإمام الذي يهتمّ في أكل الحلال فلا يستظلّ بجدار المدين، أولئك الذين ينتظرون بفارغ الصبر من صبيحة الخميس، ويرنون إلى جدران المساجد لاستقبال الهدايا والنذور، ليملأوا به البطون، دون أن يميّزوا بين الحلال والحرام؟.

وأي صلة تفرض بين الذين يدعون إلى تقديم النذور إلى الضرائح

والمقابر إذا مرضت البهائم في البيت، وبين الإمام الذي ضرب أروع مثالٍ في التخلّي عن المطامع والآمال؟.

وكم بين الموت في السجن، وبين الطواف حول مجالس الغناء والمغنين؟.

وليعذرنا أهل التوحيد في مثل هذا الكلام، فإن الناس قد تستّروا للطعن على أهل الحق بالفقه الحنفي، واستخدموا الفروع الفقهية كحيلة لتحقيق أهدافهم والذي نقصده هو توضيح المنهج الذي اختاره أهل الحديث، وسائر أئمة السلف...»[1].

شيخ الإسلام في نظر البريلوية:

إن الطائفة التي قطعت شوطاً بعيداً في الزيغ والضلال، والشعوذة والهرطقة، لا ترجى منها كلمة خير في أئمة الهدى الذين وقفوا حياتهم لنشر العقيدة الصحيحة، والقضاء على مظاهر الشرك بأنواعه في عصورهم، وأقاموا سداً منيعاً من الأدلة والبراهين في وجوه أهل البدع والأهواء، وأتمّوا الحجة عليهم ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [سورة الأنفال: ٤٢].

ولما كان شيخ الإسلام ابن تيمية من رواد علماء الأمة في الرد على البدع التي تشوّه جمال الإسلام جاء في نصيبه الكثير من شتائم هذه الطائفة المبتدعة.

قال أحمد رضا البريلوي شيخ الطائفة، في حق شيخ الإسلام في «الفتاوى الرضوية» (٣/ ٣٩٩):

---

(١) حركة الانطلاق الفكري (١٩٨ ـ ١٩٩).

«إن ابن تيمية كان يهذي جزافاً».

وقال أيضاً: «ابن تيمية كان فاسد المذهب».

وقال نعيم الدين المراد آبادي، أحد خلفاء البريلوي:

«إنّ ابن تيمية أفسد نظم الشريعة» ـ ثم نقل عن ضالّ آخر مثله ـ ابن تيمية عبد خذله الله، وأضَلّه وأعماه وأصمّه، وأذلّه. وإنه مبتدع ضالّ ومضلّ، وجاهل غالٍ»[1].

كانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ المستنيرة بدعوة شيخ الإسلام، أعمق أثراً على الإطلاق في الأوساط المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها في العصر الأخير، ووجدت آذناً صاغية من الطبقات الذكية من المسلمين. ونجحت في تصحيح كثير من المفاهيم التي كانت تنبني على مجرد الأوهام والخرافات، وأتت على مظاهر الشرك والوثنية، والرفض والصوفية، والعادات والتقاليد من قواعدها. ولم تُبْقِ لسدنة القبور وباعتها مجالاً لأكل أموال الناس بالباطل، وفضحت المشعوذين الدجاجلة على رؤوس الأشهاد.

وجد البريلوي ـ كما وجد غيره من أهل البدع والأهواء ـ هذه الدعوة المباركة إلى التوحيد الخالص أكبر عائق في سبيل نشر ضلالاتهم، وامتصاص دماء المسلمين وأموالهم، ونهب ثرواتهم بالشعوذة والدجل والخديعة.

---

(١) راجع مثل هذه المخازي في «شيخ الإسلام» وغيره من علماء الأمة (أمثال: ابن حزم، وابن القيم، وابن عبد الوهاب، والشوكاني، والشاه إسماعيل الدهلوي وغيرهم) في كتاب «البريلوية» للشيخ إحسان إلهي ظهير رحمه الله. وهو كتاب مهم جداً في معرفة عقائد هذه الطائفة وتاريخها.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تسأل عن حنقه على الإمام محمد بن عبد الوهاب وأنصاره، وحكمه عليه بالنار بكل تهوّر.

ويكفي دليلاً على تهوّره أنه ذكر حديثاً موضوعاً للاستدلال به على مرامه فقال:

«إن الله عزّ وجلّ يقول يوم القيامة لمن اسمه «أحمد» و«محمد»: ادخلوا الجنّة. فإني كتبت على نفسي أن لا أُدْخِل النار من اسمه أحمد ومحمد».

ثم تذكر هذا المتجرىء أن الحديث يشمل الإمام محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ أيضاً، فقال:

«إن هذا الحديث وغيره في هذا المعنى، لا يشمل إلا السنّة صحيحي العقيدة [أي البريلويين فقط]، لأن فاسدي المذهب كلاب جهنّم، ولا يقبل عمل منهم. فإنه لو قتل أحد منهم مظلوماً بين الحجر والمقام، وصبر على قتله راجياً المغفرة، وطالباً الثواب، لا ينظر الله عز وجلّ إليه، ويلقيه في الجحيم. وبهذا صرّحتُ في فتاواي في مواضع عديدة.

وعلى ذلك ليس في هذه الأحاديث بشارة لمحمد بن عبد الوهاب وغيره من الضالين»[1].

هكذا في كتبه[2] ورسائله يشفي علّته، ويسقي غلّته بسيل من

---

(١) «البريلوية» (ص ١٨١) نقلاً عن أحكام الشريعة للبريلوي (١/ ٨٠) طبعة كراتشي.

(٢) لقد انتبه علماء المملكة العربية السعودية، وعلى رأسهم علامة الجزيرة الشيخ عبد العزيز بن باز ــ حفظه الله تعالى ــ لخطورة هذه الطغمة الطاغية والفئة الضالة، فمنعوا «ترجمة معاني القرآن» للبريلوي مع تعليق نعيم الدين المرادآبادي عليها، من =

القاذورات، التي لا يباريه فيها إلا الميرزا[1] غلام أحمد القادياني المتنبىء الكذاب (ـ ١٩٠٨م) ومحمد زاهد الكوثري (ـ ١٣٧١هـ) الذي حمل راية التجهم في العصر الحديث، وناصب العداء لعلماء السنّة قديماً وحديثاً[2].

خلاصة القول:

إن وقيعة أمثال هؤلاء المجرمين في سلف الأمة وعلمائها في كل عصور التاريخ، كانت مكرمة لهم، ودليلاً على سلامة عقيدتهم ودينهم، وثباتهم على الحق.

= التداول لما فيها من خرافات وضلالات.

ورأينا في السنوات الأخيرة حملات بعض الجرائد الخليجية على هذه الطائفة، وأفكارها الضالة المضلّة، ما جعل معتنقيها يتستّرون ويختفون. وهم في الحقيقة شيعة الروافض في شبه القارة الهندية.

(١) كان الميرزا عيّاباً فحّاشاً بذيء اللسان، يقع في مخالفيه بدون حياء قال: «كل يقبلني، ويصدق دعوتي إلا ذرية البغايا» (مرآة كمالات الإسلام ص ٥٤٧). وقال في معارضيه في «نجم الهدى» (ص ١٥):

«إن العدى صاروا خنازير العلا   نساؤهم من دونهن الأكلب»

ووقع في الشيخ سعدالله الذي كان يردّ على افترائه على الله تعالى ورسوله ﷺ، بما يدلّ على ثقافة نبي «القاديانية». وهو يقول في «تتمة حقيقة الوحي» (١٤ ـ ١٥):

«ومن اللئام أرى رجيلاً فاسقاً   غولاً لعيناً نطفة السفهاء

شكس خبيث مفسد ومزوّر   نحس يسمى السعد في الجهلاء

آذيتني خبثاً فلست بصادق   إن لم تمت بالخزي يا ابن بغاء»

راجع هذه المخازي كلها في كتاب «القاديانية في مرآتها» للشيخ صفي الرحمن الأعظمي (١٠١ ـ ١٠٤) (الطبعة الأردية) بالجامعة السلفية بنارس الهند ١٤٠١هـ.

(٢) راجع «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» للدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد ـ حفظه الله تعالى ـ .

قلما سَلِمَ فاضل من طاعن، فقد طُعِنَ في الخلفاء الراشدين، بل وسبّوا الله تعالى ورسوله ﷺ.

قيل إن الإله ذو ولدٍ	قيل إن الرسول قد كهنا
ما نجا الله والرسول معاً	من لسان الورى فكيف أنا

إن ابتلاءات مالك والشافعي، ومحنة أحمد والبخاري، وموت أبي حنيفة وابن تيمية في السجن، على مرأى ومسمع من قضاة الدولة وفقهائها، لم تكن إلا حلقة من مؤامرات أهل البدع والأهواء ضدّ الأئمة الأعلام وأمثالهم. ولم يزدهم ذلك إلا عزاً وشرفاً في الدنيا، ويلقون جزاء موفوراً ـ إن شاء الله ـ عندما يلتقي الخصوم عند رب العالمين يوم يقوم الأشهاد.

أما سبّ الأموات عامة ـ فضلاً عن علماء الأمة الأبرار ـ فإنه محرّم بنص حديث النبيّ ﷺ: «لا تسبّوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا»[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[2].

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٥٨].

● ● ●

(١) البخاري مع الفتح (٣/٢٥٨) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

(٢) البخاري (١/ ٥٣)، ومسلم (رقم ٤٠).

شيخ الإسلام وشماتة الأعداء



شيخ الإسلام وشماتة الأعداء

قيّض الله عزّ وجلّ شيخ الإسلام ابن تيمية لتجديد ما اندرس من معالم الدين، فقام بإزالة الركام الهائل من التمويهات والمغالطات حول العقائد والأحكام.

ودعا إلى فهم أسماء الله تعالى وصفاته الحميدة في ضوء الكتاب والسنّة على منهج السلف الصالح، وأثبت ما وصفه الله تعالى به نفسه، ووصفه به رسوله الذي هو أعلم خلقه به، بدون تحريف ولا تأويل، ولا تشبيه ولا تعطيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى: ١١].

وجاهد بقلمه وبيانه وسيفه وسنانه لإعادة مجد المسلمين الذي أضاعه الملوك والسلاطين، ولإيضاح جمال الإسلام الذي شوّهته البدع والأوهام.

ولم يبال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كائناً من كان، ولم يتأخر من مواجهة الأمراء والحكام وقضاة الدولة وفقهائها لإعلاء كلمة الحق، وامتحن لأجله محنة تلو الأخرى.

وبهـذه الجهـود المترامية الأطـراف، وبهـذه الإصـلاحـات المتعـددة

الجوانب كان حقاً أشبه رجل بنبيٍّ في دنيا الناس»[١].

أوذي شيخ الإسلام في سبيل الله كثيراً، ولكنه لم يخضع أمام قوة الحكم وجبروت الدولة، وأفحم مخالفيه من القضاة والفقهاء في البحث والمناظرة. ودافع عن العقيدة الصحيحة، وسار على منهج السلف الصالح، ولم يتنازل عما رآه حقاً، ولم يساوم عليه أحداً أبداً، حتى توفي في السجن ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقد حيكت ضده كثير من المؤامرات، واتهم بخرق الإجماع والشذوذ في المسائل، ورمي بالحشو والتجسيم[٢]، ولم يألُ أهل البدع والأهواء جهداً في تشويه سمعته عند العامة والخاصة، حتى وصلوا في حنقهم عليه إلى تكفيره وتبديعه وتفسيقه.

﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة البروج: ٨].

وتوارثت هذه الأحقاد والضغائن، فكفّره بعض المغرضين في العصور المتلاحقة تأييداً لبدعتهم، وشفاءً لغيظهم منه»[٣].

---

(١) قاله الشيخ أبو بكر جابر الجزائري. راجع «لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق.

(٢) كما تقدم مع الرد عليه في بداية هذا الباب.

(٣) ومنهم: العلاء البخاري الحنفي، وكان مغلوب الغضب، متسرّعاً في التكفير، حانقاً على شيخ الإسلام وبلغ به الحقد عليه إلى أن قال: «من سمى «ابن تيمية» شيخ الإسلام فهو كافر.

وقد ردّ عليه العلامة ابن ناصر الدين الدمشقي في كتاب أسماه «الرد الوافر على من زعم بأن من سمى «ابن تيمية» «شيخ الإسلام» كافر». وجمع فيه سبعة وثمانين نصاً من فضلاء المذاهب مع تقريظات العلماء الآخرين، الذين أطلقوا عليه لقب «شيخ الإسلام» وفيهم مخالفوه أيضاً الذين ناظر معهم. «والفضل ما شهدت به الأعداء».

ليس يخلو الزمان من سفل ... فيه ولا من خيانة وخنى

ما سلم الله من بريّته ... ولا نبيّ الهدي فكيف أنا

موقف شيخ الإسلام من مكفّريه:

تخلّى شيخ الإسلام ابن تيمية تماماً عن حظوظ نفسه، ولم ينتقم من أحد إلا لله، ولم يكفّره من كفّره، حتى عفا عن خصومه الذين سعوا في قتله بعدما قدر عليهم. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الشورى: ٤٣].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها»[1].

وقال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[2].

كان شيخ الإسلام ابن تيمية يهتدي بهدي الكتاب والسنّة في السراء والضرّاء في عقائده، ومعاملاته، وأخلاقه وآدابه.

فقد تألم الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ صاحب «فتح الباري» من تصرفات مكفّريه وقال:

«ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان من أعظم الناس قياماً على أهل البدع من الروافض، والحلولية، والاتحادية. تصانيفه في ذلك كثيرة

---

(١) البخاري (٦/٥٦٦)، ومسلم (رقم ٢٣٢٧).

(٢) مسلم (رقم ٢٥٨٨) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

شهيرة. وفتاويه فيهم لا تدخل تحت الحصر، فيا قرّة أعينهم إذا سمعوا بكفره، ويا سرورهم إذا رأوا من يكفّر من لا يكفّره»[1].

وقال العلامة عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي المعروف بابن شيخ الحزاميين (ـ ٧١١هـ):

«. . . إذا شعر أهل البدع ــ الذين نحن وشيخنا قائمون الليل والنهار بالجهاد، والتوجه في وجوههم لنصرة الحق ــ: أن في أصحابنا من ثلب رئيس القوم بمثل هذا، فإنهم يتطرقون بذلك إلى الاشتفاء من أهل الحق، ويجعلونه حجّة لهم»[2].

رأي شيخ الإسلام في تكفير المسلم:

قد درس شيخ الإسلام ابن تيمية في عديد من كتبه قضية تكفير المسلم بعينه، دراسة واعية في ضوء الكتاب والسنّة، وأقوال السلف الصالح، ونظر نظرة عميقة فيما جرى من وقائع القتال في زمن الصحابة ــ رضي الله عنهم أجمعين ــ وحلل الأحداث في ضوء الكتاب والسنّة تحليلاً دقيقاً، أوصله إلى رأي صائب في هذه القضية الخطيرة، وهو: «أن التكفير حق لله، فلا يُكَفَّرُ إلا من كفّره الله ورسوله».

ولأجل هذا، لا يرى تكفير من كفّره قائلاً: «ليس للإنسان أن يكذب على من يكذب عليه، ولا يفعل الفاحشة بأهل من فعل بأهله الفاحشة».

---

(١) الرد الوافر (ص ٢٣١).

(٢) التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار لابن شيخ الحزاميين (ص ٥٥) تحقيق الفريوائي طبعة الجامعة السلفية بنارس ١٤٠٨هـ.

وضح شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الرأي في كتابه «الرد على البكري»[1].

فقال ما ملخصه:

«وهذه الطريقة التي سلكها هذا وأمثاله، هي طريقة أهل البدع، الذين يجمعون بين الجهل والظلم، فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنّة وإجماع الصحابة ويكفّرون من خالفهم في بدعتهم.

كالخوارج المارقين الذين ابتدعوا العمل بالسنّة المخالفة في زعمهم للقرآن وابتدعوا التكفير بالذنوب. وكفّروا من خالفهم، حتى كفّروا عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب ومن والاهما من المهاجرين الأنصار، وسائر المؤمنين.

وكذلك الرافضة ابتدعوا تفضيل عليّ على الثلاثة، وتقديمه في الإمامة، والنص عليه، ودعوى العصمة له، وكفّروا من خالفهم، وهم جمهور الصحابة، وجمهور المؤمنين.

---

(١) هو نور الدين أبو الحسن علي بن يعقوب البكري المصري الشافعي (ـ ٧٢٧هـ).
أحد المبغضين لشيخ الإسلام ابن تيمية. ذات مرة استفرد بالشيخ بمصر سنة ٧١١هـ، ووثب عليه، فلما تكاثر الناس انملص. فطلب من جهة الدولة، فهرب واختفى.
واتفق بعد مدة: أن البكري همّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقتله، ثم أمر بقطع لسانه، لكثرة فضوله وجراءته، ثم شفع فيه، فنفي إلى الصعيد، ومنع من الفتوى».
راجع «البداية والنهاية» (١٤/ ١١٤ ــ ١١٥)، «طبقات الشافعية» (٦/ ٢٤٢)، وشذرات الذهب (٦/ ٦٦ ــ ٦٧).

وكذلك الجهمية ابتدعت نفي الصفات المتضمّن في الحقيقة لنفي الخالق، ولنفي صفاته وأفعاله وأسمائه[1]. وأظهرت القول بأنه لا يرى، وأن كلامه مخلوق خلقه في غيره، لم يتكلم هو بنفسه، وغير ذلك. ثم امتحنوا الناس فدعوهم إلى هذا، وجعلوا يكفّرون من لم يوافقهم على ذلك.

وكذلك الحلولية والمعطلة للذات والصفات يكفّر كثير منهم من خالفهم. وأئمة السنّة والجماعة، وأهل العلم والإيمان، فيهم العلم، والعدل، والرحمة. فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنّة، سالمين من البدعة، ويعدلون على من خرج منها، ولو ظلمهم، كما قال تعالى:

﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [سورة المائدة: ٨].

ويرحمون الخلق، فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، ولا يقصدون الشرّ لهم ابتداءً، بل إذا عاقبوهم، وبيّنوا خطأهم وجهلهم وظلمهم، كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا.

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ــ: «المثل السادس: قلب المعطل متعلق بالعدم فهو أحقر الحقير، وقلب المشبه عابد للصنم قد نحت بالتصوير والتقدير. والموحّد قلبه متعبد لمن «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» (النونية ص ١٠) دار المعرفة بيروت.

وقال أبو عبد الله محمد بن يوسف الشافعي اليمني:

مـــا شبـــه الله إلا عـــابـــد صنمـــاً ... يـدلـي بـأخبـث معبـود وأغـربـه

ولا يعطّـــل إلا عـــابـــد عـــدمـــاً ... وليـس يـدري لـه ربـاً يلـوذ بـه

فالمؤمنون أهل السنّة أعمالهم خالصة لله تعالى، موافقة للسنّة، وأعمال مخالفيهم لا خالصة ولا صواب، بل بدعة واتباع الهوى، ولهذا يسمّون أهل البدع والأهواء.

فلهذا كان أهل العلم والسنّة لا يكفّرون من خالفهم، وإن كان ذلك المخالف يكفّرهم، لأن الكفر حكم شرعي، فليس للإنسان أن يعاقب بمثله، كمن كذب عليك وزنى بأهلك، ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله، لأن الكذب والزنا حرام.

وكذلك التكفير حق لله، فلا يكفّر إلا من كفّره الله ورسوله. وأيضاً فإن تكفير الشخص المعيّن وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفّر من خالفها، وإلا ليس كل من جهل شيئاً من الدين يُكَفَّرُ.

ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنُّفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش، لما وقعت محنتُهم:

«أنا لو وافقتكم كنتُ كافراً، لأني أعلم أن قولكم كفر. وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جُهَّال. وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم»[1].

• • •

(١) «الرد على البكري» (٢٥٦ ــ ٢٦٠) المطبعة السلفية ١٣٤٦هـ.

الباب الخامس

شيخ الإسلام في كتابات كبار العلماء



الباب الخامس

شيخ الإسلام في كتابات كبار العلماء

إن التخلّي عن رواسب البيئة التي يعيش فيها الإنسان يصعب جداً إلا من رحم ربه. وخاصة إذا كانت التزاماته بالحكم والحكام يستحيل أحياناً أن يخرج على العرف، ولو كان مخالفاً للكتاب والسنّة.

ولأجل هذا، نرى المتأخرين من العلماء الذين اعتمدوا على الكتب الفقهية أكثر من اعتمادهم المباشر على الكتاب والسنّة، قد يلجأون إلى مقالات في العقائد والأحكام، ابتدعها شيوخهم دون أن يتعبوا أنفسهم في معرفة حقيقتها في ضوء الأدلة.

وفي مثل هذه البيئات إذا وفق الله تعالى رجلاً يدعو إلى العودة بالأمة إلى الكتاب والسنّة، والاعتصام بهما في العقائد والأحكام، والأخلاق والآداب، ونبذ ما يخالفهما من الأقوال والأفعال ـ يواجه معارضة شديدة خاصة من قبل أصحاب المناصب من فقهاء الدولة وقضاتها، قبل أن يصل صوته إلى العامة من الناس.

ولما شاءت حكمة الله تعالى أن يقوم شيخ الإسلام بإصلاح ما أفسده المغرضون من أهل البدع والأهواء، دون أن يبالي الحكام والأمراء والقضاة

والفقهاء، صار غريباً في أهله وبلده وأوذي في سبيل الله، ومنع الناس من الاستفادة من دروسه وأحاديثه وفتاواه، ورمي بما ليس فيه ظلماً وعدواناً، لتنفيرهم منه.

هذا الأسلوب الباطل لمواجهة الحق ليس جديداً، بل هو قديم قدم الحق، وقد صُدّ الناس عن قبول دعوة الأنبياء والرسل بهذا الأسلوب المخبول، فكيف بالمجددين والمصلحين.

ذكر الله تعالى موقف الكفار من دعوة النبيّ ﷺ فقال:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾ [سورة القلم: ٥١ ــ ٥٢].

وقال عزّ من قائل: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [سورة ص: ٤ ــ ٧].

ولكن الحق يعلو، ولا يعلى عليه. وعرف العلماء مدى أهمية شيخ الإسلام ودعوته في عصره، وبمرور الأيام وتلاحق الأجيال زاد الله أنصارها وبارك فيها، لأنها قامت على الكتاب والسنّة مع الإخلاص لله تعالى. فأبى الله سبحانه أن ينقطع عمله.

قال أحمد بن طرخان الملكاوي (ــ ٧٠٣هـ):

«كل صاحب بدعة ومن ينتصر له ــ لو ظهروا ــ لا بد من خمودهم وتلاشي أمرهم، وهذا الشيخ تقي الدين ابن تيمية كلما تقدمت أيامه تظهر

كرامته، ويكثر محبّوه وأصحابه»[1].

هكذا نرى أن وعد الله تعالى تحقق ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [سورة غافر: ٥١].

لقد أثنى على شيخ الإسلام ابن تيمية، وأشاد بجهوده في الدعوة والإرشاد كبار علماء عصره، ومن بعدهم من فضلاء المذاهب، ومن أهمهم:

* أبو الفتح محمد بن علي بن دقيق العيد (ـ ٧٠٢هـ)، قال بعدما سمع كلام شيخ الإسلام في القاهرة في تحريض أعيان البلد على قتال التتار:

«ما كنت أظن أن الله تعالى بقي يخلق مثلك».

وقال أيضاً: «لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد»[2].

* أبو المعالي محمد بن علي الزملكاني الشافعي (ـ ٧٢٧هـ)، الذي تولى مناظرة شيخ الإسلام غير ما مرة، قال:

«لم ير من خمسمائة سنة... أحفظ منه»[3].

* أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الشافعي (ـ ٧٣٤هـ)، قال:

«... برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينُه مثل نفسه... كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجمّ

---

(١) الردّ الوافر (ص ١٣٤).

(٢) الردّ (ص ١٠٧)، والشهادة الزكية (ص ٢٨).

(٣) الردّ (ص ١٠٣)، والشهادة (ص ٣٥).

الغفير. . . إلى أن دبّ إليه من أهل بلده داءُ الحسد. . . »[1].

* أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ـ ٧٥٦هـ)، وكان على خلاف مع شيخ الإسلام ـ قال في كتاب له إلى الحافظ الذهبي في أمر شيخ الإسلام:

«أما قول سيدي في الشيخ، فالمملوك يتحقق كبر قدره، وزخارة بحر، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف. والمملوك يقول ذلك دائماً وقدره في نفسي أعظم من ذلك وأجلّ، مع ما جمع الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأولى. وغرابة مثله في هذا الزمان، بل من أزمان»[2].

---

(١) الردّ (ص ٥٧ ـ ٥٨)، والشهادة (ص ٢٦).

(٢) الردّ (ص ٩٦)، وشذرات الذهب (٦/ ٨٣).

ملاحظة: قارن كلام السبكي هذا، بكلام ابنه التاج السبكي في ترجمة المزي في «طبقات الشافعية» (٦/ ٢٥٤) حيث قال:

«اعلم أن هذه الرفقة ـ المزي، والذهبي، والبرزالي وكثير من أتباعهم ـ قد أضرّ بهم أبو العباس ابن تيمية إضراراً بيّناً. وحملهم على عظائم الأمور أمراً ليس هيّناً، وجرّهم إلى ما كان التباعد عنه أولى بهم، وأوقفهم في دكادك من نار، المرجو من الله أن يتجاوزها لهم وأصحابهم».

مع أن الإمام المزي شيخ التاج السبكي قال فيه: «شيخنا وقدوتنا، وحافظ زماننا، وحامل راية السنّة والجماعة، والقائم بأعباء هذه الصناعة».

ونقل عن الذهبي أنه قال: «ما رأيت أحفظ من أربعة: ابن دقيق العيد، والدمياطي، وابن تيمية، والمزي. . . وأنا لم أر من هؤلاء الأربعة غير المزي. ولكن أقول: ما رأيت أحفظ من ثلاثة: المزي، والذهبي، والوالد. . . وعاصرت أربعة لا خامس =

* أبو حفص عمر بن إلياس المراغي (ـ ٧٣٢هـ)، قال:

«هو عندي رجل كبير القدر، عالم مجتهد شجاع صاحب حق، كثير الردّ على هؤلاء الحلولية والاتحادية والإنيّة. واجتمعت به مراراً، وشكرته على ذلك... وكان أهل هذا المذهب الخبيث يخافون منه كثيراً.

وكان يقول لي: ألا تكون مثلي، فأقول له: لا أستطيع»[(١)].

* أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي الشافعي (ـ ٧٤٢هـ)، قال:

«ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، ولا أتبع لهما منه»[(٢)].

* أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ـ ٧٤٨هـ)، قال:

«هو أكبر من أن ينبّه مثلي على نعوته، فلو حلّفت بين الركن والمقام

= لهم، هؤلاء الثلاثة، و«البرزالي» فإني لم أر البرزالي، وكان البرزالي يفوقهم في معرفة الأجزاء» (طبقات الشافعية ٦/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

بعد كل هذا الاعتراف، وقع في شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه أضرّ بالمزي والذهبي والبرزالي. والحق أنه كان يتأجج حقداً على شيخ الإسلام ورفقائه وتلاميذه وأنصاره، ويقع فيهم فلا يعتمد على قوله فيهم. ولأجل هذا نقل السخاوي قول قاضي عصره العز الكناني فيه: «هو رجل قليل الأدب، عديم الإنصاف، جاهل بأهل السنّة ورتبهم، يدلّك على ذلك كلامه» («الإعلان بالتوبيخ للسخاوي» ص ١٠١ ـ تحقيق روزنثال).

وراجع أيضاً الباب الأول من هذا الكتاب.

(١) الردّ (ص ٢٠٠ ـ ٢٠١).

(٢) الردّ (ص ٢١٣ ـ ٢١٤)، والشهادة (ص ٤٤ ـ ٤٥).

لحلفتُ: إني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله، ما رأى هو مثل نفسه في العلم»[1].

* القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى العمري الشافعي (ــ ٧٤٩هـ)، قال:

«كان ابن تيمية في مدد ما يؤخذ عليه في مقاله، وينبذ في حفرة اعتقاله... لا بعد إقامة بيّنة ولا تقدّم دعوى... وكل امرىء حازم المكارم محسود:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً: إنه لدميم

كل هذا لتبريزه في الفضل حيث قصر النظراء، وتجلّيه كالمصباح أو نور الصباح حيث أظلمت الآراء، وقيامه في الله وفي نصر دينه، وإقبال الخلق عليه وعلى أفانينه»[2].

* عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ــ ٧٧٤هـ)، قال:

«وبالجملة كان ــ رحمه الله ــ من كبار العلماء، وممن يخطىء ويصيب، ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجّي، وخطؤه أيضاً مغفور له كما في «صحيح البخاري» «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[3] فهو مأجور...»[4].

---

(١) الردّ (ص ٧٢).
(٢) الردّ (ص ١٤١).
(٣) صحيح البخاري ١٣/٣١٧، وصحيح مسلم (١٧١٦) وغيرهما عن عمرو بن العاص بلفظ: «إذا حكم الحاكم فأصاب...».
(٤) الردّ (ص ١٩٨).

* زين الدين عبد الرحمن بن علي التفهني الحنفي (ـ ٨٣٥هـ)، قال:

«إن الشيخ تقي الدين ابن تيمية، كان على ما نقل إلينا من الذين عاشروه... ـ عالماً متفنناً متقناً متقلّلاً من الدنيا معرضاً عنها، متمكناً من إقامة الأدلة على الخصوم... لا يلومه في الحق لومة لائم، قائم على أهل البدع: المجسّمة، والحلولية، والمعتزلة، والروافض وغيرهم.

والإنسان إذا لم يخالط ولم يعاشر يستدل على أحواله وأوصافه بآثاره، ولو لم يكن من آثاره ما اتصف به تلميذه ابن قيم الجوزية من العلم، لكفى ذلك دليلاً على ما قلناه»[1].

* قاضي القضاة أبو البقاء محمد بن عبد البر السبكي الشافعي (ـ ٧٧٧هـ)، قال:

«والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل ما يدري ما يقول. وصاحب الهوى يصدّه هواه عن الحق بعد معرفته»[2].

* شهاب الدين أحمد بن الأذرعي الشافعي (ـ ٧٨٣هـ)، قال:

«الشيخ تقي الدين ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ من أجلّ أئمة الإسلام الأعلام، كان ـ رحمه الله تعالى ـ بحراً من البحور في العلم، وجبلاً شامخاً لا يختلف فيه اثنان من أهل العصر. ومن قال خلاف ذلك فهو جاهل معاند مقلِّدٌ لمثله. وإن خالف الناس في مسائل فأمره إلى الله تعالى. والوقيعة في أهل العلم، ولا سيما أكابرهم من كبائر الذنوب»[3].

---

(١) الردّ (ص ٢٣٨).

(٢) الردّ (ص ٥٥، ٩٥).

(٣) الردّ (ص ٢٨٣) ملحق السماعات والإجازات.

* أقضى القضاة أحمد بن طرخان الملكاوي الشافعي (ـ ٨٠٣هـ)، قال:

«مع ذلك والله إن الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخ الإسلام، لو دروا ما يقول لرجعوا إلى محبّته وولائه».

وقال: «كل صاحب بدعة ومن ينتصر له ـ لو ظهروا ـ لا بد من خمودهم وتلاشي أمرهم، وهذا الشيخ تقي الدين ابن تيمية، كلما تقدمت أيامه تظهر كرامته، ويكثر محبّوه وأصحابه»[١].

* شمس الدين محمد بن أحمد البساطي المالكي (ـ ٨٤٣هـ)، قال:

«إن إمامة الشيخ تقي الدين ابن تيمية في العلم مما لا يحتاج إلى الاستدلال عليه لحصول العلم الضروري عن الأخبار المتواترة بذلك» ثم قال في من كفّر شيخ الإسلام:

والواجب أن يُطْلَب هذا القائل، ويقال له: لم قلتَ؟ وما وجه ذلك؟ فإن أتى بوجه يخرج به شرعاً من العهدة كان، وإلا برِّح به تبريحاً يردّ أمثاله عن الإقدام على أعراض المسلمين»[٢].

* أبو الوفاء إبراهيم بن محمد، سبط ابن العجمي (ـ ٨٤١هـ)، قال:

«وقد رأيت جماعة من مشايخنا يعتقدون علم الإمام العلامة حافظ الإسلام المترجم فيه، وصلاحه وبركته، وإجابة دعائه وعلمه الغزير، واطلاعه على مذاهب العلماء وغيرهم.

---

(١) الردّ (ص ١٣٤).

(٢) الردّ (ص ٢٤١ ـ ٢٤٢).

وقد أخبرني بعض مشايخي أن بعض الأمراء الكبار كان يحبّه، فوقع في يده الرد على المترجم أنه قد خرق الإجماع في خمسين مسألة، انفرد بها عن الأمة فذكر ذلك لبعض مشايخنا.

فأجابه شيخنا: بأنه لم ينفرد بها، بل كل ما قاله له فيه سلف، وإن أحببتَ أيها الأمير أكتب هذه المسائل؟.

فقال الأمير: لا بل أعرف أنه كلام متحمّل على الشيخ!!.

قال: «ومن بلغت مؤلفاته في حال حياته نحو خمسمائة مجلد أو نحوها، أفلا يكون فيها هذا الشذوذ لو فرض!!.

والله عز وجلّ يحب الإنصاف، رحم الله العلماء العاملين، ورضي الله تعالى عنهم أجمعين»[1].

* أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ــ ٨٥٢هـ)، قال:

«ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية ــ صاحب التصانيف النافعة السائرة، التي انتفع بها الموافق والمخالف ــ لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته.

فكيف وشهد له بالتقدم في العلوم، والتمييز في المنطوق والمفهوم، أئمة عصره وغيرهم، فضلاً عن الحنابلة[2]؟!.

* بدر الدين العيني الحنفي (ــ ٨٥٦هـ)، قال:

«ومن الشائع المستفيض أن الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين ابن

---

(١) الردّ (ص ٢٦١ ــ ٢٦٢).

(٢) الردّ (ص ٢٣١).

تيمية من شمّ عرانين الأفاضل، ومن جمّ براهين الأماثل. . . فمن قال: هو كافر، فهو كافر حقيق، ومن نسبه إلى الزندقة، فهو زنديق!!.

وكيف ذاك وقد سارت تصانيفه في الآفاق، وليس فيها شيء مما يدل على الزيغ والشقاق. . .

وأما ماجريات هذا الإمام فكثيرة. . . وقصارى ذلك أنه حبس بالظلم والعدوان وليس في ذلك ما يعاب به ويشان. وقد جرى على جلّة من التابعين الكبار، من قتل وقيد وحبس وإشهار.

وقد حبس الإمام أبو حنيفة ــ رضي الله عنه ــ، ومات في الحبس، فهل قال أحد من العلماء أنه حبس حقاً.

وحبس الإمام أحمد ــ رضي الله عنه ــ، وقيّد لما قال قولاً صدقاً.

والإمام مالك ــ رضي الله عنه ــ ضرب ضرباً مؤلماً شديداً بالسياط.

والإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ حمل من اليمن إلى بغداد بالقيد والاحتياط.

وليس ببدع أن يجري على هذا الإمام ما جرى على هؤلاء الأئمة الأعلام»[١].

* الإمام صالح بن عمر البلقيني الشافعي (ــ ٨٦٨هـ)، قال بعدما أشاد بذكر شيخ الإسلام:

«ومن هذا شأنه كيف لا يلقب بشيخ الإسلام، وينوّه بذكره بين العلماء الأعلام؟.

---

(١) الردّ (ص ٢٤٣ ــ ٢٤٨)، والشهادة (ص ٧٤ ــ ٨١).

ولا عبرة بمن يرميه بما ليس فيه، أو ينسبه بمجرد الأهواء لقول غير وجيه، فلم يضره قول الحاسد الباغي، والجاحد الطاغي.

ما ضرّ نور الشمس إن كان ناظراً   إليه عيون لم تزل دهرها عمياء

وقال: «ولقد افتخر قاضي القضاة تاج الدين السبكي ــ رحمه الله تعالى ــ في ترجمة أبيه الشيخ تقي الدين السبكي في ثناء الأئمة عليه، بأن الحافظ المزيّ لم يكتب بخطه «شيخ الإسلام» إلا لأبيه، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية، وللشيخ شمس الدين بن أبي عمر.

فلولا ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل، ما قرن ابن السبكي أباه معه في هذه المنقبة، ولو كان ابن تيمية مبتدعاً أو زنديقاً ما رضي أن يكون أباه قريناً له»[1].

هكذا اعترف بعلمه وفضله، وزهده وتقواه، كبار العلماء في عصورهم، وأثنوا عليه بما لا مزيد عليه، وأنزلوه في منزلته التي كان يستحقها بين العلماء، وشهدوا بكونه على السنّة المحضة، والطريقة السلفية في العقائد والأحكام.

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله   ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

---

(١) الردّ (ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣)، والشهادة (ص ٤٦).
ولكن الأسف أن التاج السبكي ينسى هذه المنقبة حينما يتحامل على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه: الذهبي والمزي والبرزالي، لأجل الاختلاف في العقيدة، ويوصي بأنه لا يجوز الاعتماد عليهم، لأجل هذا قال فيه السخاوي عندما وقع في الذهبي: «. . . وهو على تقدير صحته إنما هو في أفراد مما وقع التاج في أقبح منه»(الإعلان بالتوبيخ ص ١٠١).

وكذلك دافعوا عن شيخ الإسلام، وبيّنوا حقيقة ما نسب إليه من الأمور العظام كذباً وزوراً، تنفيراً للناس منه، وردّوا على الشانئين الذين حاكوا ضدّه المؤامرات عملاً بحديث النبيّ ﷺ:

« مـن رَدَّ عـن عِـرْضِ أخيـه رَدَّ الله عـن وجـهـه النـار، يـوم القيامة»[1].

* وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ــ ١٢٥٠هـ):

«فنشر الله من فوائده ما لم ينشر بعضه لأحد من معاصريه، وترجمه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه بتراجم لم يتيسّر لهم مثلها، ولا ما يقاربها لأحد من الذين يتعصبون لهم، ويدأبون في نشر فضائلهم، ويطرؤون في إطرائهم، وجعل الله له من ارتفاع الصيت، وبُعد الشهرة ما لم يكن لأحد من أهل عصره حتى اختلف من جاء بعد عصره في شأنه، واشتغلوا بأمره، فعاداه قوم، وخالفهم آخرون.

والكل معترفون بقدره، ومعظّمون له، وخاضعون لعلومه. واشتهر هذا بينهم غاية الاشتهار، حتى ذكره المترجمون لهم في تراجمهم فيقولون: وكان من المائلين إلى ابن تيمية، أو المائلين عنه»[2].

إن شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ الذي عاداه قضاة الدولة وفقهاؤها في عصره، في أمور كان هو المحق فيها، وحبس لأجلها، وتوفّي في السجن، بقيت جهوده المخلصة تؤتي ثمارها اليانعة في مجال

(١) الترمذي (رقم ١٩٣١) عن أبي الدرداء وقال: «هذا حديث حسن»، وهو صحيح إن شاء الله.

(٢) «طلب العلم» للشوكاني (ص ١٤).

الدعوة والتجديد، وظلّت كتاباته ولا تزال تشحن الحركات الإسلامية المعاصرة بقوة فعّالة تدفعها إلى إعلاء كلمة الحق وزهوق الباطل بفضل الله ومنّه.

﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤ ﴾ [سورة الجمعة: ٤].

● ● ●

الخَـاتـمَة



الخـاتـمة

غاية الخلق ومهمة الأنبياء:

إن الله عزّ وجلّ بيّن غاية الخلق، فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

ولتوجيه الخلق إلى تحقيق هذه الغاية العظمى بعث الله تعالى الأنبياء والرسل ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

فهم قاموا بأداء هذه الأمانة إلى خلق الله، التي حملها عليهم أحسن قيام. ورسّخوا عقيدة توحيد العبادة له سبحانه وتعالى وحده، في أذهان أتباعهم. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [سورة هود: ٢].

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [سورة هود: ٥٠، ٦١، ٨٤].

أمر الله تعالى النبيّ ﷺ بإبلاغ رسالته بكل تأكيد، فقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة المائدة: ٦٧].

إكمـال الـدين:

إن النبيّ ﷺ امتثالاً لأمر ربه سبحانه وتعالى بلّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين. وشهد له بذلك الجمع الحاشد من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ حين قال لهم في خطبته في حجة الوداع:

«وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بَلَّغْتَ، وأَدَّيْتَ، ونَصَحْتَ!.

فقال بإصبعه السبّابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد! اللهم اشهد!! ــ ثلاث مرات ــ»[1].

في هذا الموقف العظيم، وأمام هذا الجم الغفير من الصحابة يوم عرفة في حجة الوداع نزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: ٥].

الاعتصام بالكتاب والسنّة ضمان الوحدة والرشاد:

بيَّنَ حديث: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنّة نبيّه»[2] منهاج الأمة للهداية والرشاد، ودستورها في الحياة وبعد الممات.

وأكد النبيّ ﷺ على حتمية الاعتصام بالكتاب والسنّة للوصول إلى سبيل الرشاد والصراط المستقيم قائلاً:

---

(١) مسلم (رقم ١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) مالك (٢/ ٨٩٩) ذكره الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٦١).

«تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[1].

وقال الله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

أهل البدع والأهواء:

نزل القرآن الكريم على النبيّ ﷺ غضاً طريّاً، وفسّره بأقواله وأفعاله «كان خلقه القرآن»[2].

وإن الرعيل الأول من هذه الأمة، قد تلقّى هذا الدين الكامل من النبيّ ﷺ، وكان التزامه بهذه الرسالة الربّانية قوياً، وإيمانه بها مثاليّاً، فبلّغها إلى من بعده كما نزل على صاحبها غضاً طرياً.

على مرور الأيام وتلاحق الأجيال بدأت شرذمة من الأمة تفارق هدى الكتاب والسنّة الذي يضمن الوحدة والرشاد، فانحرفت عن الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ونشأت بدع الحرورية، والخوارج، والمعتزلة، والجهمية، والمرجئة، والوعيدية، والقدرية، والجبرية، والروافض، والشيعة، والصوفية، والمقلّدة، والفلاسفة، والمتكلمين من أهل الأهواء.

---

(١) جزء من حديث العرباض بن سارية، ورد في رواية أحمد (٤/ ١٢٦)، وابن ماجه في المقدمة رقم (٤٣) وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم وغيره عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ.

وقد حقّ قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة هود: ١١٨ ــ ١١٩].

وصدق قول النبيّ ﷺ:

«إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملّة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملّة ــ يعني الأهواء ــ كُلُّها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة»[١].

استثنى الله تعالى أهل الرحمة من الاختلاف والافتراق في الآية السابقة وكذلك بيّن النبيّ ﷺ في هذا الحديث أن عامة المختلفين هالكون، إلا أهل السنّة والجماعة، وأن الاختلاف واقع لا محالة»[٢].

• • •

(١) أحمد (١٠٢/٤) واللفظ له، وأبو داود (رقم ٤٥٩٧) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٢) راجع «شرح العقيدة الطحاوية» طبعة المكتب الإسلامي ١٣٩١هـ.

أهل السنّة والجماعة

أهل السنّة والجماعة

(اعتقاد ــ أصول ــ طرق)

الاعتقـاد:

قال شيخ الإسلام في «العقيدة الواسطية»[1] بعد الحمد والصلاة:

«فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة ــ أهل السنّة والجماعة ــ وهو:

ــ الإيمان بالله.

ــ وملائكته.

ــ وكتبه.

---

(١) سأل أحد قضاة «واسط» شيخ الإسلام أن يكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته فكتب هذه العقيدة، وسُميت «الواسطية». راجع «فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١٦٤).
لما سعى إلى السلطان قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد ضد ابن تيمية، وعقد المجالس الثلاثة لمناقشة عقيدته، فقدّم «الواسطية» وقال هذه عقيدتي. قال الذهبي:
«ثم وقع الاتفاق على أن هذا معتقد سلفي جيد» المصدر المذكور (٣/ ١٦٠، ٢٠١).

- ورسله.
- والبعث بعد الموت.
- والإيمان بالقدر: خيره وشره.

* ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى: ١١].

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيّفون ولا يمثّلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سميّ له، ولا كفؤ له، ولا ندّ له، ولا يقاس بخلقه ـ سبحانه وتعالى ـ فإنه ـ سبحانه ـ أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه.

ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون... لسلامة ما قالوه من النقص والعيوب.

وهو ـ سبحانه ـ قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنّة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم: من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين...

فالسنّة تفسّر القرآن، وتبيّنه، وتدلّ عليه، وتعبّر عنه. وما وصف الرسول ﷺ به ربّه عزّ وجلّ من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها كذلك...

فإن الفرقة الناجية ــ أهل السنّة والجماعة ــ يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه العزيز، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم.

فهم وسط في (باب صفات الله) سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة[1].

وهم وسط في (باب أفعال الله تعالى) بين القدرية والجبرية.

وفي (باب وعيد الله) بين المرجئة والوعيدية: من القدرية وغيرهم.

وفي (باب أسماء الإيمان والدين) بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية.

وفي (أصحاب رسول الله ﷺ) بين الروافض والخوارج.

* ومن الإيمان بالله: . . . الإيمان بأنه سبحانه فوق سماواته على عرشه، عليٌّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون. . . قريب من خلقه مجيب. . .

---

(١) كم من خصوم شيخ الإسلام قديماً وحديثاً، رموه بالتشبيه والتجسيم، حنقاً عليه وشفاءً لغيظهم منه ــ كما تقدّم ــ فليحرّر عليهم بأن مذهبه في «صفات الله تعالى» وسط بين الجهمية والمشبّهة.

وهذا من عادة أهل الأهواء من قديم الزمان أنهم ينبزون أهل السنّة بمثل هذه الألقاب، ولا يضيرهم ذلك.

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

* ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. . .

* ومن الإيمان بالله وبكتبه وبرسله: الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة بأبصارهم كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب.

* ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبيّ ﷺ مما يكون بعد الموت: فيؤمنون بفتنة القبر، وبعذاب القبر، ونعيمه.

فأما الفتنة: فإن الناس يفتنون في قبورهم. . .

ثم بعد هذه الفتنة: إما نعيم وإما عذاب. . .

وتنصب الموازين، فتوزن فيها أعمال العباد. . . وتنشر الدواوين ــ وهي صحائف الأعمال ــ فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله. . .

وفي عرصة يوم القيامة الحوض المورود لمحمد ﷺ.

والصراط منصوب على متن جهنم ــ وهو الجسر الذي بين الجنّة والنار ــ يمر الناس عليه على قدر أعمالهم. . .

وأول من يستفتح باب الجنة: محمد ﷺ، وأول من يدخل الجنة أمته.

وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات. . .

* وتؤمن الفرقة الناجية ــ أهل السنّة والجماعة ــ بالقدر: خيره وشره. والإيمان بالقدر على درجتين:

(**الدرجة الأولى**): الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم، الذي هو موصوف به أزلاً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات

والمعاصي، والأرزاق والآجال. ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق.

وأما (الدرجة الثانية): فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن... ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته.

والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم...

وهذه الدرجة من القدر يكذّب بها عامة القدرية، الذين سمّاهم النبيّ ﷺ «مجوس هذه الأمة».

ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره. ويُخرجون عن أفعال الله وأحكامه حِكَمَها ومَصالِحها.

الأصـول:

* من أصول أهل السنّة: أن الدين والإيمان قول عمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وهم مع ذلك لا يكفّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي...

ولا يسلبون الفاسق الملّي اسم الإيمان بالكلية، ولا يخلّدونه في النار، كما تقوله المعتزلة. بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان...

* ومن أصول أهل السنّة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ...

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنّة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم. . .
وأنهم يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ. ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء الأئمة فهو أضلّ من حمار أهله.

ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ، ويتولّونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ. . .

ويتولّون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة. . .

ويتبرأون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبّونهم[1]. ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل. يمسكون عما شجر بين الصحابة. . .

* ومن أصول أهل السنّة والجماعة: التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات. . . وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة.

---

(١) وقد ردّ شيخ الإسلام على ابن المطهر الحلي الرافضي وغوائله في الصحابة رضي الله عنهم في كتابه القيّم «منهاج السنّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية»، بما لا مزيد عليه، مع هذا قال التقي السبكي في شيخ الإسلام:

ولكنه خَلَط الحقّ المبين بما ... يشوبه كدر في صفو مشربه

فردّ أبو المظفر يوسف بن محمد العبادي السرمريّ على السبكي قائلاً:

لكن عيون العداء تبدي المحاسن في ... ثوب المساوىء فاعجب من تَقَلّبه
انظر بعين الرضا تبصر بها عجبا ... فأعين السخط عمى عن تعجُّبه

الـطـرق:

* ثم من طريقة أهل السنّة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. . .

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدّمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد. وبهذا سموا أهل الكتاب والسنّة.

وسمّوا أهل الجماعة، لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين، «والإجماع» هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين. . .

ثم هم مع هذه الأصول:

يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويرون إقامة الحج والجهاد، والجمع والأعياد مع الأمراء، أبراراً كانوا أو فجّاراً، ويحافظون على الجماعات.

ويدينون بالنصيحة للأمة. . . ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء. ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. . .

ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. ويأمرون ببرّ الوالدين وصلة الأرحام، وحسن الجوار. . وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة. . .

وكل ما يقولونه، أو يفعلونه من هذا أو غيره، فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنّة.

* و«طريقتهم»: هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ. ولكن لما أخبر النبيّ ﷺ: «أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ــ وهي الجماعة ــ»... صار المتمسّكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنّة والجماعة... وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبيّ ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرّهم من خذلهم، ومن خالفهم حتى تقوم الساعة»[1].

فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهّاب. والله أعلم.

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً»[2].

شيخ الإسلام داعية أهل السنّة:

* وهب الله عزّ وجلّ شيخ الإسلام فكراً مستنيراً، وبصيرة نافذة لمعرفة الانحرافات في حياة الأمة.

ثم وفّقه لتسديدها، وتوضيح معالم الطريق التي كادت تختفي تحت الركام الهائل من البدع والأهواء.

فبيّن عقائد الفرقة الناجية والطائفة المنصورة: أهل الكتاب والسنّة والجماعة، وفنّد مزاعم الفرق الضالة من أهل البدع والأهواء، فنصبوا له العداء، وسببوا له الألوان من المتاعب طول حياته.

---

(١) البخاري (٦/ ٦٣٢)، ومسلم (رقم ١٠٣٧) عن معاوية وغيره من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ.

(٢) انتهى باختصار من «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام. وراجع أيضاً «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١٢٩ ــ ١٥٩).

* نبّه المسلمين على خطر داهم من أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والتتار، فعاداه موالوهم من الرافضة وأهل الحلول والاتحاد من المتصوفة وحاكوا ضدّه أنواعاً من المؤامرات.

* وردّ على مقالات غلاة المقلدة والفلاسفة والمتكلمين، فاتّهم بالشذوذ في المسائل وبالخروج على الإجماع.

* ولم يجامل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحداً، حتى أحرج الأمراء والحكام أمام الشعب للالتزام بالكتاب والسنّة في السياسة والحكم فصار غير مرغوب فيه لديهم.

* وناظر كبار قضاة الدولة وفقهائها في القضايا المختلف فيها بينه وبينهم وأفحمهم على رؤوس الأشهاد، فزُجَّ في السجن مرة بعد مرة، شفاء لغيظهم حيناً، وتقرباً إلى الحكام في بعض الأحيان.

هكذا فتح شيخ الإسلام جبهات متعددة الجوانب لتقويم الانحرافات في حياة المسلمين في عصره بدون أن يخاف في الله لومة لائم، وحذرهم من مغبّة الابتعاد عن الكتاب والسنّة في العقيدة والعبادة والمنهج والسلوك، وفي السياسة والحكم والاقتصاد والمعيشة على السواء، بدون أن يتحفظ على نفسه، ونصر السنّة المحضة رغم أنوف المبتدعة، فلم تلبث شياطين الإنس أن تلبّدت عليه من كل جهة، كما حكى الله عزّ وجلّ تلبّد[1] الإنس والجن على النبيّ ﷺ فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ

---

(١) وهذا على أظهر الأقوال في تفسير هذه الآية. قال ابن كثير: «وهذا قول ثالث... وهو الأظهر...» (٤/ ٤٣٢) دار المعرفة بيروت ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٩م.

وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الجن: ١٩ ـ ٢٣].

* وكان مثله في تلك الفترة العصيبة من الزمن مَثَل نوح عليه السلام، كما بيّن الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة هود: ٢٥ ـ ٣٤].

انتصار دعوة شيخ الإسلام:

* لم تكن دعوة شيخ الإسلام إلا تجديد معالم الكتاب والسنّة في العقائد والأحكام التي غشيتها حجب البدع والأهواء والعادات والتقاليد والشعوذة والهرطقة بمرور العصور وتلاحق الأجيال.

والتحق شيخ الإسلام بأعماله الجليلة، وخدماته النبيلة في تجلية الغيوم السوداء من التهويلات والمغالطات، بأفراد الطائفة المنصورة الظاهرة التي

مدحها النبيّ ﷺ في حديث: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهو ظاهرون»[1].

* لقد أظهر الله تعالى دعوته رغم أنوف أعدائه المخذولين من أهل الأهواء. ومن العناية الربّانية به أنه كلما امتُحن في حياته زاده الله عزاً وشرفاً عند الناس، وكلما تقدم زمانه بعد وفاته زاد أنصاره وأتباعه.

قال الشوكاني: «هذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره، ويدين بالكتاب والسنّة، فإنه لا بد أن يستنكره المقصرون، ويقع له معهم محنة بعد محنة، ثم يكون أمره الأعلى وقوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين، ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره.

وهكذا حال هذا الإمام، فإنه بعد موته عرف الناس مقداره، وارتفعت الألسن بالثناء عليه إلا من لا يعتدّ به، وطارت مصنفاته واشتهرت عقائده[2]. . .

قال أحمد بن طرخان الملكاوي (ـ ٧٠٣هـ):

«كل صاحب بدعة ومن ينتصر له ـ لو ظهروا ـ لا بد من خمودهم وتلاشي أمرهم. وهذا الشيخ تقي الدين ابن تيمية كلما تقدمت أيامه تظهر كرامته، ويكثر محبوه وأصحابه»[3].

نرى دعوة شيخ الإسلام من عصره حتى الآن تنمو وتزدهر، وتقوى

---

(١) تقدم تخريجه آنفاً.

(٢) البدر الطالع بمحاسن القرن السابع (١/ ٦٥) ط. أولى السعادة ١٣٤٨هـ.

(٣) الرد الوافر (ص ١٣٤).

وتنتصر، بخلاف الدعوات المناهضة لها فإنها مع استخدام كل وسائل الغش والخديعة، تخبو وتختفي، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره زال واضمحلّ.

وقد صدق وعد الله لنصر المؤمنين: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة غافر: ٥١ ــ ٥٢].

دعوة شيخ الإسلام ترجمان مذهب السلف الصالح:

بارك الله تعالى في جهود شيخ الإسلام الإصلاحية، وأعماله العلمية الجليلة، وخدماته النبيلة، وشكَرَها، ووضع لها القبول في قلوب أهل الحق، فتلقاها أعلام الدعوة الإسلامية، ورجال التجديد والإصلاح، وروّاد الفكر الإسلامي بالإعجاب والتقدير في كل عصر ومصر، وكثر أنصاره وزاد محبوه، مصداقاً لحديث النبيّ ﷺ:

«إن الله تبارك وتعالى إذا أحبّ عبداً نادى جبريل: إن الله قد أحّب فلاناً فأحبّه، فيحبُّه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحبَّ فلاناً فأحِبُّوه فيحبُّه أهل السماء ويُوضع له القبول في أهل الأرض»(١).

* قال الدكتور عبد الرحمن الفريوائي:

«قد كانت جهود شيخ الإسلام بمثابة مدرسة عظيمة في عصره وبعده، وتعتبر أقوى مدرسة بعد انقراض عصر المحدثين.

وجميع الحركات السلفية من عصره إلى يومنا هذا قد نشأت على أفكار

---

(١) البخاري (١٣/ ٤١٦)، ومسلم (٢٦٣٧) عن أبي هريرة.

شيخ الإسلام وتلاميذه، بحيث يصدق عليه قول القائل: إنه لم يبق للمسلمين طريق للوصول إلى مذهب السلف الصالح إلا هذه المدرسة العملاقة التي بفضل الله ومنّه وكرمه في نموّ ورقي وازدهار يوماً فيوماً»[1].

* وقال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق:

«ولا أعلم لليوم مسألة عقائدية أو أصولية دار فيها بين أبناء الإسلام لغط إلا وجلّاها هذا الإمام العظيم، الذي لا غنى اليوم لمسلم يريد أن يعرف الإسلام الحقيقي، عن مطالعة كتبه، والتزود من علمه.

واليوم يريد بعض الماكرين الغشّاشين أن يصرفوا الناس عن كتبه وعلمه ليخلو لأهل التخليط والشرك والخرافة والتقليد أن يتصدروا إمامة الناس، ولكن هيهات أن يحجب نور الشمس»[2].

* وقال الشيخ المودودي:

«انتقد المنطق والفلسفة... وأقام من الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه، كان يفوق أدلة الإمام الغزالي سواغاً في العقل، وأحوى فيها لروح الإسلام... ولم يجترىء برفع النكير على التقليد الجامد فحسب، بل ضرب المثال لمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى... وجاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهاداً قوياً عنيفاً، ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب، ولم يغادر شائبة من الشوائب التي كانت قد كدرت صفو المعين الإسلامي حتى أتى عليها بنقده المرير... وفي انتقاده هذا لم يجامل أحداً ولم يحابه...

---

(١) مجلة «صوت الأمة» ج(١) ع(٢) ص(٢٨) شعبان ١٤٠٨= نيسان ١٩٨٨.

(٢) من كلام الشيخ عبد الرحمن الخالق المطبوع على ظهر غلاف كتابه (لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية).

ثم توجه إلى الطرق والأعمال التي كانت تُعدّ من الأمور الدينية منذ قرون، وكان الناس قد استخرجوا أدلة لجوازها بل لاستحبابها وكان العلماء يداهنون فيها، فوجدها ابن تيمية مضادة للإسلام ومعاكسة له فشدّد في مخالفتها.

ولكن هذا الفكر الحر والصراحة في القول أوغرت عليه صدوراً بقيت ولا تزال تعاديه، وتحقد عليه إلى الآن.

فأما الذين عاصروه فرفَعُوا أمره إلى المحاكم وجعلوه يبعث إلى السجن مراراً، وأما الذين جاؤا بعد زمانه، فشفوا حقدهم بتكفيره وتضليله.

ولكن نداءه لاتباع الإسلام الخالص المحض كان نفخة صور أحدثت في العالم حركة دائمة لا نزال نسمع صداها في أقطار الإسلام بين حين وآخر»[1].

قال مالك بن نبي:

«إن تراث ابن تيمية يكوِّن الترسانة الفكرية التي لا زالت تمدّ الحركات الإصلاحية بالأفكار النموذجية إلى اليوم»[2].

بعض مميزات شيخ الإسلام:

* تعتبر كتاباته القيمة، وآثاره الخالدة في جميع المجالات الإسلامية نادرة من نوادر تاريخ التأليف والنشر.

---

(١) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه للمودودي (ص ٧٨ ــ ٧٩) ط. مؤسسة الرسالة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

(٢) من كلام مالك بن نبي ــ راجع لمحات من حياة شيخ الإسلام (ص ٥١).

* وتعد وقفاته الصامدة ضد المشعوذين الدجاجلة وضد التتار أنموذجاً رائعاً في تاريخ الدفاع عن حياض الإسلام.

* وتثمر جهوده في الدعوة إلى العمل بالكتاب والسنّة وتؤتي أكلها حتى الآن.

* وتؤدي أفكاره الصائبة دوراً رائداً في إيضاح صورة الإسلام الرائعة التي حجبتها ظلمات البدع والخرافات.

* وتنعش خطوطه العريضة في الدعوة والإرشاد، الحركات الإصلاحية المعاصرة إلى يومنا هذا.

* وترى بصماته واضحة على معالم الدعوة إلى الله في كل عصر.

* ويسمع دوي صوته الندي في كل مجال من مجالات التجديد والإصلاح رغم مشاغبات أهل البدع والأهواء، وباعة القبور وأكلة أموال الناس بالباطل، ضده ـ رحمه الله ـ.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [سورة الجمعة: ٤].

* كان شيخ الإسلام ابن تيمية في العلم والعمل والزهد والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصراحة القول، والصدع بالحق في وجه الباطل ـ رجلاً في القرن الثامن، على طراز رجالات القرون المشهود لها بالخير، بل كان في عصره.

«أشبه رجل بنبيّ في «دنيا الرجال»[(١)].

---

(١) من كلام الشيخ أبي بكر جابر الجزائري، راجع «المحات» (ص ٥١).

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الشورى: ٣٢].

كُلّ مُيسَّر لما خلق له:

إن الحركات الإصلاحية المعاصرة تختلف في الاستفادة من تراثه كمّاً وكيفاً، باختلاف مداركها ومواهبها وأصولها وأهدافها، ولكنها تعتبر شيخ الإسلام باعث النهضة الحديثة، ورائد الإصلاح الديني، وأستاذ الفكر الإسلامي، ومنعش الحركات المعاصرة، ومحرك المشاعر الحركية في العصر الحاضر.

والحق الذي لا يختلف فيه أصحاب العقول الراجحة من أهل السنّة أن الحركة التي تغترف من منهل تراثه الصافي تحظى بحظ وافر من النقاء والصفاء والطراوة والأصالة، وكلما تبتعد منه تزداد كدراً وتلوثاً.

وإذا تركته رغبة عنه فافهم أن في نصيبها الكثير من المتعفن الآسن.

وليس يصح في الأذهان شيء   إذ احتاج النهار إلى دليل

نصيحة وتذكير:

وإذا كانت دعوة شيخ الإسلام أقرب تعبير عن الإسلام باعتراف قادة الحركات الإصلاحية المعاصرة ــ فماذا هذا الابتعاد عنها في العقائد والأحكام؟

وإذا كان منهجه واضحاً في الدعوة إلى التوحيد الخالص، والقضاء على مظاهر الشرك والوثنية، والرد على أهل البدع والأهواء، وفي القيام

بالجهاد بالسيف والسنان لتكون كلمة الله هي العليا، وفي تنفيذ شرع الله في السياسة والحكم والمعيشة والاقتصاد على السواء ــ فلماذا هذا التبعيض في قبولها؟

ولماذا هذا التغاضي عن بعض أجزائها المهمة التي لا غنى عنها في حياة المسلم؟

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [سورة البقرة: ٨٥]، لا مجال للهوى في اتباع دين الله بتاتاً.

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [سورة البقرة: ١٤٥].

في خضم هذه التناقضات الواقعة في صفوف الحركات وأصحابها، تستصرخ دعوة شيخ الإسلام في وجه من يعترف بفضلها، ويتقاعس عن العمل بمقتضاها لسبب أو آخر، قائلة:

دعاني وسَدّ الباب عني فهل إلى ... دخولي سبيل بيّنوا لي قضيتي

نداء إلى علماء الأمة:

إن اعتراف قادة الجماعات المعاصرة المعتبرة بفضل دعوة شيخ الإسلام على الأمة، ودورها الكبير في إنعاش الحركات الإسلامية المعاصرة، ثم عدم اقتباسهم من نورها ــ كما ينبغي ــ مع شدة الحاجة إليه في ظلام البدع والتقاليد، يجعل المؤرخ يسجل عليهم تناقضاً عجيباً في تاريخ الدعوات، ويضطر الباحث عن الحق أن يشك في نواياهم، ويحث الشباب النابه الذكي على مراجعة حساباته معهم.

إن النصح لشباب الصحوة الإسلامية المعاصرة في هذه الفترة الدقيقة من الزمن يحتّم على علماء الأمة المخلصين الذين لهم كلمة مسموعة في

أنحاء العالم الإسلامي أن ينبّهوهم من الاغترار بلوامع الأسماء والألقاب ويأخذوا بأيديهم إلى طريق الحق والصواب، ويتركوهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك ــ لأنهم آمال الغد، وقادة المستقبل، فهم أمانة في أعناق الدعاة.

فليستشعروا بثقل المسؤولية عند الله يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الأعراف: ٨٩].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحشر: ١٠].

«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الزمر: ٤٦] اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك».

وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

الكويت: ١٠/ ١٢/ ١٤٠٨هـ ــ ٢٤/ ٧/ ١٩٨٨م

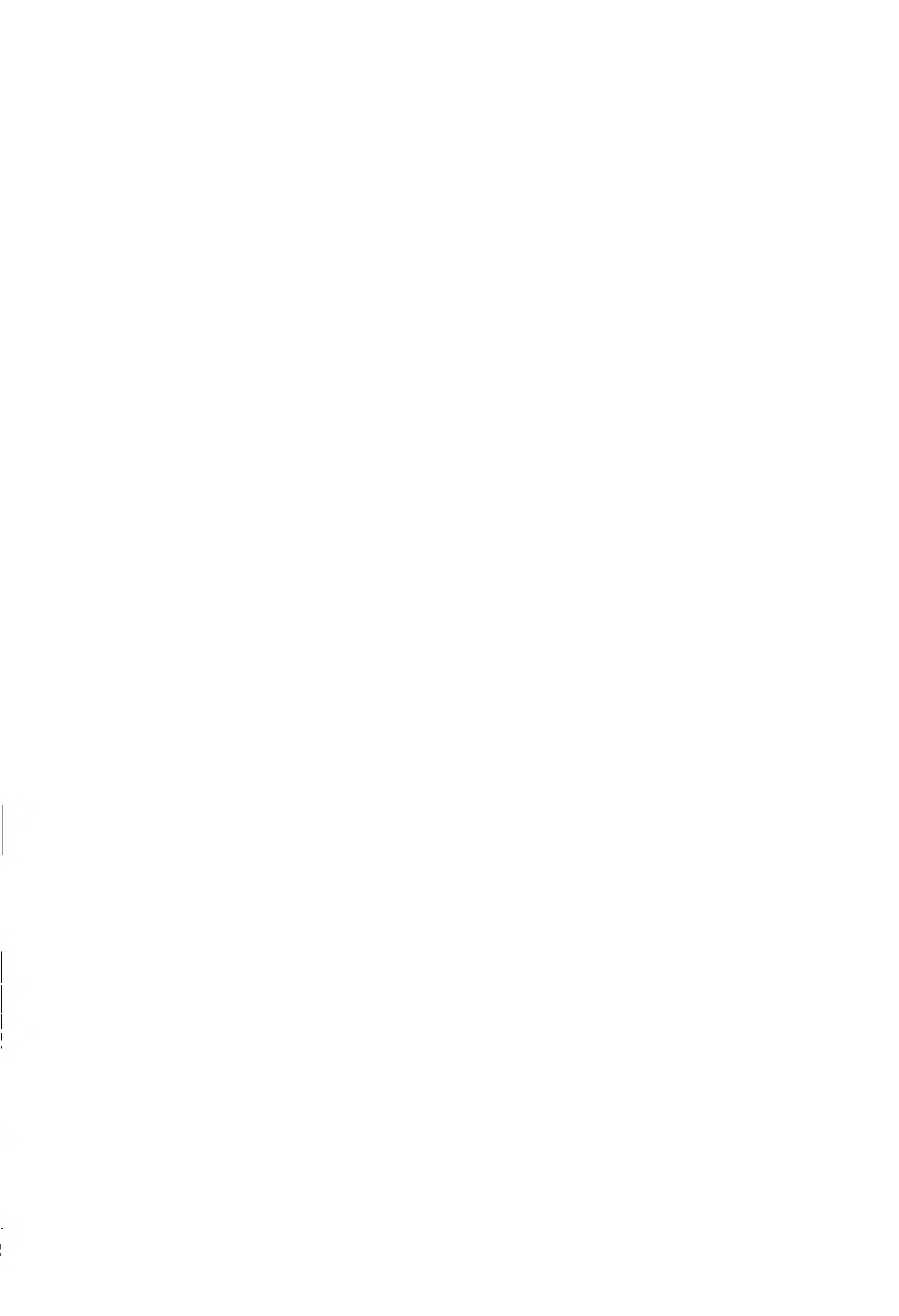
يوم الأحد ــ عيد الأضحى المبارك

الراجي إلى عفو الله الصمد

صلاح الدين مقبول أحمد

غفر الله له ولوالديه وإخوانه ومشايخه

الفهارس



(١)

فهـرس الآيـات

(على ترتيب السور في القرآن الكريم)

• • •

(٢)

فهـرس الأحـاديث

طرف الحديث	الصفحة

• • •

(٣)

فهرس الفرق والجماعات والحركات والجامعات والمراكز

• • •

(٤)

فهرس البلاد والمدن والبقاع

• • •

(٥)

فهـرس الأعـلام

(أ)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)

● ● ●

(٦)
ثبت المصادر والمراجع

(أ)

* أبجد العلوم: للنواب صديق حسن خان البوفالي. دار الكتب العلمية، بيروت.

* ابن تيمية حياته وعصره وآراؤه الفقهية: لمحمد أبو زهرة. دار الفكر العربـي.

* ابن تيمية السلفي: للأستاذ محمد خليل هراس. طبعة اليوسفية ١٩٥٢م.

* ابن تيمية وفكره السياسي: للدكتور قمر الدين خان. طبعة الفلاح بالكويت ١٩٨٥م.

* ابن قيم الجوزية: حياته وآثاره: للدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد. طبعة الرياض.

* ابن قيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف: للدكتور عبد الله جار النبـي. مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ١٤٠٦هـ.

* أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته للأستاذ أسعد الجيلاني. طبعة المنصورة بلاهور، ١٩٨٣م.

* الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: للأستاذ محمد محمد حسين.

* أحكام الشريعة: الأحمد رضا البريلوي. طبعة كراتشي.

* إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد: للأمير الصنعاني. تحقيق صلاح الدين مقبول أحمد. الدار السلفية بالكويت. ١٩٨٥م.

* الاستقامة: لشيخ الإسلام ابن تيمية. ط. ثانية.

* الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية: لأبـي الأعلى المودودي.
* الأصول العلمية للدعوة السلفية: للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق. ط. السلفية بالكويت.
* الاعتبار ببقاء الجنة والنار: لتقي الدين السبكي.
* إعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن القيم. طبعة دار الجيل بيروت.
* الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ: لأبـي عبد الرحمن السخاوي. روزنثال.
* إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لابن القيم. دار المعرفة بيروت.
* الإكليل في المتشابه والتأويل: لشيخ الإسلام ابن تيمية.
* الإمام أبو الأعلى المودودي: للأستاذ خليل الحامدي. مكتبة الرشد بالرياض ١٤٠٣هـ.
* الانتقاء: لابن عبد البر. طبعة القدسي.
* أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: للأستاذ محمد بن إبراهيم الشيباني، مكتبة ابن تيمية الكويت ١٩٨٩م.
* أهل السنة والجماعة، معالم الانطلاقة الكبرى محمد عبد الهادي المصري. طبعة دار طيبة الرياض ١٤٠٨هـ.

(ب)

* البداية والنهاية: لابن كثير.
* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: للشوكاني. مطبعة السعادة ط. أولى — ١٣٤٨هـ.
* براءة أهل السنة من الوقيعة في علماء الأمة: للدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد. ط. ثانية. في الرياض ١٤٠٨هـ.
* البريلوية عقائد وتاريخ للشيخ إحسان إلهي ظهير. طبعة المدينة المنورة.

(ت)

* تأريخ الأستاذ الإمام: للسيد رشيد رضا. مطبعة المنار بمصر ١٣٥٠هـ.

* تأريخ أهل الحديث في شبه القارّة الهندية: لصلاح الدين مقبول أحمد (غير مطبوع).

* تأنيب الخطيب: لمحمد زاهد الكوثري.

* تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبـي الحسن: لابن عساكر. دار الكتاب العربـي. بيروت.

* التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار: لابن شيخ الحزاميين بتحقيق الفريوائي. طبعة الجامعة السلفية الهند ١٤٠٨هـ.

* تربيتنا الروحية: لسعيد حوى. ط. أولى. دار الكتب العلمية بدمشق.

* تفسير ابن كثير. دار المعرفة بيروت ١٣٨٨هـ.

* تصحيح خطأ تأريخي حول الوهابية: للدكتور محمد بن سعد الشويعر، مكتبة المعارف بالرياض ١٩٩٣م.

* التفسير السياسي للإسلام: للأستاذ أبـي الحسن الندوي. طبعة: ندوة العلماء بالهند ١٣٩٩هـ.

* تفهيمات: للأستاذ المودودي. الطبعة الرابعة عشرة ١٩٨٢م.

* التقريب لفقه ابن قيم الجوزية للأستاذ بكر بن عبد الله أبو زيد. طبعة الرياض.

* تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الضعيفة والموضوعة: لابن عراق الكناني.

* تنقيد المسائل: للشيخ محمد الغوندلوي. طبعة غوجرانواله. باكستان.

* التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل: للعلامة عبد الرحمن بن يحيـى المعلمي اليماني. تحقيق الألباني. طبعة أولى.

* التوضيح الجلي في الرد على النصيحة الذهبية: للأستاذ محمد بن إبراهيم الشيباني مركز المخطوطات والتراث والوثائق بالكويت ١٩٩٣م.

* التوفيق الرباني: المؤلف مجهول = كمال أبو المنى.

(ج)

* جامع الترمذي: طبعة أحمد شاكر.

* جلاء العينين في محاكمة الأحمدين: للسيد نعمان الآلوسي. مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٨١هـ.

* الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة: لسليم الهلالي وزياد الدبيج. ط ثانية ١٤٠١هـ.

* جماعة التبليغ: للأستاذ محمد أسلم. (مطبوع على الآلة الكاتبة).

* جولات في الفقهين الأكبر والأصغر: لسعيد حوى. طبعة أولى. دار الأرقم عمان.

* جهود مخصلة في خدمة السنة المطهرة: للدكتور عبد الرحمن الفريوائي. طبعة الجامعة السلفية، الهند.

(ح)

* حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: تحقيق الدكتور السيد الجميلي. دار الكتاب العربي. طبعة ثانية. ١٤٠٦هـ.

* حجة الله البالغة: للشاه ولي الله الدهلوي. دار التراث بالقاهرة.

* حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي الله الدهلوي: للشيخ محمد إسماعيل السلفي. نقله إلى العربية الدكتور مقتدى حسن الأزهري. الطبعة الأولى بالجامعة السلفية بالهند.

* حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي: للدكتور محمد بن عبد الله السلمان (مجلة البحوث الإسلامية) بالرياض. العدد الحادي والعشرون ١٤٠٨هـ.

* حياة شيخ الإسلام ابن تيمية: للشيخ محمد بهجة البيطار. المكتب الإسلامي. ط. ثالثة. ١٤٠٧هـ.

(خ)

* الخلافة والملك: للأستاذ المودودي. طبعة دار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ.

* الخلافة والملك في ميزان الشرع والتأريخ للشيخ صلاح الدين يوسف (الأردية) المكتبة النعمانية بلاهور ١٩٨٥م.

(د)

* درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم. طبعة جامعة الإمام، الرياض ١٣٩٩هـ.

* دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين: للأستاذ محمد الغزالي. ط. ثانية دار القلم بالكويت ١٤٠٣هـ.

* دعاة لا قضاة: للأستاذ حسن الهضيبي. دار الطبعة والنشر الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٧م.

* دعوة الإخوان المسلمين في ميزان الإسلام: للأستاذ فريد بن أحمد آل الثبيت. دار المنار ١٤١٤هـ.

* «دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب سلفية لا وهابية»: للشيخ أحمد بن عبد العزيز الحصين. ط. أولى ١٩٩٤م.

* دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام: للأستاذ مصطفى فوزي غزال. طبعة الرياض ١٤٠٣هـ.

* دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية (مقدمة الجليند). دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ.

(ذ)

* ذيل على طبقات الحنابلة: لابن رجب الحنبلي.

(ر)

* الرد على الإخنائي: لشيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق العلامة عبد الرحمن المعلمي. طبعة دار الإفتاء بالرياض ١٤٠٤هـ.

* الرد على البكري: لشيخ الإسلام ابن تيمية. المطبعة السلفية ١٣٤٦هـ.

* الردّ الوافر: لابن ناصر الدمشقي. تحقيق زهير الشاويش. المكتب الإسلامي ١٣٩٣هـ.

* الرسالة التدمرية: لشيخ الإسلام ابن تيمية.

* الرسائل السبكية في الرد على ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية. (مع مقدمة كمال أبو المنى) طبعة عالم الكتب بيروت ١٤٠٣هـ.

* رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: للشيخ محمد بن عبد الله السلمان. مكتبة المعلا، الكويت ١٩٨٨م.

* رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار: للأمير الصنعاني. المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

(ز)

* زاد المعاد: لابن القيم الجوزية.

* زغل العلم والطلب: للذهبي. تحقيق محمد بن ناصر العجمي. مكتبة الصحوة بالكويت.

* زعماء الإصلاح في العصر الحديث: للدكتور أحمد أمين. ط. رابعة. النهضة المصرية. ١٩٧٩م.

* زوابع في وجه السنة قديماً وحديثاً: لصلاح الدين مقبول أحمد. طبعة مجمع البحوث العلمية الإسلامية بدلهي ١٩٩١م.

(س)

* سلسلة الأحاديث الصحيحة: للمحدث الألباني. المكتب الإسلامي بيروت.

* السلفية في المجتمعات المعاصرة: طبعة دار آفاق الغد بمصر.

* سنن ابن ماجه: طبعة فؤاد عبد الباقي.

* سنن أبي داود: طبعة حمص.

* السنة المفترى عليها: للأستاذ سالم البهنساوي. دار البحوث. ط. ثانية ١٤٠١هـ.
* السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: للدكتور مصطفى السباعي. ط. ثانية المكتب الإسلامي ١٩٧٨م.
* السنة والشيعة: لمحمد رشيد رضا. طبعة الجامعة السلفية ــ الهند.
* سير أعلام النبلاء: للإمام الذهبي. مؤسسة الرسالة.

(ش)

* شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي. طبعة دار الآفاق الجديدة. بيروت.
* شرح الأصول العشرين: للأستاذ حسن البنا.
* شرح العقيدة الطحاوية: تحقيق العلامة الألباني. المكتب الإسلامي. ط. رابعة ١٣٩١هـ.
* شرف أصحاب الحديث: للإمام الخطيب البغدادي. طبعة أوغلي.
* الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية: للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي. ط. أولى. دار الفرقان عمان. ١٤٠٤هـ.
* الشيخ محمد بن عبد الوهاب: للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي. طبعة السلفية بالكويت ١٩٨٣م.

(ص)

* الصارم المنكي في الردّ على السبكي: للعلامة ابن عبد الهادي. طبعة دار الإفتاء بالرياض ١٤٠٣هـ.
* صحيح البخاري مع فتح الباري: طبعة السلفية بالقاهرة.
* صحيح مسلم: طبعة محمد فؤاد عبد الباقي.
* الصفدية: لشيخ الإسلام ابن تيمية. طبعة الدكتور محمد رشاد سالم.

(ض)

* الضوء اللامع: للسخاوي.

(ط)

* طبقات الشافعية: لتاج الدين السبكي. طبعة الحلو والطناحي. دار إحياء الكتب العربية.

* الطريق إلى الجماعة الأم: للأستاذ عثمان عبد السلام نوح. دار المنار، ط. ثانية ١٩٩٢م.

* الطريق إلى جماعة المسلمين: للأستاذ حسين بن محسن بن علي جابر. ط. ثانية. دار الدعوة بالكويت ١٤٠٦هـ.

* طلب العلم وطبقات المتعلمين: للشوكاني. دار الكتب العلمية بيروت.

* طليعة التنكيل: للعلامة عبد الرحمن المعلمي. (مطبوع مع التنكيل).

(ع)

* العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية: لابن عبد الهادي.

* العقيدة الواسطية: لشيخ الإسلام ابن تيمية. (مطبوع ضمن فتاواه).

(ف)

* فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: طبعة الرياض.

* فتح الباري شرح صحيح البخاري: للحافظ ابن حجر. طبعة السلفية.

* فرقان القرآن: للعزامي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

* فقه السنة: للسيد سابق.

* الفكر التربوي عند ابن تيمية: للدكتور ماجد عرسان الكيلاني. طبعة عمان.

* الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: للدكتور محمد البهي. مكتبة وهبة. الطبعة العاشرة.

* فهرس الفهارس: للشيخ عبد الحي الكتاني. تحقيق إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤٠٢هـ.

* فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي. تحقيق إحسان عباس. دار صادر بيروت.

* فيض الباري شرح صحيح البخاري: للشيخ محمد أنور شاه الكشميري.

(ق)

* القاديانية في مرآتها (بالأردية): للشيخ صفي الرحمن الأعظمي. مطبعة الجامعة السلفية. الهند ١٤٠١هـ.

* قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: لشيخ الإسلام ابن تيمية.

* قاعدة في الجرح والتعديل: لتاج الدين السبكي. طبعة عبد الفتاح أبو غدّة.

* قواعد في علوم الحديث: للتهانوي. طبعة عبد الفتاح أبو غدّة.

(ل)

* لسان الميزان: للحافظ ابن حجر العسقلاني. طبعة الهند ١٣٣٠هـ.

* اللمحات إلى ما في أنوار الباري من الظلمات: للأستاذ محمد رئيس الندوي. طبعة الجامعة السلفية بالهند.

* لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية: للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق. طبعة. جمعية إحياء التراث بالكويت.

(م)

* مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: الطبعة الأولى بالرياض.

* مجموعة رسائل حسن البنا.

* مجموعة الرسائل والمسائل: للأستاذ المودودي.

* المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين: لسعيد حوى.

* مذكرات الدعوة والداعية: للأستاذ حسن البنا.

* مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: لصفي الدين البغدادي. دار المعرفة بيروت.

* مسائل الجاهلية: للإمام ابن عبد الوهاب مع شرح الآلوسي. طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

* مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة: للدكتور ناصر بن عبد القفاري. دار طيبة بالرياض. ط. ثانية ١٤١٣هـ.

* المسلمون والصراع السياسي في العصر الحاضر: للمودودي.

* مسند الإمام أحمد. تصوير طبعة الهند.

* المصطلحات الأربعة في القرآن: للأستاذ المودودي. طبعة دار القلم بالكويت ١٣٨٩هـ.

* مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ: للشيخ ربيع بن هادي المدخلي. مكتبة الغرباء الأثرية بالمدينة ١٩٩٣م.

* مفتاح السنة: للخولي. المطبعة دار الكتب العلمية. بيروت.

* مفهوم تجديد الدين: للأستاذ بسطامي محمد سعيد. دار الدعوة الكويت ١٩٨٤م.

* المقابلة بين الهدى والضلال: للشيخ عبد الرزاق حمزة. مكتبة العلوم. ١٩٧٣م.

* مقدمة أنوار الباري على شرح البخاري (بالأردية): لأحمد رضا البجنوري.

* مقدمة الرسائل السبكية: لكمال أبو المنى. طبعة عالم الكتب، ١٤٠٣هـ.

* مكانة أهل الحديث ومآثرهم وآثارهم الحميدة في الدين: للدكتور ربيع بن هادي المدخلي. طبعة البحرين.

* المنار المنيف في الصحيح والضعيف: لابن القيم. طبعة أبو غدّة.

* منهاج السنة النبوية: لشيخ الإسلام ابن تيمية. طبعة الأميرية. وأيضاً طبعة محمد رشاد سالم. ١٤٠٦هـ. بالرياض.

* منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، فيه الحكمة والعقل: للدكتور ربيع بن هادي المدخلي. طبعة السلفية بالكويت ١٤٠٦هـ.

* منهج البناء في العقيدة: سلفيته ومنهجيته ودفع الشبهات عنه: للأستاذ عصام أحمد البشير، دار النذير بالخرطوم ١٩٩٠م.

* موجز تأريخ تجديد الدين وإحيائه: للمودودي. ط. مؤسسة الرسالة. ١٣٩٥هـ.

* الموطأ للإمام مالك. طبعة محمد فؤاد عبد الباقي.

* الموضوعات: لابن الجوزي. طبعة السلفية بالمدينة الطيبة.

* موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي: للعلامة محمد إسماعيل السلفي. تعريف: صلاح الدين مقبول أحمد. طبعة السلفية بالكويت.

* مؤلفات سعيد حوى: دراسة وتقويم: للأستاذ سليم الهلالي. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

* المهنّد على المفنّد: للشيخ خليل أحمد السهارنفوري (الأردية). «إدارة إسلاميات» بلاهور ١٩٨٤م.

* ميزان الاعتدال في نقد الرجال: للذهبي. تحقيق البجاوي. طبعة دار المعرفة بيروت.

(ن)

* نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر: للسيد عبد الحي الحسني.

* نقد مراتب الإجماع: لشيخ الإسلام ابن تيمية.

* نموذج من الأعمال الخيرية: للدمشقي. طبعة: إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

* النونية: لابن القيم. دار المعرفة بيروت.

(هـ)

* هكذا علمني الإخوان المسلمون: للأستاذ عمر التلمساني.

(و)

* الوابل الصيب من الكلم الطيب: لابن القيم. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤٠٢هـ.

* واقعنا المعاصر: للأستاذ محمد قطب. مؤسسة المدينة. جدّة. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

* وقفات مع كتاب الدعاة فقط: للأستاذ محمد سيف العجمي.

(٧)

محتويـات الكتـاب

الموضـوع	الصفحة

المقدّمات

(٧ ـ ٧١)

الباب الأول

الخطوط العريضة لحياة

شيخ الإسلام ابن تيمية ودعوته المباركة

(٧٥ ـ ١٢٠)

الموضوع	الصفحة

ابتلاءات شيخ الإسلام
(٩٣ ـ ١٠٦)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

الحركات المتراوحة بين المعارضة والتأييد

(١٨٩ ـ ٣٤١)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع

الاتجاهات المناهضة لدعوة شيخ الإسلام

(٣٤٥ ـ ٦٢٣)

(ردّ على «التوفيق الرباني»

و «الرسائل السبكية» و «الكلابية» و «النصيحة الذهبية»)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
دائرة النكاح	٤٥٤
ـ الطلاق الثلاث أحد سببي ترفض «خدا بنده» المغولي	٤٥٨
ـ الإشقاق على حكم الطلاق للكوثري	٢٦٢
ـ كذب مفضوح في كتاب مطبوع	٤٦٣
ـ قصيدة «المطلقة» في الانتصار لمذهب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم	٤٦٨
ـ رجوع المحاكم المصرية إلى الطلاق الشرعي	٤٧٠
*** النصيحة الذهبية (٤٧٧ ـ ٥٠٨)**	٤٧٧
ـ أسلوب آخر للتشوية	٤٧٧
ـ نصّ «النصيحة الذهبية»	٤٨٠
ـ تصريح بوضع هذه النصيحة	٤٩٣
ـ ثناء الإمام الذهبي على شيخ الإسلام	٤٩٦
ـ حبّ الرئاسة باب هلاك الناس في الناس	٤٩٩
ـ أصحاب لوامع الأسماء والألقاب من معاصري شيخ الإسلام	٥٠٢
*** العالم العربي الحديث (٥١١ ـ ٥٨٢)**	٥١١
ـ توارث الأحقاد	٥١٣
ـ أساليب لتشويه تراث السلف	٥١٨
ـ نماذج للحقد المتوارث في العصر الحديث	٥١٩
ـ مخلوق يتأجّج حقداً	٥٢٠
ـ عدوان الكوثري على الأئمة الأعلام	٥٢٤

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس

شيخ الإسلام في كتابات كبار العلماء

(٦٢٧ ـ ٦٣٩)

الخاتمة

(٦٤٣ ـ ٦٦٦)

الموضوع	الصفحة

• • •

كتب للمؤلف

❑ التحقيقات:

* مسألة العلو والنزول لابن طاهر، مكتبة ابن تيمية بالكويت.
* مختصر المؤمل في الردّ إلى الأمر الأوّل، لابن شامة، مكتبة الصحوة.
* إرشاد النقّاد للأمير الصنعاني، الدار السلفية.
* تحفة الأنام لمحمد حياة السندي مكتبة المعلا.
* المتوارى لابن المنيّر الإسنكدراني مكتبة المعلا.
* الإمتاع بالأربعين، لابن حجر العسقلاني، الدار السلفية.
* الزهر النضر في الحال الخضر، له أيضاً. مجمع البحوث الإسلامية نيودلهي.
* الحمية الإسلامية للسرّ مرّى وقصيدة اليافعي في الدفاع عن شيخ الإسلام ــ نيودلهي.
* نقص «قواعد علوم الحديث» للراشدي.

❑ التعريبات:

* موقف الجماعة الإسلامية من الحديث لمحمد إسماعيل السلفي الدار السلفية بالكويت.
* نظرة في مذهب أهل الحديث لأبـي القاسم البنارسي (لم يطبع).

❑ التأليفات:

* دعوة شيخ الإسلام وأثرها في الحركات المعاصرة (الطبعة الثانية) دار ابن الأثير بالكويت.
* زوابع في وجه السنّة قديماً وحديثاً (الطبعة الثانية) دار ابن الأثير بالكويت.
* تأريخ أهل الحديث في شبه القارّة الهندية (لم يطبع).
* الدفاع عن الحديث وردّ شبهات المستشرقين (لم يطبع).
* عوامل وحدة الأمة الإسلامية (لم يطبع).
* مدارسنا مهدّدة من داخلها (لم يطبع).

• • •